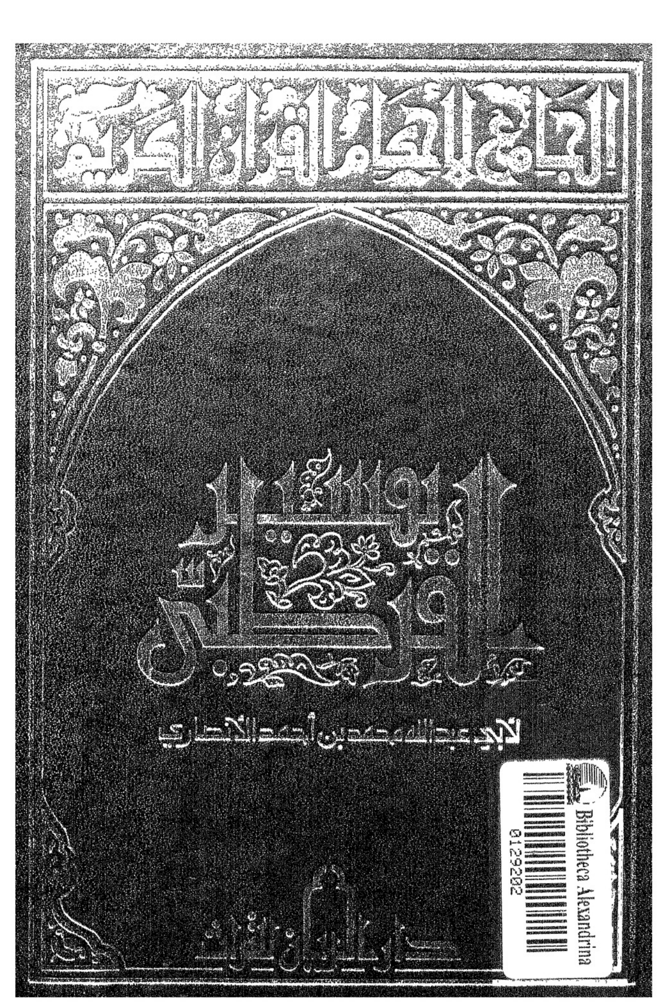

الجامع لأحكام القرآن الكريم
الجزء الأول
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
دار الريان للتراث


تفسير القرطبي

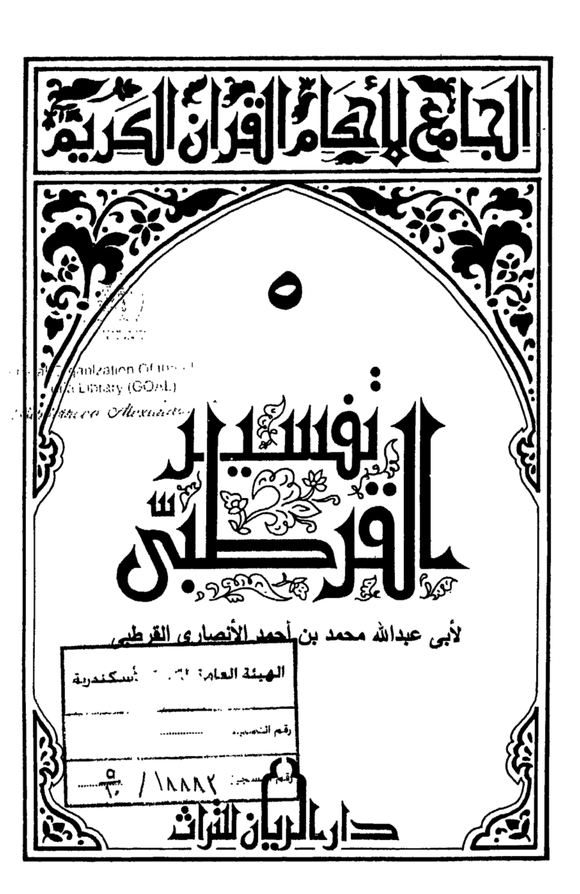
طبعة خاصة

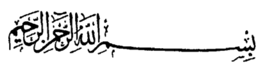
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٠٩٩

● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١


الجامع لأحكام القرآن الكريم
٥
تفسير القرطبي
لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
دار الريان للتراث



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

مدنيّة بدريّة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا »(1) إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (1)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ روى عُبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقوا العدوّ ؛ فلما هزمهم الله أتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم، واستولت طائفة على العسكر والنهب ؛ فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النَّفَل، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأحقّ به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدوُّ منه غِرّة. وقال الذين استَلْوَوا [على] العسكر والنهب : ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْناه واستَوْلَيْنا عليه ؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فُوَاقٍ بينهم . قال أبو عمر : قال أهل العلم بلسان العرب : استَلْوَوا أطافوا وأحاطوا ؛ يقال : الموت مُسْتَلْوٍ على العباد . وقوله « فقسمه عن فُواق » يعنى عن سرعة . قالوا : والفُوَاق ما بين حَلْبَتَى الناقة . يقال : انتظره فُوَاقَ ناقة، أى هذا

(1) آية ٣٠

المقدار . و يقولونها بالضم والفتح : فُواق وفَواق . وكان هذا قبل أن ينزل : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الآية . وكأن المعنى عند العلماء : أى إلى الله و إلى الرسول الحكم فيها والعملُ بها بما يقرب من الله تعالى . وذكر محمد ابن إسحاق قال : حدّثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشْدق عن مكحول عن أبى أُمامة الباهلِيّ قال : سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء . يقول : على السَّوَاء . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن . وروى الصحيح عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أغنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذتُه فأتيت به النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نفِّلْنى هذا السيف، فأنا من قد علمتَ حاله . قال : "ردّه من حيث أخذتَه" فانطلقت حتى أردت أن أُلقيَه فى القَبَض(١) لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال : فشدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن أُلقيَه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه، قال : فشدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته" فأنزل الله « يسئلونك عن الأنفال » . لفظ مسلم . والروايات كثيرة . وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية .

الثانيــة — الأنفال واحدها نَفَل بتحريك الفاء، قال(٢) :

إنّ تَقْوَى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ * وبإذن الله رَيْثِي والعَجَلْ

أى خير غنيمة . والنَّفْل : اليمين؛ ومنه الحديث " فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم ". والنَّفْل الانتفاء؛ ومنه الحديث " فانتفل من ولدها " . والنَّفَل : نبت معروف . والنَّفْل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الوَلد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة؛ لأنها

(١) القبض (بالتحريك) بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .
(٢) القائل هو لبيد؛ كما فى اللسان (مادة نفل) .

زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : " فُضِّلت على الأنبياء بست — وفيها — وأحلّت لِيَ الغنائم ". والأنفال : الغنائم نفسها . قال عنترة :

إنّا إذا آحمر الوَغَى نُروى القنا * ونَعِفّ عنـد مقاسم الأنفال

أى الغنائم .

الثالثة — وآختلف العلماء فى محل الأنفال على أربعة أقوال : الأول — محلها فيما شذ عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثانى — محلها الخمس . الثالث — خمس الخمس . الرابع — رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس فى الأربعة الأخماس نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيَّنون وهم المُوجِفون، والخمس مردود قسمه إلى آجتهاد الإمام. وأهلُه غير معيَّنين . قال صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس . هذا هو المعروف من مذهبه . وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيِّب والشافعي وأبى حنيفة . وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة قِبَل نَجْد فغَنِموا إبلا كثيرة ، وكانت سُهْمانهم آثنَىْ عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا ؛ ونُفِّلُوا بعيراً بعيراً . هكذا رواه مالك على الشك فى رواية يحيى عنه، وتابعه على ذلك جماعةُ رواة الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه : فكانت سُهْمانهم اثنى عشر بعيرا، ونُفِّلُوا بعيرا بعيرا . ولم يشُك . وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبى حمزة عن نافع عن آبن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جيش قبل نجد — فى رواية الوليد : أربعة آلاف — وآنبعثت سرية من الجيش — فى رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها — فكان سهمان الجيش آثنى عشر بعيرا، اثنى عشر بعيرا؛ ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا؛ ذكره أبو داود . فآحتج بهذا من

يقول : إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نُزِّلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلا أصابوا فى غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بعيرا، اثنا عشر بعيرا، ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة . فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزْيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال: جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض . ومما يَعضُد هذا ما روى مسلم فى بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلا وغنما؛ الحديث . وذكر محمد بن إسحاق فى هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القَسْم ، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعيّ : لا ينفّل بأكثر من الثلث ؛ وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعيّ : فإن زادهم فَلْيَفِ لهم ويجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعيّ : ليس فى النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة — ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السرية إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحُكْم لم يذكره فى الحديث غير شعيب عن نافع ، ولم يختلف العلماء فيه ، والحمد لله .

الخامسة — واختلف العلماء فى الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحِصْن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأس فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ؛ يُضرِّيهم(1) . فرُوِى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يجيزه . وقال الثَّوريّ : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا". الحديثَ بطوله .

(1) التضرية : الاغراء .

وفى رواية عكرمة عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فتسارع الشّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلما فُتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا رِدْءاً لكم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البَجَلى لما قدم عليه فى قومه وهو يريد الشأم : هل لك أن تأتى الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْى . وقال بهذا جماعة فقهاء الشأم : الأوزاعى ومكحول وابن حَيْوة وغيرهم . ورأوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنَّفَل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسَرِيّة : ما أخذتم فلكم ثلثه . قال سُحْنُون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولهم أنصباؤهم فى الباقى . وقال سحنون : إذا قال الإمام لسَرِيّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته ؛ لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضى .

السادسة ــ واستحب مالك رحمه الله ألا ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينفّل الإمام ذهبا أو فضة أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شىء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح ، أى كونوا مجتمعين على أمر الله فى الدعاء : اللّهمّ أصلح ذات البَيْن ، أى الحال التى يقع بها الاجتماع . فدلّ هذا على التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التّشاحّ ؛ كما هو منصوص فى الحديث . وتقدّم معنى التقوى [1] ، أى اتقوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الغنائم ونحوها . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا . وقيل : «إنْ» بمعنى « إذ » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجل : الخوف . وفي مستقبله أربع لغات : وَجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجَل ؛ حكاها سيبويه . والمصدر وَجِل وَجَلا وموجِلا ؛ بالفتح . وهذا مَوْجِله (بالكسر) للوضع والاسم . فمن قال : ياجَل في المستقبل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ »[1] . ومن قال : « يِيجَل » بكسر الياء فهي على لغة بني أسد ، فإنهم يقولون : أنا إيجَل ، ونحن نِيجَل ، وأنت تِيجَل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : « يَيْجَل » بناه على هذه اللغة ، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يَعلم ، ولم تكسر الياء في يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء . وكسرت في « يِيجَل » لتقوّى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر منه « إيجَلْ » صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وتقول : إنّي منه لأَوْجَل . ولا يقال في المؤنث : وَجْلاء ، ولكن وَجِلة . وروى سفيان عن السّدّي في قوله جل وعز : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله ، كفّ ووَجِل قلبه .

الثانيـة — وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم ، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »[2] . وقال : « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ »[3] . فهذا يرجع إلى كمال

(١) آية ٥٣ سورة الحجر . (٢) آية ٣٤ سورة الحج . (٣) آية ٢٨ سورة الرعد .

المعرفة وثقة القلب . والوَجَل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»(١). أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغَام(٢) من الزّعيق والزّئير ومن النُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(٣) . فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مُسْتَنًّا فليستَنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجُنُون فهو من أخسّهم حالا ؛ والجنون فنون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٤) فى المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : "سَلُونِى لا تسألونى عن شىء إلا بينته لكم ما دمتُ فى مقامى هذا" . فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٥) ورَهِبوا أن يكون بين [يَدَىْ](٦) أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه فى ثوبه يبكى . وذكر الحديث . وروى الترمذىّ وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنَّا(٧) ولا قُمنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر . (٢) الطغام والطغامة : أرذال الناس وأوغادهم .

(٣) آية ٨٣ سورة المائدة . (٤) أى أكثروا عليه . وأحفى فى السؤال وألحف بمعنى ألح .

(٥) أرم الرجل إرماما : إذا سكت فهو مرمّ . (٦) زيادة عن صحيح مسلم .

(٧) زفن (من باب ضرب) : رقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل ، كما يفعل الراقص .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى تصديقا . فإن إيمان هــذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس ؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »[1] . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقــدّم معنى التوكل فى « آل عمران »[2] أيضا . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدّم فى أوّل سورة « البقرة »[3] . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الذى آستوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم . ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة: "إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك"؟ الحديث. وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ــ إلى قوله ــ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فوالله ما أدرى أنا منهم أملا . وقال أبو بكر الواسطى : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وآطلاع وإحاطة ؛ فمن فقَــده بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيق من كان محكوما له بالجنــة ، فمن لم يعلم ذلك من سِرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ؛ أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أى مثل إخراجك ربّك من بيتك بالحق . والمعنى : امض لأمرك فى الغنائم ونَفِّل من شئت وإن كرهوا ؛ لأن بعض

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبقى أكثر الناس بغير شيء . فموضع الكاف فى « كما » نَصْبٌ كما ذكرنا . وقاله الفرّاء أيضا . قال أبو عبيدة : هو قَسَم ، أى والذى أخرجك ؛ فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى . وقال سعيد بن مَسْعَدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال : وقال بعض العلماء « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » فاتقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم . وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : « كما أخرجك » متعلّق بقوله « لهم درجات » المعنى : لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للمؤمنين حقٌّ فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ؛ فأنجزك وَعْدَك وأظفرك بعدوك وأوْفَى لك ؛ لأنه قال عز وجل : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . فكما أنجز هذا الوعد فى الدنيا كذا يُنجز ما وعدكم به فى الآخرة . وهذا قول حَسن ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى « كما » كافُ التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة ؛ كقول القائل لعبده : كما وجّهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقوّيتك وأزحت علّتك ، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا . وكما أحسنت إليك فاشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشّاكم النُّعاس أمَنَةً منه – يعنى به إياه ومن معه – وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت عِلَلكم ، وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المَقْتَل ؛ لتبلغوا مراد الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل . والله أعلم . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أى لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعالى : يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ مجادلتهم: قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أهبة شق ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة . ومعنى ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ أي في القتال . ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله . وقيل : بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بد من أهل مكة والظفر بهم . فمعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ كراهة للقاء القوم . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي يعلمون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(1) أي يعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ «إحدى» في موضع نصب مفعول ثان . «أنها لكم» في موضع نصب أيضا بدل من «إحدى» . ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أي تحبون . ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أي غير ذات الحد . والشوكة : السلاح . والشوك : النبت الذي له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أي حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكي السلاح . أي تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي أن يظهر الإسلام . والحق حق أبدا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي بوعده؛ فإنه وعد نبيه ذلك في سورة «الدخان» فقال: « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »(2) أي من أبي جهل وأصحابه . وقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »(3) . وقيل : « بكلماته » أي

(1) آخر سورة النبأ . (2) آية ١٦ (3) آية ٣٣ سورة التوبة .

بأمره ؛ إياكم أن تجاهدوهم . ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي يستأصلهم بالهلاك . ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويُعزّه . ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أي الكفر . وإبطاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »(١) . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة : طلب الغَوْث والنَّصر . غوّث الرجل قال : واغوثاه . والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث . واستغاثني فلان فأغثته ؛ والاسم الغياث ؛ عن الجوهري . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر(٢) رجلا ؛ فاستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مدّ يديه ، فجعل يهتف بربه : " اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم آتني ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " . فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبيّ الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » فأمدّه الله بالملائكة . وذكر الحديث . ﴿ مُرْدَفِينَ ﴾ بفتح الدال قراءة نافع . والباقون بالكسر اسم فاعل ، أي متتابعين ، تأتي فرقة بعد فرقة ، وذلك أهيب في العيون . و « مُرْدَفِين » بفتح الدال على ما لم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة ، أي أنزلوا إليهم لمعونتهم على

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء . (٢) الذي في صحيح مسلم : « ... تسعة عشر ... » .

الكفار . فمردَفين بفتح الدال نعت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « مُمِدُّكم » . أي ممدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أن رَدِفني وأردفني واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردف ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ »(1) ولم يقل المُرْدِفة . قال النحاس ومكّيّ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أولى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أي أردف بعضهم بعضا ، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم « مُرَدِّفين » بفتح الراء وشدّ الدال . وبعضهم « مُرِدِّفين » بكسر الراء . وبعضهم « مُرُدِّفين » بضم الراء . والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين . وضُمت الراء في الثالثة إتباعا لضمة الميم ؛ كما تقول : رُدُّ يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري « بآلُف » جمع ألف ؛ مثل فَلْس وأفلس . وعنهما أيضا « بألْف » . وقد مضى في « آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسيماهم وقتالهم(2) . وتقدّم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى »(3) . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ﴾ نبّه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة .

قوله تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ مفعولان . وهي قراءة أهل المدينة ، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وما النصر إلا من عند الله » .

(1) آية ٧ سورة النازعات . (2) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (3) جـ ٤ ص ١٩٨

ولأن بعده « ويُنَزِّلُ عليكم » فأضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغشاكم النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس . دليله « أَمَنَةً نُعاساً يَغشى »(١) في قراءة من قرأ بالياء أو بالتاء ؛ فأضاف الفعل الى النعاس أو إلى الأَمَنة . والأمنة هي النعاس ؛ فأخبر أن النعاس هو الذي يغشى القوم . وقرأ الباقون « يُغَشِّيكم » بفتح الغين وشد الشين . « النعاسَ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لغتان بمعنى غَشَّى وأغشى؛ قال الله تعالى : « فأغشيناهم »(٢) . وقال : « فغشّاها ما غَشَّى »(٣) . وقال : « كأنما أُغْشِيَتْ وُجوهُهم »(٤) . قال مكّي : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده « أَمَنَةً منه » والهاء في « منه » لله؛ فهو الذي يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أمنة من العدو . و ﴿ أَمَنَةً ﴾ مفعول من أجله أو مصدر ؛ يقال : أمِن أَمَنة وأمْنا وأمانا ؛ كلها سواء . والنعاس حالة الأمن الذي لا يخاف . وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم . وعن عليّ رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح ؛ ذكره البيهقي . الماوردي : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان : أحدهما — أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد . الثاني — أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمنُ مُنِيم ، والخوف مُسْهِر . وقيل : غشاهم في حال التقاء الصفين . وقد مضى مثل هذا في يوم أُحُد في « آل عمران »(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر . وقال ابن أبي نَجيح : كان المطر قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجِسَت نفوسهم وعَطِشوا وأجنبوا وصلّوا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم .
(٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

بذلك ، فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هـذه والمشركون على المـاء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ، فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر[١] وتلبدت السَّبَخة[٢] التى كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيـل : إن هذه الأحوال كانت قبـل وصولهم إلى بدر ، وهـو أصح ، وهو الذى ذكره ابن إسحـاق فى سيرته وغيره . وهـذا اختصاره : قال آبن عباس لمـا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال : " هـذه عير قريش فيها الأموال فآخرجوا إليهم لعـل الله يُنَفِّلَكُمُوها " قال : فآنبعث معه من خفّ ، وثقل قوم وكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوِى[٣] على من تعذّر ، ولا ينتظر من غاب ظَهْره ، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرى وأنصارى . فى البخارى عن البراء بن عازب قال : كان المهـاجرون يوم بدر نَيِّفا وثمـانين ، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرّج أيضا عنـه قال : كنا نتحـدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جاز معـه إلا مؤمن . وذكر البَيْهَقِىّ عن أبى أيوب الأنصارى قال : فخرجنا — يعنى إلى بدر — فلمـا سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعادّ ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فأخبرنا النبىَّ صلى الله عليه وسلم بعدّتنا ، فسُرّ بذلك وحمد الله وقال : " عدّة أصحاب طالوت " . قال آبن إسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَلْقَى حَرْبا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد آستنفر لكم الناس ، فحذر عنـد ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفارى وبعثـه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشا

---

(١) الظهر : الابل التى يحمل عليها ويركب . (٢) السبخة (محركة) : أرض ذات ملح ونز .

(٣) لوى عليه : عطف أو انتظر .

يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عَرَض لها فى أصحابه ؛ ففعل ضمضم . فخرج أهل مكة فى ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم ؛ فآستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن آذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سِرْت إلى بَرْك الغِماد — يعنى مدينة الحبشة — لجالدنا معك من دونه ؛ فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : " أشيروا علىّ أيها الناس " يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكان حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول ، إنا برآء من ذِمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِممنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ بغير بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّمه سعد بن معاذ — وقيل سعد بن عُبادة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا فى ذلك اليوم — فقال: يارسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجل " فقال : إنا قد آمنا بك وآتبعناك، فآمض لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " امضوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم " . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع قريشا من السبق إليه مطر عظيم انزله الله عليهم، ولم يصب منه المسلمين إلا ما شدّ لهم دَهْس الوادى وأعانهم على السير . والدَّهْس : الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأرجل . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب

ابن المنذر بن عمرو بن الجَمُوح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام: "بل هو الرأى والحرب والمكيدة". فقال : يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُعوِّر(١) ما وراءه من القُلُب(٢)، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه فنشرب ولا يشربوا . فآستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفعله . ثم التقوْا فنصر الله نبيَّه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم منهم للؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم . وفى ذلك يقول حسان :

عَرفتُ ديار زينب بالكثيب * كخطّ الوَحْيِ فى الوَرق القشيب(٣)
تَداوَلُها الرياح وكلُّ جَوْنٍ * من الوَسْمِيّ منهمرٍ سَكوبِ(٤)
فأمسى رَبْعُها خَلَقا وأمستْ * يَبَابًا بعد ساكنها الحبيب(٥)
فدَعْ عنك التذكُّرَ كلّ يوم * ورُدّ حرارة الصّدر الكئيب
وخَبِّرْ بالذى لا عَيْب فيه * بصدق غيرِ إخبارِ الكذوب
بما صنع الإله غداةَ بدرٍ * لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأنّ جَمْعهم حِراءٌ * بدت أركانه جُنْحَ الغروب
فلاقيناهُمُ منا بجَمْعٍ * كأُسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ
أمام محمد قد وازَرُوه * على الأعداء فى لَفْح الحروب
بأيديهم صوارمُ مُرْهفاتٌ * وكلّ مجرِّبٍ خاظِى الكُعوب(٦)

---

(١) عوّر عيون المياه : إذا دفنها وسدها . (٢) القلب : جمع قليب ، وهى البئر العادية القديمة التى لا يُعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى . (٣) الوحى : الكتابة . والقشيب : الجديد .
(٤) الجون : السحاب . والوسمى : المطر الذى يأتى فى الربيع . (٥) اليباب : الخراب .
(٧) الخاظى : الكثير اللحم .

بنو الأوس الغطارِفُ وازرتْها * بنو النجار فى الدِّين الصليب

فغادرْنا أبا جهل صريعا * وعتبةَ قد تركنا بالجَبُوب (٢)

وشيبةَ قد تركنا فى رجال * ذوى نَسَب إذا نُسِبوا حَسيب

يناديهم رسول الله لما * قذفناهم كَبَاكِبَ فى القليب (٣)

ألم تجدوا كلامى كان حقا * وأمرُ الله يأخذ بالقلوب

فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا * أصبتَ وكنتَ ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — قال مالك : بلغنى أن جبريل عليه السلام قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : "كيف أهل بدر فيكم" ؟ قال : "خيارنا" فقال : "إنهم كذلك فينا" . فدلّ هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات ، وإنما هو بالأفعال . فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم . ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لها ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ؛ لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانيــة — ودلّ خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلقى العير على جواز النَّفير للغنيمة لأنها كسب حلال . وهو يردّ ما كره مالك من ذلك ؛ إذ قال : ذلك قتال على الدنيا ، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة ، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدِّين فيه حظ . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ، ليس دونها شىء . فناداه العباس وهو فى الأسرى : لا يصلح هذا . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ولِمَ" ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم :

(١) الغطارف : جمع الغطريف ، وهو السيد الشريف السخى . (٢) الجبوب : وجه الأرض .

(٣) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة الكثيرة .

" صدقت ". وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك في أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم قام عليهم فناداهم فقال : "يا أبا جهل بنَ هشام يا أمية بنَ خلف يا عتبة بنَ ربيعة يا شيبةَ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا". فسمع عمر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنّى يجيبون وقد جَيَّفوا ؟ قال : "والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا" . ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا في القليب ، قليب بدر . « جَيَّفوا » بفتح الجيم والياء ، ومعناه أنتنوا فصاروا جِيَفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولةٌ بينهما، وتبدّلُ حالٍ وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الميت إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم " الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ الضمير في « به » عائد على الماء الذي شدّ دهس الوادي، كما تقدم. وقيل : هو عائد على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ العامل فى « إذ » « يثبت » أى يثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « لِيَرْبِطَ » أى وليربط إذ يوحى . وقد يكون التقدير : اذكر إذ يوحى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » فى موضع نصب ، والمعنى : بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهى عنده حرف . ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ؛ فكان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم . ويظن المسلمون أنه منهم ؛ وقد تقدم فى « آل عمران »[1] أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم . فكانوا يرون رءوسا تَنْدُر[2] عن الأعناق من غير ضارب يرونه . وسمع بعضهم قائلا يُسمع قوله ولا يُرى شخصه : أَقْدِم حَيْزُوم[3] . وقيل : كان هذا التثبيت ذِكْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين نزول الملائكة مددا .

قوله تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ تقدم فى « آل عمران » بيانه[4] . ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هذا أمر للملائكة . وقيل : للمؤمنين ، أى اضربوا الأعناق ، و « فوق » زائدة ؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق " . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن « فوق » تفيد معنًى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقال ابن عباس : كل هام وجُمْجُمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق ، وهو الرءوس ؛ قاله عكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شىء يؤثر فى الدماغ . وقد مضى شىء من هذا المعنى فى « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة ، عند قوله : « فوق اثنتين »[5] . ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء . والبنان مشتق من

(١) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) ندر : سقط .
(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

قولهم : أبن الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان فتى الهيجاء يحمى ذمارها * ويضرب عند الكرب كل بنان

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأن الموت طوع يدى إذا ما * وصلْتُ بنانها بالهندوانى

وهو كثير فى أشعار العرب، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها سُميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان ويبن (١) . وقال الضحاك : البنان كل مَفْصل .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على الابتداء، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . ﴿ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ أى أولياءه . والشّقاق : أن يصير كل واحد فى شق . وقد تقدّم (٢) . ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ قال الزجاج : « ذلكم » رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بذوقوا ، كقولك : زيدا فاضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وأنّ » فى موضع رفع عطف على ذلكم . قال الفراء : ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى وبأن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمر واعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق وعمرا

(١) بن بالمكان : أقام . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

جالسا ، بل كان يجوز فى الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن المخبر معلم ؛ وهذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ زَحْفًا ﴾ الزحف الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الألية ؛ ثم سمّى كل ماش فى الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التدانى والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العدو زحفا . وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض . ومنه زحاف الشّعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفروا عنهم ولا تعطوهم أدباركم . حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دُبُر . والعبارة بالدّبر فى هذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشيعة على الفارّ ، ذامّة له .

الثانية ـ أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يُوَلّىَ المؤمنون أمام الكفار . وهذا الأمر مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلَى المؤمنين ؛ فإذا لَقيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً هى ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفروا أمامهم . فمن فرّ من اثنين فهو فارّ من الزحف . ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا يتوجّه عليه الوعيد . والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضّعف والقوة والعُدّة ؛ فيجوز على قولهم أن يفرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النّجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا

ما زاد على المائتين ؛ فهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من آثنين فيجوز الآنهزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مُؤْتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مائتى ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لَخْمٍ وجُذام .

قلت : ووقع فى تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقا مَوْلَى موسى بن نصير سار فى ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فآلتقى وملك الأندلس لذريق وكان فى سبعين ألف عنان ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يَلْقَوْن العدوّ ويكونون فى مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يَقْوَون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم .

الثالثـــة — واختلف النــاس هل الفــرار يوم الزّحف مخصــوص بيوم بدر أم عام فى الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة ؛ فروى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتــادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو آنحازوا لآنحازوا للشركين ، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للسلمين فئة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعــد ذلك فإن بعضهم فئةٌ لبعض . قال الكِيَا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خفّ معــه . ويُروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية الى يوم القيامة . احتج الأوّلون بمــا ذكرنا ، وبقوله تعــالى : « يومئذ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الاية بآية الضّعف . وبقى حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة . وقــد فرّ الناس يوم أُحُد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنَيْن « ثم ولّيتم مُدْبِرين » (١) ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنمــا ذلك إشارة

(١) آية ٢٥ سورة التوبة .

الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إذا لقيتم » . وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعيّ وأكثر العلماء . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا السبع الموبقات ــ وفيه ــ والتولّى يوم الزحف " وهذا نصٌّ فى المسألة . وأما يوم أُحُد فإنما فرّ الناس من أكثر من ضِعفهم ومع ذلك عُنِّفوا . وأما يوم حُنين فكذلك من فرّ إنما انكشف عن الكثرة ، على ما يأتى بيانه .

الرابعة ــ قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفِرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « وَمَن يُوَلِّهِم يومئذ دُبُرَه » الآية . قال : ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين آثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثنى عشر ألفا لم يحل لهم الفِرار وإن زاد عدد المشركين على الضِّعف ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولن يُغلب آثنا عشر ألفا من قِلّة " فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت ــ رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملىّ ، وهو الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو متروك . قالا : حدّثنا الزُّهرىّ عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أكثم بنَ الجَوْن آغزُ مع غير قومك يحسن خلقك وتَكْرم على رفقائك . يا أكثم ابن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يُؤْتَى آثنا عشر ألفا من قِلّة " . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للعُمَرِىّ[1] العابد إذ سأله هل لك سَعة فى ترك مجاهدة مَن غيّر الأحكام وبدّلها ؟ فقال : إن كان معك آثنا عشر ألفا فلا سَعة لك فى ذلك .

(١) العُمَرى (بضم العين وفتح الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؛ كان من أزهد زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمعانى) .

الخامســـة — فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثنى أبى عن جدّى سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فرّ من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ التحرّف : الزوال عن جهة الاستواء . فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان فى سريّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص الناس حَيْصة(1)، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤنا بالغضب . فقلنا : ندخل المدينة فنتثبّت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون؛ فأقبل إلينا فقال : " لا بل أنتم العكّارون " . قال : فدنونا فقبّلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال ثعلب : العكّارون هم العطّافون . وقال غيره : يقال للرجل الذى يُوَلّى عند الحرب ثم يكرّ راجعا : عَكَرَ واعتكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فئتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال : لو انحاز إلىّ لكنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

---

(1) حاص : جال؛ أى جالوا جولة يطلبون الفرار .

من النبي صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين ، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مرارا . والله أعلم . وفي قوله " والتولي يوم الزحف " ما يكفي .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي استحق الغضب . وأصل « باء » رجع . وقد تقدم[1] . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي مقامه . وهذا لا يدل على الخلود ، كما تقدم في غير موضع . وقد قال عليه السلام : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفر له وإن كان قد فر من الزحف " .

قوله تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي يوم بدر . روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله ، ولكن الله رمى . واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال :

الأول — إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانى — أن هذا كان يوم أُحُد حين رمى أُبَىّ بن خلف بالحربة فى عنقه؛ فكرّ أُبَىّ منهزما . فقال له المشركون : والله مابك من بأس . فقال : والله لو بصق علىّ لقتلنى . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوعد أُبَىٌّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أنا أقتلك" فمات عدوّ الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرجعه إلى مكة، بموضع يقال له « سَرِف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لمـا كان يوم أحد أقبل أُبَىّ مقنعا فى الحديد على فرسه يقول : لا نجوتُ إن نجا محمد؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلّوا طريقه؛ فاستقبله مصعب بن عمير يَقِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؛ فقُتل مصعب بن عمير؛ وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوة أُبَىّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البيْضة والدِّرع؛ فطعنه بحربته فوقع أُبَىّ عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم . قال سعيد : فكسر ضلعا من أضلاعه؛ فقال : ففى ذلك نزل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » . وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث — أن المراد السّهم الذى رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حصن خَيْبر، فسار فى الهواء حتى أصاب ابن أبى الحُقَيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد؛ وخَيْبرُ وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير . والصحيح فى صورة قتل ابن أبى الحُقَيق غير هذا .

الرابع — أنها كانت يوم بدر؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح؛ لأن السورة بدرية؛ وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : "خذ قبضة من التراب" فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة؛ وقاله ابن عباس، وسيأتى . قال ثعلب : المعنى «وما رميت» الفزع والرعب فى قلوبهم «إذ رميت» بالحصباء فانهزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . حكى هذا أبو عبيدة

فى كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنك بقوّة الله رميت .

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ البلاء ها هنا النعمة . واللام تتعلق بمحذوف؛ أى وليبلى المؤمنين فعل ذلك . ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوَهِّنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو. وقراءة أهل الكوفة « مُوهِنُ كَيْدَ الكافِرِين » . وفى التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن « مُوهِنُ كَيْدِ الكافِرين » بالإضافة والتخفيف . والمعنى : أن الله عز وجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللّهُمّ أقطعُنا للرحم وأظلَمُنا لصاحبه فانصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما . وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العير . وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النّضر بن الحارث : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وهو ممن قتل ببدر . والاستفتاح : طلب النصر؛ أى قد جاءكم الفتح ولكنه كان للسلمين عليكم . أى فقد جاءكم ما بان به الأمر، وانكشف لكم الحق . ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر ﴿ فهو خير لكم ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ أى إلى هذا القول وقتال محمد . ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أى جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى فى العدد .

الثانى ــ يكون خطابا للؤمنين؛ أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن « تنتهوا » أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ فهو خير لكم . « وإن تعودوا » أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ[2] » الآية .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث — أن يكون « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطابا للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر . القشيرى : والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نَفَرُوا إلى نصرة العير تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدِّينين . المهدوىّ : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها ، أى يستنصرون .

قلت : ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف ، وبفتحها عطف على قوله : « وأنّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين » . أو على قوله : « أنى معكم » . والمعنى : ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله . أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين . أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم . جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب فى هذه الآية بالإيمان . والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبىّ من الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولّى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته ، وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أحق أن يرضوه »(١) . ﴿ وَأَنْتُمْ

(١) آية ٦٢ سورة التوبة .

تَسْمَعُونَ ﴾ ابتداء وخبر فى موضع الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى لا يتدبّرون ماسمعوا ، ولا يفكّرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم . فدلّت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيه مالم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله . فإذا قصر فى الأوامر فلم يأتها ، واعتمد النواهى فاقتحمها فأىّ سمع عنده وأى طاعة ! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويُسر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ على ماتقدم . ثم أخبر تعالى أن الكفار شرُّ ما دبّ على الأرض . وفى البخارىّ عن ابن عباس « إنّ شرّ الدوابّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير ؛ الأصل أخير .

قوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين ؛ إسماعَ تفهُّم . ولكن سبق علمه بشقاوتهم . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلىّ بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَىّ ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ماسألوا عنه . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدّقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكُمْ ، حذفت الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « استجيبوا » أجيبوا ؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام ، ويتعدّى أجاب دون لام . قال الله تعالى : « يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ »[1] . وقد يتعدّى استجاب بغير لام ؛ والشاهد له قول الشاعر[2] :

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجبه عند ذاك مُجيبُ

تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والاسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة . تقول : أساء سَمْعاً فأساء جابة[3] . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التحاور . وتقول : إنه لحسن الجيبة (بالكسر) أي الجواب . ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ متعلق بقوله : « استجيبوا » . المعنى : استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ؛ أي إلى ما يحييكم ؛ أي يُحيي دينكم ويعلمكم . وقيل : أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحّدوه . وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لِما يحييكم » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدوّ إذا لم

---

(١) آية ٣١ سورة الأحقاف . (٢) هو كعب بن سعد الغنوي يرثى أخاه أبا المغوار .

(٣) أصل هذا المثل على ما ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمرو ابن مضعوف فقال له إنسان : أين أمك . (بفتح الهمزة وتشديد الميم المضمومة) أي أين قصدك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؛ (بضم الهمزة والميم) فقال : ذهبت تشتري دقيقا . فقال أبوه : أساء سمعا ... الخ . (عن اللسان) .

يُنز غَزا ، وفى غزوه الموت ، والموت فى الجهاد الحياةُ الأبدية ؛ قال الله عز وجل : «ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فِي سبِيلِ اللهِ أمواتا بل أحياءٌ»[1] والصحيح العموم كما قال الجمهور.

الثانيــة ــ روى البخاريّ عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يارسول الله ، إنى كنت أصلى . فقال : " ألم يقل الله عز وجل « اِسْتَجِيبُوا لِلهِ وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم » " وذكر الحديث . وقد تقدّم فى الفاتحة[2] . وقال الشافعيّ رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أُتِى به فى الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان فى الصلاة .

قلت : وفيــه حجة لقول الأوزاعى : لو أن رجلا يصلى فأبصر غلاما يريد أن يسقط فى بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضى النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذى أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يُقدره عليــه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينــه وبين الكفر . فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرّها . وهــذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومُقَلِّبِ القلوب " . وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السُّدّى : يحول بين المرء وقلبــه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه ؛ أى بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدّم فى « البقرة »[3] بيانه . وهو بيد الله ، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أى بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

(١) آية ١٦٩ سورة آل عمران .
(٢) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعقله حتى لا يدرى ما يصنع . وفى التنزيل : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »(١) أى عقل . وقيل : يحول بينه و بينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات . وقيل : خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنًا ، ويبدّل عدوهم من الأمن خوفا . وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال ؛ وهذا جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل . ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ عطف . قال الفرّاء : ولو استأنفت فكسرت « وإنه » كان صوابا .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٥)

فيه مسألتان :

الأولى ــ قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب . وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا أُردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت . وكذلك تأوّل الحسن البصرى والسدّى وغيرهما . قال السدّى : نزلت فى أهل بدر خاصة ؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب . وعن حُذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يكون بين ناس من أصحابى فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار"

قلت : وهذه التأويلات هى التى تَعْضُدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله ، أنهلك وفينا

(١) آية ٣٧ سورة ق .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث". وفي صحيح الترمذي : "أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده" وقد تقدمت هذه الأحاديث. وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا(١) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة. وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال علماؤنا : فالفتنة إذا عملت هلك الكل. وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم؛ كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم. روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها. واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها. خرجه الصحيح. وروى البخاري عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم". فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين. وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت : عبث(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه، فقلت : يارسول الله، صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : "العجب، إن ناسا من أمتي يؤمون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم". فقلنا : يارسول الله، إن الطريق

---

(١) استهموا : اقترعوا.

(٢) عبث : معناه اضطرب بجسمه. وقيل : حرك أطرافه كمن يأخذ شيئا أو يدفعه.

قد يعم الناس . قال : " نعم . فيهم المستبصر والمجبور[1] وآبن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[2] . « كل نفس بما كسبت رهينة »[3] . « لها ما كسبت وعليها ما آكتسبت »[4] . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل ، فآنتظم في العقوبة[5] ؛ قاله آبن العربي . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا . ومقصود الآية : وآتقوا فتنة تتعدى الظالم ، فتصيب الصالح والطالح .

الثانية — واختلف النحاة في دخول النون في « لا تصيبن » . قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك ؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي ؛ أي إن تنزل عنها لا تطرحك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم »[6] . أي إن تدخلوا لا يحطمنكم ؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهي بعد أمر ، والمعنى النهي للظالمين ؛ أي لا تقربن الظلم . وحكى سيبويه : لا أرينك ها هنا ؛ أي لا تكن ها هنا ، فإنه من كان ها هنا رأيته . وقال الجرجاني : المعنى آتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة . فقوله « لا تصيبن » نهي في موضع وصف النكرة ؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا . وقرأ علي وزيد بن ثابت وأبي وآبن مسعود « لتصيبن » بلا ألف . قال المهدوي : من قرأ « لتصيبن » جاز أن يكون مقصورا من « لا تصيبن » حذفت الألف كما حذفت من « ما » وهي أخت « لا » في نحو أم والله لأفعلن ، وشبهه . ويجوز أن تكون لمخالفة لقراءة الجماعة ، فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

(١) المستبصر : هو المستبين للأمر ، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .
(٢) آية ١٥ سورة الإسراء . (٣) آية ٣٨ سورة المدثر . (٤) آخر سورة البقرة .
(٥) عبارة آبن العربي : « فانتظم الذنب بالعقوبة » . (٦) آية ١٨ سورة النمل .

قوله تعالى : وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ قال الكلبيّ : نزلت فى المهاجرين؛ يعنى وصف حالهم قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام . ﴿ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾ نعت . ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى أرض مكة . ﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت . ﴿ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ﴾ فى موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ رفع على الفاعل . قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبّه : فارس والروم . ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار . السُّدّى : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد . آوى إليه (بالمد) : ضمّ إليه . وأوى إليه (بالقصر) : انضمّ إليه . ﴿ وَأَيَّدَكُم ﴾ قوّاكم . ﴿ بِنَصْرِهِۦ ﴾ أى بعونه . وقيل : بالأنصار . وقيل : بالملائكة يوم بدر . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أى الغنائم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه[(١)] .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)

رُوى أنها نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بنى قُريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله و رسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سوارى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علىّ . الخبر مشهور . وعن عكرمة قال : لما كان شأن قريظة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فيمن كان عنده من الناس؛ فلما انتهى إليهم وقعوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضى الله عنها : فلكأنّى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

جبريل عليهما السلام ؛ فقلت : هذا دِحية يارسول الله. فقال : "هذا جبريل عليه السلام".
قال : "يارسول الله ما يمنعك من بنى قُريظة أن تأتيهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" فكيف لى بحصنهم "؟ فقال جبريل : " فإنى أدخل فرسى هذا عليهم " . فركب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فرسا مُعْرَوْرَى(١) ؛ فلما رآه علىّ رضى الله عنه قال : يارسول الله ، لا عليك
ألّا تأتيهم ، فإنهم يشتمونك. فقال: "كلا إنها ستكون تحيّة". فأتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم
فقال: " يا إخوة القردة والخنازير" فقالو : يا أبا القاسم ، ما كنت فحّاشا ! فقالوا : لا نتزل
على حكم محمد ، ولكنا نتزل على حكم سعد بن معاذ ؛ فنزل . فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم
وتُسْبَى ذراريهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بذلك طرقنى المَلَك سَحَرًا " فنزل
فيهم « يأيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرسولَ وتَخُونُوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » . نزلت
فى أبى لُبابة ، أشار إلى بنى قُريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه
الذبح ، وأشار إلى حلقه . وقيل : نزلت الآية فى أنهم كانوا يسمعون الشىء من النبىّ صلى الله
عليه وسلم فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه . وقيل : المعنى بغلول الغنائم ونسبتها إلى الله ؛ لأنه الذى
أمر بقسمتها . و إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّى عن الله عز وجل والقيّم بها .
والخيانة : الغدر وإخفاء الشىء ، ومنه : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ(٢) » وكان عليه السلام يقول :
" اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة " .
خرّجه النَّسائى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... ؛ فذكره .
﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فى موضع جزم ، نسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال :
لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التى آئتمن الله عليها العباد . وسميت
أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم فى « النساء » القول
فى أداء الأمانات والودائع وغير ذلك(٣) . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى ما فى الخيانة من القبح والعار .
وقيل : تعلمون أنها أمانة .

---

(١) عريانا . (٢) آية ١٩ سورة غافر . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كان لأبى لُبابة أموال وأولاد فى بنى قُريظة، وهو الذى حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك . ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى آختبار؛ آمتحنهم بها . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فآثروا حقّه على حقكم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قد تقدّم معنى « التقوى » . وكان الله عالمـا بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضا . فإذا آتقى العبد ربّه ــ وذلك بآتباع أوامره واجتناب نواهيـه ــ وتركَ الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات، وشحن قلبـه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمـال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفِىّ والظاهر بمراعاة غيرالله فى الأعمال ، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المـال جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيا يريد من الخير إمكانا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » قال : مخرجا، ثم قرأ « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »[(١)] . وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مالكَ من طُول الأسَى فُرقان * بعـد قَطِـينٍ رَحلوا وبَانُوا

وقال آخر :

وكيف أُرَجّى الخلد والموت طالبى * ومالى من كأس المنيـة فرقان

ابن إسحاق : « فرقانا » فَصْلا بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد . السّدىّ : نجاة . الفرّاء : فتحا ونصرا . وقيل : فى الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

(١) آية ٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار النَّدْوة؛ فآجتمع رأيهم على قتله فبيَّتوه ، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يُعمى عليهم أمره؛ فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غَشِيَهم النوم، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض . فلما أصبحوا خرج عليهم على فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . الخبر مشهور في السيرة وغيرها . ومعنى « لِيُثْبِتُوكَ » ليحبسوك ؛ يقال : اثبتّه اذا حبسته . وقال قتادة : « لِيُثبِتوك » وَثاقا . وعنه أيضا وعبد الله بن كثير : ليسجنوك . وقال أبان بن تغلب وأبو حاتم : ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد . قال الشاعر :

فقلت ويحكما ما في صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مُثبتاً وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف . ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف . والمكر : التدبير في الأمر في خفية . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

نزلت في النَّضر بن الحارث ، كان خرج إلى الحِيرة في التجارة فآشترى أحاديث كَليلة ودِمنة ، وكِسرى وقيصر؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وَقاحة وكذبا . وقيل : إنهم توهموا أنهم

يأتون بمثله ، كما توهمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عنادا : إن هذا إلا أساطير الأولين . وقد تقدم (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٢)

القراء على نصب « الحق » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويجوز « هو الحق » بالرفع . ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جبير : قائل هذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخاري ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت في صدورهم ، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة ، ثم حل بهم يوم بدر ما سألوا . حكي أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود ؛ فقال اليهودي : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» الآية . فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ! إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلي ، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ، حتى قالوا : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » (٢) فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودي مفحما . ﴿ فَأَمْطِرْ ﴾ أمطر في العذاب . ومطر في الرحمة ؛ عن أبي عبيدة . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣٣)

---

(١) آية ٢٥ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٨ سورة الأعراف .

لما قال أبو جهل : «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك » الآية، نزلت « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » كذا فى صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أُمروا . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك . والاستغفار و إن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛ قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أى يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : « وهم يستغفرون » أى فى أصلابهم مَن يستغفر الله . روى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى « يستغفرون » لو استغفروا . أى لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائنى عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُسْرِفا على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن تُوُفِّىَ النبيّ صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدِّين والنُّسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم حىّ لفرح بك . قال : كان لى أمانان ، فمضى واحد وبقى الآخر؛ قال الله تبارك وتعالى : « وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم » فهذا أمان . والثانى « وما كان اللهُ معذِّبهم وهم يستغفرون » .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ المعنى : وما يمنعهم من أن يعذّبوا . أى إنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب؛ فعذبهم الله

بالسيف بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »[1] .
وقال الأخفش : إنّ « أنْ » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع « يعذبهم » .
﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)

قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عُراة ، يصفّقون ويصفرون ؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم . والمُكاء : الصّفير . والتصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدّي وابن عمر رضي الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غانيةٍ تركت مُجَدَّلًا * تَمْكُو فريصتُه كشِدْقِ الأعْلَمِ[2]

أي تصوّت . ومنه مَكَتِ اسْتُ الدابة إذا نفخت بالريح . قال السُّدّي : المُكاء الصفير ، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غَرّد المُكّاء في غير رَوْضة * فوَيْلٌ لأهل الشاء والحُمُرات

قتادة : المُكاء ضرب بالأيدي ، والتصدية صياح . وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرْقُصون ويُصَفّقون . وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء ، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جُريج وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه

(١) سورة المعارج . (٢) الحليل : الزوج . ويروى : وخليل بالخاء المعجمة . الفريصة : الموضع الذي يرعد من الدابة والانسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

قال : المُكاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير ، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف فى اللغة ما روى عن ابن عمر . حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يمكُو مَكْوًا ومُكاء إذا صَفَر . وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق ؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة (١) :

وظلّوا جميعا لهم ضجّة * مُكاء لدى البيت بالتّصدِيهْ

أى بالتصفيق . سعيد بن جُبير وابن زيد : معنى التصدية صدّهم عن البيت ؛ فالأصل على هذا تصددة ، فأبدل من أحد الدالين ياء . ومعنى ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أى المؤمن من الكافر . وقيل : هو عام فى كل شىء ، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٨)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى ، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائىّ أنه فى مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها ؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بُدّ ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَر لهم ما قد سَلَف » ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمُنْتَهٍ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف * ثم انتهى عما أتاه واقترَفْ

لقوله سبحانه فى المعترف * إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) فى القاموس وشرحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القين بن جسر بن قضاعة ، وعمرو ابنها شاعر مشهور ، واسم أبيه زيد مناة » .

روى مسلم عن أبى شُماسة المَهْرِيّ قال : حضرْنا عمرو بنَ العاص وهو فى سِياقة الموت يبكى طويلا . الحديث . وفيه : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يَهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهدِم ما كان قبله" الحديث . قال ابن العربيّ : هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصى والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبدا توبة، ولا نالتهم مغفرة. فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم فى الدّين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا . وفى صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال لا توبة لك فقتله فكمّل به مائة؛ الحديث . فانظروا إلى قول العابد : لا توبة لك؛ فلما علم أنه قد أيئسه قتله ، فعْل الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخليقة، والتيسير مصلحة لهم . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا جاء اليه رجل لم يقتل فسأله : هل لقاتلٍ من توبة ؟ فيقول : لا توبة؛ تخويفا وتحذيرا . فإذا جاءه مَن قتل فسأله : هل لقاتل من توبة ؟ قال له : لك توبة؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدم .

الثالثة ــ قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق فى الشرك ثم أسلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له . فأما من افترى على مسلم ثم أسلم أو سرَق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفرية والسرقة . ولو زنى وأسلم ، أو اغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعنى الله عزوجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أودم أو شيء . قال ابن العربيّ : وهذا هو الصواب؛ لما قدّمناه من عموم قوله تعالى : « قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يغفر لهم ما قد سلف » ، وقولِه : "الإسلام يهدِم ما قبله"، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير .

قلت : أما الكافر الحربيّ فلا خلاف فى إسقاط ما فعله فى حال كفره فى دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلما فإنه يحدّ، وإن سرق قطع . وكذلك الذّمىّ إذا قذف

حدّ ثمانين، وإذا سرق قطع، وإن قتل قتل. ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره. قال ابن المنذر: واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين؛ فحكى عن الشافعيّ رضى الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل: «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف». قال ابن المنذر: وهذا موافق لما روى عن مالك. وقال أبو ثور: إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ. وحكى عن الكوفى أنه قال: لا يحدّ.

الرابعة — فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جنايات وأتلف أموالا؛ فقيل: حكمه حكم الكافر الأصلى إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده. وقال الشافعيّ في أحد قوليه: يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمى؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمى لا يسقط. قال ابن العربيّ: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقه، والآدميّ مفتقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين. قالوا: وقوله تعالى «قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغفر لهم ما قد سلف» عام في الحقوق التي لله تعالى.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ يريد إلى القتال؛ لان لفظة «عاد» إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية: ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأول الى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملكا؛ يريد صار. ومنه قول [أمية بن] أبى الصلت: —

تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن * شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل. فهى مقيّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى كفر، إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسير ألفاظها فى « البقرة »(١) وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ . فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخـــر :

ومُطْعَم الغُنْم يومَ الغنم مُطْعَمُه * أنّى توجّه والمحروم محـــروم

والمغنم والغنيمة بمعنًى؛ يقال : غَنِم القوم غُنْما . وٱعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » مالُ الكفار إذا ظَفِر به المسلمون على وجه الغَلَبة والقَهْر . ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص على ما بيّناه، ولكن عُرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع . وسمّى الشرعُ الواصلَ من الكفار إلينا من الأموال بٱسمين : غَنيمة وفَيْئا . فالشىء الذى يناله المسلمون من عدوّهم بالسّعى وإيجاف الخيل والركاب يُسَمَّى غنيمة . ولزم هــذا الاسم هذا

المعنى حتى صار عُرفا . والفَيْء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخَراَج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم . ونحو هـذا قال سفيان الثَّوْرِيّ وعطاء بن السائب . وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة . وقيل : الفيء عبارة عن كل ما صار للسلمين من أموال بغير قهر . والمعنى متقارب .

الثانيـــة — هـذه الآية ناسخة لأول السورة ؛ عند الجمهور . وقد ادعى ابن عبد البر الإجمـاعَ على أن هـذه الآية نزلت بعد قوله « يسألونك عن الأنفال » وأن أربعـة أخماس الغنيمة مقسومةٌ على الغانمين ؛ على ما يأتي بيانه . وأن قوله « يسألونك عن الأنفال » نزلت في حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر؛ على ما تقدم أول السورة .

قلت : ومما يدل على صحة هـذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لمـا كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا فله كذا ومن أَسَر أسيرا فله كذا " وكانوا قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فجاء أبو اليَسَر بن عمرو بأسيرين؛ فقال : يا رسول الله، إنك وعدتنا مَن قتل قتيلا فله كذا ، وقد جئتُ بأسيرين . فقام سعد فقال : يارسول الله، إنا لم يمنعنا زيادةٌ في الأجر ولا جُبن عن العدو ولكنا قمنا هذا المَقام خشية أن يعطف المشركون؛ فإنك إن تُعطي هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء . قال : وجعـل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يسئلونك عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ للهِ والرسولِ فاتّقوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم » فسلّموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت « واعلموا أنّمـا غنِمتم مِنْ شيْءٍ فأنّ للهِ خُمُسَه » الآية . وقد قيل : إنها مُحْكَمَة غيرُ منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست مقسومة بين الغانمين ؛ وكذلك لمن بعده من الأئمة . كذا حكاه المـازَرِيّ عن كثير من أصحابنا ، رضي الله عنهم ، وأن للإمام أن يخرجها عنهم . واحتجّوا بفتح مكة وقصة حُنين . وكان أبو عبيـد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنْوة ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيْئًا . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « وٱعلموا أنما غنمتم من شئ فأنّ لله خمسه » والأربعة الأخماس للإمام، إن شاء حبسها وإن شاء قسمها بين الغانمين . وهذا ليس بشىء؛ لما ذكرناه، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال : «واعلموا أنما غنمتم من شىء» ثم عيّن الخمس لمن سمّى فى كتابه ، وسكت عن الأربعة الأخماس؛ كما سكت عن الثلثين فى قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »[1] فكان للأب الثلثان اتفاقا . وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعا؛ على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والدّاوُدِىّ والمازَرِىّ أيضا والقاضى عياض وابن العربىّ . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتى بعضها . ويكون معنى قوله : «يسئلونك عن الأنفال» الآية، ما ينفّله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء والحسن : هى مخصوصة بما شذّ من المشركين إلى المسلمين، من عبد أو أمة أو دابة؛ يقضى فيها الإمام بما أحبّ . وقيل : المراد بها أنفال السّرايا أى غنائمها، إن شاء خمّسها الإمام، وإن شاء نفّلها كلها . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ فى الإمام يبعث السّرية فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام نفّله كله، وإن شاء خمّسه . وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء . قال علىّ بن ثابت : سألت مكحولا وعطاء عن الإمام ينفّل القوم ما أصابوا؛ قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب إلى هذا تأوّل قول الله عز وجل : « يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » أن ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه » . وقيل غير هذا مما قد أتينا عليه فى كتاب (القبس فى شرح موطّأ مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى «يسئلونك عن الأنفال» الآية، ناسخ لقوله «وٱعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه» بل قال الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله « ما غنمتم » ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها . وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شىء من البلدان من جهتين : إحداهما أن رسول

(١) آية ١١ سورة النساء .

الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد خصّه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره ؛ وذلك لقوله «يسئلونك عن الأنفال» الآية ؛ فنرى أن هذا كان خاصًّا له . والجهة الأخرى أنه سنّ لمكة سُنناً ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حُنين فقد عوّض الأنصار لمّا قالوا : يعطى الغنائم قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! فقال لهم : " أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيوتكم " . خرّجه مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثــة ـــ لم يختلف العلماء أن قوله : «واعلموا أنما غنمتم من شيء» ليس على عمومه ، وأنه يدخله الخصوص ؛ فمما خصّصوه بإجماع أن قالوا : سَلَبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام . وكذلك الرقاب ؛ أعنى الأسارى ، الخيَرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، على ما يأتى بيانه . ومما خُصّ به أيضا الأرض . والمعنى : ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسّبى . وأما الأرض فغير داخلة فى عموم هــذه الآية ؛ لمـا روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا آخر الناس ما فتحتُ قريةً إلا قسّمتها كما قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر. ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَنعتِ العراقُ قفيزها ودرهمها ومَنعت الشام مُدْها ودينارها " الحديث . قال الطحاوىّ : «منعت» بمعنى ستمنع ؛ فدلّ ذلك على أنها لا تكون للغانمين ؛ لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم ، ولو كانت الأرض تقسم ما بقى لمن جاء بعد الغانمين شىء . والله تعالى يقول : « والذين جاءوا من بعــدهم »(1) بالعطف على قوله « للفقراء المهاجرين » . قال : وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعىّ : كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء ، قلّ أو كثُر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم ؛ إلا الرجالَ البالغين فإن الإمام فيهم مخيَّر أن يَمُنّ أو يقتل أو يَسْبِى . وسبيل ما أُخذ منهم وسُبى سبيلُ الغنيمة . واحتج بعموم الآية . قال : والأرض مغنومة لا محالة ؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم . وقــد قسم

(1) آية ١٠ سورة الحشر .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما افتتح عنوة من خيبر . قالوا : ولو جاز أن يدعى الخصوص في الأرض جاز أن يدعى في غير الأرض فيبطل حكم الآية . وأما آية «الحشر»[1] فلا حجة فيها؛ لأن ذلك إنما هو في الفيء لا في الغنيمة . وقوله «والذين جاءوا من بعدهم» استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فعل عمر في توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة استطاب أنفس أهلها ، وطابت بذلك فوقفها . وكذا روى جرير أن عمر استطاب أنفس أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبي هوازن، لما أتوه استطاب أنفس أصحابه عما كان في أيديهم . وإما أن يكون ما وقفه عمر فيئا فلم يحتج الى مراضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام في قسمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها، وتصير ملكا لهم كأرض الصلح . قال شيخنا أبو العباس رضي الله عنه : وكأن هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المذهبين، وهو الذي فهمه عمر رضي الله عنه قطعا؛ ولذلك قال : لولا آخر الناس؛ فلم يخبر بنسخ فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتخصيصه بهم؛ غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملكها لأهل الصلح، وهم الذين قالوا للإمام أن يملكها لأهل الصلح .

الرابعة — ذهب مالك وأبو حنيفة والثوري إلى أن السلب ليس للقاتل، وأن حكمه حكم الغنيمة، إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلا فله سلبه؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث والأوزاعي والشافعي وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبري وابن المنذر : السلب للقاتل على كل حال؛ قاله الإمام أو لم يقله . إلا أن الشافعي رضي الله عنه قال : إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلا مقبلا عليه ، وأما إذا قتله مدبرا عنه فلا . قال أبو العباس بن سريج من أصحاب الشافعي : ليس الحديث "من قتل قتيلا فله سلبه" على عمومه؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أسيرا أو امرأة أو شيخا أنه ليس له سلب واحد منهم . وكذلك من ذفف[2] على جريح ، ومن قتل من قطعت يداه ورجلاه . قال : وكذلك المنهزم لا يمنع في انهزامه ؛ وهو

(١) آية ١٠ . (٢) تذفيف الجريح : الاجهاز عليه .

كالمكتوف . قال : فعُلِم بذلك أن الحديث إنما جعل السلب لمن لِقتله معنًى زائد، أو لمن في قتله فضيلةٌ، وهو القاتل في الإقبال؛ لما في ذلك من المؤنة . وأما من أُثخن[1] فلا .

وقال الطبري : السلب للقاتل ، مقبلا قتله أو مدبرا، هاربا أو مبارزا إذا كان في المعركة .
وهذا يردّه ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جُريج قال سمعت نافعا مولى ابن عمر يقول : لم نزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار فقتل رجل من المسلمين رجلا من الكفار فإن سلبه له ، إلا أن يكون في مَعْمعةِ القتال؛ لأنه حينئذ لا يُدرَى من قتل قتيلا . فظاهر هذا يردّ قول الطبري لاشتراطه في السلب القتلَ في المعركة خاصة . وقال أبو ثور وابن المنذر : السلب للقاتل في معركة كان أو غير معركة ، في الإقبال والإدبار والهروب والانتهار على كل الوجوه؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله سلبه" .

قلت : روى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن، فبينا نحن نتضحّى[2] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثم انتزع طَلَقًا من حَقَبِه[3] فقيّد به الجمل، ثم تقدّم يتغدّى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضَعْفة ورِقّة في الظَّهر[4]، وبعضنا مُشاةٌ؛ إذ خرج يشتدّ[5]، فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره فاشتدّ به الجمل، فاتّبعه رجل على ناقة وَرْقاء[6] . قال سلمة : وخرجت أشتدّ فكنت عند وَرِك الناقة، ثم تقدّمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدّمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطتُ سيفي فضربت رأس الرجل فندر[7]، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله وسلاحه ؛ فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقال : "من قتل الرجل"؟ قالوا : ابن الأكوع . قال : "له سلبه أجمع" . فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه . وفيه حجة لمالك من أن السلب لا يستحقه القاتل

---

(١) أي أثقل بالجراح . (٢) أي نتغدّى . (٣) الطلق (بالتحريك) : قيد من جلود . والحقب : الحبل المشدود على حقو البعير أو من حقيبته ، وهي الزيادة التي تجعل في مؤخر القتب ، والوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده : (عن ابن الأثير) . (٤) أي حالة ضعف وهزال في الابل . (٥) أي نخرج مسرعا . (٦) الأورق من الابل : الذي في لونه بياض الى سواد . (٧) ندر : سقط .

إلا بإذن الإمام، إذ لو كان واجبا له بنفس القتل لما احتاج الى تكرير هـذا القول . ومن حجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادسية فقتلته وأخذت سلبه، فأتيت سعدا فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة، فهو خير من آثنى عشر ألف درهم، وإنا قد نفلناه إياه. فلو كان السلب للقاتل قضاء من النبي صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذه القاتل دون أمرهم. والله أعلم. وفى الصحيح أن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ضربا أبا جهل بسيفيهما حتى قتلاه، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أيكما قتله " ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته . فنظر فى السيفين فقال : "كلاكما قتله" وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص على أن السلب ليس للقاتل، إذ لو كان له لقسمه النبي صلى الله عليه وسلم بينهما. وفى الصحيح أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة فى غزوة مُؤتة، ورافقنى مَدَدِىّ من اليمن (١) . وساق الحديث، وفيه : فقال عوف : يا خالد، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال : بلى، ولكنى استكثرته . وأخرجه أبو بكر البَرْقانى بإسناده الذى أخرجه به مسلم، وزاد فيه بيانا أن عوف بن مالك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمس السلب، وإن مَدَدِيًّا كان رفيقا لهم فى غزوة مُؤتة فى طرف من الشام، قال : فجعل رُومِىّ منهم يشتد على المسلمين وهو على فرس أشقر وسرج مذهب ومنطقة ملطخة وسيف محلًّى بذهب. قال : فيُغْرِى بهم، قال : فتلطف به المددى حتى مر به فضرب عُرقوب فرسه فوقع، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه . قال : فأعطاه خالد بن الوليد وحبس منه، قال عوف : فقلت له أعطه كله، أليس قد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " السلب للقاتل " ! قال : بلى، ولكنى استكثرته . قال عوف : وكان بينى وبينه كلام، فقلت له : لأخبرن رسول الله صلى الله

---

(١) أى رجل من المدد الذين جاءوا يمدون جيش مؤتة ويساعدونهم .

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عنـد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لخالد : "لِمَ لم تعطه" ؟ قال فقال : استكثرته . قال : " فادفعه اليه " فقلت له : ألم أنجز لك ما وعـدتك ؟ قال : فغضب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وقال : " يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لى أمرائى " . فهذا يدل دلالة واضحـة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل برأى الإمام ونظره . وقال أحمد ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا فى المبارزة خاصة .

الخامســة — اختلف العلمـاء فى تخميس السلب ؛ فقال الشافعىّ : لا يُخمس . وقال إسحاق : إن كان السلب يسيرا فهو للقاتل، وإن كان كثيرا خُمس . وفعله عمر بن الخطاب مع البَراء بن مالك حين بارز المَرْزُبان فقتله، فكانت قيمة منطقته وسواريه ثلاثين ألفا فخمّس ذلك . أنس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلا مبارزة، وأنهـم لمـا غَزَوا الزارة خرج دَهقان الزارة فقال : رجل ورجل ؛ فبرز البراء فاختلفا بسيفيهمـا ثم اعتنقا، فتورّكه البراء فقعد على كبده، ثم أخذ السيف فذبحه، وأخذ سلاحه ومنطقته وأتى به عمر؛ فنفّله السلاح وقوّم المنطقة بثلاثين ألفا فخمّسها ، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعىّ ومكحول : السلب مَغْنم وفيـه الخمس . وروى نحوه عن عمر بن الخطاب . والحجة للشافعىّ ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعىّ وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قضى فى السلب للقاتل ولم يخمّس السلب .

السادســة — ذهب جمهور العلماء الى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيّنة على قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد، على حديث أبى قَتادة . وقيل : شاهدان أو شاهد ويمين . وقال الأوزاعىّ : يُعطاه بمجرد دعواه، وليست البينة شرطا فى الاستحقاق ، بل إن آتفق ذلك فهو الأَوْلى دفعا للمنازعة . ألا ترى أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين . ولا تكفى شهادة واحد، ولا يُناط بها حكم بمجردها . وبه قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذري الشافعي أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن خزاعي وعبد الله بن أنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطرد الحكم . وأما المالكية فيخرج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة؛ لأنه من الإمام ابتداء عطية، فإن شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيه من غير شهادة .

السابعة ــ واختلفوا في السلب ما هو؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب ، وفرسه إن قاتل عليه وصُرع عنه . وقال أحمد في الفرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان في هِميانه (١) وفي منطقته دنانير أو جواهر أو نحو هذا، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما يتزين به للحرب؛ فقال الأوزاعي : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مروي عن سحنون رحمه الله ؛ إلا المنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب في الواضحة : والسواران من السلب .

الثامنة ــ قوله تعالى : ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله عز وجل في أول السورة « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر، فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذا . إلا أنه يظهر من قول علي رضي الله عنه في صحيح مسلم « كان لي شارف (٢) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفا من الخمس يومئذ» الحديث ــ أنه خمس؛ فإن كان هذا فقول أبي عبيد مردود . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكر علي من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأُحُد؛ فقد كانت غزوة بني سُلَيم وغزوة بني المُصْطَلِق وغزوة ذي أَمَر وغزوة بُحران، ولم يُحفظ فيها قتال، ولكن يمكن أن غُنمت غنائم . والله أعلم

قلت : وهذا التأويل يرده قول علي يومئذ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر؛ إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع في بدر تخميس ، من خمس سَرِيّة عبد الله بن

(١) الهميان : الذي تجعل فيه النفقة . وشداد السراويل . (٢) الشارف : الناقة المسنة .

جحش ، فإنها أول غنيمة غُنمت في الإسلام ، وأول خمس كان في الإسلام ؛ ثم نزل القرآن « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسه » . وهذا أولى من التأويل الأول . والله أعلم .

التاسعة — « ما » في قوله « ما غنمتم » بمعنى الذي ، والهاء محذوفة ؛ أي الذي غنمتموه . ودخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة . و « أنّ » الثانية توكيد للأولى ، ويجوز كسرها ، ورُوي عن أبي عمرو . قال الحسن : هذا مفتاح كلام[1] ، لله الدنيا والآخرة ؛ ذكره النّسائي . واستفتح جل وعز الكلام في الفيء والخمس بذكر نفسه ؛ لأنهما أشرف الكسب ، ولم ينسب الصدقة إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشرة — واختلف العلماء في كيفية قَسم الخمس على أقوال ستة :

الأول — قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيُجعل السدس للكعبة ، وهو الذي لله . والثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثالث لذوي القُرْبَى . والرابع لليتامى . والخامس للمساكين . والسادس لابن السبيل . وقال بعض أصحاب هذا القول : يُرد السهم الذي لله على ذوي الحاجة .

الثاني — قال أبو العالية والربيع : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، وتقسم الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده في السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، ثم يَقسم بقيّة السهم الذي عزله على خمسة ، سهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وسهم لذوي القُرْبَى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

الثالث — قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن عليّ وعليّ بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعليّ : إن الله تعالى يقول : « واليتامى والمساكين وابن السبيل » فقال : أيتامنا ومساكيننا .

الرابع — قال الشافعيّ : يقسم على خمسة . ورأى أن سهم الله ورسوله واحد ، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية .

(١) أي قوله تعالى : « فأن لله خمسه » راجع الحديث في كتاب قسم الفيء في سنن النسائي .

الخامس ـ قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل . وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ؛ كما ارتفع حكم سهمه . قالوا : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد، وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعيّ أيضا .

السادس ـ قال مالك : هو موكول الى نظر الإمام واجتهاده؛ فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطى منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا . وعليه يدلّ قوله صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم" . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا، وإنما ذكر فى الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهمّ من يدفع إليه . قال الزجاج محتجًّا لمالك : قال الله عز وجل « يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»(١) وللرجل جائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك . وذكر النّسائى عن عطاء قال : خمُس الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ ليست اللام لبيان الاستحقاق والملك، وإنما هى لبيان المَصْرف والمحل . والدليل عليه مارواه مسلم أن الفضل بن عباس وربيعة ابن عبد المطلب أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فتكلم أحدهما فقال : يارسول الله، أنت أبرّ الناس، وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاحَ فجئنا لتؤمّرنا على بعض هذه الصدقات، فنؤدّىَ اليك كما يؤدّى الناس ، ونصيبَ كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلّمه، قال : وجعلت زينب تُلْمِع(٢) إلينا من وراء الحجاب ألّا تكلّماه، قال : ثم قال : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هى أوساخ الناس ادعُوا لِى مَحْمِيَةَ(٣) ـ وكان على الخمُس ـ ونَوْفَلَ بنَ الحارث بن

(١) آية ٢١٥ سورة البقرة .
(٢) يقال : ألمع ولمع، اذا أشار بثوبه أو بيده .
(٣) هو محمية بن جزء، رجل من بنى أسد .

عبد المطلب" قال : فجاءاه فقال لمحمية : "أنكح هذا الغلام ابنتك" — للفضل بن عباس — فأنكحه . وقال لنوفل بن الحارث: "أنكح هذا الغلامَ ابنتك" يعنى ربيعة بن عبد المطلب. وقال لمحمية : "أصدِق عنهما من الخمس كذا وكذا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم" . وقد أعطى جميعه وبعضه، وأعطى منه المؤلفة قلوبهم، وليس ممن ذكرهم الله فى التقسيم؛ فدل على ما ذكرناه، والموفق الإله .

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال : قريش كلها ؛ قاله بعض السلف، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل يهتف : "يا بنى فلان يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطلب يا بنى كعب يا بنى مُرّة يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار" الحديث . وسيأتى فى « الشعراء »(1) . وقال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جُريج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القُربى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : "إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد" وشبّك بين أصابعه؛ أخرجه النسائى والبخاريّ . قال البخارى : قال الليث حدثنى يونس . وزاد : ولم يَقْسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نَوْفل شيئا . قال ابن إسحاق : وعبد شمس وهاشم والمطّلب إخوةٌ لأمّ، وأمهم عاتكة بنت مُرّة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم . قال النسائىّ : وأسهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لذوى القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغنيّ ؛ كاليتامى وابن السبيل . وهو أشبه القولين بالصواب عندى . والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

الثالث — بنو هاشم خاصة؛ قاله مجاهد وعليّ بن الحسين . وهو قول مالك والثوريّ والأوزاعيّ وغيرهم .

(1) فى قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية ٢١٤ .

الثالثة عشرة ــ لما بيّن الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دلّ ذلك على أنها ملك للغانمين . وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم " . وهذا مالا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابن العربى فى (أحكامه) وغيره . بيْدَ أن الإمام إن رأى أن يَمُنّ على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بثُمامة بن أُثال وغيره، وقال : " لو كان المُطْعِم بن عدِىّ حيًّا ثم كلّمنى فى هؤلاء النَّتْنَى(١) ــ يعنى أسارى بدر ــ لتركتهم له " أخرجه البخارىّ . مكافأةً له لقيامه فى شأن [نَقْض] الصحيفة(٢). وله أن يقتل جميعهم؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن أبى مُعَيط من بين الأسرى صَبْرًا(٣)، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء صَبْرًا؛ وهذا ما لا خلاف فيه . وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب . وسهم الصَّفِىّ، يصطفى سيفا أو سهما أو خادما أو دابة . وكانت صَفِيّة بنت حُيَىّ من الصَّفِىّ من غنائم خَيْبر . وكذلك ذو الفَقَار(٤) كان من الصَّفِىّ . وقد انقطع بموته؛ إلا عند أبى ثَوْر فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وكانت الحكمة فى ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون الرئيس ربع الغنيمة . قال شاعرهم :

لك المِرْباع منها والصَّفايا ٭ وحُكْمُك والنَّشِيطةُ والفُضولُ(٥)

وقال آخر :

منا الذى رَبَع الجيوش، لصُلبه ٭ عشرون، وهو يُعَدّ فى الأحياء

---

(١) النتنى : جمع نتن؛ كزمنى وزمن . (٢) أى الصحيفة التى كتبتها قريش فى ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم . وهو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ؛ مات كافرا فى صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر . (عن شرح القسطلانى) . (٣) صبر الإنسان وغيره على القتل : حبسه ورماه حتى يموت .

(٤) ذو الفقار : اسم سيف النبىّ عليه السلام، وسمى به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان؛ ويقال للحفرة فقرة .

(٥) البيت لعبد الله بن عنمة الضبى، يخاطب بسطام بن قيس . والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصير الى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة؛ كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان) .

يقال : رَبَع الجيشَ يَرْبَعه رَباعة إذا أخذ رُبع الغنيمة . قال الأصمعيّ : ربع فى الجاهلية وخمس فى الإسلام ؛ فكان يأخذ بغير شرع ولا دِين الربع من الغنيمة ، ويصطفى منها ، ثم يتحكّم بعدَ الصَّفِيّ فى أى شىء أراد ، وكان ماشذ منها وما فضل من خُرْثِيّ (١) ومتاع له . فأحكم الله سبحانه الدِّين بقوله : « وٱعلموا أنما غنِمتم من شىء فأن لله خُمُسه » . وأبقى سهم الصَّفِيّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عامر الشَّعْبِيّ : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يُدعَى الصَّفِيّ إن شاء عبدا أو أَمة أو فرسا يختاره قبل الخمس ؛ أخرجه أبو داود . وفى حديث أبى هريرة قال : فيلقى العبد فيقول : " أىْ فُلْ (٢) ألم أكْرِمْكَ وأسَوِّدْك وأزوِّجْك وأسخِّر لك الخيل والإبل وأذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع " الحديث . أخرجه مسلم . « تربع » بالباء الموحّدة من تحتها : تأخذ المِرباع ، أى الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعيّ رضى الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبيّ صلّى الله عليه وسلم يصرفه فى كفاية أولاده ونسائه ، ويدّخر من ذلك قوت سنته ، ويصرف الباقى فى الكُراع (٣) والسلاح . وهذا يردّه ما رواه عمر قال : كانت أموال بنى النَّضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة ، فكان ينفق على نفسه منها قوت سنة (٤) ، وما بقى جعله فى الكُراع والسلاح عدّة فى سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : " والخمس مردود عليكم " .

الرابعة عشرة — ليس فى كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أخماس لهم ولم يَخُصّ راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحرّ ، والصبيّ كالبالغ . وقد اختلف العلماء فى قسمة الأربعة الأخماس ؛ فالذى عليه عامة أهل

---

(١) الخرثى (بالضم) : أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم . (٢) الحديث أورده مسلم فى كتاب الزهد . قال النووى : بضم الفاء وسكون اللام ؛ ومعناه يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل هى لغة بمعنى فلان وقال صاحب المرقاة بسكون اللام وتفتح وتضم . (٣) الكراع (بالضم) : الخيل .

(٤) الذى فى صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله نفقة سنة ... » الخ .

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسْهم للفارس سهمان، وللراجل سهم . وممن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة . وكذلك قال الأوزاعيّ ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثّوريّ ومن وافقه من أهل العراق . وهو قول اللّيث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعيّ رضى الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدا خالف ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه جُلّ أهل العلم فى القديم والحديث . قال : لا يُسْهَم للفارس إلا سهم واحد .

قلت : ولعله شُبِّه عليه بحديث ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ وقال : قال الرماديّ كذا يقول ٱبن نمير قال لنا النيسابورى : هذا عندى وَهَم من ٱبن أبى شيبة أو من الرمادى ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما رَوَوه عن ٱبن عمر[1] بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سهما له وسهمين لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن ٱبن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر الحديث . وفى صحيح البخاريّ عن ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما . وهذا نَصٌّ . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن الزبير قال : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سهمين لفرسى وسهما لى وسهما لأُمّى من ذوى القرابة . وفى رواية : وسهما لأمّه سهمَ ذوى القربى . وخرّج عن بشير بن عمرو بن محصن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسيّ أربعة أسهم، ولى سهما ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى ٱجتهاد الإمام، فينفذ ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة — لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : يُسْهم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر غناء وأعظم منفعة؛

(١) الذى فى نسخة الدارقطنى : « عن ابن نمير » .

ربه قال ابن الجهم من أصحابنا ، ورواه سحنون عن ابن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسهم لأكثر من فرس واحد، وكذلك الأئمة بعده ، ولأن العدو لا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عدة؛ وذلك لا يؤثر في زيادة السهمان ؛ كالذي معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتبارا بالثالث والرابع . وقد روى عن سليمان بن موسى أنه يسهم لمن كان عنده أفراس، لكل فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهم إلا للعتاق من الخيل؛ لما فيها من الكر والفر، وما كان من البراذين والهجن بمثابتها في ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيل : إن أجازه الإمام أسهم لها؛ لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع . فالهجن والبراذين تصلح للمواضع المتوعرة كالشعاب والجبال ، والعتاق تصلح للمواضع التي يتأتى فيها الكر والفر ؛ فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعتاق : خيل العرب ، والهجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — واختلف علماؤنا في الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وابن نافع : لا يسهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشبه الكسير . وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعجف إذا كان في حيز مالا ينتفع به ، كما لا يسهم للكسير . فأما المريض مرضا خفيفا مثل الرهيص[1]، وما يجرى مجراه مما لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه فإنه يسهم له . ويعطى الفرس المستعار والمستأجر ، وكذلك المغصوب ، وسهمه لصاحبه . ويستحق السهم للخيل وإن كانت في السفن ووقعت الغنيمة في البحر ؛ لأنها معدة للنزول إلى البر .

الثامنة عشرة — لا حق في الغنائم للحشوة[2] كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للمعاش ؛ لأنهم لم يقصدوا قتالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيل : يسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الغنيمة لمن شهد الوقعة" . أخرجه البخاري . وهذا لا حجة فيه لإنه جاء بيانا

---

(١) الرهيص : الذى أصابته الرهصة ، وهى وقرة تصيب باطن حافر الفرس .

(٢) الحشوة (بضم الحاء وكسرها) : رذالة الناس .

لمن باشر الحرب وخرج إليه، وكفى ببيان الله عز وجل المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقتين متميّزتين ، لكل واحدة حالها فى حكمها، فقال : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) . إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم؛ لأن سبب الاستحقاق قد وُجد منهم. وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم وإن قاتل، وبه قال ابن القصّار فى الأجير : لا يسهم له وإن قاتل . وهذا يردّه حديث سلمة بن الأكوع قال : "كنت تَبِيعا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحُسُّه (٢) وأخدمه وآكل من طعامه، الحديث . وفيه : ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهمَ الفارس وسهمَ الراجل ، فجمعهما لى . خرّجه مسلم . واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : " هذه الثلاثة الدنانير حظه ونصيبه من غزوته فى أمر دنياه وآخرته " .

التاسعة عشرة ــ فأما العبيد والنساء فمذهب الكتاب أنه لا يُسْهم لهم ولا يُرْضَخ (٣) . وقيل يرضخ لهم؛ وبه قال جمهور العلماء . وقال الأوزاعىّ : إن قاتلت المرأة أسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خَيْبَر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . وإلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا. خرّج مسلم عن ابن عباس أنه كان فى كتابه إلى نَجْدة (٤) : تسألنى هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيُداوين الجرحى ويُحْذَين (٥) من الغنيمة ، وأما بسهم فلم يَضرب لهن . وأما الصبيان فإن كان مطيقا للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونَفْيه حتى يبلغ؛ لحديث ابن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعىّ . والتفرقة بين أن يقاتل فيُسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

---

(١) آخر سورة المزمل . (٢) أحسه : أزيل التراب عنه بالمحسة .
(٣) الرضخ : العطاء ليس بالكثير . (٤) هو نجدة بن عامر الحنفى؛ كان من رؤساء الخوارج .
(٥) يحذين : يعطين الحذوة (بكسر الحاء وضمها) وهى العطية .

الأول؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويُخلَّى منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاقة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر فى الاستيعاب عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم؛ فعُرضت عليه عاماً فألحق غلاما وردّنى، فقلت : يارسول الله، ألحقته ورددتنى، ولو صارعنى صرعته . قال : فصارعنى فصرعته فألحقنى . وأما العبيد فلا يُسْهَم لهم أيضا ويُرْضَخ لهم .

الموفية عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل ففى الإسهام له عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه؛ وبه قال مالك وآبن القاسم . زاد آبن حبيب : ولا نصيب لهم . ويفرق فى الثالث — وهو لسُحْنون — بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يُسهم له، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فان لم يقاتل فلا يستحق شيئا . وكذلك العبيد مع الأحرار . وقال الثَّوْرىّ والأوزاعىّ : إذا آستُعين بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم، ولكن يُرضخ لهم . وقال الشافعىّ رضى الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فان لم يفعل أعطاهم سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال فى موضع آخر : يُرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : اتفق الجميع أن العبد، وهو ممن يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛ فالكافر بذلك أولى ألّا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو خرج العبد وأهل الذمة لصوصا وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا يخمس؛ لأنه لم يدخل فى عموم قوله عز وجل : « وآعْلَمُوا أنّما غَنِمتم من شىء » أحد منهم ولا من النساء . فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال سُحنون . لا يخمس ما ينوب العبد . وقال آبن القاسم : يخمس؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيده فى القتال ويقاتل على الدين؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب فى كتاب محمد : إذا خرج العبد والذمىّ من الجيش وغنما فالغنيمة للجيش دونهم .

الثانيــة والعشرون ــ سبب استحقاق السهم شهود الوقعة لنصر المسلمين ، على ما تقدم . فلو شهد آخر الوقعة ٱستحق . ولو حضر بعد ٱنقضاء القتال فلا . ولو غاب بانهزام فكذلك . فان كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه . روى البخارىّ وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على سَرِيّة من المدينة قِبَل نَجْد ؛ فقدم أبان بن سعيد وأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر بعد أن فتحها ، وإن حُزُم خيلهم لِيف ، فقال أبان : أقسم لنا يا رسول الله . قال أبو هريرة : لا تقسم لهم يا رسول الله . فقال أبان : أنت بها يا وَبْرُ[1] تحدّر علينا من رأس ضالٍ[1] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجلس يا أبان" ولم يقسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثــة والعشرون ــ واختلف العلماء فيمن خرج لشهود الوقعة فمنعه العــذر منه كمرض ؛ ففى ثبوت الإسهام له ونفيه ثلاثة أقوال : يفرق فى الثالث ، وهو المشهور ، فيثبته إن كان الضلال قبل القتال و بعد الإدراب[2] ، وهو الأصح ؛ قاله ٱبن العربىّ . وينفيه إن كان فيه . وكمن بعثه الأمير من الجيش فى أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك عن شهود الوقعة فانه يسهم له ؛ قاله ٱبن المَوّاز ، ورواه ٱبن وهب وٱبن نافع عن مالك . وروى لا يسهم له بل يُرْضَخ له لعدم السبب الذى يستحق به السّهم ، والله أعلم . وقال أشهب : يُسْهم للأسير و إن كان فى الحديد . والصحيح أنه لا يُسهم له ؛ لأنه ملك مستحَقّ بالقتال ؛ فمن غاب أو حضر مريضا كمن لم يحضر .

الرابعــة والعشرون ــ الغائب المطلق لا يُسْهم له ، ولم يُسهِم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قطّ إلا يوم خيبر ؛ فانه أسهم لأهــل الحُدَيْبِية من حضر منهــم ومن غاب ؛ لقول الله عن وجل : « وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا »[3] ؛ قاله موسى بن عقبــة . ورُوى ذلك عن جماعة من السلف . وقسم يوم بدر لعثمان ولسعيد بن زيد وطلحة ، و كانوا غائبين ؛ فهم كمن

(١) الوبر : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء حسنة العينين شــديدة الحياء . والضال : شجر السدر من شجر الشوك .
(٢) أدرب القوم : إذا دخلوا أرض العدو .
(٣) آية ٢٠ سورة الفتح .

حضرها إن شاء الله تعالى . فأما عثمان فإنه تخلف على رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره؛ فكان كمن شهدها . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام في تجارة فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فيعدّ كذلك في أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائبا بالشام أيضا فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود في البدريّين . قال ابن العربي : أما أهل الحديبية فكان ميعادا من الله ٱختص به أولئك النفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة مجمعة على أن من بقي لعذر فلا يُسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثمان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخاري عن ٱبن عمر قال : لما تغيّب عثمان عن بدر فانه كان تحته ٱبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه" .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ؛ فـ « إن » متعلقة بهذا الوعد . وقالت فرقة : إنّ « إنْ » متعلقة بقوله « وٱعلموا أنما غنمتم » . قال ٱبن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله « وٱعلموا » يتضمّن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم ، فعلّق « إنْ » بقوله « وٱعلموا » على هذا المعنى ؛ أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ « ما » في موضع خفض عطف على ٱسم الله . ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر . ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ حزب الله وحزب الشيطان . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أى أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعُدْوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرها ؛ فعلى الضم يكون الجمع عُدًى ، وعلى الكسر عِدًى ، مثل لحية ولحى ، وفرية وفرى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى . من دنا يدنو ، وقَصا يقصو . ويقال : القصيا ، والأصل الواو ، وهى لغة أهل الحجاز قصوى . فالدّنيا كانت مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . أى إذ أنتم نزول بشفير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوّكم بالجانب الأقصى . ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ يعنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا فى موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت فى موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم ، فذكّرهم نعمه عليهم . « الركب » ابتداء « أسفل منكم » ظرف فى موضع الخبر ، أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء « والركبُ أسفلُ منكم » أى أشد تسفلا منكم . والركب جمع راكب . ولا تقول العرب : رَكْب إلا للجماعة الراكبى الإبل . وحكى ابن السِّكِّيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال : راكب وركب إلا للذى على الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والرَّكْب والأَرْكُب والرُّكبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال ؛ عن ابن فارس . ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقلتكم ؛ فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم . فوفق الله عز وجل لكم . ﴿ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدّين . واللام فى «ليقضى» متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم ليقضى ،

ثم (ها فقال : ﴿ لِّيَهْلِكَ ﴾ أى جمعهم هنالك ليقضى أمرا . ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ « من » في موضع رفع . « ويحيا » في موضع نصب عطف على ليهلك . والبينة إقامة الحجة والبرهان . أى ليموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة . وكذلك حياة من يحيا. وقال ابن إسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك . وقرئ « من حيى » بيائين على الأصل . وبيـاء واحدة مشدّدة ، الأولى قراءة أهل المدينة والبزّى وأبى بكر . والثانية قراءة الباقين، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف .

قوله تعـالى : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

قال مجاهـد : رآهم النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه؛ فثبّتهم الله بذلك . وقيل : عنى بالمنام محل النوم وهو العين؛ أى فى موضع منامك، فحذف؛ عن الحسن . قال الزجاج : وهذا مذهب حسن ، ولكن الأولى أسـوغ فى العربية ؛ لأنه قد جاء « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ » فدلّ بهـذا على أن هـذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم . ومعنى ﴿ لَّفَشِلْتُمْ ﴾ لجبنتم عن الحـرب . ﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ اختلفتم . ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أى سلّمكم من المخالفة . ابن عباس : من الفشل . ويحتمل منهما . وقيل : سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ هذا فى اليقظة . ويجوز حمل الأولى على اليقظة أيضا إذا قلت : المنام موضع النوم، وهو العين؛ فتكون الأولى على هذا خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذه للجميع . قال ابن مسعود : قلت لإنسان كان بجانبى

يوم بدر : أتراهم سبعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم؟ فقال : كنا ألفا . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنما هم أكلة جَزُور(١)، خذوهم أخذا وآربطوهم بالحبال. فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا، كما قال : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ » حسب ما تقدم في « آل عمران »(٢) بيانه . ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا؛ لأن المعنى في الأول من اللقاء، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي مصيرها ومردّها إليه .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي جماعة ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأول ـــ آذكروا الله عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يُعين على الثبات في الشدائد . الثاني ـــ اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم؛ فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذكر ، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»(٣). وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس . الثالث ـــ اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم .

---

(١) أي هم قليل ، يشبعهم لحم ناقة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٢٥٠ سورة البقرة .

قلت : والأظهر أنه ذكرُ اللسان الموافقُ للجنان . قال محمد بن كعب القُرَظيّ : لو رُخّص لأحد فى ترك الذكر لرُخّص لزكريا ؛ يقول الله عز وجل : «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا »[1] . ولرُخّص للرجل يكون فى الحرب ؛ يقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » . وقال قتادة : افترض الله جل وعز ذكرَه على عباده ، أشغل ما يكونون عند الضّراب بالسيوف . وحكم هـذا الذكر أن يكون خفيا ؛ لأن رفع الصوت فى مواطن القتال ردىء مكروه إذا كان الذاكر واحدا[2] . فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن ؛ لأنه يَفُتّ فى أعضاد العدوّ . وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال . وروى أبو بُردة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثلَ ذلك . وقال ٱبن عباس : يكره التلثّم عند القتال . قال ٱبن عطية : وبهذا والله أعلم تيمّن[3] المرابطون بطَرْحه عند القتال على صيانتهم به .

قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ هذا ٱستمرار على الوصية لهم ، والأخذ على أيديهم فى اختلافهم فى أمر بَدْر وتنازعهم . ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ نصب بالفاء فى جواب النهى . ولا يُجيز سيبويه حذف الفاء والجزم . وأجازه الكسائىّ . وقرئ « تَفْشِلوا » بكسر الشين . وهو غير معروف . ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالبا فى الأمر . قال الشاعر :

إذا هبّت رياحك فاغتنمها[4] * فإن لكل خافقة سكون

---

(١) آية ٤١ سورة آل عمران . (٢) اضطربت الأصول فى هذه الجملة ؛ ففى بعضها : «... اذا كان العابط واحدا ...» وفى البعض الآخر : «... اذا كان الفاظا فأما ...» . (٣) فى الأصول : «استن» . والتصويب عن تفسير ابن عطية . والظاهر أنه يريد أن المرابطين آثروا التبرك بطرح التلثم عملا بما ورد عن ابن عباس على الصيانة به .

(٤) القافية مرفوعة ، واسم «إنّ» هاهنا ضمير الشأن . وقوله «لكل خافقة سكون» خبرها . ومن هذه القصيدة :

ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قطّ إلا بريح تهبّ فتضرب فى وجوه الكفار . ومنه قوله عليه السلام : "نُصرتُ بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور"(١) . قال الحكم : « وتذهب ريحكم » يعنى الصَّبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمّتُه . وقال مجاهد : وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحُد .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ أمر بالصبر، وهو محمود فى كل المواطن وخاصّة موطن الحرب، كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا »

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

يعنى أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنُصرة العير . خرجوا بالقِيان(٢) والمغنيات والمعازف؛ فلما وردوا الجُحفة بعث خُفاف الكنانى ــ وكان صديقا لأبى جهل ــ بهدايا إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسى مع من خفّ من قومى . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرا فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان ؛ فإن بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد . فوردُوا بدرا ، وجرى ما جرى من هلاكهم . والبَطَر فى اللغة : التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصى . وهو مصدر فى موضع الحال . أى خرجوا بَطِرين مُرائين صادّين . وصدُّهم إضلالُ الناس .

---

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والدّبور : الريح الغربية .

(٢) القيان : جمع قينة ، وهى الأَمَة مغنية كانت أو غير مغنية .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

روى أن الشيطان تمثّل لهم يومئذ فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشم ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر ان يأتوهم من ورائهم ؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما تمثّل لهم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايتـه وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمدّ الله نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ؛ فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة(١) ، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة . وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مُدْلِج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ؛ فلما اصطفّ القوم قال أبو جهل : اللّهُـمّ أولانا بالحق فانصره . ورفع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : " يارَبّ إنك إن تَهلك هـذه العصابةُ فلن تُعبد فى الأرض أبدا " . فقال جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بهـا وجوههم ؛ فـا من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه . فولّوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته ؛ فقال له الرجل : يا سُراقة ، ألم تزعم أنك لنا جار ؛ قال : انى برىء منكم انى أرى مالا ترون ذكره البيهقى وغيره . وفى مُوَطّأ مالك عن إبراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله

(١) مجنبة الجيش : هى التى تكون فى الميمنة والميسرة ، وهما مجنبتان والنون مكسورة . وقيل : هى الكتيبة التى تأخذ إحدى ناحيتى الطريق .

عليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر ". قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال : " أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة (١) " . ومعنى نكص : رجع بلغة سليم؛ عن مؤرج (٢) وغيره . وقال الشاعر :

ليس النكوص على الأدبار مكرمة * إن المكارم إقدام على الأسل (٣)

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين نكوصهم * ولا ضر أهل السابقات التقدم

وليس هاهنا قهقرى بل هو فرار؛ كما قال : " اذا سمع الأذان أدبر وله ضراط " . ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذى أنظر اليه . وقيل : كذب إبليس فى قوله « إنى أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار وجيران، وفى القليل جيرة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٩)

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين فى قلوبهم مرض : الشاكون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفين : غر هؤلاء دينهم . وقيل هما واحد؛ وهو أولى . ألا ترى إلى قوله عز وجل : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » ثم قال « والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ (٤) » وهما لواحد .

(١) يزع الملائكة : أى يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب .
(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسى يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ .
(٣) الأسل : الرماح والنبل .
(٤) آية ٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

قيــل : أراد من بقي ولم يُقتل يوم بدر . وقيل : هي فيمن قُتل ببدر . وجواب «لو» محـذوف ، تقديره : لرأيت أمرا عظيما . ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ في موضع الحـال . ﴿ وُجُوهَهُـمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي أسـتاههم ، كنى عنها بالأدبار؛ قاله مجاهد وسـعيد بن جُبير . الحسـن : ظهورهم؛ وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشِّراك(١) ؟ قال : " ذلك ضرب الملائكة " . وقيل : هذا الضرب يكون عند الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهـم إلى النار . ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفراء : المعنى ويقولون ذوقوا؛ فحذف . وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . وروى أن في بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقامِعُ من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار في الجراحات؛ فذلك قوله : « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » . والذوق يكون محسوسا ومعنًى . وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار؛ تقول : اركب هـذا الفرس فذقه . وانظر فلانا فذق ماعنده . قال الشمّاخ يصف فرسا :

فذاق فأعطتْه من اللين جانبا * كفَى ولهـا أن يغرق السهم حاجزُ

وأصله من الذَّوق بالفم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في موضع رفع؛ أي الأمر ذلك . أو « ذلك » جزاؤكم . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي اكتسبتم من الآثام . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ إذ قد أوضح السبيل وبعث الرسـل ، فلم خالفتم ؟ . « وأنّ » في موضـع خفض عطف على « ما » وإن شئت نصبت ، بمعنى وبأنّ ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك أن الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع نسقا على ذلك .

(١) الشراك : سير النعل .

قوله تعالى : كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

الدأب العادة . وقد تقدّم فى «آل عمران»[1] . أى العادة فى تعذيبهم عند قبض الأرواح وفى القبور كعادة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جُوزى آل فرعون بالغرق . أى دأبهم كدأب آل فرعون .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

تعليل . أى هذا العقاب؛ لأنهم غيّروا و بدّلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسّعة والأمن والعافيـة . « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » الآية[2] . وقال السدّى : نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ، فنُقل إلى المدينة وحلّ بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

ليس هـذا بتكرير؛ لأن الأوّل للعادة فى التكذيب ، والثـانى للعادة فى التغيير ، و باقى الآية بيّن .

قوله تعالى : إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى من يدبّ على وجه الأرض فى علم الله وحكمه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ نظير «الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ»[1] . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى لا يخافون الانتقام . « ومن » فى قوله « منهم » للتبعيض؛ لأن العهد إنما كان يجرى مع أشرافهم ثم ينقضونه . والمعنىّ بهم قُريظة والنضير؛ فى قول مجاهد وغيره . نقضوا العهد فأعانوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا؛ فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق .

قوله تعالى : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

شرطٌ وجوابه . ودخلت النون توكيدا لمّا دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إمّا » فى المجازاة للفرق بين المجازاة والتخيير . ومعنى « تثقفنّهم » تأسرهم وتجعلهم فى ثِقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم فيها وتغلبهم . وهذا لازم من اللفظ؛ لقوله «فى الحرب» . وقال بعض الناس : تصادفنّهم وتلقاهم . يقال : ثقِفته أثقفه ثَقْفا ، أى وجدته . وفلان ثَقِف لَقِف أى سريع الوجود لما يحاوله ويطلبه . وثَقْف لَقْف . وامرأة ثَقَاف . والقول الأول أولى؛ لارتباطه بالآية كما بينا . والمصادف قد يغلب فيمكن التشريد به ، وقد لا يغلب . والثقاف فى اللغة : ما يُشدّ به القناة ونحوها . ومنه قول النابغة :

تدعو قُعَينا وقد عضّ الحديد بها * عضّ الثِّقاف على صُمّ الأنابيبِ[2]

﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى أنذر بهم مَن خلفهم . قال أبو عبيد : هى لغة قريش ، شرّد بهم سمّع بهم . وقال الضحاك : نكّل بهم . الزجاج : افعل بهم فعلا

---

(١) آية ٢٢ من هذه السورة . (٢) القعن (بالتحريك) : قصر فى الأنف فاحش . وقعين : حى مشتق منه؛ وهما قبيلتان : قعين فى بنى أسد وقعين فى قيس عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة؛ وهى كعب القصبة والرمح .

من القتل تفرق به من خلفهم . والتشريد فى اللغة : التبديد والتفريق؛ يقال : شرّدت بنى فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد، تقول : تركته شريدا عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هُذيل :

أُطَوِّف فى الأباطح كل يوم * مخافةَ أن يُشرد بى حكيم

ومنه شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و «مَن» بمعنى الذى؛ قاله الكسائىّ . وروى عن ابن مسعود «فشرذ» بالذال المعجمة، وهما لغتان . وقال قُطْرُب : التشريذ (بالذال المعجمة) التنكيل . وبالدال المهملة التفريق؛ حكاه الثعلبىّ . وقال المَهْدَوىّ : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف فى اللغة « فشرذ » . وقرئ « من خلفهم » بكسر الميم والفاء . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتذكرون بوعدك إياهم . وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم، مَن عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أى غشًّا ونقضا للعهد . ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ وهذه الاية نزلت فى بنى قُريظة وبنى النَّضير . وحكاه الطبرى عن مجاهد . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هـذه الآية بأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة؛ فتترتب فيهم هذه الآية . [وبنو قريظة لم يكونوا فى حدّ من تخاف خيانته]، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة][1] .

الثانيـــة ــ قال ابن العربىّ : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظنّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة . فالجواب من وجهين : أحدهما ــ أن الخوف قد يأتى بمعنى اليقين، كما قد يأتى الرجاء بمعنى العلم؛ قال الله تعالى :

(١) التكملة من تفسير ابن عطية .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا »[(١)] . الثانى – إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادى عليه فى الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا عُلم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمى والرفض . وقال الأزهرى : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد فلا تُوقع بهم سابقا إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ؛ فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه . والمعنى : وإما تخافنّ من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانةً فانبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بيّن هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهرى والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة ؛ فانهم لما نقضوا لم يوجّه إليهم بل قال : " اللّهمّ اقطع خبرنا عنهم " وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية؛ لأن فى قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم . فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يحل ولا يجوز . روى الترمذى وأبو داود عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرُب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ؛ فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر، الله أكبر، [وفاء لا غدر][(٢)]؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضى أمدُها أو ينبذ إليهم على سواء " فرجع معاوية بالناس . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . والسَّواء : المساواة والاعتدال .

---

(١) آية ١٣ سورة نوح . (٢) زيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

وقال الراجز :

فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء * حتى يجيبوك إلى السواء

وقال الكسائيّ : السواء العَدل . وقد يكون بمعنى الوسط؛ ومنه قوله تعالى : « في سَوَاءِ الجَحِيمِ »[1] . ومنه قول حسان :

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِه * بعد المغيَّب في سواء المُلْحَدِ

الفَرّاء : ويقال « فَانْبِذ إليهم على سواء » جهرًا لا سرًّا .

الثالثة — روى مسلم عن أبي سعيد الخُدريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يُرفع له بقدر غدْره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامّة " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غَدَروا وعُلم ذلك منهم ولم ينبذوا بالعهد لم يأمنهم العدوّ على عهد ولا صلح ، فتشتد شوكته ويعظم ضرره ، ويكون ذلك منفِّرا عن الدخول في الدِّين، وموجبا لذمّ أئمة المسلمين . فأما إذا لم يكن للعدوّ عهد فينبغي أن يتحيّل عليه بكل حيلة، وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خَدعة " . وقد اختلف العلماء هل يجاهَد مع الإمام الغادر؛ على قولين . فذهب أكثرهم أنه لا يقاتل معه، بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والقولان في مذهبنا .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم . وقيل : يعني في الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء . والباقون بالتاء، على أن يكون في الفعل ضمير الفاعل . و﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مفعول أوّل . و﴿ سَبَقُوا ﴾ مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم

(١) آية ٥٥ سورة الصافات .

أن هذا لحن لا تحل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَّف الإعراب أو عُرِّفه . قال أبو حاتم : لأنه لم يأت لـ « يحسبن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهـذا تحامل شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسبن مَن خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون الضمير يعود على ما تقدّم ، إلا أن القراءة بالتـاء أبين . المَهْدوِيّ : ومن قرأ بالياء احتمل أن يكون فى الفعل ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون « الذين كفروا سبقوا » المفعولين . ويجوز أن يكون « الذين كفروا » فاعلا ، والمفعول الأوّل محذوف ؛ المعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مَكّيّ : ويجوز أن يضمر مع سبقوا أن ؛ فيسد مسد المفعولين والتقدير : ولا يحسـبن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا »[(١)] فى سد أن مسـد المفعولين . وقرأ ابن عامر « أَنَّهـم لا يُعجزون » بفتح الهمزة . واستبعد هذه القراءةَ أبو حاتم وأبو عُبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى : ولاتحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذى ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحو يين البصريين ، [لا يجوز][(٢)] حسبت زيداً أنه خارج ، إلا بكسر الألف ، وإنما لم يجز لأنه فى موضع المبتدأ ؛ كما تقول : حسبت زيدا [أبوه خارج ، ولو فتحت لصار المعنى حسبت زيدا][(٢)] خروجه . وهـذا محال ، وفيه أيضـا من البعد أنه لا وجه لمـا قاله يصحّ به معنًى ؛ إلا أن يجعل « لا » زائدة ، ولا وجه لتوجيه حرف فى كتاب الله عز وجل الى التطول بغـير حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لا يعجزون . مَكّيّ : فالمعنى لا يحسـبن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أى لا يفوتون . فـ « أنّ » فى موضـع نصب بحذف اللام ، أو فى موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أنّ » ، وهو يُرْوَى عن الخليل والكسائيّ . وقرأ الباقون بكسر « إن » على الاستئناف والقطع مما قبله ، وهو الاختيار ؛ لمـا فيه من معنى التأكيد ، ولأن الجماعة عليه . ورُوِى عن ابن مُحَيْصِن أنه قرأ « لا يعجّزونِ » بالتشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(١) أول سورة العنكبوت .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس يقتضيها السياق .

أن معنى عجّزه ضعّفه وضعّف أمره . والآخر — أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوّة للأعداء بعد أن أكّد تقدمة التقوى . فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ . وكلما تعدّه لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل في عدّتك . قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقِسيّ . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : " وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرميُ ألا إن القوة الرميُ ألا إن القوة الرمي " . وهذا نصّ رواه عن عقبة أبو عليّ ثمامةُ بن شُفَيّ الهَمْدانيّ ، وليس له في الصحيح غيره . وحديث آخر في الرمي عن عقبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستفتح عليكم أرَضُون ويكفيكهم الله فلا يَعْجِزْ أحدكم أن يَلْهُوَ بأسهمه " . وقال صلى الله عليه وسلم : " كلُّ شيء يَلْهُو به الرجل باطل إلا رَمْيَه بقوسه وتأديبَه فرسَه وملاعبتَه أهلَه فإنه من الحق " . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده في العاجل ولا في الآجل فائدةً فهو باطل ، والإعراض عنه أولى . وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهّى بها ويَنْشَط ، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد . فإن الرمي بالقوس وتأديب الفرس جميعا من تعاون القتال . وملاعبة

الأهل قد تؤدّى الى مايكون عنه ولد يوحّد الله و يعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق.
وفى سنن أبى داود والترمذىّ والنَّسائىّ عن عقبة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :
" إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى ومُنْبِلَه" .
وفضل الرمى عظيم ومنفعته عظيمة للسلمين، ونكايته شديدة على الكافرين . قال صلى الله
عليه وسلم : " يابنى إسماعيل آرْمُوا فإن أباكم كان راميا" . وتعلُّم الفروسيّة وآستعمالُ الأسلحة
فرض كفاية . وقد يتعيّن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حَيْوَة
« ومِن رُبُط الخيل » بضم الراء والباء، جمع رباط؛ ككتاب وكتب . قال أبو حاتم عن آبن
زيد : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وجماعته رُبُط . وهى التى ترتبط؛ يقال منه: رَبط
يرْبُط رِبْطا . وارتبط يرتبط آرتباطا . ومربط الخيل ومرابطها وهى ارتباطها بإزاء العدوّ .
قال الشاعر :

أمر الإله بربطها لعــدوّه * فى الحرب إن الله خير موفّق

وقال مكحول بن عبد الله :

تلوم على ربط الجياد وحبسها * وقد أوصى بها اللهُ النبيَّ محمدا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة . وكان لعُروة البارقىّ سبعون فرسا معَدّة للجهاد .
والمستحب منها الإناث؛ قاله عكرمة وجماعة . وهو صحيح؛ فان الأنثى بطنها كنز وظهرها
عِزّ . وفرس جبريل كان أنثى . وروى الأئمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وِزر" الحديث . ولم يخص ذكرا
من أنثى . وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أىّ الرقاب أفضــلُ ؟ فقال : " أغلاها ثمنا وأنفسها عنـد أهلها " . وروى النّسائىّ عن
أبى وهب الجُشَمىّ — وكانت له صحبة — قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم :
" تسمّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وآرتبطوا الخيل

وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلّدوها ولا تقلّدوها الأوتار[(١)] وعليكم بكل كُميت[(٢)] أغرّ مُحجّل أو أشقر أغرّ محجل أو أدهم أغرّ محجّل ". وروى الترمذى عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " خير الخيل الأدهمُ الأقرحُ الأرْثَم[(٣)] [ثم الأقرح[(٤)] المحجّل] طَلْق اليمين[(٥)] فإن لم يكن أدْهَمَ فكُميت على هذه الشِّيَة ". ورواه الدارمى عن أبى قتادة أيضا، أن رجلا قال : يارسول الله، إنى أريد أن أشترى فرسا، فأيّها أشترى؟ قال : " اشتر أدهمَ أرثم محجّلا طَلْق اليد اليمنى أو من الكُميت على هذه الشِّيَة تَغْنم وتسلم ". وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشِّكال من الخيل . والشكال : أن يكون الفرس فى رجله اليمنى بياض وفى يده اليسرى ، أو فى يده اليمنى ورجله اليسرى . خرّجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . ويذكر أن الفرس الذى قُتل عليه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما كان أشكل .

الثالثة ــ فإن قيل : إن قوله « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة » كان يكفى ؛ فلم خص الرمى والخيل بالذكر؟ قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها[(٦)] التى عُقِد الخير فى نواصيها ، وهى أقوى القوة وأشد العُدّة وحصون الفرسان ، وبها يجال فى الميدان ، خصها بالذكر تشريفا ، وأقسم بغبارها تكريما . فقال : « والعاديات ضَبْحًا » الآية . ولما كانت السّهام من أنجع ما يُتعاطى فى الحروب والنِّكاية فى العدو وأقربها تناولا للارواح ، خصّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها . ونظير هذا فى التنزيل : « وجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ[(٧)] » ومثلُه كثير .

الرابعة ــ وقد استدلّ بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح ، واتخاذ الخزائن والخزان لها عُدّة للأعداء . وقد اختلف العلماء فى جواز وقف الحيوان

---

(١) الأوتار : جمع وِتْر (بالكسر) وهو الدم . والمعنى : لاتطلبوا عليها الأوتار والذحول التى وترتم بها فى الجاهلية . وقيل : جمع وَتَر القوس ؛ فانهم كانوا يعلقونها بأعناق الدواب لدفع العين . وهو من شعار الجاهلية ؛ فكره ذلك .

(٢) كميت (بالتصغير) : هو الذى لونه بين السواد والحمرة ؛ يستوى فيه المذكر والمؤنث . والأغر : هو الذى فى وجهه بياض . والمحجل : هو الذى فى قوايمه بياض

(٣) الأرثم : الذى أنفه أبيض وشفته العليا . (٤) الأقرح : هو ما كان فى جبهته قرحة ، وهى بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرة . (٥) أى مطلقها ليس فيها تحجيل . (٦) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره . (٧) آية ٩٨ سورة البقرة .

كالخيل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشافعي رضي الله عنه . وهو أصح ؛ لهذه الآية ، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه في سبيل الله . وقوله عليه السلام في حق خالد : " وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قد احتبس أدراعه وأعتاده[1] في سبيل الله " الحديث . وما رُوى أن امرأة جعلت بعيرا في سبيل الله، فأراد زوجها الحج، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ادفعيه إليه ليحُج عليه فإن الحج من سبيل الله " . ولأنه مال يُنتفع به في وجه قُربة ؛ فجاز أن يوقف كالرِّباع . وقد ذكر السُّهيلي في هذه الآية تسمية خيل النبي صلى الله عليه وسلم، وآلة حربه . من أرادها وجدها في كتاب الأعلام[2] .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يعني تُخيفون به عدوّكم من اليهود وقريش وكفار العرب . ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يعني فارس والروم ؛ قاله السُّدِّي . وقيل : الجنّ . وهو اختيار الطبري . وقيل : المراد بذلك كلُّ من لا نُعرف عداوته . قال السُّهيلي : قيل هم قُريظة . وقيل : هم من الجنّ . وقيل غير ذلك . ولا ينبغي أن يُقال فيهم شيء ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ » ؛ فكيف يدّعي أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله في هذه الآية : " هم الجنّ " . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان لا يخبِل أحدا في دار فيها فرس عتيق " وإنما سُمّي عتيقا لأنه قد تخلّص من الهجانة . وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن المُلَيكي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجنّ لا تقرب دارا فيها فرس، وأنها تنفر من صَهيل الخيل .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي تتصدّقوا ، وقيل : تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم . ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ في الآخرة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة . ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ .

(١) الأعتاد : آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها . راجع الحديث وشرحه في صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .

(٢) هو كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٢ و ٤٣٩ تفسير .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة . والجنوح الميل . يقول : إن مالوا – يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم – إلى المسالمة ؛ أى الصلح ، فمل إليها . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه ؛ ومنه قيل للأضلاع جوانح ؛ لأنها مالت على الحشوة[1] . وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير . وقال ذو الرمة : –

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه * بذكراك والعيس المراسيل جنح[2]

وقال النابغه[3] :

جوانح قد أيقن أن قبيله * إذا ما التقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض . والسلم والسلام هو الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل « للسلم » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقدم معنى ذلك فى « البقرة »[4] مستوفى . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور « فاجنح » بفتح النون ، وهى لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيلى « فاجنُح » بضم النون ، وهى لغة قيس . قال ابن جنى : وهذه اللغة هى القياس .

الثانية – واختلف فى هذه الآية ، هل هى منسوخة أم لا . فقال قتادة وعكرمة : نسخها « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم »[5] . « وقاتلوا المشركين كافة »[6] وقالا : نسخت براءة كل موادعة ، حتى يقولوا لا إله إلا الله . ابن عباس : الناسخ لها « فلا تهنوا وتدعوا إلى

(١) الحشوة (بالضم والكسر) : الأمعاء .   (٢) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير ، وهى التى تعطيك ما عندها عفوا . وجنح : مائلة صدورها الى الأرض . وقيل : مائلة فى سيرها من النشاط .
(٣) فى الأصول : « وقال عنترة » والتصويب عن كتاب البحر لأبى حيان وديوان النابغة .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .   (٥) آية ٥ سورة التوبة .
(٦) آية ٣٦ سورة التوبة .

السَّلْم[١] » . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجِزْية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم، على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه؛ من ذلك خَيْبر، ردّ أهلَها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدّوا النّصف . قال ابن إسحاق : قال مجاهد عنى بهذه الآية قريظة؛ لأن الجزية تقبل منهم، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السدّى وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا نسخ فيها . قال ابن العربى : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ[١] » . فإذا كان المسلمون على عزة وقُوّة ومنَعَة، وجماعة عديدة، وشدّة شديدة فلا صلح؛ كما قال :

فلا صلح حتى تُطعن الخيل بالقنا * وتُضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للسلمين مصلحة فى الصلح ، لنفعٍ يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه، فلابأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضَّمْرىَّ[٢] وأُكَيْدِرَ دُومَة وأهلَ نجران، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سالكة، وبالوجوه التى شرحناها عاملة . قال القُشَيرى : إذا كانت القوة للسلمين فينبغى ألّا تبلغ الهُدْنة سنة . وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادة. وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين . قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة عام الحُدَيْبِية؛ فقال عروة : كانت أربع سنين. وقال ابن جُرَيج : كانت ثلاث سنين . وقال ابن إسحاق : كانت

(١) آية ٣٥ سورة محمد . (٢) الضمرى : هو مخشى بن عمرو الضمرى؛ من بنى ضمرة بن بكر . وكان هذا فى غزوة الأبواء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة . ودومة : هى دومة الجندل ، مدينة قريبة من دمشق .

عشر سنين . وقال الشافعيّ رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين ، على ما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ؛ فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهى منتقضة ، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضى الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث ، وإلى غير مدة . قال المهلّب : إنما قاضاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه القضية التى ظاهرها الوهْن على المسلمين ؛ لسبب حبس الله ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة ، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الفيل" . على ما خرّجه البخاريّ من حديث المِسْوَر بن مَخْرمة . ودلّ على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم ، إذا رأى ذلك الإمام وجهًا . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدوّ ، ولموادعة النبيّ صلى الله عليه وسلم عيينة بن حِصْن الفَزَارِيّ ، والحارث بن عوف المُرِّيّ[(١)] يوم الأحزاب ، على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة ، وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا ، ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة[(٢)] ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ؛ فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : "بل أمر أصنعه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة" ؛ فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قطّ أن ينالوا منا ثمرة ، إلا شراء أو قِرًى ؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة فمحاها .

---

(١) فى الأصول : « ... بن نوفل » والتصويب عن كتب السيرة .

(٢) المراوضة : المداراة والمخاتلة .

قوله تعالى : وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ أى بأن يُظهروا لك السلم ، ويُبطنوا الغدر والخيانة ، فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة . ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ كافيك الله ؛ أى يتولّى كفايتك وحياطتك . قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبُكَ والضّحاكَ سيفٌ مُهنّدُ

أى كافيك وكافى الضحاك سيف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ أى قوّاك بنصره . يريد يوم بدر . ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النعمان بن بشير : نزلت فى الأنصار . ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى جمع بين قلوب الأَوْس والخَزْرج . وكان تألّف القلوب مع العَصبية الشّديدة فى العرب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها . وكانوا أشدّ خلق الله حَمِيّة ، فألّف الله بالإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدِّين . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾

ليس هذا تكريرا ؛ فإنه قال فيما سبق : «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» وهذه كفاية خاصة . وفى قوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » أراد التعميم ؛ أى حسبك الله فى كل حال . وقال ابن عباس : نزلت فى إسلام عمر ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستّ نسوة ؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكية ، كُتبت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورة مدنيّة ؛ ذكره القُشيريّ .

قلت : ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ابن عباس ؛ فقد وقع في السيرة خلافه . عن عبد الله بن مسعود قال : ما كنا نقدر على أن نصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحبشة . قال ابن إسحاق : وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ، إن كان عمّار بن ياسر منهم . وهو يُشكّ فيه . وقال الكلبي : نزلت الآية بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون والأنصار . وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافي من تبعك ؛ قاله الشَّعْبي وابن زيد . والأول عن الحسن . واختاره النحاس وغيره . فـ « من » على القول الأول في موضع رفع ، عطفا على اسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثاني على إضمار . ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : " يكفينيه الله وأبناء قَيْلة[1] . وقيل : يجوز أن يكون « ومن اتبعك من المؤمنين » حسبهم الله ؛ فيضمر الخبر . ويجوز أن يكون « من » في موضع نصب ، على معنى : يكفيك الله ويكفي من اتبعك[2] .

---

(١) يريد الأوس والخزرج ، قبيلتي الأنصار . وقيلة اسم أم لهم قديمة ، وهي قيلة بنت كاهل .

(٢) اضطربت عبارة الأصول هنا . والذي في إعراب القرآن للنحاس : « يأيها النبي حسبك الله : ابتداء وخبر ؛ أي كافيك الله . ويقال : أحسبه إذا كفاه . « ومن اتبعك » في موضع نصب معطوف على الكاف في التأويل ؛ أي يكفيك الله عز وجل ويكفي من اتبعك ؛ كما قال :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيف مهند

ويجوز أن « من اتبعك » في موضع رفع . وللنحويين فيه ثلاثة أقوال : قال أبو جعفر : سمعت علي بن سليمان يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز ؛ أي حسبك الله ومن اتبعك . قال : ومثله قول النبي عليه السلام : « يكفينيه الله عز وجل وأبناء قيلة » .

والقول الثاني — أن يكون التقدير : ومن اتبعك من المؤمنين كذلك ؛ على الابتداء والخبر ؛ كما قال الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المال الا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ

والقول الثالث أحسنها — أنه يكون على إضمار ، بمعنى وحسبك من اتبعك . وهكذا الحديث على إضمار . وتركنا القول الأول ؛ لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أنه يقال : ما شاء الله وشئت . والثاني — فالشاعر مضطر ؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غير هذا » .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أي حُثَّهم وحُضَّهم . يقال : حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبّ بمعنًى واحد . والحارض : الذي قد قارب الهلاك؛ ومنه قوله عز وجل : « حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا »(١) أي تذوب غماً ، فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين . ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ لفظ خبر ، ضمنه وعدٌ بشرط؛ لأن معناه إن يصبر منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وعشرون وثلاثون وأربعون كلّ واحد منها آسم موضوع على صورة الجمع لهذا العدد . ويجرى هذا الآسم مجرى فِلسطين . فإن قال قائل : لم كُسر أوّل عشرين وفُتح أول ثلاثين وما بعده إلى الثمانين إلا ستّين؟ فالجواب عند سيبويه أن عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد؛ فكسر أوّل عشرين كما كسر اثنان . والدليل على هذا قولهم : ستون وتسعون؛ كما قيل : ستة وتسعة . وروى أبو داود عن آبن عباس قال : نزلت « إِن يكن منكم عِشرون صابِرون يغلبوا مِائتين » فشقّ ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم ألّا يفرّ واحد من عشرة؛ ثم إنه جاء التخفيف فقال : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ . قال : فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفّف عنهم . وقال ابن العربيّ : قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونُسخ . وهذا خطأ من قائله . ولم يُنقل قطّ أن المشركين صافّوا المسلمين عليها ، ولكن البارى جل وعز

---

(١) آية ٨٥ سورة يوسف .

فرض ذلك عليهم أولا، وعلّق[1] ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه، وهو الثواب . وهم لايعلمون ما يقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض . ثم لما شقّ ذلك عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين؛ فخفّف عنهم وكتب عليهم ألّا يفر مائة من مائتين؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضى ابن الطيّب أن الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه، أو غيّر عدده فجائز أن يقال إنه نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول، بل هو غيره . وذكر فى ذلك خلافا .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أَسْرَى ﴾ جمع أسير؛ مثلُ قتيل وقتْلَى وجَريح وجَرْحَى . ويقال فى جمع أسير أيضا : أُسارَى (بضم الهمزة) وأَسارَى (بفتحها) وليست بالعالية . وكانوا يَشُدّون الأسير بالقِدّ وهو الإسار؛ فسُمِّيَ كل أخيذ وإن لم يُؤسر أسيرا . قال الأعشى :

وقَيَّدنى الشّعر فى بيتِه * كما قَيّد الآسِراتُ الحِمارا

وقد مضى هذا فى سورة « البقرة »[2] . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون رَبْطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانيــة ــ هذه الآية نزلت يوم بدر، عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيّه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون النبىّ

(١) هكذا فى نسخ الأصل ؛ والذى فى ابن العربى : « وعلله بأنكم ... الخ »

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢١ طبعة ثانية .

صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان (١) . ولهم هذا الإخبارُ بقوله « تريدون عرض الدنيا » .
والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا،
وإنما فعله جمهور مباشري الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على
النبيّ صلى الله عليه وسلم بأخذ الفدية . هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذى لا يصح غيره.
وجاء ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الآية حين لم يَنْهَ عنه حين رآه من العَرِيش وإذ كره سعد
ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغَله بَغْتُ الأمر ونزولُ
النصر فترك النّهى عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدم أوله فى « آل عمران (٢) » وهذا تمامه .
قال أبو زُمَيل : قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى "؟ فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، هم بنو العم
والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فِديةً، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم
للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماترى يابن الخطاب "؟ قلت : لا والله
يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكّنّا فنضربَ أعناقهم، فتمكّن
عليًّا من عَقِيل فيضربَ عنقه، وتمكّنّى من فلان (نسيباً لعمر) فأضربَ عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة
الكفر وصناديدُها . فهَوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلما
كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدَيْن يبكيان؛ فقلت
يارسول الله، أخبرنى من أىّ شىء تبكى أنت وصاحبُك؛ فإن وجدتُ بكاء بكيتُ، وإن لم أجد
بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبكى للذى عَرَضَ علىّ أصحابُك
من أخذهم الفداء لقد عُرِض علىّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة " (شجرة قريبة من نبىّ الله
صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل «ما كان لِنَبِيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ فى الأرض»
إلى قوله تعالى : «فكُلُوا مما غَنِمتم حلالا طيِّبًا» فأحلّ الله الغنيمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الإثخان فى الشىء : المبالغة فيه والإكثار منه، والمراد به هنا : المبالغة فى قتل الكفار .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قال : أخبرنا يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مُرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ترون في هؤلاء الأسارى " فقال أبو بكر : يارسول الله قومُك وأهلُك، استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم . وقال عمر: كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة: أُنظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعتَ رحمك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردّ عليهم شيئا. فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه . وقال أناس: يأخذ بقول عمر . وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله لَيُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويُشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنك غَفُورٌ رَحِيمٌ » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إِنْ تُعَذِّبْهُم فإنهم عِبَادُكَ وإن تَغفِرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّارًا » . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ » أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق . فقال عبد الله : إلا سُهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل: « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثخِن في الأرض » إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كاد ليصيبنا في خلاف ابن الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر" . وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ ــ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الفداء ، أنزلَ الله عز وجل « ما كان لِنَبِيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض» إلى قوله « لمسكم فيما أخذتم ــ من الفداء ــ عَذَابٌ عظيمٌ » . ثم أحل الغنائم . وذكر القُشيري ان سعد بن معاذ قال : يا رسول الله، إنه أوّل وقعة لنا مع المشركين

فكان الإثخان أحبَّ إلى . والإثخان : كثرة القتل؛ عن مجاهد وغيره . أي يبالغ في قتا المشركين . تقول العرب : أثخن فلان في هذا الأمر أي بالغ . وقال بعضهم : حتى يُقهِر ويَقتُل . وأنشد المفضّل :

تصلّى الضحى ما دهرها بتعبّد * وقد أثخنت فرعون في كفره كفرا

وقيل : « حتى يُثخِن » يتمكّن . وقيل : الإثخان القوة والشدّة . فأعلم الله سبحانه وتعالى أن قتل الأسرى الذين فُودُوا ببدر كان أولى من فداهم . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدّ سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا في الأسارى : « فإمّا منًّا بعدُ وإمّا فداءً » على ما يأتي بيانه في سورة « القتال » إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إنما عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف في صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملّك . ذلك كلّه عظا الموقع، فكان حقهم أن ينتظروا الوحى ولا يَستعجلوا؛ فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجّه عل ما توجّه . والله أعلم .

الثالثة — أسند الطبرى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : "إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويُقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قُتلوا وسَلِمتم "/. فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حُميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بتخيير الناس هكذا . وقد مضى في « آل عمران » القول في هذا . وقال عَبيدة السّلْمانيّ : طلبوا الخيرتين كلتيهما؛ فقتل منهم يوم أُحُد سبعون . وينشأ هنا إشكال وهى : —

الرابعة — وهو أن يقال : اذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لَمَسَّكُمْ » ؟ فالجواب — أن التوبيخ وقع أوّلا لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عُقبة بن أبي مُعَيط : أسيرى يا رسول الله . وقال مُصعب بن عُمير للذى أسر أخاه : شُدّ عليه يدك، فإن له أمًّا

موسرة . إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحصّل الاسارى وسيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتلَ في النضر وعقبةَ وغيرِهما وجعل يرتئي في سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل؛ فآستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه حينئذ، فمرّ عمر على أوّل رأيه في القتل ، ورأى أبو بكر المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبي بكر . وكلا الرأيين آجتهاد بعد تخيير . فلم ينزل بعدُ على هذا شيء من تعنيته . والله أعلم .

الخامســـة ـــ قال ابن وهب : قال مالك كان ببدر أسارى مشركون فأنزل الله «ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض» . وكانوا يومئذ مشركين وفادَوْا ورجعوا ، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عِدّة من قُتل منهم أربعة وأربعين رجلا؛ ومثلهم أسروا . وكان الشهداء قليلا . وقال عمرو بن العلاء : إن القتلى كانوا سبعين ، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيِّب وغيرهم . وهو الصحيح كما في صحيح مسلم؛ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البَيْهَقِيّ قالوا : يجيء بالأسارى وعليهم شُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أحصوا ، وهم سبعون في الأصل ، مُجْتَمع عليه لا شك فيه . قال ابن العربيّ : إنما قال مالك « وكانوا مشركين» لأن المفسرين رووا أن العباس قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إني مسلم . وفي رواية أن الأسارى قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعّفه مالك ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غَزَوه في أُحُد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا في وقت إسلام العباس؛ فقيل : أسلم قبل بدر؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من لَقِيَ العبّاس فلا يقتله فإنما أخرج كرها " . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: " إن أناسا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقِيَ أبا البَخْتَرِيّ فلا يقتله ومن لقِيَ العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها " وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسر يوم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر، وكان يكتب

لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا " .

قوله تعالى : لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ في أنه لا يعذّب قوما حتى يبيّن لهم ما يتقون . واختلف الناس في كتاب الله السابق على أقوال؛ أصحها ماسبق من إحلال الغنائم، فإنها كانت محرّمة على من قبلنا . فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله عزّ وجل « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ » أي بتحليل الغنائم . وروى أبو داود الطّيالسيّ في مسنده حدثنا سلام عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : لما كان يوم بدر تعجّل الناس إلى الغنائم فأصابوها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الغنيمة لاتحلّ لأحد سود الرءوس غيركم" . فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار من السماء فأكلتها؛ فأنزل الله تعالى : «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» إلى آخر الآيتين . وأخرجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح ، وقاله مجاهد والحسن . وعنهما أيضا وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر، ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب، معيّنا . والعموم أصح؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر في أهل بدر : "وما يُدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" . خرّجه مسلم . وقيل : الكتاب السابق هو ألّا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم . وقيل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدا بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدم إليه . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما قضى الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . وذهب الطبريّ إلى أن هذه المعاني كلّها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمّها ، ونكّب عن تخصيص معنًى دون معنًى .

الثانيــة ــ ابن العربى : وفى الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراما مما هو فى علم الله حلال له لا عقوبة عليه ؛ كالصائم إذا قال : هذا يوم نوبى[1] فأفطر الآن . وتقول المرأة : هذا يوم حيضتى فأفطر، ففعلا ذلك، وكان النوب والحيض الموجبان للفطر، ففى المشهور من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا كفارة عليه، وهى الرواية الأخرى . وجه الرواية الأولى أن طرق الإباحة لا يثبت عذرا فى عقوبة التحريم عند الهتك؛ كما لو وطئ امرأة ثم نكحها . وجه الرواية الثانيــة أن حرمة اليوم ساقطةٌ عند الله عز وجل فصادف الهتك محلا لا حرمة له فى علم الله ؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطء امرأة قد زُفّت إليه وهو يعتقدها أنها ليست بزوجته فإذا هى زوجته . وهذا أصح . والتعليل الأوّل لا يلزم ؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى فى مسئلة التحريم، وفى مسئلتنا اختلف فيها علمنا وعلمُ الله فكان المعوّل على علم الله . كما قال : «لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم» .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يقتضى ظاهره أن تكون الغنيمة كلّها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيهـا على السواء؛ إلا أن قوله تعالى : «واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه» بيّن وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة . وقد تقدم القول فى هذا مستوفًى .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فيه ثلاث مسائل :

(١) النوب : ما كان منك مسيرة يوم وليلة . وقيل : على ثلاثة أيام . وقيل : ما كان على فرسخين أو ثلاثة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقيل : له وحدَه . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأسرى فى هذه الآية عباس وأصحابه . قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسولُ الله ، لننصحَنّ لك على قومك ؛ فنزلت هذه الآية . وقد تقدّم بطلان هذا من قول مالك . وفى مصنَّف أبى داود عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وعن ابن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أسراهم ؛ ففَدَى كلّ قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس . يا رسول الله ، إنى قد كنت مسلما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يَجزيك بذلك فأمّا ظاهر أمرك فكان علينا فافْدِ نفسك وابنى أخويك نوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب وعَقيل بنَ أبى طالب وحليفَك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر" . وقال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : "فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل فقلتَ لها إن أصبتُ فى سفرى هذا فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقُثَم" ؟ فقال : يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أمّ الفضل ، فاحْسُب لى يا رسول الله ما أصبتم منّى عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا . ذاك شىء أعطانا الله منك" . ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، وأنزل الله فيه : « يأيها النّبىّ قل لِمَنْ فى أيديكم مِن الأَسْرَى » الآية . قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى فداءً العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلا موسرا ، فافتدى نفسه بمائة أوقيّة من ذهب . وفى البخارىّ : وقال موسى بن عقبة قال ابن شهاب : حدّثنى أنس ابن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، ائذن لنا فلْنترك لابن أختنا عباس فداءه . فقال : "لا والله لا تذرون درهما" . وذكر النقاش وغيره أن فداء كلّ واحد من الأسارى كان أربعين أوقية ، إلا العباس فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أضعفوا الفداء على العباس" وكلّف أن يَفدى ابنى أخويه عقيل بن أبى طالب

ونوفل بن الحارث فأدّى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقيّة وأخذ منه عشرون وقت الحرب . وذلك أنه كان أحدَ العشرة الذين ضَمِنوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النَّوبة إليه يوم بدر فاقتتلوا قبل أن يُطعم، وبقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب ؛ فأخذ منه يومئذ مائة أوقيّة وثمانون أوقية. فقال العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني ما حييتُ أسأل قريشا بكَفّي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أين الذهب الذى تركته عند امرأتك أمّ الفضل " ؟ فقال العباس : أيّ ذهب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك قلتَ لها لا أدرى ما يصيبني فى وجهي هذا فإن حدث بى حدث فهو لك ولولدك " فقال : يابن أخى ، من أخبرك بهذا ؟ قال : " الله أخبرنى " . قال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قطّ الا اليوم ، وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، وكفرتُ بما سواه، وأمر ابنى أخويه فأسلما؛ ففيهما نزلت « يأيّها النّبيُّ قل لمن فى أيديكم من الأَسْرَى » . وكان الذى أسر العباس أبا اليَسَر كعبَ بن عمرو أخا بنى سلمة ، وكان رجلا قصيرا ، وكان العباس ضخما طويلا ؛ فلما جاء به الى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : " لقد أعانك عليه مَلَك " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ أى إسلاما . ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ أى من الفدية . قيل فى الدنيا . وقيل فى الآخرة . وفى صحيح مسلم أنه لما قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس : إنى فاديت نفسى وفاديتُ عقيلا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذ" فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله . مختصر . فى غير الصحيح : فقال له العباس هذا خير مما أُخذ منّى،وأنا بعدُ أرجو أن يغفر الله لى . قال العباس: وأعطانى زمزم، وما أُحبُّ أن لى بها جميعَ أموال أهل مكة. وأسند الطبريّ إلى العباس أنه قال : فىّ نزلت حين أعلمت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى ، وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقيّة التى أُخذت منّى قبل المفاداة فأبى . وقال : "ذلك فَىْءٌ" فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبدا كلّهم تاجرٌ بمالى . وفى مصنَّف أبى داود عن

عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها"؟ فقالوا نعم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب اليه. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال: "كونا ببطن يأجج[1] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها". قال ابن اسحاق: وذلك بعد بدر بشهر. قال عبد الله بن أبي بكر: حدثت عن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت: لما قدم أبو العاص مكة قال لي: تجهزي، فالحقي بأبيك. قالت: فخرجت أتجهز فلقيتني هند بنت عتبة فقالت: يابنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت لها: ما أردت ذلك. فقالت: أي بنت عم، لا تفعلي، إني امرأة موسرة وعندي سلع من حاجتك، فان أردت سلعة بعتكها، أو قرضا من نفقة أقرضتك، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت: فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، فخفتها فكتمتها وقلت: ما أريد ذلك. فلما فرغت زينب من جهازها ارتحلت وخرج بها حموها يقود بها نهارا كنانة بن الربيع. وتسامع بذلك أهل مكة، وخرج في طلبها هبار بن الأسود ونافع بن عبدالقيس الفهري، وكان أول من سبق اليها هبار فروعها بالرمح وهي في هودجها. وبرك كنانة ونثر نبله، ثم أخذ قوسه وقال والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما. وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش فقال: يا هذا، أمسك عنا نبلك حتى نكلمك، فوقف عليه أبو سفيان وقال: إنك لم تصنع شيئا، خرجت بالمرأة على رءوس الناس، وقد عرفت مصيبتنا التي أصابتنا ببدر فتظن العرب وتحدث أن هذا وهن منا وضعف خروجك إليه بابنته على رءوس الناس من بين أظهرنا. ارجع بالمرأة فاقم بها أياما، ثم سلها سلا رفيقا في الليل فالحقها بأبيها، فلعمري ما لنا

---

(١) يأجج (كيسمع وينصر ويضرب): موضع بمكة.

بحسبها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك الآن من ثُؤْرة(١) فيما أصاب منا ؛ ففعل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلها ؛ فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألقت ــ للروعة التى أصابتها حين روعها هَبّار بن أم درهم ــ ما فى بطنها .

الثالثة ــ قال ابن العربى : «لما أُسِر مَن أُسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . وإذا وُجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا ؛ إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » . وجمع خيانة خيائن ، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الواو ، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة . ويقال : خائن وخُوّان وخَوَنة وخانة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

(١) الثؤرة (بالضم) : الثأر .

إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليّه الذى يستعين به . وقد تقدّم معنى الهجرة والجهاد لغةً ومعنًى[1] . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾ معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، وانضوى اليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرون . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ابتداء ثان ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ خبره، والجميع خبر « إنّ » . قال ابن عباس : «أولياء بعض» فى الميراث؛ فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر مَن هاجر فنسخ الله ذلك بقوله : «وأولوا الأرحام» الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لذوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهل ملّتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السلام : " ألحقوا الفرائض بأهلها " على ما تقدّم بيانه فى آية المواريث . وقيل : ليس هنا نسخ، و إنما معناه فى النصرة والمعونة؛ كما تقدّم فى «النساء»[2] .

﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابتداء والخبر ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « من وِلايتهم» بكسر الواو . وقيل هى لغة . وقيل : هى من وليت الشيء؛ يقال : ولىٌّ بيّن الوَلاية . ووالٍ بيّن الوِلاية . والفتح فى هذا بيّن وأحسن ؛ لأنه بمعنى النصرة والنسب . وقد تطلق الوِلاية والوَلاية بمعنى الإمارة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم . إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته . آبن العربى : إلا أن يكونوا [أسراء][1] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ؛ حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى آستخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما حلّ بالخلق فى تركهم إخوانهم فى أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد . الزجاج : ويجوز « فعليكم النصر » بالنصب على الإغراء .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ؛ فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم . قال علماؤنا فى الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوّجها ؛ إذ لا ولاية بينهما ، ويزوّجها أهل ملّتها . فكما لا يزوّج المسلمة إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوّجها إلا كافر قريب لها ، أو أسقف ، ولو من مسلم ؛ إلا أن تكون معتقة ؛ فإن عُقد على غير المعتقة فُسخ إن كان لمسلم ، ولا يعرض للنصرانى . وقال أصبغ : لا يفسخ ، عقد المسلم أولى وأفضل .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها . المعنى : إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون ؛ قاله آبن زيد . وقيل : هى عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة وآتصال الأيدى . آبن جُريج وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب ؛ فهو آكد من الأول . وذكر الترمذى عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمُز عن محمد وسعد آبنى عبيد عن أبى حاتم المزنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون

(١) زيادة عن آبن العربى .

دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير". قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه؟ قال : "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه" ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذى تضمّنه قوله : « إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للسلمين فى الدين . وهو معنى القول الثانى . قال ابن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته فى الدّين دون من سواهم ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض . ثم قال : ﴿ إلّا تفعلوه ﴾ وهو أن يتولّى المؤمنُ الكافرَ دون المؤمنين. ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ ﴾ أى محنة بالحرب، وما انجرّ معها من الغارات والجلاء والأسر . والفسادُ الكبير : ظهور الشرك. قال الكسائىّ : ويجوز النصب فى قوله «تكن فتنة» على معنى تكن فعلتكم فتنة وفسادا كبيرا .﴿ حَقًّا ﴾ مصدر، أى حقّقوا إيمانهم بالهجرة والنُّصرة . وحقق الله إيمانهم بالبشارة فى قوله : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم فى الجنة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يريد من بعد الحُدَيْبِية وبيعة الرضوان . وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقلّ رتبة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانية هى التى وقع فيها الصلح ، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهذا قال عليه السلام : "لا هجرة بعد الفتح" . فبيّن أن من آمن وهاجر من بعدُ يُلحق بهم . ومعنى « منكم » أى مثلكم فى النّصر والموالاة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ابتداء . والواحد ذو ، والرّحم مؤنّثة ، والجمع أرحام . والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم . ومما يبيّن أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وَصَلَتْكَ رَحِمٌ . لا يريدون قرابة الأم . قالت قُتَيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث — كذا قال ابن هشام . قال السُّهَيْلِىّ : الصحيح أنها بنت النضر لا أخته ، كذا وقع فى كتاب الدلائل — ترثى أباها حين قتله النبىّ صلى الله عليه وسلم صَبْرًا — بالصَّفْراء :

يا راكباً إن الأثيل مظنةٌ * من صُبح خامسةٍ وأنت مُوفّقُ
أبلغ بها ميْتاً بأن تحيّة * ما إن تزال بها النجائبُ تخفقُ
منّي إليك وعبرةً مسفوحةً * جادت بواكِفها وأخرى تخنقُ
هل يسمعنّي النضرُ إن ناديتُه * أم كيف يسمع ميّتٌ لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءِ(١) كريمةٍ * في قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضرّك لو مننتَ وربّما * منّ الفتى وهو المَغيظ المُحنَق
لو كنتَ قابلَ فديةٍ لفديتُه * بأعزّ ما يفْدَى به ما ينْفِق
فالنضرُ أقربُ مَن أسرتَ قرابةً * وأحقُّهم إن كان عتقٌ يُعتَق
ظلّت سيوفُ بني أبيه تنوشُه * لله أرحامٌ هناك تُشقّق
صبراً يُقاد إلى المنيّة مُتعَباً * رَسْفَ المقيَّد وهو عانٍ مُوثَق

السابعة ــ وٱختلف السلف ومَن بعدهم في توريث ذوي الأرحام ــ وهو من لا سهم له في الكتاب ــ من قرابة الميت وليس بعصبة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعمّ أخ الأب للأم، والجدّ أبي الأم، والجدة أم الأم، ومن أدلى بهم. فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام. ورُوي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وٱبن عمر، ورواية عن عليّ، وهو قول أهل المدينة، ورُوي عن مكحول والأوزاعي، وبه قال الشافعيّ رضي الله عنه. وقال بتوريثهم: عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدرداء وعائشة وعليّ في رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق. واحتجّوا بالآية، وقالوا: وقد ٱجتمع في ذوي الأرحام سببان القرابة والإسلام؛ فهو أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام. أجاب الأوّلون فقالوا: هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قَرُب أو بَعُد، وآيات المواريث مفسَّرة والمفسَّر قاضٍ على المجمل ومبيّن. قالوا: وقد جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم الوَلاء سببا ثابتا، أقام المَوْلى فيه مُقام العصبة فقال: "الولاء لمن

(١) الضنء (بالكسر): الأصل.

أعتق". ونهى عن بيع الولاء وعن هبته . احتجّ الآخرون بما روى أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن المقدام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك كَلًّا فإليّ — وربما قال فإلى الله وإلى رسوله — ومن ترك مالًا فلورثته فأنا وارث من لا وارث له أعقِل عنه وأرثه والخال وارث من لا وارث له يَعقِل عنه ويرثه " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن طاوس قال قالت عائشة رضي الله عنها : " الله مَوْلَى من لا مَوْلَى له ، والخال وارث من لا وارث له " . موقوفٌ . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخال وارث" . ورُوى عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال "لا أدرى حتى يأتيني جبريل" ثم قال : " أين السائل عن ميراث العمة والخالة " ؟ قال : فأتى الرجل فقال : "سارّني جبريل أنه لا شيء لهما". قال الدّارقطنيّ : لم يسنده غير مَسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . ورُوى عن الشعبيّ قال قال زياد بن أبي سفيان لجليسه : هل تدرى كيف قضى عمر في العمة والخالة؟ قال لا . قال : إني لأعلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب .

تفسير سورة براءة

مدنية باتفاق

قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ فى أسمائها . قال سعيد بن جُبير: سألت ابن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة، ما زال ينزل : ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع أحدا . قال القُشيرى أبو نصر عبد الرحيم : هذه السورة نزلت فى غزوة تبُوك، ونزلت بعدها . وفى أولها نبذُ عهود الكفار إليهم . وفى السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمّى الفاضحة والبحُوث، لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . وتسمّى المبعثرة . والبعثرة : البحث .

الثانيــة ــ واختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة على أقوال خمسة : الأوّل ــ أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبيّ صلى الله عليه وسلم علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ؛ فقرأها عليهم فى الموسم، ولم يُبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهد من ترك البسملة . وقول ثان ــ روى النّسائىّ قال حدّثنا أحمد قال حدّثنا محمد بن المثنّى عن يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف قال حدّثنا يزيد الرّقاشىّ[1] قال قال

---

(١) قد يمتى الأصول: « الرواسى » . والذى فى صحيح الترمذى: « الفارسى » . قال الترمذى تعقيبا عليه : « ... حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد الفارسى قد روى عن ابن عباس غير حديث . ويقال: هو يزيد بن هرمز؛ ويزيد الرقاشى هو يزيد بن أبان الرقاشى ، ولم يدرك ابن عباس ، إنما روى عن أنس بن مالك ، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسى أقدم من يزيد الرقاشى » .

لنا ابن عباس : قلت لعثمان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهي من المثاني، و إلى « براءة » وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطول[1] ؛ فما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : "ضعوا هذا في السورة التي فيها كذا وكذا". وتنزل عليه الآيات فيقول: "ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا". وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل، و « براءة » من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها فظننت أنها منها ؛ فمن ثَمّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرّجه أبو عيسى الترمذي وقال : هذا حديث حسن . وقول ثالث — رُوي عن عثمان أيضا . وقال مالك فيما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أوّلها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . ورُوي ذلك عن ابن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها ؛ فلذلك لم يُكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم . وقال سعيد بن جُبير : كانت مثل سورة البقرة . وقول رابع — قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . فتُركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان، وتُركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ؛ فرضي الفريقان معاً، وثبتت حجتاهما في المصحف . وقول خامس — قال عبد الله بن عباس . سألت عليّ بن أبي طالب لِمَ لَم يُكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة . ومثله عن سفيان . قال سفيان بن عُيينة : إنما لم

---

(١) السبع الطول : سبع سور، وهي سورة البقرة، وآل عمران ، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف فهذه ست سور متواليات . واختلفوا في السابعة ؛ فنهم من قال : السابعة الأنفال و براءة ؛ وعدهما سورة واحدة . ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

تكتب في صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين . والصحيح أن التسمية لم تكتب ؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة؛ قاله القُشيري . وفي قول عثمان : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبيينه ، وأن براءة وحدها ضُمّت إلى الأنفال من غير عهد من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما عاجله من الحِمام قبل تبيينه ذلك . وكانتا تُدعيان القرينتين ، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذي لزمهما من الاقتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ .

الثالثة ــ قال ابن العربي : هذا دليل على أن القياس أصلٌ في الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيانِ الصحابة كيف لجئوا إلى قياس الشّبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة « الأنفال » فألحقوها بها؛ فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام .

الرابعة ــ قوله تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ تقول: برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا منه برئ، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه . و«براءة» رفع على خبر ابتداء مضمر، تقديره هذه براءة . ويصح أن ترفع بالابتداء . والخبر في قوله : « إِلَى الَّذِينَ ». وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفا ما وجاز الإخبار عنها . وقرأ عيسى بن عمر « براءةً » بالنصب ، على تقدير التزموا براءة ، ففيها معنى الإغراء . وهي مصدر على فَعالة ؛ كالشّناءة والدّناءة .

الخامسة ــ قوله تعالى: ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني إلى الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان المتولّي للعقود، وأصحابُه بذلك كلهم راضون؛ فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنُسب العقد إليهم . وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوبٌ إليهم محسوبٌ عليهم يؤاخَذون به ، إذ لا يمكن غير ذلك ؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر . فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمرًا لزم جميع الرعايا .

قوله تعالى : فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب ، أى قُل لهم سِيحُوا أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر . يقال: ساح فلان فى الأرض يَسيح سِياحة وسُيُوحا وسَيَحانا؛ ومنه السَّيْح فى الماء الجارى المنبسط؛ ومنه قول طَرَفَة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما نِلْتَنِى * حتى ترى خيلا أمامى تَسِيح

الثانيـــة ـــ وآختلف العلماء فى كيفية هذا التأجيل ، وفى هؤلاء الذين بَرِئَ الله منهم ورسولُه . فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صِنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقُصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه . ثم هو حَرْب بعد ذلك لله ولرسوله وللؤمنين، يُقتل حيث ما أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر . فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحُرُم . وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجة والمحرّم . وقال الكَلْبِىّ : إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر ، ومَن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذى أمر الله أن يُتم له عهده بقوله «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » وهذا آختيار الطبرى وغيره . وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما : أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحُدَيْبِيَة، على أن يضعوا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش، فعَدَت

بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك دَمًّا كان لبني بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة ؛ فلما كانت الهُدْنة المنعقدة يوم الحديبية، أمِن الناس بعضهم بعضا، فاغتنم بنو الدِّيل من بني بكر ــ وهم الذين كان الدم لهم ــ تلك الفرصةَ وغفلةَ خزاعة ، وأرادوا إدراكَ ثأر بني الأسود بن رزن[1]، الذين قتلهم خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مَناة، حتى بيّتوا[2] خزاعة واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم ؛ فانهزمت خزاعة إلى الحَرَم على ما هو مشهور مسطور[3] ؛ فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبُديل بن وَرْقاء الخزاعي وقوم من خزاعة، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، وأنشده عمرو بن سالم فقال :

يا ربِّ إني ناشِــدٌ محمّدا * حِلْفَ أبينا وأبيــه الأَتْلَدا
كنتَ لنا أبًا وكنّا وَلَدا * ثُمّتَ أسلمنا ولم ننزِع يَدا
فانصر هداكَ الله نصرًا عَتَدا * وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَـدَدا
فيهم رسول الله قــد تجرّدا * أبيضَ مثلَ الشمس يَنْمُو صُعُدا
إن سِيمَ خَسْفًا وجهُه تَرَبّـدا * في فَيْلَقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا
إنّ قريشـا أخلفوك الموعِدا * ونقضوا ميثاقَــك المؤكّدا
وزعموا أن لستَ تدعو أحدا * وهـــم أذلّ وأقلّ عــددا
هم بيّتـونا بالوَتِير[4] هُجَّــدا * وقتلونا رُكّعًا وسُجّــدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب" . ثم نظر إلى سحابة فقال : " إنها لتستهِلّ لنصر بني كعب " ، يعني خزاعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في هامش تاريخ الطبري طبع أوربا قسم ١ ص ١٦١٩ : « رزين » .

(٢) بيت القوم والعدو أوقع بهم ليلا . (٣) راجع تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام في فتح مكة .

(٤) في الأصول : « الحطيم » . والتصويب عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومعجم ياقوت وكتب الصحابة في ترجمة « عمرو بن سالم الخزاعي » . والوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة .

لبُديل بن ورْقاء ومن معه : " إن أبا سفيان سيأتى ليَشُدّ العقد و يزيدَ فى الصلح وسينصرفُ بغير حاجة". فندمت قريش على ما فعلت، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد و يزيد فى الصلح، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما هو معروف من خبره . وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففتحها الله، وذلك فى سنة ثمان من الهجرة . فلما بلغ هوازن فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوْف النَّصْرى، على ما هو معروف مشهور من غَزاة حُنين . وسيأتى بعضها . وكان الظَّفَر والنصر للسلمين على الكافرين . وكانت وقعة هوازن يوم حنين فى أوّل شوال من السنة الثامنة من الهجرة . وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْم الغنائم من الأموال والنساء، فلم يقسمها حتى أتى الطائف، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة . وقيل غير ذلك . ونصب عليهم المَنْجَنِيق ورماهم به، على ما هو معروف من تلك الغَزاة . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة، وقسّم غنائم حُنين، على ما هو مشهور من أمرها وخبرها . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا، وأقام الحج للناس عتّاب بن أسيد فى تلك السنة . وهو أوّل أمير أقام الحج فى الإسلام . وحج المشركون على مشاعرهم . وكان عتّاب بن أسيد خيرا فاضلا ورعا . وقدم كعب بن زُهير ابن أبى سُلْمَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتدحه، وأقام على رأسه بقصيدته التى أوّلها :

* بانت سُعاد فقلبى اليوم متبول *

وأنشدها إلى آخرها، وذكر فيها المهاجرين فأثنى عليهم — وكان قبل ذلك قد حُفظ له هجاء فى النبيّ صلى الله عليه وسلم — فعاب عليه الأنصارُ إذ لم يذكرهم؛ فغدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم بقصيدة يمتدح فيها الأنصار فقال :

من سَرّه كرم الحياة فلا يزل * فى مِقْنَب من صالحى الأنصار (٢)

وَرِثوا المكارم كابرًا عن كابر * إنّ الخيار هُمُ بنو الأخيار

المكرهين السَّمهرىّ بأذرع * كسوافل المِنْدى غير قصار (٣)

---

(١) فى ابن هشام : « فى المدة » . (٢) المقنب : الجماعة من الفوارس .

(٣) السمهرى : الرمح . وسافلة القناة : أعظمها وأقصرها كعوبا . والمندى : الرماح .

والناظرين بأعينٍ مُحْمَرَّةٍ * كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسَهم لنبيّهم * للموت يوم تعانُقٍ وكرَار
يتطهّرون يرونه نُسكًا لهم * بدماءِ مَن عَلِقوا من الكفار
دَرِبوا كما دَرِبت ببطنِ خَفيّةٍ * غُلْبُ الرِّقاب من الأسود ضَوارِ (١)
وإذا حَللت ليمنعوك إليهمُ * أصبحتَ عند معاقل الأغفار (٢)
ضربوا عليًّا يوم بدرٍ ضربةً * دانت لوقعتها جميعُ نِزار (٣)
لو يعلم الأقوامُ عِلْمِيَ كلَّه * فيهم لصَدّقنى الذين أُمارِى
قومٌ إذا خَوَت النجوم فإنهم * للطارقين النازلين مَقَارِى (٤)

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمحرّم وصفر وربيع الأوّل وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، وخرج فى رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوةِ تَبُوك . وهى آخر غزوة غزاها . قال ابن جريج عن مجاهد : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك أراد الحج ثم قال : "إنه يحضر البيتَ عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت فلا أحبّ أن أحج حتى لا يكون ذلك". فأرسل أبا بكر أميرا على الحج، وبعث معه أربعين آية من صدر «براءة» ليقرأها على أهل المَوْسِم . فلما خرج دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا وقال : "اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا" . فخرج علىّ على ناقة النبيّ صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصديق رضى الله عنهما بذى الحُلَيفة . فقال له أبو بكر لما رآه : أميرٌ أو مأمور؟ فقال : بل مأمور ثم نهضا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . وفى كتاب النّسائىّ عن جابر : وأنّ عليًّا قرأ على الناس « براءة » حتى ختمها قبل يوم التَّرْوِية بيوم .

---

(١) دربوا : اعتادوا . وخفية : موضع كثير الأسد . والغلب : الغلاظ الرقاب . والضوارى : اللواتى قد ضرين بأكل لحوم الناس؛ الواحد ضار . (٢) المعاقل : الحصون . والأغفار : أولاد الأروية (الوعل) واحدها غفر . (٣) على : هو على بن بكر بن وائل . ويقال : هو على أخو عبد مناة بن خزيمة من أمه . وقالوا : هو على بن مسعود بن مازن . (٤) خوت : إذا لم يكن لها مطر . والمقارى : جمع مقرى ، الذى يقرى الضيف .

وفي يوم عرفة وفي يوم النحر عند انقضاء خطبة أبي بكر في الثلاثة الأيام . فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس ، فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون ، يعلمهم مناسكهم . فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس «براءة» حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لما خطب أبو بكر بعرفة قال : قم يا علي فأدّ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام علي ففعل . قال : ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر ، فجعلت أتتبع الفساطيط يوم النحر . وروى الترمذي عن زيد بن يُثَيْع قال : سألت عليا بأي شيء بُعثت في الحج؟ قال : بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه النسائي وقال : فكنت أنادي حتى صَحِل(١) صوتي . قال أبو عمر : بعث علي لينبذ إلى كل ذي عهد عهده ، ويعهد إليهم ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وأقام الحج في ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل حجته التي لم يحج غيرها من المدينة ، فوقعت حجته في ذي الحجة . فقال : " إن الزمان قد استدار " الحديث ، على ما يأتي في آية النسيء(٢) بيانه . وثبت الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة . وذكر مجاهد : أن أبا بكر حج في ذي القعدة من سنة تسع . ابن العربي : وكانت الحكمة في إعطاء «براءة» لعلي أن براءة تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت سيرة العرب ألا يحل العقد إلا الذي عقده ، أو رجل من أهل بيته ؛ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع ألسنة العرب بالحجة ، ويرسل ابن عمه الهاشمي من بيته ينقض العهد ، حتى لا يبقى لهم متكلم . قال معناه الزجاج .

الثالثة — قال العلماء : وتضمنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين . ولذلك حالتان : حالة تنقضي المدة بيننا وبينهم فنؤذنهم بالحرب . والإيذان اختيار .

(١) الصحل : حدة الصوت مع بحح .
(٢) في قوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر ... » آية ٣٧ من هذه السورة .

والثانية ـ أن نخاف منهم غدرا؛ فننبذ إليهم عهدهم كما سبق . ابن عباس: والآية منسوخة؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لمّا أمر بالقتال .

قوله تعالى : وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَذَٰنٌ ﴾ الأذان : الإعلام لغةً من غير خلاف . وهو عطف على «براءة» . ﴿ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الناسُ هنا جميع الخلق . ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ ظرف، والعامل فيه «أذان» . وإن كان قد وصفه بقوله : «مِنَ اللهِ»؛ فإن رائحة الفعل فيه باقية، وهي عاملة في الظروف . وقيل : العامل فيه «مُخْزِي» . ولا يصح عمل «أذان»؛ لأنه قد وصف فخرج عن حكم الفعل .

الثانيــة ـ واختلف العلماء في الحج الأكبر؛ فقيل يوم عرفة . رُوي عن عمر وعثمان وابن عباس وطاوس ومجاهد . وهو مذهب أبي حنيفة، وبه قال الشافعيّ . وعن عليّ وابن عباس أيضا وابن مسعود وابن أبي أَوْفَى والمُغيرة بن شعبة أنه يوم النَّحر . واختاره الطبري . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر في الحجّة التي حج فيها فقال : "أيُّ يوم هذا" فقالوا : يوم النحر . فقال : "هذا يوم الحج الأكبر" . أخرجه أبو داود . وخرّج البخاريّ عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه فيمن يؤذّنُ يوم النحر بمنًى : لا يحجُّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر . وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام؛ فلم يحج عامَ حجّة الوداع الذي حج فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم مشرك . وقال ابن أبي أَوْفَى : يومُ النحر يوم الحج الأكبر، يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشَّعر، ويُلقى فيه التَّفث ،

وتحِلّ فيه الحُرَم . وهـذا مذهب مالك ؛ لأن يوم النحر فيه الحج كله ؛ لأن الوقوف إنما هو فى ليلته ، والرَّمْىُ والنحرُ والحلق والطوافُ فى صبيحته . احتجّ الأولون بحـديث مَخْرَمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " يومُ الحج الأكبر يومُ عرفة " . رواه إسماعيل القاضى . وقال الثَّورىّ وابن جُريج : الحج الأكبر أيامُ مِنًى كلُّها . وهـذا كما يقال : يوم صِفِّين ويوم الجَمَل ويوم بُعاث (١) ؛ فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم . وروى عن مجاهد : الحج الأكبر القِران (٢) ، والأصغر الإفراد . وهـذا ليس من الآية فى شىء . وعنه وعن عَطاء : الحج الأكبر الذى فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر العُمْرة . وعن مجاهد أيضا : أيامُ الحج كلُّها . وقال الحسن وعبد الله بن الحارث بن نَوفل : إنما سُمِّى يومَ الحج الأكبر لأنه حج ذلك العامَ المسلمون والمشركون ، واتفقت فيه يومئذ أعياد المِلَل : اليهودِ والنصارى والمجوس . قال ابن عطية : وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل فى كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنما سُمِّىَ الأكبر لأنه حجّ فيه أبو بكر ونُبِذت فيه العهود . وهو الذى يشبه نظر الحسن . وقال ابن سيرين : يوم الحج الأكبر العامُ الذى حج فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم حَجة الوداع ، وحجّت معه فيه الأمم .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ « أن » بالفتح فى موضع نصب . والتقدير بأن الله . ومن قرأ بالكسر قدّره بمعنى قال إن الله . « برىء » خبر انّ . « ورسوله » عطف على الموضع ، وإن شئت على المضمر المرفوع فى « برىء » . كلاهما حسن ؛ لأنه قد طال الكلام . وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير : ورسوله برىء منهم . ومن قرأ « ورسولَه » بالنصب — وهو الحسن وغيره — عطف على اسم الله عز وجل

---

(١) صِفين (بكسرتين وتشديد الفاء) : موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات . كان فيه وقعة بين على رضى الله عنه ومعاوية فى سنة ٣٧ هـ .

و يوم الجمل كان فيـه وقعة بين على وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما ؛ قتل فيـه عدة من الصحابة وغيرهم . وكان فى سنة ٣٦ هـ .

يوم بعاث (بضم أوله والعين المهملة ، وحكاه بعضهم بالغين المعجمة) : موضع من المدينـة على ليلتين . كانت وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية .

(٢) القران (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

على اللفظ . وفى الشواذ «ورسولِهِ» بالخفض على القسم ؛ أى وحقّ رسوله ؛ ورُويت عن الحسن . وقد تقدمت قصة عمر فيها أوّل الكتاب . ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ أى عن الشرك . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى أنفع لكم . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن الإيمان . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ أى فائتيه ؛ فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء المتصل؛ المعنى : أن الله بريء من المشركين إلا من المعاهدين فى مدة عهدهم . وقيل : الاستثناء منقطع؛ أى أن الله بريء منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتمّوا إليهم عهدهم وقوله : «ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ» يدلّ على أنه كان من أهل العهد من خاس (١) بعهده ومنهم من ثبت على الوفاء؛ فأذن الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى نقض عهد من خاس، وأمر بالوفاء لمن بقى على عهده إلى مدّته. ومعنى «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ» أى من شروط العهد شيئا . ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ لم يعاونوا. وقرأ عكرمة وعطاء بن يَسار «ثم لم ينقضوكم» بالضاد معجمة على حذف مضاف؛ التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم . يقال : إن هذا مخصوص يراد به بنو ضَمْرة خاصّة . ثم قال : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ أى وإن كانت أكثر من أربعة أشهر .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

(١) خاس عهده و بعهده : نقضه .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أى خرج . وسلختُ الشهرَ إذا صرت فى أواخر أيامه ، تَسْلَخه سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهرَ أهللتُ قبله[1] * كفى قاتلا سلخى الشهور و إهلالى

وآنسلخ الشهر وآنسلخ النهار من الليل المقبل . وسلخت المرأة درعها نزعته . وفى التنزيل «وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ»[2] . ونخلة مِسلاخ، وهى التى ينتثر بُسْرها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للعلماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فَرْد . قال الأصم : أريد به من لا عَقد له من المشركين؛ فأوجب أن يمسك عن قتالهم حتى ينسلخ الحُرُم ؛ وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره آبن عباس ؛ لأن النداء كان بذلك يوم النحر . وقد تقدم هذا . وقيل : شهور العهد أربعة ؛ قاله مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل لها حُرُم لأن الله حرّم على المؤمنين فيها دماءَ المشركين والتعرّض لهم إلا على سبيل الخير .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ فى كل مشرك، لكن السُّنّة خصّت منه ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »[3] من آمرأة وراهب وصبىّ وغيرهم . وقال الله تعالى فى أهل الكتاب : «حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ»[4] . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضى ذلك منعَ أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه . وآعلم أن مطلق قوله : « آقتلوا المشركين » يقتضى جواز قتلهم بأىّ وجه كان ؛ إلا أن الأخبار وردت بالنّهى عن المُثْلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصدّيق رضى الله عنه حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار ، و بالحجارة و بالرمى من رءوس الجبال ، والتنكيس فى الآبار ، تعلّق بعموم الآية . وكذلك إحراق علىّ رضى الله عنه قوما من أهل الردة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب ، واعتمادا على عموم اللفظ . والله أعلم .

---

(١) فى اللسان والبحر المحيط : « أهللت مثله » .
(٢) آية ٣٧ سورة يس .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٤٨ طبعة ثانية .
(٤) آية ٢٩ من هذه السورة .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عامٌّ في كل موضع . وخصَّ أبو حنيفة رضي الله عنه المسجد الحرام؛ كما سبق في سورة « البقرة »(١) . ثم اختلفوا ؛ فقال الحسين بن الفضل : نسخت هـذه كلَّ آية في القرآن فيهـا ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء . وقال الضحاك والسدّيّ وعطاء : هي منسوخة بقوله : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »(٢) . وأنه لا يُقتل أسير صَبْرًا؛ إما أن يُمَنّ عليه وإما أن يُفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هي ناسخة لقوله تعالى : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . وهو الصحيح؛ لأن المَنّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أول حرب حاربهـم ، وهو يوم بدر كما سبق . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ يدلّ عليه . والأخذ هو الأسر . والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام . ومعنى ﴿ احْصُرُوهُمْ ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم؛ إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ المرصد : الموضع الذي يُرقب فيه العدوّ؛ يقال : رصدت فلانا أرْصُده ، أي رَقَبْتُه . أي اقعدوا لهم في مواضع الغِرّة حيث يُرصَدون . قال عامر بن الطُّفَيل :

ولقد علمت وما إخالك ناسيا * أن المنيّة للفتى بالمَرْصَـد

وقال عَدِيّ(٣) :

أعاذِلَ إن الجهل من لَذّة الفتى * وإن المنـايا للنفوس بمَرْصَـد

وفي هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة . ونصب « كلّ » على الظرف ، وهو اختيـار الزجاج ؛ ويقال : ذهبت طريقا وذهبت كلّ طريق . أو بإسقـاط الخافض؛ التقـدير : في كل مَرْصَـد وعلى كلّ مرصد ؛ فيُجعل المرصد اسمـا للطريق . وخطّأ أبو عليّ الزجاج

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥١ طبعة ثانية . (٢) آية ٤ سورة محمد .

(٣) في الأصول : « النابغة » والتصويب عن اللسان .

فى جعله الطريق ظرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيما ورد فيه الحذف سماعا؛ كما حكى سيبويه : دخلت الشام ودخلت البيت ؛ وكما قيل :

* كما عَسَل الطريقَ الثعلب (١) *

الخامسة — قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أى من الشرك . ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ هذه الآية فيها تأمل ؛ وذلك أن الله تعالى علّق القتل على الشرك، ثم قال : « فإن تابوا » . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ؛ وذلك يقتضى زوال القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهذا بيّن فى هذا المعنى؛ غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين؛ فلا سبيل إلى إلغائهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال . وقال ابن عباس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربى : فانتظم القرآن والسنة واطّردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلاً كفر، ومن ترك السنن متهاونا فسق، ومن ترك النوافل لم يَحْرج؛ إلا أن يجحد فضلها فيكفر، لأنه يصير رادّا على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه . واختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جحد لها ولا استحلال ؛ فروى يونس ابن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من آمن بالله وصدّق المرسلين وأبى أن يصلّى قُتل؛ وبه قال أبو ثور وجميع أصحاب الشافعى . وهو قول حماد بن زيد ومكحول ووكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل؛ وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ابن علىّ . ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

(١) القائل هو ساعدة بن جُؤَيّة؛ وتمامه كما فى اللسان وكتاب سيبويه :

لدن بهز الكف يعسل متنه * فيه كما عسل ... ...

إلا الله فإذا قالوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها" . وقالوا : حقّها الثلاث التى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس" . وذهبت جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن من ترك صلاة واحدة متعمدًا حتى يخرج وقتها لغير عذر، وأبى من أدائها وقضائها وقال لا أصلى فإنه كافر، ودمه وماله حلالان ، ولا يرثه ورثته من المسلمين، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قُتل، وحُكْمُ ماله كحكم مال المرتد ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : واختلف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة؛ فقال بعضهم فى آخر الوقت المختار ، وقال بعضهم آخر وقت الضرورة، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت العصر أربع ركعات إلى مغيب الشمس، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إسحاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظُّهر إلى غروب الشمس، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادسة — هذه الآية دالّة على أن من قال : قد تُبت أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحقّقة للتوبة ؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقّق بهما التوبة . وقال فى آية الربا : «وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ»(١) . وقال : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا»(٢) وقد تقدّم معنى هذا فى سورة البقرة .

قوله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى من الذين أمرتُك بقتالهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أى سأل جوارك؛ أى أمانك وذمامك، فأعطه إيّاه ليسمع القرآن؛ أى يفهم

(١) آية ٢٧٩ سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٨٧ طبعة ثانية .

أحكامه، وأوامره ونواهيه . فإن قَبِل أمرا فحسن ؛ وإن أبَى فردّه إلى مأمنه . وهـذا ما لا خلاف فيه ، والله أعلم . قال مالك : إذا وُجِد الحربيّ فى طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هذه أمور مشتبهة ، وأرى أن يُرَدّ إلى مأمنه . وقال ابن القاسم : وكذلك الذى يوجد وقد نزل تاجرا بساحلنا فيقول : ظننت ألّا تعرضـوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع . وظاهر الآية إنمـا هى فيمن يريد سماع القرآن والنظر فى الإسلام ؛ فأما الإجارة لغير ذلك فانما هى لمصلحة المسلمين والنّظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانيـــة — ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ؛ لأنه مقدَّم للنظر والمصلحة ، نائبٌ عن الجميـع فى جلب المنافع ودفع المضار . وآختلفوا فى أمان غير الخليفة ؛ فالحـرّ يُمْضَى أمانُه عند كافة العلماء ، إلا أن آبن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما العبد فله الأمان فى مشهور المذهب ؛ وبه قال الشافعيّ وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعيّ والثّورىّ وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ؛ وهو القول الثانى لعلمائنا . والأول أصح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم" . قالوا : فلما قال "أدناهم" جاز أمان العبد ، وكانت المرأة الحرّة أحرى بذلك ، ولا اعتبار بعلّة "لا يسهم له" . وقال عبد الملك بن المـاجِشُون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام ، فشذّ بقوله عن الجمهور . وأما الصبيّ فإذا أطاق القتال جاز أمانه ؛ لأنه من جمـلة المقاتِلة ، ودخل فى الفئة الحامية . وقد ذهب الضّحاك والسُّـدّى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : « فاقتـلوا المشركين » . وقال الحسن : هى مُحْكَمة سُـنّة[1] إلى يوم القيامة ؛ وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنمـا كان حكمها باقيا مدّة الأربعة الأشهر التى ضُربت لهم أجلا ، وليس بشيء . وقال سعيد بن جُبـير : جاء رجل من المشركين إلى علىّ بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قُتل!

(١) كذا فى أكثر نسخ الأصل وتفسير ابن عطية . وفى نسخة من الأصل : « منية » وهى غير واضحة المعنى ولم نوفق لتصويبها ؛ لأن هذه الكلمة غير موجودة فى قول الحسن بالمصادر التى بين أيدينا على كثرتها

فقال، عليّ بن أبي طالب : لا ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » . وهذا هو الصحيح . والآية مُحكمة .

الثالثــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ ﴾ « أحد » مرفوع بإضمار فعل كالذى بعده . وهذا حَسَن فى « إنْ » وقبيح فى أخواتها . ومذهب سيبويه فى الفرق بين « إن » وأخواتها ، أنها لما كانت أمّ حروف الشرط خُصّت بهذا ، ولأنها لا تكون فى غيره . وقال محمد بن يزيد : أما قوله « لأنها لا تكون فى غيره » فغلط ؛ لأنها تكون بمعنى (ما) ومخففة من الثقيلة ولكنها مبهمة ، وليس كذا غيرها . وأنشد سيبويه :

لا تَجْـزعى إن مُنْفِسًا أهلكْتُه * وإذا هلكتُ فعند ذلك فاجْزعى[1]

الرابعــة ـ قال العلماء : فى قوله تعالى ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ دليلٌ على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والقاضى أبو بكر وأبو العباس القلانسى وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسْفرايني وغيرهم ؛ لقوله تعالى : «حتّى يسمعَ كلام الله» . فنص على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه . ويدلّ عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا : سمعنا كلام الله . وفرقوا بين أن يَقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر آمرئ القيس . وقد مضى فى سورة «البقرة»[2] معنى كلام الله تعالى ، وأنه ليس بحرف ولا صوت ، والحمد لله .

قوله تعـالى : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

---

(١) البيت للنمر بن تولب . وصف أن امرأته لامته على إتلاف ماله جزعا من الفقر ؛ فقال لها : لا تجزعى من اهلاكى لنفيس المال ، فانى كفيل بإخلافه بعد التالف ؛ وإذا هلكت فاجزعى فلا خلف لك منى . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ كيف هنا للتعجب؛ كما تقول : كيف يسبقنى فلان ! أى لا ينبغى أن يسبقنى . و «عهد» اسم يكون . وفى الآية إضمار، أى كيف يكون للشركين عهد مع إضمار الغدر؛ كما قال :

وخبّرتمانى أنما الموت بالقُرى * فكيف وهاتا هَضْبةٌ وكَثِيبُ[1]

التقدير : فكيف مات؛ عن الزجاج . وقيل : المعنى كيف يكون للشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غدا، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا . ثم استثنى فقال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . قال محمد بن إسحاق : هم بنو بكر؛ أى ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكثوا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ أى فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستقيموا فضرب لهم أجلا أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب .

قوله تعالى : كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خُبث أعمالهم؛ أى كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمّة . يقال : ظهرتُ على فلان أى غلبته، وظهرت البيت علوته؛ ومنه « فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ »[2] أى يعلو عليه .

---

(١) كذا فى الأصول والبحر . والذى فى شواهد سيبويه وجمهرة أشعار العرب : «وقليب» قال الشنتمرى : [illegible] القليب القبر؛ وأصله البئر . كأنه حذر من وباء الأمصار وم[illegible] فخرج الى البادية فرأى قبرا فعلم أ[illegible]ت لا يُنجى منه؛ فقال هذا منكرا على من حذره من الاقامة بالقرى .

(٢) آية ٩٧ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ « يرقبوا » يحافظوا . والرقيب الحافظ . وقد تقدم[1] . « إلًّا » عهداً ، عن مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا : هو اسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جوارا . قتادة : حِلْفًا ، و « ذمّةً » : عهـدا . أبو عبيدة : يمينا . وعنه أيضا : إلّا العهد ، والذمة التذمم . الأزهرى : اسم الله بالعبرانية ، وأصله من الأليل وهو البريق ؛ يقال : ألّ لونه يَؤُل أَلًّا ، أى صَفَا ولَمَع . وقيل : أصله من الحدّة ، ومنه الأَلَّة للحربة ؛ ومنه أُذُن مُؤَلَّلة أى محددة . ومنه قول طَرَفَة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدّة والانتصاب :

مُؤَلَّلتان تعرف العِتْق فيهما * كسامِعَتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ[2]

فإذا قيل للعهـد والجوار والقرابة « إلّ » فمعناه أن الأُذُن تُصرف إلى تلك الجهة ، أى تحدّد لها . والعهد يسمّى « إلًّا » لصفائه وظهوره . ويجمـع فى القلة آلال ، وفى الكثرة إلال . وقال الجوهرى وغيره : الإلّ بالكسر هو الله عز وجل ، والإلّ أيضا العهد والقرابة . قال حسّـان :

لعمرُكَ إنّ إلَّكَ من قريش * كإلّ السَّقْب من رَأْل النَّعَـام[3]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ أى عهدا . وهى كلّ حُرمة يلزمك إذا ضيّعتها ذنب . قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الذّمة العهـد . ومن جعـل الإلّ العهد فالتكرير لاختـلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة مَعْمَر : الذمة التذمّم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قوله عليه السلام : "ويسعى بذمتهم أدناهم" . وجمع ذِمّة ذِمم . وبئر ذَمّة (بفتح الذال) قليلة المـاء ؛ وجمعها ذِمام . قال ذو الرُّمّة :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) السامعتان : الأذنان . والمراد بالشاة هنا : الثور الوحشى . وحومل : اسم رملة . شبه أذنيها بأذنى ثور وحشى لتحديدهما وصدق سمعهما ؛ وأذن الوحشى أصدق من عينيه . وجعله « مفردا » لأنه أشدّ لسمعه وارتياعه . (عن شرح الديوان) .
(٣) السقب : ولد الناقة . والرأل : ولد النعام .

على حِمْيَرِيّاتٍ كأنّ عيونَها * ذِمامُ الرّكايا أنكرتْها المَوائحُ(١)

أنكرتها أذهبت ماءها . وأهل الذمة أهل العقد .

قوله تعالى : ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما يُرضى(٢) ظاهره . ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى ناقضون العهد . وكلّ كافر فاسق ، ولكنه أراد هاهنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد .

قوله تعالى : ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

يعنى المشركين فى نقضهم العهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان؛ قاله مجاهد . وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى أعرضوا ؛ من الصدود . أو منعوا عن سبيل الله؛ من الصّدّ .

قوله تعالى : لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قال النحاس : ليس هذا تكريرا، ولكن الأوّل لجميع المشركين والثانى لليهود خاصّة . والدليل على هذا « ٱشتروا بآيات الله ثمنا قليلا » يعنى اليهود، باعُوا حجج الله عز وجل وبيانه بطلب الرياسة وطمعٍ فى شئ . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ أى المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد .

قوله تعالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(١) الحميريات : ابل منسوبة الى حمير، وهى قبيلة من اليمن . الركايا : جمع ركية، وهى البئر . والموائح : جمع مائح، وهو الذى يسق من البئر . وصف إبلا غارت عيونها من الكلال .

(٢) فى الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدّين . قال ابن عباس : حرّمت هذه دماءَ أهل القبلة . وقد تقـدّم هـذا المعنى . وقال ابن زيد : افترض الله الصـلاة والزكاة وأبى أن يفرق بينهمـا ، وأبى أن يقبل الصـلاة إلا بالزكاة . وقال ابن مسعود : أمرتم بالصـلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له . وفى حديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فرق بين ثلاث فرق الله بينه وبين رحمتـه يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ومن قال أقيم الصلاة ولا أوتى الزكاة والله تعالى يقول: « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ومن فرق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقـول : « أن اشكُرْ لى ولوالدَيْك » " .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى نبينهـا . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصّهم لأنهم هم المنتفعون بها . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ النّكث النقض، وأصله فى كل ما فُتِل ثم حُلّ. فهى فى الأيمان والعهود مستعارة . قال :

وإن حلَفتْ لا ينقض النّأى عهْدها * فليس لمخضوب البَنان يمين

أى عهـد . وقوله : ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى بالاستنقـاص والحرب وغير ذلك ممـا يفعله المشرك . يقال : طعَنه بالرمح وطعن بالقول السيئ فيـه يَطْعُن ، بضم العين فيهما . وقيل : يَطْعُن بالرمح (بالضم) ويَطْعَن بالقول (بالفتح) . وهى هنا استعارة ، ومنه قوله صلى الله عليـه

... حين أمّر أسامة : " إن تَطْعنوا فى إمارته فقد طَعنتم فى إمارة أبيه من قبلُ وأيْمُ الله إن كان لخليقا للإمارة "(١). خرّجه الصحيح .

الثانيــــة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كلّ من طعن فى الدِّين ؛ إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليــه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لمــا ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله وآستقامة فروعه . وقال آبن المنــذر : أجمع عامّة أهل العلم على أن من سب النبىّ صلى الله عليــه وسلم عليه القتل . وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهــو مذهب الشافعىّ . وقــد حُكى عن النعمان أنه قال : لا يُقتل مَن سبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذِّمة ؛ على ما يأتى . وروى أن رجلا قال فى مجلس علىّ : ما قُتِــل كعب بن الأشرف إلا غدرا ؛ فأمر علىّ بضرب عنقه . وقاله آخر فى مجلس معاوية فقام محمد بن مســلمة فقال : أيقال هــذا فى مجلسك وتسكت ! والله لا أساكنك تحت سقف أبدا ، ولئن خلوتُ به لأقتلنّــه . قال علمــاؤنا : هــذا يقتل ولا يستتاب إن نَسَب الغدر للنبىّ صلى الله عليــه وسلم . وهو الذى فهمه علىّ ومحمد بن مســلمة رضوان الله عليهما من قائل ذلك ؛ لأن ذلك زندقة . فأمّا إن نسبه للمباشرين لقتــله بحيث يقول : إنهم آمنوه ثم غَدروه لكانت هذه النسبة كذبا محضا ؛ فإنه ليس فى كلامهم معه ما يدل على أنهم آمنوه ولا صرّحوا له بذلك ، ولو فعلوا ذلك لمــا كان أمانا ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمــا وجّههم لقتله لا لتأمينه ، وأذن لمحمد بن مسلمة فى أن يقــول . وعلى هذا فيكون فى قتل من نسب ذلك لهم نظر وتردّد . وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبتُه للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد صوّب فعلهم ورضى به فيلزم منه أنه قد رضى بالغدر ومن صرّح بذلك قتل ، أو لا يلزم من نسبة الغــدر لهم نسبته للنبىّ صلى الله عليه وسلم فلا يُقتــل . وإذا قلنا لا يقتل ، فلا بُدّ من تنكيل ذلك القائل وعقوبتــه بالسجن ، والضرب الشــديد والإهانة العظيمــــة .

---

(١) راجع صحيح مسلم (كتاب الفضائل) .

الثالثــة ـ فأما الذمي إذا طعن في الدين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك؛ لقوله: « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُم » الآية . فأمر بقتلهم وقتالهم . وهو مذهب الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة في هذا : إنه يستتاب ، وإن مجرد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النكث؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما نقضهم العهد، والثاني طعنهم في الدين . قلنا : إن عملوا بما يخالف العهد انتقض عهدهم، وذكر الأمرين لا يقتضي توقف قتاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراده عقلا وشرعا . وتقدير الآية عندنا : فإن نكثوا عهدهم حل قتالهم ، وإن لم ينكثوا بل طعنوا في الدين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم . وقد روى أن عمر رفع إليه : ذمي نخس دابة عليها امرأة مسلمة فرمحت فأسقطتها فانكشف بعض عورتها؛ فأمر بصلبه في الموضع .

الرابعــة ـ إذا حارب الذمي نقض عهده وكان ماله وولده فيئاً معه . وقال محمد ابن مسلمة: لا يؤاخذ ولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : أما ماله فيؤخذ . وهذا تعارض لا يشبه منصب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذي حمى ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه ولده . وقال أشهب: إذا نقض الذمي العهد فهو على عهده ولا يعود في الرق أبدا . وهذا من العجب؛ وكأنه رأى العهد معنًى محسوسا . وإنما العهد حكم اقتضاه النظر ، والتزمه المسلمون له ؛ فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامســة ـ أكثر العلماء على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عرض أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يقتل؛ فإنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا، إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا: لا يقتل،ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب ويعزر. والحجة عليه قوله تعالى: « وإنْ نَكَثُوا » الآية . واستدل عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهدا. وتغيظ أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو برزة : ألا أضرب عنقه . فقال : ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطني عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

أم ولد، له منها ابنان مثل اللؤلؤتين، فكانت تشتم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فينهاها فلم تنته، ويزجرها فلم تنزجر، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فما صبر سيّدها أن قام إلى مِغْوَل فوضعه في بطنها، ثم اتكأ عليها حتى أنفذه. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألا اشهدوا إن دمها هدر". وفي رواية عن ابن عباس: فقتلها، فلما أصبح قيل ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلتْ تشتمك وتقع فيك فقتلتها؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألا اشهدوا إن دمها هدر".

السادسة — واختلفوا إذا سبّه ثم أسلم تقيّة من القتل؛ فقيل: يُسقط إسلامُه قتلَه؛ وهو المشهور من المذهب؛ لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله. بخلاف المسلم إذا سبّه ثم تاب؛ قال الله عز وجل: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»(1). وقيل: لا يُسقط الإسلامُ قتلَه؛ قاله في العُتْبِيّة؛ لأنه حقٌّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وجب لانتهاكه حرمته وقصده إلحاق النقيصة والمعرّة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه، ولا يكون أحسنَ حالا من المسلم.

السابعة — قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ «أئمة» جمع إمام، والمراد صناديد قريش — في قول بعض العلماء — كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف؛ وهذا بعيد؛ فإن الآية في سورة «براءة» وحين نزلت وقُرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسالم؛ فيحتمل أن يكون المراد «فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ». أي من أقدم على نكث العهد والطعن في الدين يكون أصلا ورأسا في الكفر؛ فهو من أئمة الكفر على هذا. ويحتمل أن يعني به المقدمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتالٌ لأتباعهم وأنهم لا حُرْمة لهم. والأصل أَأْمِمَة كمثال وأمثلة، ثم أدغمت الميم في الميم وقُلبت الحركة على الهمزة فاجتمعت

(1) آية ٣٨ سورة الأنفال.

همزتان، فأبدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هــذا أيَمّ من هذا، بالياء . وقال المــازنى : أوَمّ من هذا، بالواو . وقرأ حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن هــذا لحن؛ لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة[1] . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ ﴾ أى لا عهود لهم؛ أى ليست عهودهم صادقةً يُوفون بهــا . وقرأ ابن عامر « لا إيمــان لهم » بكسر الهمزة من الإيمان ؛ أى لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر آمنته إيمانا، من الأمن الذى ضــدّه الخوف، أى لا يؤمنون ؛ من آمنته إيمانا أى أجرته؛ فلهذا قال : « فقاتِلوا أئمة الكفر » . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أى عن الشرك ، قال الكلْبيّ : كان النبيّ صلى الله عليــه وسلم وادع أهل مكة سنةً وهو بالحُدَيْبِيَة فحبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فمكثوا ما شاء الله ، ثم قاتل حلفاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة حلفاءَ بنى أميّة من كِنانة ، فأمدّت بنو أمية حلفاءهم بالسلاح والطعام ، فاستعانت خزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعين حلفاءه كما سبق . وفى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : كنّا عند حُذيفة فقال ما بقى من أصحاب هــذه الآية — يعنى « فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمانَ لهم » — إلا ثلاثة ، ولا بقى من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابىّ : إنكم أصحابَ محمد تخبرون أخبارا لا ندرى ما هى! تزعمون ألّا منافق إلا أربعة ، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا[2] . قال : أولئك الفسّاق . أجل ، لم يبق منهم إلا أربعة ؛ أحدهم شيخ كبير لو شرب المــاء البارد لمــا وجد برده[3] .

(١) قال الزمخشرى فى كشافه : « فان قلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ؛ أى بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لاحن محرّف » .

وتعقبه على هــذا أبو حيان فى البحر بقوله : « وذلك دأبه فى تلحين المقرئين ، وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء، وقارئ مكة ابن كثير، وقارئ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع » . وقال الألوسى فى روح المعانى : « ... وقرأ نافع وابن كثــير وأبو عمرو (أئمة) بهمزتين ثانيتهما بين بين ، أى بين مخرج الهمزة والياء والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيقهما من غير إدخال ألف ، وهشام كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المشهور عن القراء السبعة ... » .

(٢) الأعلاق : نفائس الأموال . (٣) قال القسطلانى : « لذهاب شهوته وفساد معدته ... عقوبة الله له فى الدنيا ، فلا يفرق بين الأشياء » .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أى عن كفرهم و باطلهم وأذيتهم للسلمين . وذلك يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا و يدخلوا فى ديننا .

قوله تعالى : أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ توبيخ وفيه معنى التحضيض. نزلت فى كفار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ أى كان منهم سبب الخروج، فأضيف الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذى كان منهم؛ عن الحسن . ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ ﴾ بالقتال . ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى نقضوا العهد وأعانوا بنى بكر على خزاعة . وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج للعير ولما أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلّا الوصول إلى بدر وشُرب الخمر بها ؛ كما تقدّم . ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أى تخافوا عقابه فى ترك قتالهم، من أن تخافوا أن ينالكم فى قتالهم مكروه . وقيل : إخراجهم الرسول منعُهم إياه من الحج والعُمْرة والطّواف، وهو ابتداؤهم . والله أعلم .

قوله تعالى : قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ أمر . ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ ﴾ جوابه . وهو جزم بمعنى المجازاة . والتقدير : إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتدّ . وقال مجاهد :

يعنى خزاعة حلفاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلّه عطف . ويجوز فيه كله الرفع على القطع منّ الأوّل . ويجوز النصب على إضمار (أن) وهو الصرف عند الكوفيين ؛ كما قال :

فإن يَهْلِك أبو قابوس يَهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونأخذ بعده بذِناب عيش[1] * أجَبِّ الظهر ليس له سَنام

وإن شئت رفعت (ونأخذ) وإن شئت نصبته . والمراد بقوله : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ بنو خزاعة ؛ على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بنى بكر عليهم ، وكانت خزاعة حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بنى بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض خزاعة : لئن أعدته لأكسرنّ فمك ؛ فأعاده فكسرفاه وثار بينهم قتال ؛ فقتلوا من الخزاعيّين أقواما ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعىّ فى نفر إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة وقال : "اسكبوا إلىّ ماء" فجعل يغتسل وهو يقول : "لا نُصِرتُ إن لم أنصر بنى كعب[2] " . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهّز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ القراءة بالرفع على الاستئناف ؛ لأنه ليس من جنس الأوّل . ولهذا لم يقل «ويَتُبْ» بالجزم ؛ لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والخزى ، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم . ونظيره « فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » تم الكلام . ثم قال : « وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ[3] » . والذين تاب الله عليهم مثل أبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسليم بن أبى عمرو ؛ فإنهم أسلموا . وقرأ ابن أبى إسحاق «ويتوبَ» بالنصب . وكذا رُوى عن عيسى الثقفى والأعرج ، وعليه فتكون التوبة داخلة فى جواب الشرط ؛ لأن المعنى : إن تقاتلوهم يعذبهم الله .

---

(١) الذناب (بكسر الذال) : عقب كل شىء ومؤخره . والأجب : الجمل المقطوع السنام . والبيتان للنابغة الذبيانى . وصف مرض النعمان بن المنذر ، وأنه إن هلك صار الناس بعده فى أسوأ حال وأضيق عيش وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب . وفى البيت شاهد آخر . راجع خزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد السادس والخمسين بعد الستمائة . وشواهد سيبويه جـ ١ ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنو كعب فى خزاعة وهم قوم عمرو . (٣) آية ٢٤ سورة الشورى .

وكذلك ما عطف عليه . ثم قال : « ويتوب الله » أى إن تقاتلوهم . فجمع بين تعذيبهم بأيديكم وشفاء صدوركم و إذهاب غيظ قلوبكم والتوبة عليكم . والرفع أحسن؛ لأن التوبة لا يكون سببها القتال؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه فى كل حال .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خروجٌ من شىء إلى شىء . ﴿ أَن تُتْرَكُوا ﴾ فى موضع المفعولين على قول سيبويه . وعند المبرّد أنه قد حذف الثانى . ومعنى الكلام : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تُبْتَلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهورَ الذى يستحق به الثواب والعقاب . وقد تقدّم هذا المعنى فى غير موضع . ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ﴾ جزم بلمّا وإن كانت ما زائدة ؛ فإنها تكون عند سيبويه جوابا لقولك : قد فعل؛ كما تقدّم[1] . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . ﴿ وَلِيجَةً ﴾ بطانة ومداخلة ؛ من الولوج وهو الدخول، ومنه سُمِّىَ الكِنَاسُ الذى تلج فيه الوحوش تَوْلَجاً . ولج يَلِج وُلُوجا إذا دخل . والمعنى : دخيلةَ مودّةٍ من دون الله ورسوله . وقال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وَلِيجة ، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وَلِيجة . وقال ابن زيد : الوليجة الدخيلة ، والوُلَجاء الدُّخلاء ؛ فوَليجة الرجل من يختص بدُخْلَة أمره دون الناس . تقول : هو وليجتى وهم وليجتى ؛ الواحد والجمع فيه سواء . قال أَبَان بن تَغْلِب رحمه الله :

فبئس الوليجة للهاربين * والمعتدين وأهل الرِّيَب

وقيل : وليجة بطانة؛ والمعنى واحد؛ نظيره « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[2] . وقال الفرّاء وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم و يُفشون إليهم أسرارهم ويُعلمونهم أمورهم .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ الجملة من « أن يعمروا » فى موضع رفع اسم كان . « شاهدين » على الحال . واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما نُودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسِّدانة والسِّقاية والرِّفادة إلى المشركين ؛ فبيّن أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أُسر وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علىّ : ألكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنا لنَعْمُر المسجد الحرام ، ونَحْجُب الكعبة ، ونَسْقِى الحاج ، ونَفُكّ العانِى . فنزلت هذه الآية ردًّا عليه . فيجب إذًا على المسلمين تولّى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يَعْمُر » بفتح الياء وضم الميم ؛ من عَمَر يَعْمُر . وقرأ ابن السَّمَيْقَع بضم الياء وكسر الميم ؛ أى يجعلوه عامرا أو يعينوا على عمارته . وقرئ « مسجد الله » على التوحيد ؛ أى المسجد الحرام . وهى قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كَثير وأبى عمرو وابن مُحَيْصِن ويعقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصّة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة « مساجد » أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إنما يعمر مساجد الله » على الجمع ؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قِبلة المساجد كلّها وإمامُها .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ قيل : أراد وهم شاهدون فلما طرح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودُهم لأصنامهم ، وإقرارهم أنها مخلوقة . وقال

السدى : شهادتهم بالكفر هو أن النصرانى تقول له ما دينك ؟ فيقول نصرانى ، واليهودى فيقول يهودى والصابئ فيقول صابئ . ويقال للمشرك ما دينك فيقول مشرك . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعُمّار المساجد بالإيمان صحيحة ؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسّنوا به الظن . وروى الترمذى عن أبى سعيد الخُدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » " . فى رواية : "يتعاهد المسجد" . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربى : وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات ؛ فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها ؛ فإن منهم الذكىّ الفطن المحصل لما يعلم اعتقادا و إخبارا ، ومنهم المغفل ، وكلٌ واحد ينزل على منزلته و يقدر على صفته .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشى غير الله ، وما زال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد ؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها . جواب ثان — أى لم يخف فى باب الدين إلا الله .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد أثبت الإيمان فى الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيفها وإصلاح ما وهى منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمان بالرسول فيها ولا الإيمان لمن لم يؤمن

بالرسول . قيل له : دلّ على الرسول ما ذُكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به؛ فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول ، فلهذا لم يُفرده بالذكر . و « عسى » من الله واجبة؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : عسى بمعنى خليق؛ أى فخليق ﴿ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

قوله تعالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ التقدير في العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج ، أو أهل سقاية الحاج، مثلَ من آمن بالله وجاهد في سبيله . ويصح أن يقدّر الحذفُ في « من آمن » أى أجعلتم عمل سقى الحاج كعملِ من آمن . وقيل : التقدير كإيمان من آمن . والسِّقاية مصدر كالسِّعاية والحِماية . فجعل الاسم بموضع المصدر إذ علم معناه؛ مثل إنما السخاء حاتم، وإنما الشِّعر زُهير . وعمارة المسجد الحرام مثل «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» . وقرأ أبو وَجْزة[1] « أجعلتم سُقَاةَ الحاج وعَمَرة المسجد الحرامِ » . سُقاة جمع ساقٍ والأصل سُقَيَة على فُعَلَة؛ كذا يجمع المعتلّ من هذا، نحو قاض وقُضاة وناسٍ ونُسَاة . فإن لم يكن معتلًّا جمع على فَعَلَة نحو ناسئ ونَسَأَة، للذين كانوا ينسئون الشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وسعيد بن جبير « سُقاة، وعَمَرة » ، إلا أن ابن جُبير نصب « المسجد » على إرادة التنوين في « عَمَرة » . وقال الضحاك : سُقاية بضم السين، وهي لغة . والحاج اسم جنس الحُجّاج . وعمارة المسجد الحرام: معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطلة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام؛ كما ذكره السُّدِّى . قال : افتخر عباس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعلىٌّ بالإسلام والجهاد؛ فصدّق الله عليًّا وكذبهما، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر، وإنما

(١) في نسخ الأصل : « ابن أبي وجزة » وهو تحريف .

تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا بين لا غُبار عليه . ويقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سُقاة الحاج وعُمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال، وهو ما جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي ألّا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألّا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ واستفتيتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر» إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية : « والله لا يهدي القوم الظالمين » فتعين الإشكال . وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله ، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية على عمر حين سأله فظن الراوي أنها نزلت حينئذ . واستدل بها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه . لا أنها نزلت في هؤلاء . والله أعلم . فإن قيل : فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين ، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يُستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتوضع صحفة وترفع أخرى ، ولكنا سمعنا قول الله تعالى : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها »(1) . وهذه الآية نص في الكفار؛ ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام ، والله أعلم .

---

(1) آية ٢٠ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع رفع بالابتداء . وخبره ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾. و« درجةً » نصب على البيان ؛ أي من الذين افتخروا بالسّقي والعمارة . وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال: المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهم قدّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسّقي ؛ فخاطبهم على ما قدّروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ ؛ كقوله تعالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »(1) . وقيل : « أعظم درجة » من كل ذى درجة ؛ أي لهم المزية والمرتبة العلية . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بذلك .

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم . والنعيم : لين العيش ورغده . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال . والخلود الإقامة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي أعدّ لهم في دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافّة ، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة . فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها

(1) آية ٢٤ سورة الفرقان .

من بلاد العرب؛ خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر .
﴿ إن ٱستحبّوا ﴾ أى أحبوا؛ كما يقال: استجاب بمعنى أجاب . أى لا تطيعوهم ولا تخصوهم.
وخصّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى : « يأيُّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنّصارَى أولياءَ »[1] ليبيّن أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان . وفي مثله تنشد الصوفية :

يقولون لى دار الأحبة قد دنتْ * وأنت كئيب إن ذا لعجيب
فقلت وما تغنى ديار قريبة * إذا لم يكن بين القلوب قريب
فكم من بعيد الدار نال مراده * وآخر جار الجنب مات كئيب

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية ؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التّبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء : يارسول الله، إن أمّى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها ؟ قال : " صلى أمك " خرّجه البخاري .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ؛ لأن من رضى بالشرك فهو مشرك .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

لما أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأبُ لابنه والأخُ لأخيه والرجل لزوجته : إنا قد أمرنا بالهجرة ؛ فمنهم من سارع

(١) آية ٥١ سورة المائدة .

لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول : والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلّق به امرأته وولده ويقولون له : أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى الإيمانِ » . يقول : [إن استحبوا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة . « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ » بعد نزول الآية « فأولئك هم الظالمون » . ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا : ﴿ قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعَشِيرَتُكُمْ ﴾ وهي الجماعة التي ترجع إلى عَقْد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء . ﴿ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ يقول : اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ قال ابن المبارك : هي البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لهن خاطبا . قال الشاعر :

كَسَدْنَ من الفقر في قومهنّ * وقد زادهنّ مقامي كسودا

﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ يقول : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها . ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة . « وأَحَبَّ » خبر كان . ويجوز في غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه :

إذا متّ كان الناس صنفان: شامتٌ * وآخرُ مُثْنٍ بالذي كنتُ أصنعُ [(1)]

وأنشد :

هي الشفاء لدائي لو ظفرتُ بها * وليس منها شفاءُ الداءِ مبذولُ [(2)]

وفي الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وأن ذلك مقدّم على كل محبوب . وقد مضى في «آل عمران» [(3)] معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله . ﴿ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد . يقول : انتظروا . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ

(١) البيت للعجير السلولي . (٢) البيت لهشام أخو ذي الرمة . (عن كتاب سيبويه) .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

بِأَمْرِهِ ﴾ يعني بالقتال وفتح مكة ؛ عن مجاهد . الحسن : بعقوبة آجلة أو عاجلة . وفي قوله : « وجِهادٍ في سبيلِهِ » دليلٌ على فضل الجهاد ، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال . وسيأتي فضل الجهاد في آخر السورة . وقد مضى من أحكام الهجرة في « النساء »(١) ما فيه كفاية ، والحمد لله . وفي الحديث الصحيح " إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاثَ مقاعد قعد له في طريق الإسلام فقال لِمَ تَذَرُ دِينَك ودينَ آبائك فخالفه وأسلم وقعد له في طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد له في طريق الجهاد فقال له تجاهد فتُقتل فيُنكح أهلك ويُقسم مالك فخالفه وجاهد فحقّ على الله أن يدخله الجنة " . وأخرجه النَّسائيّ من حديث سبرة بن أبي فاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان... " فذكره . قال البخاري : «ابن الفاكه» ولم يذكر فيه اختلافا . وقال ابن أبي عديّ : يقال ابن الفاكه وابن أبي الفاكه . انتهى .

قوله تعالى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ في مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ لما بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عوف النَّصريّ من بني نصر بن مالك ، وكانت الرياسة في جميع العسكر إليه ،

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٠٨ ، ٣٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحمى به نفوسهم وتشتد في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة آلاف من هوازن وثقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف كنانة بن عبد؛ فنزلوا بأوطاس[1] . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي عينًا ، فأتاه وأخبره بما شاهد منهم؛ فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستعار من صفوان ابن أمية بن خلف الجُمَحي دروعا . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستسلف من ربيعة المخزومي ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا؛ فلما قدم قضاه إياها. ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السّلف الوفاء والحمد " خرّجه ابن ماجه في السّنن . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا من المسلمين؛ منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة، وألفان من مُسْلِمة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من الأعراب؛ من سُلَيم وبني كلاب وعَبْس وذُبيان . واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد . وفي مخرجه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تُسمّى ذات أنواط، يخرج إليها الكفار يوما معلوما في السنة يعظمونها؛ فقالوا : يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه السلام : " الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى " اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون " لتركبُنّ سَنَن من قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادي حُنين، وهو من أودية تهامة، وكانت هوازن قد كمنت في جَنبَتي الوادي وذلك في غَبش الصبح فحملت على المسلمين حملة رجل واحد، فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو[2] أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد ــ وهو أيمن بن أم أيمن قُتل يومئذ بحُنين ــ وربيعة

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن، فيه كانت وقعة حنين .
(٢) أي لم يلتفت ولم يعطف .

ابن الحارث، والفضل بن عباس ، وقيل فى موضع جعفر بن أبى سفيان : قُثَم بن العباس . فهؤلاء عشرة رجال، ولهذا قال العباس :

نصرْنا رسـولَ الله فى الحرب تسعةً * وقـد فرّ مَن قد فرّ عنهُ[1] وأقشـعوا

وعاشِرُنا لاقَى الحِمـام بنفســـه * بما مَسّـــه فى الله لا يتـوَجّع

وثبتت أم سُليم فى جملة من ثبت، مُحْتزِمةً ممسكَةً بعيرا لأبى طلحة وفى يدها خَنْجر. ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشهباء واسمها دُلْدُل . وفى صحيح مسلم عن أنس قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَكُفُّها إرادةَ ألّا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أىْ عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة[2] " . فقال عباس — وكان رجلا صَيّتا . ويروى من شدّة صوته أنه أُغير يوما على مكة فنادى واصباحاه! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جنينَها — : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرة ؟ قال : فوالله لكأنّ عَطْفتهم حين سمعوا صوتى عَطْفـةُ البقر على أولادها ، فقالوا : يالَبّيْكَ يالبيكْ . قال : فاقتتلوا والكفارَ... الحديث . وفيه : « قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حَصَياتٍ فرمَى بهنّ وجـوه الكفار » . ثم قال : " انهزَموا وربِّ محمد " . قال : فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال : فوالله ما هـو إلا أن رماهم بحَصَـياته ؛ فمـا زلت أرى حَدّهم كليلا وأمرَهم مدْبِرا . قال أبو عمر : رَوينـا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حُنينا أنه قال — وقد سئل عن يوم حُنين — : لقينا المسلمين فمـا لبثنا أن هزمناهم وأتبعناهم حتى انتهينا إلى رجل راكبٍ على بغلة بيضاء، فلما رآنا زجرنا زجرة وانتهرنا ، وأخذ بكفه حَصًى وترابا فرمَى به وقال : " شاهت الوجوه " . فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا . وقال سعيد بن جُبير : حدّثنا

---

(١) فى الأصول : « منهم » والتصويب عن المواهب اللدنية .

(٢) أى أصحاب الشجرة المسماة بالسمرة، وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

رجل من المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقفوا لنا حَلْب شاة، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشّهباء ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ تلقانا رجال بيض الوجوه حِسان ؛ فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ؛ فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها . يعنى الملائكة .

قلت : ولا تعارض؛ فإنه يحتمل أن يكون شاهت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معًا، ويدلّ على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقتل علىّ رضى الله عنه يوم حنين أربعين رجلا بيده . وسَبَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف واثنى عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانيـــة ـ قال العلماء فى هذه الغَزاة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا عليه بيّنة فله سَلَبه " . وقد مضى فى « الأنفال » بيانه (١) . قال ابن العربىّ : ولهذه النكتة وغيرها أدخل الأحكاميّون هذه الآيةَ فى الأحكام .

قلت : وفيه أيضا جواز استعارة السلاح وجواز الاستمتاع بما استُعير إذا كان على المعهود مما يستعار له مثله ، وجواز استلاف الإمام المالَ عند الحاجة إلى ذلك وردّه إلى صاحبه ، وحديث صَفْوان أصلٌ فى هـذا الباب . وفى هذه الغَزاة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُوطأ حامل حتى تَضَع ، ولا حائل حتى تحيض حيضة . وهو يدلّ على أن السَّبْىَ يقطع العِصمة ، وقد مضى بيانه فى سورة « النساء » مستوفًى (٢) . وفى حديث مالك أن صَفوان خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر، فشهد حُنينا والطائف وامرأته مسلمة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خَدَمًا أو نَواتيّة، وقال أبو حنيفة والشافعىّ والثورىّ والأوزاعىّ :

---

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٧ ص ٣٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسلام هو الغالب، وإنما تكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر. وقد مضى القول فى الإسهام لهم فى « الأنفال »(١).

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ « حُنين » واد بين مكة والطائف، وانصرف لأنه اسم مذكّر، وهى لغة القرآن. ومن العرب من لا يصرفه، يجعله اسما للبُقْعة. وأنشد:

نصروا نبيّهـم وشدّوا أزره * بحنينَ يومَ تواكُلِ الأبطال(٢)

« ويوم » ظرف، وانتصب هنا على معنى: ونصركم يوم حنين. وقال الفرّاء: لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لهـا نظير فى المفرد وليس لهـا جماع؛ إلا أن الشاعر ربمـا اضطر بجمع. وليس يجوز فى الكلام كما يجوز فى الشعر. وأنشد:

* فهنّ يعلُكْنَ حَدائدا تها *

وقال النحاس: رأيت أبا إسحاق يتعجب من هذا قال: أخذ قول الخليل وأخطأ فيه؛ لأن الخليل يقول فيـه: لم ينصرف لأنه جمعٌ لا نظير له فى الواحد، ولا يجمع جمع التكسير، وأما بالألف والتاء فلا يمتنع.

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قيـل: كانوا اثنى عشر ألفـا. وقيل: أحد عشر ألفا وخمسمائة. وقيل: ستة عشر ألفا. فقال بعضهم: لن نُغلب اليوم عن قِلّة. فوُكِلوا إلى هذه الكلمة؛ فكان ما ذكرناه من الهزيمة فى الابتداء إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للسلمين ببركة سـيد المرسلين صـلى الله عليه وسـلم. فبيّن الله عز وجل فى هـذه الآية أن الغلبة إنمـا تكون بنصر الله لا بالكثرة. وقد قال: « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ »(٣).

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أى لِمَن الخوف؛ كما قال:

كأن بلاد الله وهى عريضة * على الخائف المطلوب كِفّة حابِل(٤)

---

(١) راجع المسألة الموفية العشرين ص ١٨ من هذا الجزء. (٢) البيت لحسان بن ثابت.

(٣) آية ١٦٠ سورة آل عمران. (٤) الكفة (بالكسر): حبالة الصائد. والحابل: الذى ينصب الحبالة.

والرُّحب (بضم الراء) السَّعة . تقول منه : فلان رُحْب الصدر . والرَّحْب (بالفتح) : الواسع . تقول منه : بلد رَحْب ، وأرض رَحْبة . وقد رَحُبت ترحُب رُحبا ورَحابة . وقيل : الباء بمعنى مع؛ أي مع رحبها . وقيل : بمعنى على؛ أي على رحبها . وقيل : المعنى رحبها؛ فـ «ما» مصدرية .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ روى مسلم عن أبي إسحاق قال : جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم وَلَّيتم يوم حُنين يا أبا عُمارة . فقال : أشهد على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ما ولّى ، ولكنه انطلق أخفاءُ(١) من الناس، وحُسَّرٌ إلى هذا الحيّ من هوازن . وهم قوم رُماة فرمَوْهم برِشْق من نَبل كأنها رِجْل من جراد فانكشفوا؛ فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول : " أنا النبيّ لا كَذِب . أنا ابن عبد المطلب . اللّهمّ نزّل نصرك " . قال البراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به، وإن الشجاع منا للّذي يُحاذي به؛ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنزل عليهم ما يسكنهم ويُذهب خوفهم ، حتى اجترءوا على قتال المشركين بعد أن ولوا . ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ؛ يقوّون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويُضعفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال ؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر . وروى أن رجلا من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البُلْق ، والرجالُ الذين كانوا عليها بيض ، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشامة ، وما كان قتلنا إلا بأيديهم . أخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " تلك الملائكة " . ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

---

(١) أخفاء : جمع خفيف كطبيب وأطباء . وأراد بهم المتعجلين . والحسّر : جمع حاسر؛ كساجد وسجد . وهو من لا درع له ولا مغفر . أي ليس عليهم سلاح . والرشق (بالكسر) : اسم للسهام التي ترميها الجماعة دفعة واحدة . والرجل (بالكسر) : القطعة . وقوله « احمرّ البأس » أي اشتدّ الحرب . (راجع شرح النووي على صحيح مسلم كتاب المغازي) .

أى بأسيافكم . ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى على من انهزم فيهديه إلى الإسلام . كمالك بن عوف النَّصْرِىّ رئيس حُنين ومن أسلم معه من قومه .

الثامنــة — ولما قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حُنين بالجعرانة ، أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين فى العطف عليهم والإحسان إليهـم ، وقالوا : يارسول الله ، إنك خير الناس وأبرّ الناس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : " إنى قد كنت استأنيت بكم وقد وقعت المقاسم وعندى من ترون وإنّ خير القول أصدقُه فاختاروا إما ذراريكم و إما أموالكم" . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : "هؤلاء جاءونا مسلمين وخيرناهم فلم يعدلوا بالأنساب فرضـوا بردّ الذرّية وما كان لى ولبنى عبـد المطلب وبنى هاشم فهو لهم" . وقال المهاجرون والأنصار : أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وآمتنع الأقرع بن حابِس وعُيينة بن حِصْن فى قومهما من أن يردّوا عليهم شيئـا ممّـا وقع لهم فى سهامهم . وآمتنع العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِى كذلك ، وطمـع أن يساعده قومُه كما ساعد الأقرعَ وعُيينةَ قومُهما . فأبت بنو سُليم وقالوا : بل ما كان لنـا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَنّ منكم بما فى يديه فإنا نعوّضه منه " . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم نساءهم وأولادهم ، وعوّض من لم تَطب نفسُه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها . وقال قتادة : ذُكر لنا أن ظِئْر النبىّ صلى الله عليه وسلم التى أرضعته من بنى سعد ، أتته يوم حنين فسألته سبايا حنين . فقال صلى الله عليه وسلم : "إنى لا أملك إلا ما يصيبنى منهم ولكـن ايتينى غدًا فاسألينى والناس عندى فإذا أعطيتك حِصّتى أعطاك الناس" . فجاءت الغد فبسط لها ثوبه فأقعدها عليه . ثم سألته فأعطاها نصيبه ؛ فلما رأى ذلك الناس أعطَوْها أنصباءهم . وكان عدد سَبْى هوازن فى قول سعيد بن المسيّب ستة آلاف رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فيهنّ الشَّيماء أخت النبىّ صـلى الله عليه وسلم من الرّضـاعة ، وهى بنت الحـارث بن عبـد العُزّى من بنى سـعد بن بكر [وبنت] حليمة السعديّة ؛ فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة

إلى بلادنا بدينها و بما أفاء الله عليها . قال ابن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أوطاس امرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل : فقدت بُنَيًّا لها . ثم رآها وقد وجدت ابنها وهى تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه : "أطارحة هذه ولدها فى النار" ؟ قالوا لا . قال : "لم" ؟ قالوا : لشفقتها . قال : "الله أرحم بكم منها" . وخرّجه مسلم بمعناه، والحمد لله .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ابتداء وخبر واختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنّجس ؛ فقال قتادة ومَعْمَر بن راشد وغيرهما : لأنه جُنُب ؛ إذ غسله من الجنابة ليس بغسل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذى نجسه . قال الحسن البصرى : من صافح مشركا فليتوضأ . والمذهب كله على إيجاب الغسل على الكافر إذا أسلم ؛ إلا ابن عبد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . و بوجوب الغسل عليه قال أبو ثور وأحمد ، وأسقطه الشافعى وقال : أحبّ إلىّ أن يغتسل . ونحوه لابن القاسم . ولمالك قول : إنه لا يعرف الغسل؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبى أُوَيس . وحديث ثُمَامة وقيس بن عاصم يردّ هذه الأقوال . رواهما أبو حاتم البستىّ فى صحيح مسنده . وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ بثمامة يوما فأسلم، فبعث به إلى حائط(1) أبى طلحة فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصلّى ركعتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد حَسُن إسلامُ صاحبكم" وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

---

(1) الحائط : البستان .

لما منّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم انطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل . وأمر قيس ابن عاصم أن يغتسل بماء وسدر . وإن كان إسلامه قُبيل احتلامه فغسله مستحب . ومتى أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوي بغسله الجنابة . هذا قول علمائنا ، وهو تحصيل المذهب . وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه ، إذا اعتقد الإسلام بقلبه ؛ وهو قول ضعيف في النظر مخالف للأثر . وذلك أن أحدا لا يكون بالنيّة مسلما دون القول هذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان : إنه قولٌ باللسان وتصديق بالقلب ، ويزكو بالعمل قال الله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ « فلا يقربوا » نهي ؛ ولذلك حذفت منه النون . « المسجد الحرام » هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم ؛ وهو مذهب عطاء ؛ فإذًا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرَم أجمع . فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول . ولو دخل مشرك الحرَم مستورا ومات نُبش قبره وأخرجت عظامه . فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز . وأما جزيرة العرب ، وهي مكة والمدينة واليمامة واليمن ومخاليفها[2] ؛ فقال مالك : يخرج من هذه المواضع كلّ من كان على غير الإسلام ، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين . وكذلك قال الشافعيّ رحمه الله ؛ غير أنه استثنى من ذلك اليمنَ . ويُضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضربه لهم عمر رضي الله عنه حين أجلاهم . ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل .

الثالثـــة — واختلف العلماء في دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال ؛ فقال أهل المدينة : الآية عامّة في سائر المشركين وسائر المساجد . وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عُمّاله ونزع في كتابه بهذه الآية . ويؤيّد ذلك قوله تعالى : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »[3] . ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها . وفي صحيح مسلم وغيره : أن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر . الحديث . والكافر لا يخلو من

---

(١) آية ١٠ سورة فاطر .
(٢) مخاليف جمع مخلاف ، وهي قرى اليمن .
(٣) آية ٣٦ سورة النور .

ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم: " لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب " والكافر جُنُب . وقوله تعالى : « إنما المشركون نجس » فسماه الله تعالى نجسا . فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم . وأي ذلك كان، فمنعه من المسجد واجب؛ لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد . يقال : رجل نَجَس، وامرأة نَجَس، ورجلان نَجَس ، وامرأتان نَجَس ، ورجال نَجَس ، ونساء نَجَس ؛ لا يُثنى ولا يُجمع لأنه مصدر . فأما النِّجْس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رِجْس . فإذا أُفرد قيل نَجِس (بفتح النون وكسر الجيم) ونَجُس (بضم الجيم) . وقال الشافعي رحمه الله : الآية عامةٌ في سائر المشركين، خاصّةٌ في المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره؛ فأباح دخول اليهودي والنصراني في سائر المساجد . قال ابن العربي : وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل : « إنما المشركون نَجَس» تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فإن قيل : فقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم ثُمامة في المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علماؤنا عن هذا الحديث ــ وإن كان صحيحا ــ بأجوبة : أحدها ــ أنه كان متقدما على نزول الآية .

الثاني ــ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه .

الثالث ــ أن ذلك قضية في عَيْن فلا ينبغي أن تُدفع بها الأدلة التي ذكرناها؛ لكونها مقيِّدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنما ربطه في المسجد لينظر حُسْن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها، وحسنَ آدابهم في جلوسهم في المسجد؛ فيستأنسَ بذلك ويُسلم؛ وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا في المسجد ؛ والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يرده كل ما ذكرناه من الآية وغيرها . قال الكِيَا الطبري : ويجوز للذمي دخول سائر المساجد عند أبي حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعي: تعتبر الحاجة، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام . وقال عطاء بن أبي رَباح : الحَرَم كله قبلة ومسجد ، فينبغي أن يمنعوا من دخول

الحَرَم ؛ لقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المسجِدِ الحَرَامِ» . وإنما رفع من بيت أمّ هانئ . وقال قتادة : لايقرب المسجد الحرام مشرك؛ إلا أن يكون صاحب جزْية، أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شُريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لايقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أَمَة فيدخله لحاجة" . وبهذا قال جابر بن عبد الله؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام، وهو مخصوص في العبد والأمة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التي حجّ فيها أبو بكر . الثاني — سنة عشر؛قاله قتادة . ابن العربيّ : «وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العامُ الذي وقع فيه الأذان . ولو دخل غلامٌ رجلٍ داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه » .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْـلَةً ﴾ قال عمـرو بن فائد : المعنى وإذ خفتم . وهذه عُجْمة، والمعنى بارع بـ « إن » . وكان المسلمون لمـا منعوا المشركين من الموسم، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش . فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجـزية من أهـل الذّمة بقـوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ» الآية . وقال عِكْرِمة : أغناهم الله بإدرار المطر والنبات وخِصب الأرض . فأخصبت تَبالة وجُرَش ، وحملوا إلى مكة الطعام والوَدَك(١) وكثر الخير . وأسـلمت العرب : أهل نجـد وصنعاء وغيرهم ؛ فتمادى حجهم وتَجْرهم . وأغنى الله من فضله بالجهـاد والظهور على الأمم . والعَيْلة : الفقر . يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر . قال الشاعر(٢) :

وما يَدرِي الفقير متى غِنـاه * وما يدرِي الغنيّ متى يَعِيـلُ

---

(١) الودك : هو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه . (٢) هو أحيحة ؛ كما في اللسان .

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر؛ كالقائلة من قال يقيل، وكالعافية . ويحتمل أن يكون نعتا لمحذوف تقديره : حالا عائلة؛ ومعناه خصلة شاقة . يقال منه : عالني الأمر يعولني؛ أى شق علىّ واشتد . وحكى الطبرى أنه يقال : عال يعول إذا افتقر .

السادسة ــ فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز وليس ذلك بمناف للتوكل؛ و إن كان الرزق مقدرا، وأمر الله وقسمه مفعولا، ولكنه علّقه بالأسباب حكمة؛ لتعلم القلوب التى تتعلّق بالأسباب من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب . وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل . قال صلى الله عليه وسلم : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا "[1] . أخرجه البخارىّ . فأخبر أن التوكل الحقيقىّ لا يضادّه الغدو والرواح فى طلب الرزق . ابن العربىّ : « ولكن شيوخ الصوفية قالوا : إنما يغدو و يروح فى الطاعات؛ فهو [السبب][2] الذى يجلب الرزق » . قالوا : والدليل عليه أمران : أحدهما ــ قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ »[3] . الثانى ــ قوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[4] . فليس ينزل الرزق من محله وهو السماء، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل الصالح، وليس بالسعى فى الأرض ؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحيح ما أحكمته السنة عند فقهاء الظاهر، وهو العمل بالأسباب الدنيوية ؛ من الحرث والتجارة فى الأسواق ، والعمارة للأموال وغرس الثمار . وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبىّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم» . قال أبو الحسن بن بطّال : أمر الله سبحانه عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، إلى غير ذلك من الآى . وقال : « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »[5] . فأحل للمضطر

---

(١) الخمص والخمصة : الجوع . والبطنة : امتلاء البطن من الطعام . أى تغدو بكرة وهى جياع، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف .
(٢) زيادة عن ابن العربى .
(٣) آية ١٣٢ سوره طه !
(٤) آية ١٠ سورة فاطر .
(٥) آية ١٧٣ سورة البقرة .

ما كان حُرِّم عليه عند عدمه للغذاء الذى أمره باكتسابه والاغتذاء به، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعى فى ترك ما يتغذّى به لكان لنفسه قاتلا . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكّل أو أطلقه وأتوكّل؟ قال : " اعقله وتوكّل "

قلت : ولا حجة لهم فى أهل الصُّفَّة؛ فإنهم كانوا فقراء يقعدون فى المسجد ما يحرثون ولا يتجرون، ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرءون القرآن بالليل ويصلّون . هكذا وصفهم البخارى وغيره . فكانوا يتسببون . وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم، وإن كانت صدقة خصهم بها، فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمّروا - كأبى هريرة وغيره - وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب التى يُطلب بها الرزق ستة أنواع :

أعلاها كسب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال : " جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى" . خرّجه الترمذىّ وصححه . فجعل الله رزق نبيّه صلى الله عليه وسلم فى كسبه لفضله ، وخصّه بأفضل أنواع الكسب؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

الثانى - أكل الرجل من عمل يده ؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده" خرّجه البخارى . وفى التنزيل « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »(١) ؛ وروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه .

الثالث - التجارة ، وهي كانت عمل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصّة المهاجرين؛ وقد دلّ عليها التنزيل فى غير موضع .

(١) آية ٨٠ سورة الأنبياء .

الرابـــع ــ الحرث والغرس . وقد بيناه في سورة « البقرة »[1] .

الخامس ــ إقراء القرآن وتعليمه والرقية، وقد مضى في الفاتحة .

السادس ــ يأخذ بنيّة الأداء إذا احتاج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفـه الله " . خرجه البخاريّ . رواه أبو هريرة رضي الله عنه .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد، وإنما هو من فضل الله تولّى قسمته بين عباده؛ وذلك بيّن في قوله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[2] » الآية .

قوله تعـالى : قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لمـا حرّم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون في أنفسهم بما قُطع عنهـم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » الآية . على ما تقدّم . ثم أحل في هـذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك؛ فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم . فقال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم[3] على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) آية ٣٢ سورة الزخرف .

(٣) أصفق القوم على أمر واحد : أجمعوا عليه .

ذِكر محمد صلى الله عليه وسلم وملّته وأمّته . فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظُمت منهم الجريمة ؛ فنبّه على محلهم ثم جعل للقتال غاية ، وهي إعطاء الجزية بدلًا عن القتل . وهو الصحيح . قال ابن العربيّ : سمعت أبا الوفاء عليّ بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتجّ بها . فقال : « قاتِلُوا » وذلك أمر بالعقوبة . ثم قال : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة . وقوله : « وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ » تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد . ثم قال : ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال . ثم قال : ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام . ثم قال : ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ تأكيد للحجة ؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . ثم قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ فبيّن الغاية التي تمتد إليها العقوبة ، وعيّن البدل الذي ترتفع به .

الثانيــة — وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية ؛ فقال الشافعيّ رحمه الله : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصّةً ، عربا كانوا أو عجما لهذه الآية ؛ فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر فتوجّه الحكم إليهم دون من سواهم ؛ لقوله عز وجل : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(1) . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب . وقال : وتقبل من المجوس بالسّنّة ؛ وبه قال أحمد وأبو ثور . وهو مذهب الثّوريّ وأبي حنيفة وأصحابه . وقال الأوزاعيّ : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذّب . وكذلك مذهب مالك ؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد ، عربيا أو عجميا ، تَغْلِبيًّا أو قرشيا ، كائنا من كان ، إلا المرتد . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحنون : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلّها . وأما عَبدة الأوثان من العرب فلم يستنّ الله فيهم جزية ، ولا يبقى على الأرض منهم أحد ، وإنما لهم القتال أو الإسلام . ويوجد لابن القاسم : أن الجزية تؤخذ منهم ، كما يقوله مالك . وذلك في التفريع لابن الجلّاب ، وهو احتمال لا نصّ . وقال ابن وهب :

---

(1) آية ٥ من هذه السورة .

لا تقبل الجزية من مجوس العرب وتقبل من غيرهم . قال : لأنه ليس فى العرب مجوسىّ إلا وجميعهم أسلم؛ فمن وُجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد، يقتل بكل حال إن لم يسلم، ولا تقبل منهم جزية . وقال ابن الجَهْم : تقبل الجزية من كل مَن دان بغير الإسلام؛ إلا ما أجمع عليه من كفار قريش . وذكر فى تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار؛ لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله اعلم .

الثالثة ــ وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم . وفى الموطّا : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكر أمرُ المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم . فقال عبد الرحمن بن عَوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب " . قال أبو عمر : يعنى فى الجزية خاصّة . وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب " دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هذا جمهور الفقهاء . وقد رُوى عن الشافعى أنهم كانوا أهل كتاب فبدلوا . وأظنه ذهب فى ذلك إلى شىء رُوى عن علىّ بن أبى طالب من وجه فيه ضعف، يدور على أبى سعيد البقّال؛ ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث فى المجوس نبىّ اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعة ــ لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهم . وقد اختلف العلماء فى مقدار الجزية المأخوذة منهم؛ فقال عطاء بن أبى رَباح : لا توقيت فيها، وإنما هو على ما صُولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبرىّ؛ إلا أن الطبرى قال : أقلّه دينار وأكثره لا حدّ له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البَحرَين على الجزية . وقال الشافعىّ : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شىء؛ واحتج بما رواه أبو داود وغيره عن معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم

دينارا فى الجزية . قال الشافعىّ : وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده . وهو قول أبى ثور . قال الشافعىّ : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قُبل منهم . وإن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز، إذا كانت الضيافة معلومة فى الخبز والشعير والتبن والإدام، وذكر ما على الوسط من ذلك وما على المُوسر، وذكر موضع النزول والكِنّ من البرد والحر . وقال مالك فيما رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث ابن زَنْجويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورِق، الغنى والفقير سواء ولو كان مجوسيا . لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر،لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إن الضعيف يُخَفَّف عنه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا يُنقص من فرض عمر لعسر ولا يزاد عليه لغنًى . قال أبو عمر : ويؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك. وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وأربعون . قال الثورىّ : جاء عن عمر بن الخطاب فى ذلك ضرائب مختلفة،فللوالى أن يأخذ بأيها شاء ، إذا كانوا أهل ذِمّة . وأما أهل الصلح فما صُولحوا عليه لا غير .

الخامســـة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : والذى دلّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ؛ لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الذين » إلى قوله — « حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . ويدلّ على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلا ؛ لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حتى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يُعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرّية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى . واختُلف فى الرهبان؛ فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مُطَرِّف وابن الماجِشُون : هذا إذا لم يترهّب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهّب لم يسقطها ترهّبه .

السادســـة — إذا أعطى أهلُ الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شىء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ؛ إلا أن يتّجروا فى بلاد غير بلادهم التى أقِرّوا فيها وصُولحوا عليها ، فإن خرجوا

تجارا عن بلادهم التي أقرّوا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونضّ[١] ثمن ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك في السنة مرارا؛ إلا في حملهم الطعام الحنطة والزيت إلى المدينة ومكة خاصة، فإنه يؤخذ منهم نصف العُشر على ما فعل عمر . ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر في تجارتهم الآمرّة في الحول، مثل ما يؤخذ من المسلمين. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعة من أئمة الفقهاء . والأول قول مالك وأصحابه .

السابعــة ـــ إذا أدّى أهل الجزية جزيتهم التي ضُربت عليهم أو صُولحوا عليها خُلّي بينهم وبين أموالهم كلها ، وبين كرومهــم وعصرها ما ستروا خمورهم ولم يُعلنوا بيعها من مسلم . ومُنعوا من إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين؛ فإن أظهروا شيئا من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأدّب من أظهر الخنزير . وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان . وقيل : لا يجب ، ولو غصبها وجب عليــه ردّها . ولا يُعترّض لهم في أحكامهــم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا . فإن تحاكموا إلينا فالحاكم مخيّر، إن شاء حكم بينهم بمــا أنزل الله وإن شاء أعرض . وقيل : يحكم بينهم في المظالم على كل حال، ويؤخذ من قويّهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم . وعلى الامام أن يقاتل عنهم عدوهم ويستعين بهم في قتالهم . ولا حظ لهم في الفيء، وما صولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وَهَى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها . ويأخذون من اللباس والهيئة بما يبيّنون به من المسلمين ، ويُمنعون من التشبه بأهل الاسلام . ولا بأس باشتراء أولاد العدو منهم إذا لم تكن لهم ذمة . ومن لَدّ في أداء جزيته أدّب على لَدَده[٢] وأخذت منه صاغرا .

الثامنــة ـــ اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنــه؛ فقال علماء المــالكية: وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر . وقال الشافعي : وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنــه الجزية لمــا مضى، ولو أسلم قبل تمام الحول بيوم أو بعده عند مالك . وعند الشافعي أنها دَين مستقر في الذمة فلا يسقطه

(١) نضّ المال : صار عَينًا بعد أن كان متاعا . (٢) اللدد : الخصومة الشديدة .

الإسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا عن النصر والجهاد . واختاره القاضي أبو زيد وزعم أنه سرّ الله في المسألة . وقول مالك أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "ليس على مسلم جزية" . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذمّيّ بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه . أخرجه الترمذيّ وأبو داود . قال علماؤنا : وعليه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وهم صاغرون » لأن بالإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤدّون الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون . والشافعيّ لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذى قاله الله تعالى . وإنما يقول : إن الجزية دَين، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقّى شر القتل، فصارت كالديون كلها .

التاسعة — لو عاهد الإمام أهل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وٱمتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها، وامتنعوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا، وكان الإمام غير جائر عليهم ؛ وجب على المسلمين غَزْوُهم وقتالهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وغلبوا حكم فيهم بالحكم في دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونساؤهم فَيْء ولا خُمس فيهم ؛ وهو مذهب .

العاشرة — فإن خرجوا متلصّصين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمنعوا الجزية . ولو خرجوا متظلّمين نُظر في أمرهم ورُدّوا إلى الذمّة وأنصفوا من ظالمهم، ولا يُسترقّ منهم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهده، ولا يؤخذ بنقض غيره، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين .

الحادية عشرة — الجزية وزنها فِعلة ؛ من جزى يَجْزِى إذا كافأ عما أسدى إليه ؛ فكأنهم أعطَوْها جزاءَ ما منحوا من الأمن ؛ وهي كالقعدة والجلسة . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يُثنى عليك وإن من * أثنى عليك بما فعلتَ كمن جَزَى

الثانية عشرة ــ روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حزام ومرّ على ناس من الأنباط[1] بالشأم قد أقيموا في الشمس ــ في رواية : وصُبّ على رءوسهم الزيت ــ فقال : ماشأنهم؟ فقال يحبسون في الجزية . فقال هشام : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا " . في رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فحدثه فأمر بهم فخلّوا . قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحلّ عقوبتهم ؛ لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ عَن يَدٍ ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدا . وروى أبو البختري عن سلمان قال : مذمومين . وروى معمر عن قتادة قال : عن قهر . وقيل : « عن يد » عن إنعام منكم عليهم ؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك . عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس ؛ وقاله سعيد بن جبير . ابن العربي : وهذا ليس من قوله : « عن يد » وإنما هو من قوله : « وهم صاغرون » .

الرابعة عشرة ــ روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة " وروى " واليد العُليا هي المعطية " . فجعل يد المعطي في الصدقة عليا، وجعل يد المعطي في الجزية سفلى . ويد الآخذ عليا ؛ ذلك بأنه الرافع الخافض، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، لا إله غيره .

الخامسة عشرة ــ عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنها أهلها أفأعمّرها وأزرعها وأؤدّي خراجها؟ فقال لا . وجاءه آخر

(١) الأنباط : فلاحو العجم .

فقال له ذلك ؛ فقال لا ، وتلا قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله « وهم صاغرون » أيعمد أحدكم إلى الصغار في عنق أحدهم فينتزعه فيجعله في عنقه ! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمر اشتريت أرضا ؛ قال : الشراء حسن . قلت : فإني أعطي عن كل جريب[1] أرض درهما وقفيز طعام . قال : لا تجعل في عنقك صغارا . وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما يسرني أن لي الأرض كلها بجزية خمسة دراهم أقر فيها بالصغار على نفسي .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قرأ عاصم والكسائي «عزيرٌ ابن الله» بتنوين عزير . والمعنى أن «ابنا» على هذا خبر ابتداء عن عزير ، و « عزير » ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر « عزير بن » بترك التنوين لاجتماع الساكنين ؛ ومنه قراءة من قرأ « قل هو الله أحدُ الله الصمد » . قال أبو علي : وهو كثير في الشعر . وأنشد الطبري في ذلك :

لتجدَنّي بالأمير بَرّا ۞ وبالقناة مِدْعَسا[2] مِكَرّا

۞ إذ غُطَيفُ السُّلَمِيُّ فَرّا ۞

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهذا مثل قوله تعالى : « الذين قال لهم

---

(١) الجريب من الأرض : مقدار معلوم الذراع والمساحة . والقفيز : مكيال .

(٢) رجل مدعس (بالسين والصاد) : طعان .

النَّاسُ[١] » ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى عن اليهود سلّام بن مِشْكم ونعمان بن أبى أوْفَى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف، قالوه للنبيّ صلى الله عليه وسلم . قال النقاش : لم يبق يهوديّ يقولها، بل انقرضوا، فإذا قالها واحد فيتوجّه أن تلزم الجماعة شُنْعةُ المقالة؛ لأجل نباهة القائل فيهم . وأقوال النبهاء أبدا مشهورة فى الناس يُحتجّ بها . فمن ها هنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيهها . والله أعلم . ورُوِى أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عُزير يسيح فى الأرض، فأتاه جبريل فقال : " أين تذهب " ؟ قال : أطلب العلم، فعلّمه التوراة كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بنى إسرائيل فعلّمهم . وقيل : بل حفّظها الله عُزيرا كرامة منه له ؛ فقال لبنى إسرائيل : إن الله قد حفّظنى التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنده . وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتل بُخْتَنصّر إياهم . ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هى متساوية لما كان عُزير يدرس ؛ فضلّوا عند ذلك وقالوا : إن هذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو ٱبن الله؛ حكاه الطبريّ . وظاهر قول النصارى أنّ المسيح بن الله؛ إنما أرادوا بنوّة النّسل، كما قالت العرب فى الملائكة . وكذلك يقتضى قول الضحاك والطبرى وغيرهما . وهذا أشنع الكفر . قال أبو المعالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ٱبن إله . قال ابن عطية : ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوّة حنو ورحمة . وهذا المعنى أيضا لايحل أن تطلق البنوّة عليه، وهو كفر .

الثالثة — قال ٱبن العربيّ : فى هذا دليل من قول ربّنا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذى لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له والردّ عليه، ولو شاء ربّنا ما تكلّم به أحد، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالإخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان .

---

(١) آية ١٧٣ سورة آل عمران .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ قيل : معناه التأكيد، كما قال تعالى : « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »[1] وقوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »[2] وقوله : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ »[3] ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قولٌ ساذَج ليس فيه بيان ولا برهان ، وإنما هو قول بالفم مجرّد نَفْس دعوى لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ؛ فهو كذب وقولٌ لسانيٌّ فقط ، بخلاف الأقوال الصحيحة التي تَعْضُدها الأدلة ويقوم عليها البرهان . قال أهل المعاني : إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا ، كقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »[4] و « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »[5] و « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »[6] .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ « يضاهئون » يشابهون ؛ ومنه قول العرب : امرأةٌ ضَهْيَأٌ للتي لا تحيض أو التي لا ثَدْيَ لها ؛ كأنها أشبهت الرجال . وللعلماء في « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأول — قولُ عَبَدة الأوثان : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى . الثاني — قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثالث — قول أسلافهم . فقلّدوهم في الباطل واتّبعوهم على الكفر ، كما أخبر عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ »[7] .

السادســـة — اختلف العلماء في « ضهيأ » هل يُمَدّ أم لا ؛ فقال ابن وَلّاد : امرأة ضَهْيَأ ؛ وهي التي لا تحيض ؛ مهموز غير ممدود . ومنهم من يمدّ وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمدّ ، والهمزة فيها زائدة ؛ لأنهم يقولون نساء ضُهْي ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال لي

(١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة الحاقة .
(٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران . (٥) آية ٥ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة الفتح .
(٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزخرف .

النَّجيرَمىّ : ضهياة بالمد والهاء . جمع بين علامتى تأنيث ؛ حكاه عن أبى عمرو الشّيبانى فى النوادر . وأنشد :

* ضَهياة أو عاقر جمّاد [1] *

ابن عطية : من قال «يضاهئون» مأخوذ من قولهم : امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبوعلىّ؛ لأن الهمزة فى « ضاهأ » أصلية، وفى « ضهياء » زائدة كحمراء .

السابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أى لعنهم الله، يعنى اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول . قال ابن جُرَيج : «قاتلهم الله » هو بمعنى التعجب . وقال ابن عباس : كل شىء فى القرآن قَتْل فهو لعن؛ ومنه قول أبان بن تَغْلب :

قاتلها الله تَلْحانِى وقـــد علمَتْ * أنّى لنفسى إفسادى و إصلاحى

وحكى النقاش أن أصل « قاتل الله » الدعاء، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعىّ :

ياقاتل الله لَيْــلَى كيف تعجبنى * وأخبر النـاس أنى لا أباليهـا

قوله تعـالى : ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

قوله تعـالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذى يحسن القول وينظّمه ويتقنه بحسن البيان عنه . ومنه ثوب محبّر أى جمع الزينة . وقد قيل فى واحد الأحبار : حِبر بكسر الحاء . والمفسرون على فتحها . وأهل اللغة على كسرها . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا : حِبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمداد حِبر . قال الفرّاء : الكسر والفتح

(١) فى الأصول « جناد » بالنون، وهو تحريف . والجماد : الناقة التى لا لبن بها .

لغتان . وقال ابن السكيت : الحِبر بالكسر المداد، والحَبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به .

قوله تعالى : ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أهل المعانى : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شيء ؛ ومنه قوله تعالى : « قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا »(١) أى كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدِّينَ إلا الملوكُ * وأحبارُ سوء ورُهبانها

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى البَخْترى قال : سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » هل عبدوهم ؟ فقال لا ، ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلّوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه . وروى الترمذىّ عن عدىّ بن حاتم قال : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب . فقال : " ماهذا ياعدىّ اطرح عنك هذا الوثن " وسمعته يقرأ فى سورة براءة « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » ثم قال : " أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه ". قال : هذا حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وغُطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾(٢) مضى الكلام فى اشتقاقه فى « آل عمران » . والمسيح : العَرق يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تألف الأحزانا * إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسيح * كأنه جداول تسيح

ومضى فى « النساء »(٣) معنى إضافته إلى مريم أمّه .

---

(١) آية ٩٦ سورة الكهف . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أى دلالته وحججه على توحيده . جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام، أى أن يخمدوا دين الله بتكذيبهم . ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ جمع فُوه على الأصل ؛ لأن الأصل فى فَم فَوْهٌ ، مثل حوض وأحواض . ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يقال : كيف دخلت « إلا » وليس فى الكلام حرف نفى، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم الفراء أن « إلا » إنما دخلت لأن فى الكلام طَرَفا من الجَحْد. قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوى أطراف . وأدوات الجحد : ما، ولا، وإنْ، وليست : وهذه لا أطراف لها يُنطق بها، ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا ؛ ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أبى . والتقدير : ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره . وقال علىّ بن سليمان : إنما جاز هذا فى « أبى » لأنها منع أو آمتناع ، فضارعت النفى . قال النحاس : فهذا حسن، كما قال الشاعر :

وهل لِىَ أمّ غيرُها إن تركتها * أبى الله إلا أن أكون لها آبْنَما

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أى بالفرقان . ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى بالحجة والبراهين . وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها ؛ عن آبن عباس وغيره . وقيل : « ليظهره » أى ليظهر الدّين دينَ الإسلام على كل دين. قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول عيسى عليه السلام . وقال السُّدّى : ذاك عند خروج المهدىّ، لايبق أحد إلا دخل فى الإسلام وأدّى الجزية . وقيل : المهدىّ هو عيسى فقط، وهو غير صحيح، لأن الأخبار الصحاح قد

تواترت على أن المهدى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز حمله على عيسى . والحديث الذى ورد فى أنه لا مهدى إلا عيسى غير صحيح . قال البيهقى فى كتاب البعث والنشور : لأن راويه محمد بن خالد الجندى وهو مجهول ، يروى عن أبان بن أبى عياش — وهو متروك — عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم، وهو منقطع . والأحاديث التى قبله فى التنصيص على خروج المهدى، وفيها بيان كون المهدى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصح إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هذا و زدناه بيانا فى كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدى مستوفاة والحمد لله . وقيل : أراد « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » فى جزيرة العرب، وقد فعل .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الاولى — قوله تعالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ دخلت اللام على يفعل، ولا تدخل على فعل؛ لمضارعة يفعل الأسماء . والأحبار علماء اليهود . والرهبان مجتهدو النصارى فى العبادة . ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ قيل : إنهم كانوا يأخذون من اموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ؛ كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه؛ ذكره ابن إسحاق فى السير . وقيل : كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون فى الأحكام، كما يفعله اليوم

كثير من الولاة والحكام . وقوله : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ يجمع ذلك كله . ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى يمنعون أهل دينهم عن الدخول فى دين الإسلام، واتباع محمد عليه السلام .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : "ألا أخبركم بخير ما يكنز المرءُ المرأة الصالحة" . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :

ولم تزود من جميع الكنز * غير خيــوط ورثيث بزّ [١]

وقال آخر :

لا دَرَّ درّى إن أطعمتُ جائعَهم * قِرْفَ الحَتِيّ وعندى البُرُّ مكنوز

قرف الحتىّ هــو سَوِيق المُقْل[٢] . يقول : إنه نزل بقوم فكان قِراه عنــدهم سويق المقل، وهو الحتىّ ؛ فلمـا نزلوا به قال هو : لا دَرّ درّى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لا يُطّلع عليه، بخلاف سائر الأموال . قال الطبرىّ : الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض ، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسمى الذهب ذهبا لأنه يذهب، والفضة لأنها تنفض فتتفرق ، ومنه قوله تعالى : « لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » وقــد مضى هــذا المعنى فى آل عمران[٣] .

الثالثــة — واختلفت الصحابة مَن المراد بهذه الآية ؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأصمّ ؛ لأن قوله : « والذين يكنزون » مذكور بعــد قوله : « إنّ كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل » . وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصــة لقال : ويكنزون، بغير والذين . فلمـا قال : « والذين » فقــد استأنف معنًى آخر يبيّن أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون كلام مستأنف، وهو رفع على الابتداء . قال السُّدّى : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيــه دليل على أن الكفار عندهم

(١) الرثيث : البالى ، والبز : نوع من الثياب . (٢) المقل ثمر شجر الدوم ينضج و يؤكل .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

مخاطبون بفروع الشريعة . روى البخاريّ عن زيد بن وهب قال : مررت بالرَّبَذة(١) فاذا أنا بأبي ذرّ فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في «الذين يكنزون الذّهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله »؛ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم؛ وكان بيني وبينه في ذلك . فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليّ عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتُها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحّيتَ فكنتَ قريبا ؛ فذاك الذى أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا عليّ حبشيًّا لسمعت وأطعت .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمنت هذه الآية زكاة العين، وهي تجب بأربعة شروط : حرية، وإسلام، وحولٌ، ونصاب سليم من الدين. والنصاب مائتا درهم أو عشرون دينارا . أو يكمّل نصاب أحدهما من الآخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . وإنما قلنا إن الحرية شرط ؛ فلأن العبد ناقص الملك . وإنما قلنا إن الاسلام شرط ؛ فلأن الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة، ولأن الله تعالى قال: « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» فخوطب بالزكاة من خوطب بالصلاة . وإنما قلنا إن الحول شرط ؛ فلأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في مالٍ زكاةٌ حتى يحُول عليه الحول " . وإنما قلنا إن النصاب شرط ؛ فلأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في أقلّ من مائتي درهم زكاة وليس في أقل من عشرين دينارا زكاة " . ولا يُراعَى كمال النصاب في أول الحَوْل ، وإنما يراعى عند آخر الحول ؛ لاتفاقهم أن الربح في حكم الأصل . يدلّ على هذا أن من كانت معه مائتا درهم فتجّر فيها فصارت آخر الحول ألفا أنه يؤدّي زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فاذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك اتفقوا أنه لو كان له أربعون من الغنم ، فتوالدت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلّا واحدة منها، وكانت السّخال تتمة النصاب فإن الزكاة تُخرج عنها .

(١) الربذة : موضع قريب من المدينة .

الخامســــة — وآختلف العلماء فى المــال الذى أديت زكاته هــل يسمى كنزا أم لا؟ فقال قوم نعم . ورواه أبو الضحا عن جعدة بن هبيرة عن علىّ رضى الله عنه، قال علىّ : أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز و إن أدّيت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدّيت زكاته منه او من غيره عنه فليس بكنز . قال ابن عمر : ما أدّى زكاته فليس بكنز و إن كان تحت سبع أرضين، وكل ما لم تؤدّ زكاته فهــو كنز و إن كان فوق الأرض . ومثــله عن جابر، وهو الصحيح . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعا أقْرَعَ له زَبِيبتان يُطَوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه يعنى بِشِدْقَيْه ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا — « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ »[1] " الآية . وفيه أيضا عن أبى ذر، قال : انتهيت إليه — يعنى النبىّ صلى الله عليــه وسلم — قال : " والذى نفسى بيده — أو والذى لا إله غيره أو كما حلف — ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدّى حقها إلا أُتِى بها يوم القيامة أعظمَ ما تكون وأسْمَنَه تَطَؤه بأخفافها وتَنطَحه بقرونها كلما جازت أخراها رُدّت عليــه أُولاها حتى يُقْضَى بين النـاس ". فدلّ دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بيّن ابن عمر فى صحيح البخارىّ هذا المعنى . قال له أعرابىّ : أخبرنى عن قول الله تعـالى : « والذين يكنزون الذّهبَ والفِضة » قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فوَيْل له، إنمـا كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهرا للأموال . وقيل : الكنز ما فضــل عن الحاجة . روى عن أبى ذر، وهو مما نقل من مذهبه، وهو من شدائده ومما آنفرد به رضى الله عنه .

قلت : و يحتمل أن يكون مجمل ما رُوى عن أبى ذر فى هــذا ، ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدّة الحاجة وضعف المهاجرين وقِصَر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن فى بيت المــال ما يشبعهم، وكانت السُّنون الجوائح هاجمة عليهم، فنُهوا عن إمساك شىء من المــال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز آدّخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية

فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوجب صلى الله عليه وسلم فى مائتى درهم خمسةَ دراهم، وفى عشرين دينارا نصفَ دينار ، ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستنماء؛ فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليه وسلم . وقيل : الكنز ما لم تؤدّ منه الحقوق العارضة ؛ كفكّ الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل : الكنز لغةً المجموع من النقدين، وغيرهما من المال محمول عليهما بالقياس . وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حليًا؛ لأن الحلىّ مأذون فى اتخاذه ولا حقّ فيه . والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمّى كنزا لغةً وشرعا . والله أعلم .

السادسة — واختلف العلماء فى زكاة الحلىّ؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه . وهو قول الشافعىّ بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال : أستخير الله فيه . وقال الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ : فى ذلك كله الزكاة . احتج الأولون فقالوا : قصدُ النَّماء يوجب الزكاة فى العروض وهى ليست بمحل لإيجاب الزكاة ، كذلك قطع النماء فى الذهب والفضة باتخاذهما حليًّا للقِنْية يسقط الزكاة . احتجّ أبو حنيفة بعموم الألفاظ فى إيجاب الزكاة فى النقدين، ولم يفرّق بين حلى وغيره . وفرّق الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صُنع حليًّا ليفرّ به من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبس ويُعار . وفى المذهب فى الحلىّ تفصيل، بيانه فى كتب الفروع .

السابعة — روى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفضة » قال : كَبُر ذلك على المسلمين، فقال عمر : أنا أفرّج عنكم ؛ فانطلق فقال : يا نبىّ الله، إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآية . فقال : "إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم و إنما فرض المواريث — وذَكر كلمة[1] — لتكون لمن بعدكم" : قال : فكبّر عمر . ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سرّته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته" . وروى

---

(١) ما بين الخطين موجود فى نسخ الأصل ، غير موجود فى سنن أبى داود . والذى فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « ... وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » .

الترمذي وغيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذمّ الله سبحانه الذهب والفضة، فلو علمنا أيّ المال خير حتى نكسبه . فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسأله فقال : "لسانٌ ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه" . قال حديث حسن .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونهما ؛ ففيه أجوبة ستة : الأول — قال ابن الأنباري : قصد الأغلب والأعم وهي الفضة ؛ ومثله قوله : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ »[1] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ . ومثله « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا »[2] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم، وترك اللهو؛ قاله كثير من المفسرين . وأبى بعضهم وقال : لا يشبهها؛ لأن «أو» قد فصلت التجارة من اللهو فحسُن عوْد الضمير على أحدهما . الثاني — العكس، وهو أن يكون « ينفقونها » للذهب والثاني معطوفا عليه . والذهب تؤنّثه العرب تقول : هي الذهب الحمراء . وقد تذكّر والتأنيث أشهر . الثالث — أن يكون الضمير للكنوز . الرابع — للأموال المكنوزة . الخامس — للزكاة؛ التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة . السادس — الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فُهم المعنى؛ وهذا كثير في كلام العرب . أنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأي مختلفُ[3]

ولم يقل راضون .

وقال آخر[4] :

رماني بأمر كنتُ منه ووالدي * بريئا ومن أجْل الطَّوِيّ رماني

ولم يقل بريئين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

---

(١) آية ٤٥ سورة البقرة . (٢) آخر سورة الجمعة . (٣) البيت لقيس بن الخطيم

(٤) هو ابن أحمر، واسمه عمرو . وصف في البيت رجلا كان بينه وبينه مشاجرة في بئر — وهو الطوى — فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما . (عن شرح الشواهد)

إن شرخ الشباب والشَّعر الأسـ ... ـود ما لم يُعاص كان جنونا

ولم يقل يعاصيا .

التاسـعة — إن قيل : من لم يكنز ولم ينفق فى سبيل الله وأنفق فى المعاصى، هل يكون حكمه فى الوعيد حكمَ من كنز ولم ينفق فى سبيل الله . قيل له : إن ذلك أشد ؛ فإن من بذّر ماله فى المعاصى عصى من جهتين : بالإنفاق والتناول؛ كشراء الخمر وشربها . بل من جهات إذا كانت المعصية مما تتعدى؛ كمن أعان على ظلم مسلم من قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك . والكانز عصى من جهتين، وهما منع الزكاة وحبس المال لا غير . وقد لا يراعى حبس المال، والله أعلم .

العاشـرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدم معناه . وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : " بَشِّر الكَنَّازين بكَيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكَيّ من قِبل أقفائهم يخرج من جباههم " الحديث . أخرجه مسلم . رواه أبو ذرّ فى رواية : " بشر الكنّازين بِرَضْفٍ[1] يُحمَى عليه فى نار جهنم فيوضع على حَلَمَة ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نُغْض[2] كتفيه و يوضع على نُغْض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثَدْيِه فيتزلزل " الحديث . قال علماؤنا : فخروج الرَّضْف من حلمة ثديه إلى نُغْض كتفه لتعذيب قلبه وباطنه حين آمتلأ بالفرح بالكثرة فى المال والسرور فى الدنيا؛ فعوقب فى الآخرة بالهمّ والعذاب .

الحادية عشرة — قال علماؤنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق فى سبيل الله، و يتعرّض للواجب وغيره؛ غير أن صفة الكنز لا ينبغى أن تكون معتبرة؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق فى سبيل الله فلا بدّ وأن يكون كذلك؛ إلا أن الذى يخبأ تحت الأرض هو الذى يُمنع إنفاقه فى الواجبات عُرْفًا، فلذلك خُص الوعيد به . والله أعلم .

---

(١) الرضف : الحجارة المحماة .

(٢) النغض (بالضم والفتح) : أعلى الكتف، وقيل : هو العظم الرقيق الذى على طرفه .

قوله تعالى : يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ « يوم » ظرف، والتقدير يعذبون يوم يُحْمَى . ولا يصح أن يكون على تقدير : فبشّرهم يوم يحمى عليها؛ لأن البشارة لا تكون حينئذ. يقال: أحميت الحديدة فى النار؛ أى أوقدت عليها . ويقال : أحميته؛ ولا يقال : أحميت عليه . وهاهنا قال عليها ؛ لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحماء، ومعنى الإحماء الإيقاد . أى يوقد عليها فتكوى . الكىّ : إلصاق الحارّ من الحديد والنار بالعضو حتى يحترق الجلد . والجباه جمع الجبهة، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجبهتُ فلانا بكذا؛ أى استقبلته به وضربت جبهته . والجُنوب جمع الجنب . والكىّ فى الوجه أشهر وأشنع ، وفى الجنب والظهر آلم وأوجع؛ فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال علماء الصوفية : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طَوَوْا كشحا[(1)] من الفقير إذا جالسهم كُويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادا عليها كُويت ظهورهم . وقال علماء الظاهر : إنما خص هذه الأعضاء لأن الغنىّ إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه[(2)] وقبض وجهه . كما قال[(3)] :

يَزيد يَغُضّ الطرف عنى كأنما * زوى بين عينيه علىّ المحاجمُ

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى * ولا تَلْقَنى إلا وأنفُك راغمُ

وإذا سأله طوى كشحه، وإذا زاده فى السؤال وأكثر عليه ولّاه ظهره . فرتّب الله العقوبة على حال المعصية .

(١) طوى كشحه عنه : اذا أعرض عنه . (٢) جمعه وقبضه .

(٣) القائل هو الأعشى؛ كما فى اللسان .

الثانيـة — واختلفت الآثار في كيفية الكيّ بذلك ؛ ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذرّ
ما ذكرنا من ذكر الرَّضْف . وفيه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
"ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدّى منها حقها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح
من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بَردت أعيدت له في يوم
كان مقـداره خمسين ألف سـنة حتى يُقْضَى بين العبـاد فيرى سبيله إما إلى الجنـة وإما
إلى النار" . الحـديث . وفي البخاريّ : أنه يمثَّل له كنزه شجاعا أقرع . وقـد تقدّم في غير
الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤدّ زكاته طُوِّقه يوم القيامة
شجاعا أقرع ينقُر رأسه

قلت : ولعلّ هـذا يكون في مواطن : موطن يمثَّل المـال فيـه ثعبانا ، وموطن يكون
صفائح ، وموطن يكون رَضْفا . فتتغيّر الصفات والجسمية واحدة ؛ فالشجاع جسم والمـال
جسم . وهذا التمثيل حقيقة ؛ بخلاف قوله : "يؤتى بالموت كأنه كبش أملح" فإن تلك طريقة
أخرى ، ولله أن يفعـل ما يشاء . وخُصّ الشجاع بالذكر لأنه العدوّ الثاني للخلق . والشجاع
من الحيات هو الحية الذكر الذي يواثب الفارس والراجل ، ويقوم على ذنبه وربما بلغ الفارس ،
ويكون في الصّحاري . وقيل : هو الثعبان . قال اللِّحيانيّ : يقال للحية شجاع ، وثلاثة أشجعة ،
ثم شجعـان . والأقرع من الحيـات هو الذي تمعّط رأسـه وابيض من السمّ . في الموطّأ :
له زبيبتان ؛ أي نقطتان منتفختان في شِدْقيه كالرغوتين . ويكون ذلك في شـدق الإنسـان
إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أمّ] غيلان بنت جرير : ربما أنشدت أبي حتى يتزبّب
شدقاي . ضُرب مثلا للشجاع الذي كثر سمّه فيُمثَّل المالُ بهذا الحيوان فيلقى صاحبه غضبان .
وقال ابن دُريد : نقطتان سَوْداوان فوق عينيه . في رواية : مُثّـل له شجاع يتبعه فيضطره
فيُعطيه يده فيقضَمها كما يقضَم الفحل . وقال ابن مسعود : والله لا يعـذّب الله أحدا بكنز
فيمسّ درهم درهمـا ولا دينار دينارا ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على
حدته . وهذا إنما يصح في الكافر — كما ورد في الحديث — لا في المؤمن . والله أعلم .

الثالثــة ــ أسند الطبري إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات رجل من أهل الصفة فوجد في بردته دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كية" . ثم مات آخر فوجد له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيتان" . وهذا إما لأنهما كانا يعيشان من الصدقة وعندهما التبر ، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام ، ثم قرر الشرع ضبط المال وأداء حقه . ولو كان ضبط المال ممنوعا لكان حقه أن يخرج كله ، وليس في الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبي ذر فهو مذهب له ، رضي الله عنه . وقد روى موسى بن عبيدة عن عمران بن أبي أنس عن مالك بن أوس بن الحدثان عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامــة" .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه أن يقول به ، وأن ما فضــل عن الحاجة فليس بكنز إذا كان معدا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلف بيضا أو صفرا كوى بها مغفورا له أو غير مغفور له ؛ ألا إن حلية السيف من ذلك . وروى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوى بها من فرقه(1) إلى قدمه مغفوراً له بعد ذلك أو معذبا" .

قلت : وهــذا محمول على ما لم تؤد زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هــذا . فيكون التقدير : وعنــده أحمر أو أبيض لم يؤد زكاته . وكذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه : من ترك عشرة آلاف جعلت صفائح يعذب بها صاحبها يوم القيامة . أي لم يؤد زكاتها ؛ لئلا تتناقض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي يقال لهم هــذا ما كنزتم ؛ فحذف . ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي عذاب ما كنتم تكنزون .

(1) الفرق : الطريق في شعر الرأس .

قوله تعالى : إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه سبع (١) مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهور، وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر؛ لأنه أقل الجمع الذى يقتضيه صيغة فُعول فى جمع فَعْل . ومعنى ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى فى حكم الله وفيما كتب فى اللوح المحفوظ . ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر» بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عَشْر » بجزم الشين . ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله؛ كقوله : « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » (٢) .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبيّن أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة . وهو معنى قوله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . وحكمها باقٍ

---

(١) يلاحظ أن المسائل ثمان، لا سبع . (٢) آخر سورة لقمان .

على ما كانت عليه لم يُزلها عن ترتيبها تغييرُ المشركين لأسمائها، وتقديمُ المقدّم فى الاسم منها . والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله فيها ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها ، وتعلّقُ الأحكام على الأسماء التى رتّبوها عليه ؛ ولذلك قال عليه السلام فى خطبته فى حَجّة الوداع : " أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" على ما يأتى بيانه . وأن الذى فعل أهل الجاهلية من جعل المحرّم صفرًا وصفرٍ محرّما ليس يتغيّر به ما وصفه الله تعالى . والعامل فى « يوم » المصدر الذى هو « فى كتاب الله » ، وليس يعنى به واحد الكُتُب؛ لأن الأعيان لا تعمل فى الظروف . والتقدير : فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض . و «عند» متعلق بالمصدر الذى هو العِدّة، وهو العامل فيه . و « فى » من قوله : « فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ » متعلقة بمحذوف، هو صفة لقوله : « اثنا عشر » . والتقدير : اثنا عشر شهرا معدودةً أو مكتوبة فى كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بعدّة لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إنّ .

الثالثة — هذه الآية تدلّ على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التى تعرفها العرب ، دون الشهور التى تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثنى عشر شهرا؛ لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص، والذى ينقص ليس يتعين له شهر، وإنما تفاوتها فى النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر فى البروج .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ الأشهر الحُرُم المذكورة فى هذه الآية ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب الذى بين جمادى الآخرة وشعبان، وهو رجب مُضَر، وقيل له رجب مضر لأن ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمّونه رجبا . وكانت مضر تحرّم رجبا نفسه ؛ فلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فيه : "الذى بين جمادى وشعبان" ورفع ما وقع فى اسمه من الاختلال بالبيان . وكانت العرب أيضا تسميه مُنْصِل الأسنّة[1] ؛

(١) منصل الأسنة : مخرجها من أماكنها . كانوا اذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام إبطالا للقتال فيه ، وقطعا لأسباب الفتن لحرمته .

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى — واسمه عمران بن ملحان وقيل عمران بن تيم — قال : كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبنا عليه ثم طفنا به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا منصل الأسنة، فلم ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناها وألقيناه .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى الحساب الصحيح والعدد المستوفى . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « ذلك الدين » أى ذلك القضاء . مقاتل : الحق . ابن عطيــة : والأصوب عندى أن يكون الدين هاهنا على أشهر وجوهه ؛ أى ذلك الشرع والطاعة . ﴿ الْقَيِّمُ ﴾ أى القائم المستقيم؛ من قام يقوم . بمنزلة سيد؛ من ساد يسود . أصله قيوم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ على قول ابن عباس راجع إلى جميع الشهور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحرم خاصة ؛ لأنه إليها أقرب ولها مزية فى تعظيم الظلم؛ لقوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ »[1] لأن الظلم فى غير هذه الأيام جائز على ما نبينه . ثم قيل . فى الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال، ثم نسخ بإباحة القتال فى جميع الشهور؛ قاله قتادة وعطاء الخراسانى والزهرى وسفيان الثورى . وقال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها ، وما نسخت . والصحيح الأول ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف ، وحاصرهم فى شوال وبعض ذى القعدة . وقد تقدم هذا المعنى فى البقرة[2] . الثانى — لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب؛ لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، و إذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة ؛ فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . فان من أطاع الله فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ليس

(١) آية ١٩٧ سورة البقرة .   (٢) راجع ج ٣ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

ثوابه ثوابَ من أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام . ومن أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام ليس ثوابه ثوابَ من أطاعه فى شهر حلال فى بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »(١) .

السابعة – وقد آختلف العلماء من هذا المعنى فيمن قتل فى الشهر الحرام خطأ، هل تغلظ عليه الدِّية أم لا ؛ فقال الأوزاعيّ : القتل فى الشهر الحرام تغلظ فيه الدية فيما بلغنا وفى الحَرَم، فتجعل دية وثلثا . ويزاد فى شبه العمد فى أسنان الإبل . قال الشافعيّ : تغلظ الدية فى النفس وفى الجراح فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام وذوى الرحم . ورُوى عن القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن شهاب وأَبَان بن عثمان : من قتل فى الشهر الحرام أو فى الحرم زيد على دِيته مثلُ ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبى لَيْلَى : القتل فى الحِلّ والحَرَم سواء، وفى الشهر الحرام وغيره سواء؛ وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سنّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتل خطأ فى الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنة – خصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحُرُم بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفا لها، وإن كان منهيًّا عنه فى كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهل التأويل . أى لا تظلموا فى الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سَلَمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهْران عن ابن عباس قال : « فلا تظلموا فِيهِنّ أنفسكم » فى الآثنى عشر . وروى قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية قال : فيهنّ كلهن . فإن قيل على القول الأوّل : لِم قال فيهنّ ولم يقل فيها ؟ وذلك أن العرب يقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هنّ وهؤلاء، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هى وهذه، إرادةَ أن تعرف تسمية القليل من الكثير . وروى عن الكِسائى أنه قال : إنى لأتعجب من فعل

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب .

العرب هـذا . وكذلك يقـولون فيما دون العشرة من الليـالى : خَلَوْن . وفيما فوقها خَلَت .
لا يقال : كيف جُعـل بعض الأزمنة أعظم حُرْمة من بعض؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء، ويخص بالفضيلة ما يشاء، ليس لعمله عِلّة ولا عليه حَجر، بل يفعل ما يريد بحكمته، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ أمر بالقتال . و ﴿ كَافَّةً ﴾ معناه جميعا، وهو مصدر فى موضع الحال . أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عافاه الله عافية وعاقبه عاقبة . ولا يثنّى ولا يجمع، وكذا عامّة وخاصّة . قال بعض العلماء : كان الفرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يُعلم قطُّ من شرع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النَّفْر، وإنما معنى هذه الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة . ثم قيدها بقوله : « كما يُقاتلونكم كافّةً » فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يَرو أحد عن نافع فيما علمناه «إنما النَّسِيُّ» بلا همز إلا ورش وحده، وهو مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخره ؛ حكى اللغتين الكسائى . الجوهرىّ : النَّسِيء فعيل بمعنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته . ثم يحوّل منسوء إلى نسيء كما يحوّل مقتول إلى قتيل . ورجل ناسئ وقوم نَسَأة، مثل فاسق وفسقة . قال الطبرىّ : النسيء بالهمزة معناه الزيادة؛ يقال: نسأ ينسأ إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان؛ كما قال تعالى :

«نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ» ، وردّ على نافع قراءته ، واحتجّ بأن قال : إنه يتعدّى بحرف الجر، يقال : نسأ الله فى أجلك كما تقول زاد الله فى أجلك ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "من سَرّه أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أَثَره[2] فليصل رحمه" . قال الأزهرى : أنسأت الشيء إنساء ونسيئا ؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقىّ . وكانوا يحرّمون القتال فى المحرّم ؛ فإذا احتاجوا إلى ذلك حرّموا صَفَرا بدله وقاتلوا فى المحرّم . وسبب ذلك أن العرب كانت أصحابَ حروب وغارات، فكان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يُغيرون فيها ؛ وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئا لنهلكنّ. فكانوا إذا صدروا عن مِنًى يقوم من بنى كنانة ، ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس ؛ فيقول أنا الذى لا يُرَدّ لى قضاء . فيقولون : أنسئنا شهرا، أى أخّرعنا حُرمة المحرّم واجعلها فى صفر؛ فيحلّ لهم المحرّم . فكانوا كذلك شهرا فشهرا حتى استدار التحريم على السَّنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " . وقال مجاهد : كان المشركون يحجّون فى كل شهر عامين؛ فحجّوا فى ذى الحجة عامين، ثم حجوا فى المحرّم عامين، ثم حجوا فى صفر عامين، وكذلك فى الشهور كلها حتى وافقت حجّة أبى بكر التى حجها قبل حجّة الوَداع ذا القَعدة من السنة التاسعة . ثم حج النبىّ صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة؛ فذلك قوله فى خطبته : "إن الزمان قد استدار" الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذى الحجة و بطل النسىء . وقول ثالث — قال إياس بن معاوية : كان المشركون يحسُبون السنة اثنى عشر شهرا وخمسة عشر يوما؛ فكان الحج يكون فى رمضان وفى ذى القَعدة، وفى كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوما. فحج أبو بكر سنة تسع فى ذى القَعدة بحكم الاستدارة، ولم يحج النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان فى العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

---

(١) آية ٦٧ من هذه السورة . (٢) الأثر : الأجل؛ وسمى به لأنه يتبع العمر، وأصله من أثر مشيه فى الأرض، فان من مات لا تبقى له حركة فلا يبقى لأقدامه فى الأرض أثر . (عن شرح القسطلانى) .

فى العشر ، ووافق ذلك الأهلة . وهـذا القول أشبه بقول النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : " إن الزمان قد استدار " . أى زمان الحج عاد إلى وقته الأصلىّ الذى عينه الله يوم خلق السموات والأرض بأصل المشروعية التى سبق بهـا علمه، ونفذ بها حكمه . ثم قال : السنة اثنـا عشر شهرا . ينفى بذلك الزيادة التى زادوها فى السنة — وهى الخمسـة عشر يوما — بتحكمهم ؛ فتعين الوقت الأصلى وبطل التحكم الجهلىّ . وحكى الإمام المـازَرىّ عن الخَوارزمىّ أنه قال : أوّل ما خلق الله الشمس أجراها فى بُرْج الحَمَـل، وكان الزمان الذى أشار به النبىّ صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف ؛ فإنه لا يُتوصّل إليه إلا بالنقل عن الأنبياء، ولا نقل صحيحا عنهم بذلك ، ومن ادّعاه فلْيُسنده . ثم إن العقل يجوّز خلاف ما قال، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج، ويجوّز أن يخلق ذلك كله دَفعة واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام : " إن الزمان قد اسـتدار " بينها وبين الحَمَل عشرون درجة . ومنهم من قال عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل فى أول من نسأ ؛ فقال ابن عباس وقَتادة والضـحاك : بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة . وروى جوَيبِر[(١)] عن الضحاك عن ابن عباس أن أوّل من فعل ذلك عمرو بن لُحَىّ بن قَمعة بن خِنْدِف . وقال الكلْبىّ : أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، ثم كان بعده رجل يقال له : جُنادة بن عوف، وهو الذى أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزُّهرىّ : حىّ من بنى كنانة ثم من بنى فُقَيم منهـم رجل يقال له القَلَمَّس، واسمه حذيفة بن عبيد . وفى رواية : مالك بن كنانة . وكان الذى يلى النَّسىء يظفر بالرياسة لترئّس العرب إياه . وفى ذلك يقول شاعرهم :

* ومنّا ناسىء الشهر القَلَمَّس *

وقال الكُمَيْت :

ألسنا الناسئين على مَعَـدٍّ * شهورَ الحِلّ نجعلها حرامًا

(١) فى نسخ الأصل « جرير » وهو تحريف .

قوله تعالى : ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر؛ فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت : « وما الرَّحْمٰن »[1] فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[2] . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ »[3] . وزعمت أن التحليل والتحريم إليها، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها؛ فأحلّت ما حرّم الله . ولا مبدّل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه ثلاث قراءات . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يَضِلُّ» وقرأ الكوفيون « يُضَلّ » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجاء « يُضِلّ » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدى عن معنى؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقدير : ويضل به الذين كفروا مَن يقبل منهم . و﴿ الَّذِينَ ﴾ فى محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقدير : يضل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِلّ من يشاء »، وكقوله فى آخر الآية : « والله لا يهدى القوم الكافرين » . والقراءة الثانية « يُضَلّ بِهِ الذين كفروا » يعنى المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لقوله تعالى : « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به، أى بالنسىء؛ لأنهم كانوا يحسُبونه فيضلون به . والهاء فى « يحلّونه » ترجع إلى النسىء . وروى عن أبى رجاء « يَضَلّ » بفتح الياء والضاد . وهى لغة؛ يقال : ضَلِلتُ أضَلّ، وضَلَلتُ أضِل . ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ نصب بلام كَيْ؛ أى ليوافقوا . تواطأ القوم على كذا أى اجتمعوا عليه؛ أى لم يحلّوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحُرُم، وقرنوه بالمحرم فى التحريم ؛ وقاله عنه قُطْرُب والطبرى . وعليه يكون النسىء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

(١) آية ٦٠ سورة الفرقان . (٢) آية ٧٨ سورة يس . (٣) آية ٢٤ سورة القمر .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

فيه مسألتان :.

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ « ما » حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ؛ التقدير : أيّ شيء يمنعكم عن كذا؛ كما تقول : مالك عن فلان مُعْرِضًا . ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا على تخلُّف من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتي ذكرها في آخر السورة إن شاء الله . والنَّفْر : هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ؛ يقال في ابن آدم : نَفَر إلى الأمر يَنْفِر نفورا . وقوم نفور؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً »[(١)] . ويقال في الدابة : نَفَرت تَنْفُر (بضم الفاء وكسرها) نفارا ونفورا . يقال : في الدابة نِفار؛ وهو اسم مثل الحِران . ونفر الحاج من مِنًى نَفْرًا .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال المفسرون : معناه آثاقلتم إلى نعيم الأرض؛ أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتابٌ على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج . وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله تثاقلتم ، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ؛ ومثله « ادّاركوا » و « ادّارأتم » و « اطّيرنا » و « ازّيّنت » . وأنشد الكسائي :

تُولِي الضَّجِيعَ إذا ما آستافها خَصِرًا ٭ عَذْبَ المَذاقِ إذا ما آتَّابَعَ القُبَلُ[(٢)]

---

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء .

(٢) ساف الشيء يسوفه ويسافه سوفا وساوفه واستافه ، كله شمه . والخصر : البارد من كل شيء .

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل . حكاه المهدوي . وكانت تبوك ـ ودعا الناس إليها[(١)] ـ في حرارة القَيظ وطيب الثمار وبرد الظلال ـ كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي ـ فاستولى على الناس الكسل، فتقاعدوا وتثاقلوا ؛ فوبّخهم الله بقوله هذا، وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة . ومعنى ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي بدلا ؛ التقدير : أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة . فـ « من » تتضمن معنى البدل؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[(٢)] » أي بدلا منكم .

وقال الشاعر[(٣)] :

فليت لنا من ماء زمزم شربةً * مُبرّدة باتت على طَهَيانِ

ويروى : من ماء حَمْنان[(٤)] . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبرّدة . والطَّهَيان : عود ينصب في ناحية الدار للهواء ، يعلّق عليه الماء حتى يَبْرُد . عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة ؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصَب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد طافت راكبة : " أجرُك على قدر نَصَبك " . خرجه البخاري .

قوله تعالى : إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

فيه مسألة واحدة ـ وهو أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ شرط ؛ فلذلك حذفت منه النون . والجواب « يُعَذِّبْكُمْ » ، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل . فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

(١) قوله : « ودعا الناس إليها » قال ابن إسحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزخرف . (٣) هو يعلى بن مسلم بن قيس الشكري ؛ كما في اللسان . وقيل إنه الأحول الكندي . (٤) حمنان : مكة .

الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه ؛ كقوله : إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا ؛ كما ورد في هذه الآية . فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما » و« ما كان لأهل المدينة — إلى قوله — يعملون » نسختها الآية التي تليها[1] : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » . وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة . ﴿ يعذبكم ﴾ قال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم . قال ابن العربي : فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس خرجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نفيع قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما » قال : فامسك عنهم المطر فكان عذابهم . وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعا عن ابن عباس قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فقعدت ، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و « أليم » بمعنى مؤلم ؛ أي موجع . وقد تقدم[2] . ﴿ ويستبدل قوما غيركم ﴾ توعد بأن يبدل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل : أهل اليمن . ﴿ ولا تضروه شيئا ﴾ عطف . والهاء قيل لله تعالى، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم . والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد . فأما من غير كراهة فمن عينه النبي صلى الله عليه وسلم حرم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية؛ ذكره القشيري . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعين . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل ؛ إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين ، ويصير بتعيينه فرضا على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم .

(١) آية ١٢٠ و ١٢١ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ يقول : تُعينوه بالنّفر معه فى غزوة تبُوك . عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى : إن تركتم نَصْره فالله يتكفّل به ؛ إذ قد نصره الله فى مواطن القلّة وأظهره على عدوّه بالغلبة والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه فى الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه ، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ماصحب الأنبياء عليهم السلام مثلُ أبى بكر الصديق . وقال سفيان بن عُيينة : خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التى فى قوله : « إلا تنصروه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهو خرج بنفسه فارًا ، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل إليهم ورتّب الحكم فيه عليهم ؛ فلهذا يقتل المكرِه على القتل ويضمن المال المتلِف بالإكراه ؛ لإلجائه القاتل والمتلف إلى القتل والإتلاف .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أى أحد اثنين . وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة . فإذا اختلف اللفظ فقلت : رابع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمعنى صير الثلاثة أربعة بنفسه والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال ؛ أى أخرجوه منفردا من جميع الناس إلا من أبى بكر . والعامل فيها « نصره الله » أى نصره منفردا ونصره أحد اثنين . وقال علىّ بن سليمان : التقدير فخرج ثانى اثنين ؛ مثل « وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »[1] . وقرأ جمهور الناس

(١) آية ١٧ سورة نوح .

« ثانيَ » بنصب الياء . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وقرأت فرقة « ثاني » بسكون الياء .
قال ابن جنّي : حكاها أبو عمرو بن العلاء، ووجهه أنه سكن الياء تشبيها لها بالألف .
قال ابن عطية : فهى كقراءة الحسن « مَا بَقِي مِن الرِّبَا » وكقول جرير :

هـو الخليفة فارضَـوْا ما رضِى لكُمُ * ماضِى العـزيمة ما في حُـكْمه جَنَفُ (١)

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ الغار: نقب فى الجبل، يعنى غار ثَوْر. ولما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة قالوا : هـذا شر شاغل لا يطاق ؛ فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيّتوه ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبى طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يعمّىَ عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشيّهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض ، فلما أصبحوا خرج عليهم عليّ رضى الله عنه وأخبرهم أن ليس فى الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق للهجرة ، فدفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أُرْقط . ويقال ابن أريقط، وكان كافرا لكنهما وثقا به ، وكان دليلا بالطرق فاستأجراه ليدل بهما الى المدينة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خَوْخة فى ظهر دار أبى بكر التى فى بنى جُمَح ونهضا نحو الغار فى جبل ثور، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ويريحها (٢) عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما. ثم نهضا فدخلا الغار. وكانت أسماء بنت أبى بكر الصـديق تأتيهما بالطعام ويأتيهما عبـد الله بن أبى بكر بالأخبار، ثم يتلوهما عامر بن فهيرة بالغنم فيُعفّى آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقفاء الأثر، حتى وقف على الغار فقال : هنا انقطع الأثر . فنظروا فاذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته؛ ولهذا نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه، فرجعوا وجعلوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) يريحها : يردّها .

الخبر مشهور ، وقصة سراقة بن مالك بن جُعْشُم فى ذلك مذكورة . وقد رُوى من حديث أبى الدرداء وثوبان : أن الله عز وجل أمر حمامة فباضت على نسج العنكبوت ، وجعلت ترقد على بيضها ، فلما نظر الكفار إليها ردهم ذلك عن الغار .

الخامسة — روى البخارى عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل هاديا خِرِّيتًا [١] ، وهو على دين كفار قريش ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما عامر بن فُهيرة والدليلُ الدِّيلى ، فأخذ بهم طريق الساحل [٢] .

قال المهلب : فيه من الفقه ائتمان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة كما ائتمن النبى صلى الله عليه وسلم هذا المشرك على سره فى الخروج من مكة وعلى الناقتين . وقال ابن المنذر : فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق . وقال البخارى فى ترجمته : (باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) . قال ابن بطال : إنما قال البخارى فى ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما عامل أهل خيبر على العمل فى أرضها إذ لم يوجد من المسلمين من ينوب منابهم فى عمل الأرض ، حتى قوى الإسلام واستُغنى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيه : استئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما . وفيه : دليل على جواز الفرار بالدِّين خوفا من العدو ، والاستخفاء فى الغيران وغيرها ، وألا يُلقى الإنسان بيده إلى العدو توكّلا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعصمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله فى الأنبياء وغيرهم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من خاف مع الله سواه كان ذلك نقصا فى توكله ، ولم يؤمن بالقدر . وهذا كله فى معنى الآية ، ولله الحمد والهداية .

---

(١) الخريت : الدليل الحاذق . (٢) الساحل : موضع بعينه ؛ ولم يرد به ساحل البحر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضى الله عنه . روى أصبغ وأبن زيد عن ابن القاسم عن مالك « ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغارِ إِذ يقول لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنّ الله معنا » هو الصدّيق . فحقق تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة فى كتابه . قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع . ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنّصر والرعاية والحفظ والكلاءة . روى الترمذيّ والحارث بن أبى أسامة قالا : حدّثنا عفان قال حدّثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ؛ فقال : " يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما " . قال المُحاسبيّ : يعنى معهما بالنصر والدفاع؛ لا على معنى ما عمّ به الخلائق . فقال : « ما يكونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[1] . فمعناه العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعة — قال ابن العربى : قالت الإمامية قبّحها الله : حزنُ أبى بكر فى الغار دليل على جهله ونقصه، وضعف قلبه وخَرَقه[2] . وأجاب علماؤنا عن ذلك بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه : « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ »[3] . ولم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ »[4] . وفى لوط « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ »[5] . فهؤلاء العظماء صلوات الله عليهم قد وجدت عندهم التَّقيّة نصًّا، ولم يكن ذلك طعنا عليهم ووصفا لهم بالنقص؛ وكذلك فى أبى بكر . ثم هى عند الصدّيق احتمال ؛ فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . جواب ثان — إن حُزن الصدّيق إنما كان خوفا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر،

---

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) الخرق (بالضم) : الحمق وضعف الرأى .

(٣) آية ٧٠ سورة هود . (٤) آية ٦٧ سورة طه . (٥) آية ٣٣ سورة العنكبوت .

ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصوما ، وإنما نزل عليه « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »(١) .

الثامنة — قال ابن العربيّ : قال لنا أبو الفضائل العدل(٢) قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٣) وقال في محمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » لا جَرَم لما كان الله مع موسى وحده ارتدّ أصحابه بعده ، فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال في محمد صلى الله عليه وسلم « إن الله معنا » بقي أبو بكر مهتديا موحّدا عالما جازما قائما بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاسعة — خرّج الترمذي من حديث نُبيط بن شُريط عن سالم بن عبيد — له صحبة — قال : أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضي الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثانيَ آثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » من « هما » ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهذا قال بعض العلماء : في قوله تعالى « ثانيَ آثنين إذ هما في الغار » ما يدل على أن الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ؛ لأن الخليفة لا يكون أبدا إلا ثانيا . وسمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثاني اثنين لقيامه بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبيّ صلى الله عليه وسلم به أوّلا . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما مات ارتدّت العرب كلها ، ولم يبق الإسلام إلا بالمدينة ومكة وجُوَاثا(٤) ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاتلهم على

---

(١) آية ٦٧ سورة المائدة . (٢) اضطربت نسخ الأصل في هذا الاسم . والذي في كتاب أحكام القرآن لابن العربي المطبوع : « أبو الفضل بن العدل » وفي النسخة المخطوطة منه « أبو الفضائل المعدل » (٣) آية ٦٢ سورة الشعراء . (٤) موضع بالبحرين .

الدخول فى الدين كما فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فآستحق من هذه الجهة أن يقال فى حقه ثانى اثنين .

قلت — وقد جاء فى السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد انعقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح فى خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . وهل يكفر أم لا ؛ يختلف فيه ، والأظهر تكفيره . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى سورة « الفتح »(١) إن شاء الله . والذى يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . ولا مبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البدع ؛ فإنهم بين مكفر تضرب رقبته ، وبين مبتدع مفسّق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ، ثم بعده عثمان . روى البخارىّ عن ابن عمر قال : كنا نخيّر بين الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف فى عثمان وعلىّ ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . ورُوى عن مالك أنه توقّف فى ذلك . وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان : أحدهما — على النبىّ صلى الله عليه وسلم . والثانى — على أبى بكر . آبن العربىّ : قال علماؤنا وهو الأقوى ؛ لأنه خاف على النبىّ صلى الله عليه وسلم من القوم؛ فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فسكن جأشه وذهب روعه وحصل الأمن ، وأنبت الله سبحانه ثُمامة(٢) ، وألهم الوكر هناك حمامة، وأرسل العنكبوت فنسجت بيتا عليه . فما أضعف هذه الجنود فى ظاهر الحس وما أقواها فى باطن المعنى ! ولهذا المعنى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لعمر حين تغامر(٣) مع الصديق : "هل أنتم تاركو لى صاحبى إن الناس كلّهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صدقت" رواه أبو الدرداء .

(١) فى المسألة الخامسة من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه ... » آخر السورة .

(٢) الثمام : نبت معروف فى البادية .

(٣) المغامرة المخاصمة . وراجع الحديث بطوله فى صحيح البخارى فى باب مناقب أبى بكر رضى الله عنه .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي من الملائكة . والكناية في قوله « وأيده » ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والضميران يختلفان . وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ اى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعْد النصر . وقرأ الأعمش و يعقوب « وكلمةَ اللهِ » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم الفراء أن قراءة النصب بعيدة؛ قال : لأنك تقول أعتق فلان غلام أبيه، ولا تقول غلام أبي فلان . وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هي العليا . قال النحاس : الذي ذكره الفراء لا يشبه الآية، ولكن يشبهها ما أنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ * نغّص الموت ذا الغِنَى والفقيرَا

فهذا حسن جيّد لا إشكال فيه، بل يقول النحويون الحذاق : في إعادة الذكر في مثل هذا فائدة . وهي أن فيه معنى التعظيم؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة كَلِم . وتميم تقول : هي كِلْمة بكسر الكاف . وحكى الفراء فيها ثلاث لغات : كَلِمة وكِلْمة وكَلْمة مثل كَبِد وكِبْد وكَبْد، ووَرِق ووِرْق وورْق . والكلمة أيضا القصيدة بطولها؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـ روى سفيان عن حُصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك الغفاري قال : أوّل ما نزل من سورة براءة « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الضحا كذلك أيضا . قال : ثم نزل أوّلها وآخرها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَــالاً ﴾ نصب على الحال ، وفيـه عشرة أقوال : الأول — يذكر عن ابن عباس « انْفِرُوا ثُبَاتٍ »[1] : سَرَايَا متفرقين . الثانى — روى عن ابن عباس أيضا وقتادة : نشاطا وغير نشاط . الثالث — الخفيفُ : الغنىّ ، والثقيلُ : الفقير؛ قاله مجاهد . الرابع — الخفيف : الشاب ، والثقيل : الشيخ؛ قاله الحسن . الخامس — مشاغيل وغير مشاغيل ؛ قاله زيد بن علىّ والحكم بن عُيينة . السادس — الثقيل : الذى له عيال ، والخفيف : الذى لا عيال له ؛ قاله زيد بن أسلم . السابع — الثقيل : الذى له ضَيْعة يكره أن يدعها ، والخفيف : الذى لا ضيعة له ؛ قاله ابن زيد . الثامن — الخفاف : الرجال ، والثقال : الفرسان؛ قاله الأوزاعىّ . التاسع — الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش ، والثقال : الجيش بأسْره . العاشر — الخفيف : الشجاع ، والثقيل : الجبان؛ حكاه النقاش . والصحيح فى معنى الآية أن الناس أمِروا جُملةً ؛ أى انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت . ورُوى أن ابن أم مكتوم جاء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أعلىّ أن أنفر؟ فقال : " نعم " حتى أنزل الله تعالى « ليس على الأعمى حرج »[2] . وهذه الأقوال إنما هى على معنى المثال فى الثقل والخفة .

الثالثــة — وٱختلف فى هـذه الآية؛ فقيل إنها منسوخة بقوله تعـالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى »[3] . وقيل : الناسخ لها قوله « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ »[4] . والصحيح أنها ليست بمنسوخة . روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شبانا وكهولا ، ماسمع الله عُذْر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضى الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلىّ بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فأتى على هـذه الآية « انفروا خفافا وثقالا » فقال : أى بنىّ ، جَهِّزُونى جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله! قد غزوتَ مع النبىّ صلى الله عليه وسـلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى

(١) كذا فى جميع الأصول . و يلاحظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء ، وهى قوله تعالى : « انفروا ثبات أو انفروا جميعا » آية ٧١ . وثبات : جمع ثبة ، وهى الجماعة من الناس .

(٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ٩١ من هذه السورة . (٤) آية ١٢٢ من هذه السورة .

مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك . قال : لا ، جهّزونى . فغزا فى البحر فمات فى البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير رضى الله عنه . وأسند الطبرى عمن رأى المقداد بن الأسود بحمص على تابوت صرّاف ، وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهّز للغزو . فقيل له : لقد عذرك الله . فقال : أتت علينا سورة البعوث « انفروا خفافا وثقالا » . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع . ورُوى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشأم رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر؛ فقال له : ياعم ، إن الله قد عذرك . فقال : يابن أخى ، قد أمرنا بالنّفر خفافا وثقالا . ولقد قال ابن أم مكتوم رضى الله عنه ـ واسمه عمرو ـ يوم أُحد : أنا رجل أعمى، فسلّموا لى اللواء؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللّواء يومئذ مصعبُ بن عُمير على ماتقدم فى « آل عمران » بيانه . فلهذا وما كان مثله ممـا رُوى عن الصحابة والتابعين. قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل، وهى :

الرابعــة ـ وذلك إذا تعيّن الجهاد بغلبة العدوّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، كلٌّ على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلّف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب مالزم أهل تلك البلدة؛ حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوّهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلّهم يدٌ على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع العدوّ أهل الناحية التى نزل العدوّ عليها واحتلّ بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدوّ

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتُحمى البَيْضة وتُحفظ الحَوْزة ويُخزَى العدو. ولا خلاف في هذا.

وقسم ثان من واجب الجهاد — فرض أيضا على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة، يخرج معهم بنفسه، أو يُخرج مَن يثق به ليدعوَهم إلى الإسلام ويرغّبهم، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم، حتى يدخلوا في الإسلام أو يُعطوا الجزية عن يَد.

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة، وهو إخراج الإمام طائفةً بعد طائفة، وبَعْثُ السَّرايا في أوقات الغِرّة وعند إمكان الفرصة، والإرصاد لهم بالرِّباط في موضع الخوف، و إظهار القوّة. فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصّر الجميع، وهي: —

الخامسة — قيل له: يعمِد إلى أسير واحد فيفديه؛ فإنه إذا فدى الواحدَ فقد أدّى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة؛ فإن الأغنياء لو ٱقتسموا فداء الأسارى ما أدّى كل واحد منهم إلا أقلّ من درهم. ويغزو بنفسه إن قدر وإلّا جهّز غازيا. قال صلى الله عليه وسلم: "من جهّز غازيا فقد غزا ومن خلّفه في أهله بخير فقد غزا" أخرجه الصحيح. وذلك لأن مكانه لا يغني وماله لا يكفي.

السادسة — روى أن بعض الملوك عاهد كفارا على ألا يحبسوا أسيرا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرّ على بيت مغلق، فنادته امرأة أني أسيرة، فأبلغ صاحبك خبري، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاذبا ذيل الحديث، انتهى الخبر إلى هذه المعذَّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيا من فوره، ومشى إلى الثَّغْر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع؛ رضي الله عنه. ذكره ابن العربي وقال: «ولقد نزل بنا العدو — قصمه الله — سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر خيرتنا وتوسط بلادنا في عدد هال الناسَ عددُه، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حدّدوه. فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدوّ الله قد حصل في الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نُصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط

به ؛ فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

السابعة ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد، وهو مشتق من الجهد ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم". وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند الله تعالى . فحض على كمال الأوصاف، وقدم الأموال فى الذكر إذ هى أول مصرف وقت التجهيز . فرتب الأمر كما هو فى نفسه .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والعَرَض : ما يعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنيمة قريبة . أخبر عنهم أنهم لو دُعوا إلى غنيمة لاتبعوه . ﴿ عَرَضًا ﴾ خبر كان . ﴿ قَرِيبًا ﴾ نعته . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ عطف عليه . وحذف اسم كان لدلالة الكلام عليه . التقدير : لو كان المدعو إليه عَرضا قريبا وسفرا قاصدا ـ أى سهلا معلوم الطُّرُق ـ لاتبعوك . وهذه الكناية للمنافقين كما ذكرنا؛ لأنهم داخلون فى جملة من خوطب بالنفير . وهذا موجود فى كلام العرب، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها ؛ كما قيل فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القيامة . ثم قال جل وعز : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »[١] يعنى جل وعز جهنم . ونظير هذه الآية من السنة فى المعنى قوله عليه السلام : "لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا

(١) آية ٧١ و ٧٢ سورة مريم .

أو مِرْماتين[1] حسنتين لشهد العشاء" . يقول : لو علم أحدهم أنه يجد شيئا حاضرا معجّلا يأخذه لأتى المسجد من أجله . ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شُقّة شاقة . والمراد بذلك كلّه غزوة تبوك . وحكى الكسائي أنه يقال شُقة وشِقة . قال الجوهري : الشّقة بالضم من الثياب، والشّقة أيضا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر . والشِّقة شَظِيّة تُشظى من لوح أو خشبة . يقال للغضبان : احتدّ فطارت منه شِقة، بالكسر . ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ أي لو كان لنا سَعة في الظَّهْر والمال . ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ نظيره « ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا » فسرها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " زادٌ وراحلة "[2] وقد تقدم . ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي بالكذب والنفاق . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ قيل : هو افتتاح كلام ؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » ؛ حكاه مكّيّ والمهدويّ والنحاس . وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فَرَقا[3] . وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم؛ فلا يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير؛ حكاه المهدويّ واختاره النحاس . ثم قيل : في الإذن قولان : الأول — « لم أذنت لهم » في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عُدّة ونية صادقة فسادٌ . الثاني — « لم أذنت لهم » في القعود لما اعتلّوا بأعذار؛ ذكرهما القشيريّ قال : وهذا عتاب تلطف ؛ إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليه السلام أذِنَ من غير وَحْي نزل فيه . قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يؤمر

(١) مرماتين (بكسر الميم) وقد تفتح . تثنية مرماة، وهي ظلف الشاة، أو ما بين ظلفها من اللحم .

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والجزع .

بهما : إذنُه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ولم يكن له أن يمضىَ شيئا إلا بوَحى، وأخذُه من الأسارى الفِدية؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأولى، فقدّم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب .

قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى ليتبيّن لك مَن صَدق ممن نافق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستأذن فى الجلوس، فإن أذن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية بقوله فى سورة النور : «فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم»(1) . ذكره النحاس فى معانى القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى فى القعود ولا فى الخروج ، بل إذا أمرت بشىء ابتدروه ؛ فكان الاستئذان فى ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر؛ ولذلك قال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله » نسختها التى فى النور « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله — إلى قوله — غفور رحيم »(2) . ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ فى موضع نصب بإضمار فى؛ عن الزجاج . وقيل : التقدير

(1) آية ٦٢ (٢) آية ٦٢

كراهية أن يجاهدوا ؛ كقوله : « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »(١) . ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ شكّت في الدِّين . ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي في شكهم يذهبون و يرجعون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أُهبة السفر . فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أي خروجهم معك . ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم عنك وخذلهم؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . ويدلّ على هذا أن بعده « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » . ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل : هو من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره . قيل : قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم غضبا، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو عبارة عن الخذلان؛ أي أوقع الله في قلوبهم القعود . ومعنى ﴿ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أي مع أولي الضرر والعميان والزَّمْنَى والنسوان والصبيان .

قوله تعالى : لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم . والخبال : الفساد والنميمة و إيقاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء منقطع؛ أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون من الرأي إلا خبالا؛ فلا يكون الاستثناء منقطعا .

(١) آخر سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاع : سرعة السير . وقال الراجز (١) :

يا ليتني فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

يقال : وَضَع البعيرُ إذا عدا ، يضع وضعا ووضوعا (٢) إذا أسرع السير . وأوضعته حملته على العَدْو . وقيل : الإيضاع سير مثل الخَبَب . والخلل الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال ، أي الفُرَج التي تكون بين الصفوف . أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين . ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة ؛ أي الإفساد والتحريض . ويقال : أبغيته كذا أعنته على طلبه ، وبغيته كذا طلبته له . وقيل : الفتنة هنا الشرك . ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم . النحاس : والقول الأول أولى ؛ لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سَمَّاع يسمع الكلام : ومثله « سَمَّاعون لِلكَذِب » (٣) . والقول الثاني ـ لا يكاد يقال فيه إلا سامع ؛ مثل قائل .

قوله تعالى : لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم ، ويتزل الوَحْي بما أسرّوه وبما سيفعلونه . وقال ابن جُريج : أراد اثني عشر رجلا من المنافقين ، وقفوا على ثَنِيَة (٤) الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أي صرفوها وأجالوا الرأي في إبطال ما جئت به . ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ .

(١) هو دريد بن الصمة ؛ كما في اللسان . (٢) الذي في كتب اللغة أنه يقال : وضع البعير وضعا وموضوعا . أما الوُضوع فهو من مصادر قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا وضعة (بفتح الصاد وكسرها) إذا أذلها .
(٣) آية ٤٢ سورة المائدة . (٤) الثنية : الطريقة في الجبل كالنقب ؛ وقيل الطريق العالي فيه . والوداع : واد بمكة ؛ وثنية الوداع منسوبة إليه .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ من أذن يأذن . وإذا أمرت زدت همزة مكسورة وبعدها همزة هي فاء الفعل، ولا يجتمع همزتان؛ فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيذن . فإذا وصلت زالت العلة في الجمع بين همزتين، ثم همزت فقلت : « ومنهم من يقول ائذن لي » . وروى ورش عن نافع « ومنهم من يقولُ اوذَنْ لي » خفف الهمزة[1] . قال النحاس : يقال إيذن لفلان ثم إيذن له ، هجاء الأولى والثانية واحد بألف وياء قبل الذال في الخط . فإن قلت : إيذن لفلان وأذن لغيره كان الثاني بغير ياء؛ وكذا الفاء . والفرق بين ثُمّ والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان . قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس أخي بني سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك : " يا جد ، هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووُصَفاء " فقال الجد : قد عرف قومي أني مغرم بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألّا أصبر عنهن ، فلا تَفْتِنّي وأذن لي في القعود وأعينك بمالي ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " قد أذنت لك " فنزلت هذه الآية . أي لا تفتني بصباحة وجوههم ، ولم يكن به علة إلا النفاق . قال المهدوي : والأصفر رجل من الحبشة ، كانت له بنات لم يكن في وقتهن أجمل منهن ، وكان ببلاد الروم . وقيل : سُمّوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، فكنّ صُفرًا لُعْسًا[2] . قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق فتور . وأسند الطبري أن رسول الله

(١) أي أبدلها واوا لضمه اللام قبلها ؛ فينطق باللام كأنها متصلة بواو الجماعة . (٢) اللعس : سواد اللثة والشفة . وقيل : اللعس واللعسة : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد في حمرة .

صلى الله عليه وسلم قال : " اغزوا تغنموا بنات الأصفر " فقال له الجد : إيذن لنا ولا تفتنّا بالنساء . وهذا منزع غير الأول ، وهو أشبه بالنفاق والمحادّة . ولما نزلت قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة — وكان الجدّ بن قيس منهم :"من سيدكم يابنى سلمة"؟ قالوا : جدّ بن قيس، غير أنه بخيل جبان . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وأىّ داء أدوى[1] من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور " . فقال حسان بن ثابت الأنصارىّ فيه :

وسُوّد بشر بن البراء لجوده * وحقّ لبشر بن البرا أن يُسَوَّدا
اذا ما أتاه الوفد أذهب ماله * وقال خذوه إننى عائد غدا

﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ أى فى الإثم والمعصية وقعوا . وهى النفاق والتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى مسيرهم إلى النار ، فهى تُحدق بهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ شرط ومجازاة ؛ وكذا ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عطف عليه . والحسنة : الغنيمة والظفر. والمصيبة الانهزام . ومعنى قولهم : « أخذنا أمرنا من قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال . ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمان . ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أى معجبون بذلك .

قوله تعالى : قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ قيل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أنا إمّا أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما أن نقتل

(١) أى أى عيب أقبح منه . قال ابن الأثير : « والصواب أدوأ بالهمز ، وموضوعه أول الباب ؛ ولكن هكذا يروى ، الا أن يجعل من باب دوى يدوى دوا فهو دو إذا هلك بمرض باطن » .

فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا. والمعنى كل شيء بقضاء وقدر. وقد تقدم فى «الأعراف» أن العلم والقدر والكتاب سواء. ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ (١) أى ناصرنا. والتوكّل تفويض الأمر إليه. وقراءة الجمهور «يصيبَنا» نصب بلن. وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجزم بها. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «هل يصيبنا». وحُكى عن أَعْيَن قاضى الرّى أنه قرأ «قل لن يصيبنّا» بنون مشددة. وهذا لحن؛ لا يؤكّد بالنون ما كان خبرا، ولو كان هذا فى قراءة طلحة لجاز. قال الله تعالى: «هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» (٢)

قوله تعالى: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ والكوفيون يدغمون اللام فى التاء. فأما لام المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام؛ كما قال جل وعز: «التائبون» لكثرة لام المعرفة فى كلامهم. ولا يجوز الإدغام فى قوله: «قل تعالوا» لأن «قل» معتل، فلم يجمعوا عليه علتين. والتربص الانتظار. يقال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الغلاء. والحسنى تأنيث الأحسن. وواحد الحسنيين حسنى، والجمع الحُسَن. ولا يجوز أن ينطق به إلا معرّفا. لا يقال: رأيت امرأة حسنى. والمراد بالحُسْنيين الغنيمة والشهادة؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. واللفظ استفهام والمعنى توبيخ. ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أى عقوبة تهلككم؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم. ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أى يؤذن لنا فى قتالكم. ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ تهديد ووعيد. أى انتظروا مواعد الشيطان إنا منتظرون مواعد الله.

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) آية ١٥ سورة الحج.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قال ابن عباس : نزلت في الجدّ بن قيس إذ قال ائذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به . ولفظ (أنفقوا) أمر، ومعناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب في مثل هذا، تأتي بأو، كما قال الشاعر (١) :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةٌ ∗ لدينا ولا مَقْلِيّةٌ إن تَقَلَّتِ

والمعنى إن أسأتِ أو أحسنتِ فنحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل منكم . ثم بيّن جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » فكان في هذا أدلّ دليل وهي : ـ

الثانية ـ على أن أفعال الكافر إذا كانت براً كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها في الآخرة ؛ بَيْدَ أنه يُطْعَم بها في الدنيا . دليلُه ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت : يارسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه ؟ قال : " لا ينفعه، إنه لم يقل يوما ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين " . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يُعْطَى بها في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها " . وهذا نصّ . ثم قيل : هل بحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته في الدنيا، أو ذلك مقيد بمشيئة الله المذكورة في قوله : « عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ » (٢) وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

(١) هو كثيّر عزّة، كما في كتاب الأمالي لأبي علي القالي .
(٢) آية ١٨ سورة الإسراء .

ظن الكافر، وإلا فلا يصح منه قُرْبة؛ لعدم شرطها المصحِّح لها وهو الإيمان . أو سُمِّيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا . قولان أيضا .

الثالثــة — فإن قيل : فقد روى مسلم عن حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيْ رسولَ الله ، أرأيتَ أمورا كنتُ أتحنّث بها(١) في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلةِ رَحِم أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أسلمتَ على ما أسلفت من خير" . قلنا قوله "أسلمتَ على ما أسلفت من خير" مخالف ظاهره للأصول؛ لأن الكافر لا يصح منه التقرب لله تعالى فيكون مثابا على طاعته؛ لأن من شرط المتقرِّب أن يكون عارفا بالمتقرَّب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى في الحديث: إنك اكتسبت طباعا جميلة في الجاهلية أكسبتك عادة جميلة في الإسلام . وذلك أن حكيما رضي الله عنه عاش مائة وعشرين سنة؛ ستين في الإسلام وستين في الجاهلية ، فأعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير؛ وكذلك فعل في الإسلام . وهذا واضح . وقد قيل : لا يبعد في كرم الله أن يثيبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه في حال كفره من الآثام . وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافرا . وهذا ظاهر الحديث . وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمان في عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم أسلم ومات مسلما بشرط عقلي لا يتبدّل . والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه . وقد تأوّل الحربي الحديث على هذا المعنى فقال: "أسلمت على ما أسلفت"؛ أي ما تقدم لك من خير عملته فذلك لك . كما تقول : أسلمت على ألف درهم؛ أي على أن أحرزها لنفسه . والله أعلم .

الرابعــة — فإن قيل : فقد روى مسلم عن العباس قال : قلت يارسول الله [إن] أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك ؟ قال : "نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح(٢)" . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل

---

(١) التحنث : التعبد .

(٢) الضحضاح في الأصل ... من الماء على وجه الأرض، ما يبلغ الكعبين . فاستعاره للنار .

من الخير، لكن مع انضمام شفاعة؛ كما جاء في أبي طالب . فأما غيره فقد أخبر التنزيل بقوله : « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(1) . وقال مخبرا عن الكافرين : « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(2) . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه يَغْلِي منه دماغه" . من حديث العباس : "ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ « أنْ » الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما منَعهم من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ الكوفيون « أن يُقبل منهم » بالياء؛ لأن النفقات والإنفاق واحد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصلّ ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى في تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة . وقد تقدم في « النساء »(3) القول في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء(4) مُوعَبا . والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يعدونها مَغْرما ومنعها مَغْنما . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبَّلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدم .

(1) آية ٤٨ سورة المدثر . (2) آية ١٠٠ سورة الشعراء .
(3) راجع جـ ٥ صفحة ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية . (4) لعل صوابه : حديث الأعرابي .

قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦)

أى لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تَمِل إليه فإنه استدراج . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق فى سبيل الله . وهذا اختيار الطبرى . وقال ابن عباس وقتادة : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالتعب فى الجمع . وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيها ولا تأخير ؛ وهو حسن . وقيل : المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذَّبون بما ينفقون . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ نصٌّ فى أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضاء . ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ بيّن أن من أخلاق المنافقين الحلفَ بأنهم مؤمنون . نظيره « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ »[1] الآية . والفَرَق الخوف؛ أى يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيُقتلوا .

قوله تعالى : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ كذا الوقف عليه . وفى الخط بالفَين : الأولى همزة، والثانية عوض من التنوين؛ وكذا [رأيت] جزءا . والملجأ الحصن؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه لجأ (بالتحريك)[2] وملجأ والتجأت إليه

---

(١) أول سورة المنافقون . (٢) هذه عبارة الجوهرى فى صحاحه . والذى فى اللسان والقاموس أنه يقال لَجَأَ لَجْأً ، مثل منع منعا . ولجِى لجأ مثل فرح فرحا .

بمنًى . والموضع أيضا لجَأ ومَلْجا . والتلجئة الإكراه . وألجأته إلى الشيء اضطررته إليه . وألجأت أمري إلى الله أسندته . وعمر بن لجَأ التيمي[1] الشاعر؛ عن الجوهري . ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مَغارة؛ من غار يَغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يُغير؛ كما قال الشاعر:

* الحمد لله مُسانا ومُصْبَحنا[2] *

قال ابن عباس : المغارات الغيران والسراديب، وهي المواضع التي يستتر فيها؛ ومنه غار الماء وغارت العين . ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ مفتعل من الدخول؛ أي مسلكا نختفي بالدخول فيه، وأعاده لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصل فيه مدتخل، قلبت التاء دالا؛ لأن الدال مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُتَدَخَّل على مُتَفَعَّل؛ كما في قراءة أُبَيّ « أو مُتَدَخَّلا » ومعناه دخول بعد دخول؛ أي قوما يدخلون معهم . المهدوي : متدخّلا من تدخّل مثل تفعّل إذا تكلّف الدخول . وعن أُبَيّ أيضا مُنْدَخَلا من اندخل ، وهو شاذ ، لأن ثلاثيه غير متعدّ عند سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن مُحَيْصِن « أو مَدْخلا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : ويقرأ « أو مُدْخلا » بضم الميم وإسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثاني من أدخل يُدخل . كذا المصدر والمكان والزمان كما أنشد سيبويه :

* مُغَارَ ابنِ همّامٍ على حَيّ خَثْعَما[3] *

ورُوى عن قتادة وعيسى والأعمش « أو مدّخّلا » بتشديد الدال والخاء . والجمهور بتشديد الدال وحدها؛ أي مكانا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾

---

(١) كذا في الصحاح للجوهري « التيمي » . والصواب أنه « التيمي » ، لأنه من تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة . ومات عمر بن لجأ بالأهواز، وكان يهاجي جريرا . (عن الشعر والشعراء) .

(٢) هذا صدر بيت لأمية بن أبي الصلت . وعجزه :

* بالخير صبحنا ربي ومسانا *

(٣) هذا عجز بيت لحميد بن ثور . وصدره :

* وما هي إلا في إزار وعلقة *

وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت تلبس العلقة وهي من لباس الجواري ، وهي ثوب قصير بلا كمين تلبسه الصبية تلعب فيه ، ويقال له الأتب والبقيرة ، وكانت تلبسه وقت اغارة ابن همام على هذا الحي . وخثعم قبيلة من اليمن . (عن شرح الشواهد) .

أى لرجعوا إليه . ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أى يسرعون ، لا يرد وجوههم شىء . من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام . قال الشاعر :

سَبُوحًا جَمُوحا وإحضارها * كَمَعمعة السَّعَف الموقَد (١)

والمعنى: لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين هربا من المسلمين .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أى يطعن عليك؛ عن قتادة . الحسن : يعيبك . وقال مجاهد : أى يَرُوزك (٢) ويَسألك . النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتادة والحسن . يقال : لَمَزه يلمزه إذا عابه . واللّمز فى اللغة العيب فى السر . قال الجوهرى : اللمز العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمزه ويلمُزه وقرئ بهما «ومنهم من يلمُزك فى الصدقات» . ورجل لمّاز ولُمَزة أى عيّاب . ويقال أيضا : لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه . والهَمْز مثل اللّمز . والهامز والهماز العيّاب ، والهُمَزة مثله . يقال: رجل هُمَزة وامرأة هُمَزة أيضا . وهَمَزه أى دفعه وضربه . ثم قيل: اللمز فى الوجه ، والهمز بظهر الغيب . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تفريق الصدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم . قال أبو سعيد الخُدْرىّ : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسم مالا إذ جاءه حُرْقُوص بن زهير أصلُ الخوارج، ويقال له ذو الخُوَيْصِرة التّميمىّ؛ فقال: اعدل يارسول الله . فقال : "وَيْلَك ومَن يعدل إذا لم أعدل" فنزلت الآية . حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه . وعندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يارسول الله فأقتل هذا المنافق . فقال : "معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابَه يقرءون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يَمْرُقون منه كما يَمْرُق السّهم من الرّمِيّة" .

(١) البيت لامرئ القيس . والإحضار : العدو . (٢) الروز : الامتحان والتقدير .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهم .

قوله تعالى . إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ خصّ الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراجَ سهم يؤدّونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»(١) .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ تبيين لمصارف الصدقات والمحلّ ، حتى لا تخرج عنهم . ثم الاختيار إلى مَن يقسم ؛ هذا قول مالك وأبى حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السّرج للدابة والباب للدار . وقال الشافعيّ : اللام لام التمليك ؛ كقولك : المال لزيد وعمرو و بكر ، فلا بدّ من التسوية بين المذكورين . قال الشافعيّ وأصحابه : وهذا كما لو أوْصَى لأصناف معينين أو لقوم معيّنين . واحتجوا بلفظة « إنما » وأنها تقتضى الحصر فى وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعَضَدُوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصُّدائى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومى جيشا فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فأنا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبتُ إلى قومى فجاء إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) آية ٦ سورة هود .

وسلم : " يا أخا صُداء المطاعُ فى قومه ". قال : قلت بل منّ الله عليهم وهداهم؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبيّ ولا غيره حتى جزّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدّارَقُطْنى . واللفظ للدارقطنى . وحُكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علّم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقَهم . وتمسّك علماؤنا بقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »[1] . والصدقة متى أطلقت فى القرآن فهى صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم " . وهذا نص فى ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنا وسنة؛ وهو قول عمر بن الخطاب وعليّ وآبن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أى صنف منها دفعتَ جاز . روى المِنْهال بن عمرو عن زِرّ بن حُبيش عن حُذيفة فى قوله : « إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ » قال : إنما ذكرَ الله هذه الصدقات لتُعرف ، وأيّ صنف منها أعطيتَ أجزأك . وروى سعيد آبن جُبير عن آبن عباس « إنما الصدقات للفقراءِ والمساكينِ » قال : فى أيها وضعت أجزأ عنك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال الكِيَا الطبريّ : حتى آدعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يُعلم لهم مخالف منهم على ماقال أبوعمر؛ والله أعلم. آبن العربيّ : والذى جعلناه فَيْصلا بيننا وبينهم أن الأمة آتفقت على أنه لو أُعطى كلُّ صنف حظّه لم يجب تعميمه ، فكذلك تعميم الأصناف مثله . والله أعلم .

الثالثة — واختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال: فذهب يعقوب بن السِّكِّيت والقُتَبى ويونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

---

(١) آية ٢٧١ سورة البقرة .

المسكين . قالوا : الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذى لا شيء له ؛ واحتجّوا بقول الراعى :

أما الفقيـــر الذى كانت حَلُوبَتُـه * وَفْقَ العِيَـال فـلم يُتْرك له سَـبَدُ(١)

وذهب الى هـذا قوم من أهل اللغة والحـديث منهم أبو حنيفة والقـاضى عبد الوهاب ، والوَفق من الموافقة بين الشيئين كالألتحام ؛ يقال : حلوبته وفق عياله أى لها لبن قدر كفايتهم لافضل فيه؛ عن الجوهرى . وقال آخرون بالعكس؛ فجعلوا المسكين أحسنَ حالا من الفقير. واحتجوا بقوله تعالى : « أمّا السَّفِينةُ فكانَتْ لِمسا كِينَ يَعْمَلُونَ فِى البحرِ »(٢) . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملةً من المـال . وعَضَدوه بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه تعوّذ من الفقر . وروى عنه أنه قال : " اللّهُمّ أحْيِنِى مسكينا وأمتنى مسكينا " . فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتناقض الخبران؛ إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ماهو أسوأ حالا منه ، وقد استجاب الله دعاءه وقبضه وله مال ممـا أفاء الله عليه، ولكن لم يكن معه تمـام الكفاية؛ ولذلك رَهَن دِرعه . قالوا : وأما بيت الراعى فلا حجة فيه؛ لأنه إنمـا ذكر أن الفقـير كانت له حَلُوبة فى حال . قالوا : والفقير معناه فى كلام العرب المفقور الذى نُزعت فِقَره(٣) من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشدّ من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُون ضَرْبًا فِى الأرْضِ »(٤) . وٱستشهدوا بقول الشاعر :

لمـا رأى لُبَـدُ النُّسورَ تطايرت * رفعَ القَـوادمَ كالفقـير الأعزلِ(٥)

أى لم يطق الطيران فصار بمنزلة من ٱنقطع صلبه ولصق بالأرض . ذهب الى هذا الأصمعىّ وغيره، وحكاه الطحاوىّ عن الكوفيين . وهو أحد قولى الشافعىّ وأكثر أصحابه . وللشافعىّ

---

(١) السبد : الوبر . وقيل الشعر . والعرب تقول : ماله سبد ولا لبد ؛ أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ؛ و يكنى بهما عن الإبل والغنم . (٢) آية ٧٩ سورة الكهف . (٣) الفقرة (بالكسر) والفقرة والفقارة (بفتحهما) : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجب . (٤) آية ٢٧٣ سـورة البقرة .

(٥) البيت للبيد . ولبد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد؛ سماه بذلك لأنه لبد فبق لا يذهب ولا يموت . والقوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح ؛ الواحدة قادمة .

قول آخر : أن الفقير والمسكين سواء،لافرق بينهما فى المعنى و إن افترقا فى الاسم ؛وهو القول الثالث . وإلى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، و به قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صنفان ، إلا أن أحد الصنفين أشدّ حاجة من الآخر؛ فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحدا ،والله أعلم . ولا حجة فى قول من احتج بقوله تعالى : «أمّا السفينةُ فكانت لِمساكين» ،لأنه يحتمل تكون مستأجرة لهم؛ كما يقال : هذه دار فلان إذا كان ساكنها و إن كانت لغيره . وقد قال تعالى فى وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ »[١] فأضافها اليهم . وقال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم »[٢] . وقال صلى الله عليه وسلم : " من باع عبدا وله مال " . وهو كثير جدا يضاف الشيء اليه وليس له . ومنه قولهم: باب الدار ،وجُلّ الدابة ، وسرج الفرس ، وشبهه . ويجوز أن يُسمّوا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف؛ كما يقال لمن آمتُحن بِنكبة أو دفع الى بلية مسكين . وفى الحديث " مساكين أهل النار " وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم * عليها تراب الذل بين المقابر

وأما ما تأوّلوه من قوله عليه السلام : " اللهم أحيِني مسكينا " الحديث . رواه أنس، فليس كذلك ؛ و إنما المعنى ها هنا : التواضع لله الذى لا جبروت فيه ولا نخوة، ولا كبر ولا بطر، ولا تكبّر ولا أشر . ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلّهم * فآنظر إلى ملك فى زى مِسكين
ذاك الذى عظُمت فى الله رغبته * وذاك يصلح للدنيا وللدين

وليس بالسائل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كره السؤال ونهى عنه ، وقال فى آمرأة سوداء أبت أن تزول عن الطريق : " دَعُوها فإنها جبّارة "[٣] . وأما قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمتنع أن يكون لهم شيء . والله أعلم . وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعيّ فى أنهما سواء حسن . ويقربُ منه ماقاله

---

(١) آية ٢١ سورة الحج . (٢) آية ٥ سورة النساء . (٣) أى مستكبرة عاتية .

مالك فى كتاب ابن سُحْنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل؛ وروى عن ابن عباس وقاله الزُّهْرِىّ ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسلمة : الفقير الذى له المسكن والخادم الى مَن هو أسفل من ذلك . والمسكين الذى لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ماثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى اليها ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لى خادما ؛ قال : فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين، والمساكين من الأعراب الذين لم يهاجروا ؛ وقاله الضحاك . وقول سابع — وهو أن المسكين الذى يخشع ويستكنّ وإن لم يسأل . والفقير الذى يتحمل ويقبل الشىء سرًّا ولا يخشع؛ قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعِكْرِمة والزُّهرىّ — المساكين الطوافون، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وسيأتى .

الرابعة — وهى فائدة الخلاف فى الفقراء والمساكين، هل هما صنف واحد أو أكثر، تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثانى . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثا .

الخامسة — وقد اختلف العلماء فى حدّ الفقر الذى يجوز معه الأخذ — بعد إجماع أكثر مَن يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لايستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللمعطى أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن فى ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج اليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز؛ ذكره ابن المنذر . وبقول مالك قال النَّخَعِىّ والثورىّ . وقال أبو حنيفة : من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فاعتبر النصاب لقوله عليه السلام : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم ". وهذا واضح، ورواه المغيرة عن مالك . وقال الثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون غارما؛ قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الدّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما " . في إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ؛ قاله الدارقطنيّ رحمه الله . وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن عليّ وعبدالله قالا: لا تحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب؛ ذكره الدّارَقُطْنِيّ . وقال الحسن البصريّ : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقديّ عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الدّارقطنيّ عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غنيّ جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش". فقيل: يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهما " . وفي حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بني أسد فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من سأل منكم وله أوقية فقد سأل إلحافا والأوقية أربعون درهما" . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطى من الزكاة من له أربعون درهما؟ قال نعم . قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأول قويّا على الاكتساب حسن التصرف . والثاني ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعيّ وأبو ثَوْر . من كان قويا على الكسب والتحرف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام . واحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سويّ"(1) رواه عبد الله بن عمرو،

(1) المرة (بالكسر) : القوة والشدة . والسوىّ : الصحيح الأعضاء .

وأخرجه أبو داود والترمذي والدَّارَقُطْنِيّ . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبه الناس؛ فقال : " إنها لا تصلح لغنيّ ولا لصحيح ولا لعامل " أخرجه الدارقطنيّ . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عَديّ بن الخيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يَقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرآنا جَلْدَين فقال : " إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسب " . ولأنه قد صار غنيًا بكسبه كغِنى غيره بماله فصار كل واحد منهما غنيًا عن المسئلة . وقاله ابن خويزمنداد، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يعوّل عليه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعطيها الفقراء ووقوفها على الزَّمِن باطل . قال أبو عيسى الترمذيّ في جامعه : اذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فتُصدِّق عليه أجزأ عن المتصدّق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الكِيَا الطبريّ : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه فقير مع قوّته وصحة بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيمه سَنةً فإنه يعطى الزكاة . وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدّخر مما أفاء الله عليه قوت سنة، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكُراع (١) والسلاح مع قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بدّ له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غنيّ؛ وروي عن عليّ . واحتجوا بحديث عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة عن ظَهر غِنًى استكثر بها من رَضْف جهنم " قالوا : يارسول الله، وما ظهر الغنى؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه الدَّارَقُطْنِي وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحَنْظَلية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يُغنيه فإنما يستكثر من النار " . وقال النفيلي في موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل . وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .

وما يغنيه ؟ وقال النُّفَيلي في موضع آخر : وما الغنى الذى لا تنبغى معه المسئلة ؟ قال : " قدر ما يغدّيه و يعشّيه " . وقال النّفيلي في موضع آخر : " أن يكون له شبع يوم وليلة أو ليلة و يوم " .

قلت : فهذا ما جاء في بيان الفقر الذي يجوز معه الأخذ. ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضى الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة؛ ولكن تظاهرت الأخبار في أن الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُرَدّ في فقرائهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وقال أبو بكر العبسى : رأى عمر بن الخطاب ذِمّيًّا مكفوفا مطروحا على باب المدينة فقال له عمر : مالك ؟ قال : استكرونى في هذه الجزية، حتى إذا كُفّ بصرى تركونى وليس لى أحد يعود علىّ بشيء . فقال عمر : ما أَنصفتَ إذًا ؛ فأمر له بقوته وما يصلحه . ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية . وهم زَمْنَى أهل الكتاب. ولما قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية، وقابل الجملة بالجملة وهى جملة الصدقة بجملة المصرف بين النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن : " أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترَدّ في فقرائهم ". فاختص أهل كل بلد بزكاة بلده . وروى أبو داود أن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حُصين على الصدقة، فلما رجع قال لعمران : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتنى ! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدّارقُطنى والترمِذىّ عن عَوْن بن أبى جُحيفة [عن أبيه] (1) قال : قدم علينا مصدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الصدقه من أغنيائنا فجعلها في فقرائنا فكنت غلاما يتيما فأعطانى منها قلُوصا. قال الترمذىّ : وفى الباب عن ابن عباس حديث ابن أبى جحيفة حديث حسن .

---

(1) زيادة عن سنن الدارقطني والترمذى .

السادسة ـ وقد اختلفت العلماء في نقل الزكاة عن موضعها على ثلاثة أقوال : لا تنقل ؛ قاله سحنون وابن القاسم ، وهو الصحيح لما ذكرناه . قال ابن القاسم أيضا : وإن نُقل بعضها لضرورة رأيته صوابا . وروى عن سحنون أنه قال : ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره اليه ؛ فان الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج "والمسلم أخو المسلم لا يُسْلِمه ولا يَظْلِمُه"[(١)] . والقول الثاني تنقل . وقاله مالك أيضا . وحجة هذا القول ما رُوي أن معاذا قال لأهل اليمن : ايتوني بخَمِيس أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير في الصدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة . أخرجه الدارقطني وغيره . والخميس لفظ مشترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : سُمِّيَ بذلك لأن أول من عمله الخمس مَلِك من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المجمل والجوهري أيضا . وفي هذا الحديث دليلان : أحدهما ـ ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن الى المدينة ؛ فيتولى النبي صلى الله عليه وسلم قسمتها . ويَعْضُد هذا قوله تعالى : «إنما الصدقاتُ للفقراء» ولم يفصل بين فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثاني ـ أخذ القيمة في الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن مالك في إخراج القيم في الزكاة ؛ فأجاز ذلك مرة ومنع منه أخرى ، فوُجِد الجواز . وقال أبو حنيفة بهذا الحديث . وثبت في صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم "من بلغت عنده [من الإبل][(٢)] صدقة الجذعة وليست عنده [جذعة][(٢)] وعنده حِقّة فإنه تؤخذ منه وما استيسرتا من شاتين أو عشرين درهما"[(٣)] . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : "أغنوهم عن سؤال هذا اليوم" يعني يوم الفطر . وإنما أراد أن يُغنوا بما يسد حاجتهم ، فأي شيء سد حاجتهم جاز . وقد قال تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً»[(٤)] ولم يخص شيئا من شيء . ولا يُدفع عند أبي حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليه خمسة دراهم فأسكن فيها فقيرا شهرا فانه لا يجوز . قال : لأن السكنى ليس بمال .

---

(١) أي لا يتركه مع من يؤذيه بل يحميه . (٢) الزيادة عن صحيح البخاري .

(٣) في البخاري : « فانها تقبل من الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهما » .

(٤) آية ١٠٣ من هذه السورة .

ووجه قوله « لا تجزى القيم » — وهو ظاهر المذهب — فلان النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فى خمس من الإبل شاةٌ وفى أربعين شاةً شاةٌ " فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به ، وإذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باقٍ عليه .

القول الثالث — وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم فى الموضع، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأوّل أصح . والله أعلم .

السابعـــة — وهل المعتبر مكان المال وقت تمام الحول فتفرق الصدقة فيه، أو مكان المالك إذ هو المخاطب؛ قولان . واختار الثانى أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تبعا له ؛ فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطبة . كابن السبيل فانه يكون غنيّا فى بلده فقيرا فى بلد آخر ؛ فيكون الحكم له حيث هو .

مســألة — واختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيرا مسلما فانكشف فى ثانى حال أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنياً؛ فقال مرة : تجزيه ومرّة لا تجزيه . وجه الجواز — وهو الأصح — ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال رجل لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدّثون تُصُدِّق الليلة على زانية قال اللّهمّ لك الحمد على زانية لأتصدقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنيّ فأصبحوا يتحدّثون تُصَدِّق على غنيّ قال اللّهمّ لك الحمد على غنيّ لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدّثون تُصدّق على سارق فقال اللّهمّ لك الحمد على زانيــة وعلى غنيّ وعلى سارق فأُتِى فقيل له أمّا صدقتك فقد قُبلت أما الزانية فلعلّها تستعفّ بها عن زناها ولعلّ الغنيّ يعتبر فينفق ممــا أعطاه الله ولعل السارق يستعِفّ بها عن سرقته " . وروى أن رجلا أخرج زكاة ماله فأعطاها أباه ، فلمــا أصبح علم بذلك ؛ فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : " قــد كُتب لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلك أجران " . ومن جهة المعنى أنه سوّغ له الاجتهاد فى المعطى، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

ووجه قوله « لا يجزى » أنه لم يضعها فى مستحقها، فأشبه العمد، ولأن العمد والخطأ فى ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أتلف على المساكين حتى يوصله اليهم .

الثامنــة — فإن أخرج الزكاة عند محلها فهلكت من غير تفريط لم يضمن؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضمن؛ لتأخيرها عن محلها فتعلقت بذمته فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاســعة — وإذا كان الإمام يعدل فى الأخذ والصرف لم يسُغ للمالك أن يتولى الصرف بنفسه فى الناض(١) ولا فى غيره . وقد قيل : إن زكاة الناض على أربابه . وقال ابن الماجشون : ذلك اذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة؛ فإن احتيج الى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفرق عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة، هذه أمهاتها .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ يعنى السُّعاة والجُبَاة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكّل على ذلك . روى البخارىّ عن أبى حُميد الساعدىّ قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأسْد على صدقات بنى سُليم يُدْعَى ابنَ اللّتبية(٢)، فلما جاء حاسبه . واختلف العلماء فى المقدار الذى يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافعىّ : هو الثُّمن . ابن عمر ومالك : يُعطَوْن قدر عملهم من الأجرة؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطّل نفسه لمصلحة الفقراء، فكانت كفايته وكفاية أعوانه فى مالهم؛ كالمرأة لما عطّلت نفسها لحقّ الزوج كانت نفقتها ونفقة أتباعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تقدّر بالثمن، بل تعتبر الكفاية ثُمْنا كان أو أكثر؛ كرزق القاضى . ولا تعتبر كفاية الأعوان فى زمننا لأنه إسراف محض . القول الثالث — يُعطون من بيت المال . قال ابن العربىّ : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناض من المال : هو الدرهم والدينار؛ وإنما يسمى ناضا اذا تحوّل نقدا بعد أن كان متاعا .

(٢) اختلف فى ضبطه؛ فقيل بضم اللام وسكون التاء، وحكى فتحها . وقيل بفتح اللام المثناة . واسمه عبد الله، وكان من بنى تولب حىّ من الازد . وقيل : اللتبية أمه .

أبي أُوَيس وداود بن سعيد بن زنبوعة ، وهو ضعيف دليلا ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصًّا فكيف يخلفون عنه استقراء وسَبْرا . والصحيح الاجتهاد في قدر الأجرة ؛ لأن البيان في تعديد الأصناف إنما كان للحل لا للستحقّ، على ما تقدم .

وآختلفوا في العامل إذا كان هاشميًّا ؛ فمنعه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس " . وهذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فتُلحق بالصدقة من كل وجه كرامةً وتنزيها لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غُسالة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعيّ ، ويُعطىَ أجر عُمَالته ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث عليّ بن أبي طالب مصدّقا ، وبعثه عاملا إلى اليمن على الزكاة ، وولّى جماعة من بني هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أجير على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشميّ وغيره اعتبارا بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث عليّ ليس فيه أنه فرض له من الصَّدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعي والكاتب والقسّام والعاشر وغيرهم فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجّهة على جميع الخلق فإن تقدّم بعضهم بهم من فروض الكفاية ، فلا جَرَم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " ما تركت بعد نفقة نسائي(1) ومؤنة عاملي فهو صدقة " قاله ابن العربيّ .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ لا ذكر للؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قَسْم الصدقات ؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام ، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهريّ : المؤلّفة مَن أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ وإن كان غنيًّا . وقال بعض المتأخرين : آختلف في صفتهم ؛ فقيل : هم صنف من الكفار

(1) في ابن العربي : « عيالي » .

يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يُسلمون بالقهر والسيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان . وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام فى صدورهم . وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يُعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام . قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاءُ لمن لا يتمكّن إسلامه حقيقةً إلا بالعطاء؛ فكأنه ضربٌ من الجهاد . والمشركون ثلاثة أصناف : صنف يرجع بإقامة البرهان . وصنف بالقهر . وصنف بالإحسان . والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر . وفى صحيح مسلم من حديث أنس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعنى للأنصار — : " فإنى أُعطى رجالا حديثى عَهْدٍ بكفر أتألّفهم " الحديث . قال ابن إسحاق : أعطاهم يتألّفهم ويتألف بهم قومهم . وكانوا أشرافا؛ فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حَكيم بن حِزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حُويطب بن عبد العُزّى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير . وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية . قال : فهؤلاء أصحاب المئين . وأعطى رجالا من قريش دون المائة منهم مخرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وَهْب الجُمَحى ، وهشام بن عمرو العامرى . قال ابن إسحاق : فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم . وأعطى سعيد بن يَرْبُوع خمسين بعيرا ، وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمى أباعرَ قليلة فسخطها . فقال فى ذلك .

كانت نِهابًا تلافيْتُها ... بكَرّى على المُهْر فى الأجْرع (١)

وإيقاظِىَ القومَ أن يرقدوا ... إذا هَجَع الناس لم أهجع

فأصبح نَهْبِى ونَهْبُ العُبَيْد ... بين عُيَيْنة والأقرع (٢)

وقد كنتُ فى الحرب ذا تُدْرَإ ... فلم أُعْطَ شيئا ولم أُمْنَع (٣)

---

(١) الأجرع : المكان الواسع الذى فيه حزونة وخشونة . (٢) العبيد (مصغر) : اسم فرس العباس ابن مرداس . (٣) ذو تدرأ (بضم التاء) : أى ذو هجوم لا يتوقى ولا يهاب ؛ ففيه قوة على دفع أعدائه .

إلّا أفائلَ أُعطيتُهَا * عديدَ قوائمه الأربع (١)
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ * يفوقان مِرداسَ في المَجْمع
وما كنتُ دون امرئٍ منهما * ومن تَضع اليومَ لا يُرفَع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه " . فأعطَوْه حتى رَضِىَ؛ فكان ذلك قَطْع لسانه . قال أبو عمر: وقد ذُكر فى المؤلفة قلوبهم النُّضير بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة ، أخو النضر بن الحارث المقتول ببدر صَبْرًا . وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة ؛ فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم؛ ومن هاجر الى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأوّلين ممن رسخ الإيمان فى قلبه وقاتل دونه ، وليس ممن يؤلَّف عليه . قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف بن سعد النَّصْرى على من أسلم من قومه من قبائل قيس ، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيّق عليهم ، وحسُن إسلامه وإسلام المؤلّفة قلوبهم ، حاشا عُيينة بن حصن فلم يزل مَغْموزا (٢) عليه . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخيِّر الفاضل المجتمَع على فضله ، كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حِزام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم . قال مالك : بلغنى أن حكيم بن حِزام أخرج ما كان أعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فى المؤلفة قلوبهم فتصدّق به بعد ذلك .

قلت : حكيم بن حزام وحُوَيطب بن عبد العُزّى عاش كل واحد منهما مائة وعشرين سنة ، ستين فى الإسلام وستين فى الجاهلية . وسمعت شيخنا الحافظ أبا محمد عبد العظيم يقول : شخصان من الصحابة عاشا فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة ، وماتا بالمدينة سنة أربع وخمسين ؛ أحدهما حكيم بن حزام ، وكان مولده فى جوف الكعبة قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة . والثانى حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارىّ . وذكر هذا أيضا أبو عمرو عثمان الشَّهْرُزُورىّ فى كتاب معرفة أنواع علم الحديث له ، لم يذكرا غيرهما . وحويطب ذكره

(١) الأفائل : صغار الإبل . (٢) المغموز : المتهم .

أبو الفرج الجَوْزِيّ في كتاب الوفا في شرف المصطفى . وذكره أبو عمر في كتاب الصحابة أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حَمْنَن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف ، أنه عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة وقد عُدّ في المؤلفة قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب . أما معاوية فبعيد أن يكون منهم ؛ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النبيّ صلى الله عليه وسلم على وَحْى الله وقراءته وخَلَطه بنفسه . وأما حاله في أيام أبي بكر فأشهر من هذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهم . وفي عددهم اختلاف ، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ما تقدم ، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء في بقائهم ؛ فقال عمر والحسن والشَّعبيّ وغيرهم : انقطع هذا الصِّنف بعز الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . قال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين — لعنهم الله — اجتمعت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضى الله عنه على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدِّين . قال يونس : سألت الزُّهْرِيّ عنهم فقال : لا أعلم نسخا في ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحكمُ فيهم ثابت ، فإن كان أحد يحتاج إلى تألّفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعدُ دُفِع إليه . قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال ابن العربي : الذي عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أُعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم ؛ فإن في الصحيح : "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ" .

الرابعة عشرة — فإذا فرعنا على أنه لا يُرَدّ إليهم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام . وقال الزهريّ : يُعطَى نصفُ سهمهم لعُمّار المساجد . وهذا مما يدلّك على أن الأصناف الثمانية محلّ لا مستحقون تسوية ؛ ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى غيرهم ، كما لو أوصى لقوم معينين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بقي منهم . والله أعلم .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فكّ الرقاب ؛ قاله ابن عباس وابن عمر ؛ وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز للإمام أن يشترى رقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين ، ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز. هذا تحصيل مذهب مالك ، وروى عن ابن عباس والحسن ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد. وقال أبو ثَوْر : لا يبتاع منها صاحب الزكاة نَسَمة يعتقها بجَرّ ولاء . وهو قول الشافعيّ وأصحاب الرأى ورواية عن مالك . والصحيح الأوّل ؛ لأن الله عز وجل قال : «وفي الرقاب» فاذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشترى رقبة فيعتقها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشترى الفرس فيحمل عليه فى سبيل الله . فاذا كان له أن يشترى فرسا بالكمال من الزكاة جاز أن يشترى رقبة بالكمال ، لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وفي الرِّقَابِ ﴾ الأصل فى الولاء ؛ قال مالك : هى الرقبة تعتق وولاؤها للسلمين ، وكذلك ان أعتقها الإمام . وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاء وعن هبته . وقال عليه السلام : " الولاء لُحْمَةٌ كلُحْمة النسب لا يباع ولا يوهب" . وقال عليه السلام: "الولاء لمن أعتق". ولا ترث النساء من الولاء شيئا ؛ لقوله عليه السلام : " لا ترث النساء من الولاء شيئا الا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن " وقد ورّث النبي صلى الله عليه وسلم ٱبنة حمزة من مولًى لها النصفَ ولابنته النصف . فإذا ترك المعتِق أولادا ذكورا وإناثا فالولاء للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاء إنما يورث بالتعصيب المحض ، والنساءُ لا تعصيب فيهن فلم يرثن من الولاء شيئا . فافهم تصب .

السابعة عشرة — وٱختلف هل يُعان منها المكاتَب ؛ فقيل لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لما ذكر الرقبة دلّ على أنه أراد العتق الكامل ، وأما المكاتب فإنما هو داخل فى كلمة الغارمين بما عليه من دَين الكتابة ، فلا يدخل فى الرقاب . والله أعلم . وقد روى عن مالك من رواية المدنيين وزياد عنه : أنه يُعان منها المكاتَب فى آخر كتابته بما يَعتق .

وعلى هذا جمهور العلماء فى تأويل قول الله تعالى : « وفى الرِّقَاب » . وبه قال ابن وهب والشافعيّ والليث والنَّخَعيّ وغيرهم . وحكى عليّ بن موسى القُمّي الحنفى فى أحكامه : أنهم أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا فى عتق الرقاب؛ قال الكِيا الطبريّ : « وذكر[1] وجها[2] بيّنه فى منع ذلك فقال : إن العتق إبطال مِلْك وليس بتمليك، وما يدفع إلى المكاتب تمليك، ومن حق الصدقة ألّا تجزى إلا إذا جرى فيها التمليك . وقوّى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن الغارم فى دينه بغير أمره لم يَجزه من حيث لم يملك فلان لايجزى ذلك فى العتق أوْلى . وذكر أن فى العتق جَرّ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل فى دفعه للمكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا دفعه إلى العبد لم يملكه العبد، وإن دفعه إلى سيده فقد ملّكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء والعتق فهو قاضٍ ديناً، وذلك لا يجزى فى الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينصّ على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معًا ، أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ عن البراء قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : دُلَّنى على عمل يقرّبنى من الجنة ويباعدنى منْ النار . قال : " لئن كنتَ أقصرتَ الخطبة لقد أعرضتَ المسألة[3] أعتق النسمة وفكّ الرقبة " . فقال : يارسول الله، أو ليستا واحدا؟ قال: " لا، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أنْ تُعين فى ثمنها " وذكر الحديث .

الثامنة عشرة ــ واختلفوا فى فكّ الأُسارى منها؛ فقال أَصْبَغ : لا يجوز . وهو قول ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز؛ لأنها رقبة مُلِكت بملك الرِّق فهى تخرج من رِق إلى عتق، وكان ذلك أحقّ وأوْلى من فكاك الرقاب الذى بأيدينا؛ لأنه إذا كان فكّ المسلم عن رق المسلم عبادةً وجائزا من الصدقة، فأحْرَى وأوْلَى أن يكون ذلك فى فكّ المسلم عن رق الكافر وذُلّه .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْغَارِمِينَ ﴾ هم الذين ركبهم الدَّين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه . اللهمّ إلا من آدّان فى سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

---

(١) أى القمى .

(٢) الذى فى أحكام القرآن للكيا : « وذكروجوها بينة فى منع ذلك ، منها أنه العتق ... » الخ .

(٣) أى جئت بالخطبة قصيرة وبالمسألة واسعة كثيرة .

ويُعْطَى منها مَن له مال وعليه دَين محيط به ما يقضى به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهوَ فقيرٌ وغارم فيُعْطَى بالوصفين . روى مسلم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدّقوا عليه". فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : "خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك" .

الموفية عشرين — ويجوز للتحمّل فى صلاح وبرّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّى ما تحمّل به إذا وجب عليه وإن كان غنيًّا ، إذا كان ذلك يُجْحف بماله كالغريم . وهو قول الشافعىّ وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . واحتج مَن ذهب هذا المذهبَ بحديث قَبيصة بن مُخارق قال : تحمّلت حَمَالة(١) فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : "أقم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمرَ لك بها — ثم قال — ياقَبيصةُ إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة رجلٌ تحمّل حَمَالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحِجَا من قومه لقد أصابت فلانا فاقةٌ(٢) فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — فما سواهن من المسألة ياقَبيصةُ سُحْتًا(٣) يأكلها صاحبها سُحْتًا" . فقوله : "ثم يُمسك" دليل على أنه غنىّ ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك . والله أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة ذى فقر مُدْقِع(٤) أو لذى غُرْم مُفْظِع(٥) أو لذى دم مُوجِع(٦)" . وروى عنه عليه السلام : "لا تحلّ الصدقة لغنىّ إلا لخمسة" الحديث . وسيأتى .

---

(١) الحمالة (بالفتح) : ما يحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين . والتحمل : أن يحملها عنهم على نفسه . (عن النهاية لابن الأثير) . (٢) أى حتى يقوموا على رءوس الأشهاد قائلين : إن فلانا أصابته فاقة الخ

(٣) كذا رواية مسلم؛ أى اعتقده سحتا ، أو يؤكل سحتا . وفى غير مسلم بالرفع . (٤) المدقع : الشديد ، يفضى بصاحبه الى الدقعاء، وهى التراب . وقيل : هو سوء احتمال الفقر . (٥) المفظع : الشديد الشنيع .

(٦) هو أن يحمل دية فيسعى فيها حتى يؤديها الى أولياء المقتول ؛ فان لم يؤدها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله .

الحادية والعشرون ــ واختلفوا، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدّى من الصدقة دين ميت . وهو قول ابن الموّاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الغارم مَن عليه دين يُسجن فيه . وقال علماؤنا وغيرهم : يقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه مَن ترك مالا فلأهله ومن ترك دَينا أو ضَياعا (١) فإلىّ وعلىّ " .

الثانية والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هم الغُزاة وموضع الرِّباط ، يُعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعُمّار . ويُؤثَر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالا : سبيل الله الحج . وفي البخاري : ويذكر عن أبي لاس : حملنا النبيّ صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعتِق من [زكاة (٢)] ماله ويُعطى في الحج . خرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ حدّثنا محمد بن محمد الخياش حدّثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدى بن ميمون عن محمد بن أبي يعقوب عن عبد الرحمن ابن أبي نُعْم ويُكنَى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأتته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجي أوصى بماله في سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال في سبيل الله . فقلت : أما زدتها فيما سألت عنه إلا غمًّا . قال : فما تأمرني يا بن أبي نُعْم ، آمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيعتدون في الأرض ويقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها . قال : آمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فينَمُّون إليهم الحديث ، ويسعون في المسلمين بالكذب ؛ فيجازَوْن الجوائز ويعطَوْن عليه العطايا .

---

(١) الضياع (بالفتح) : العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا ، فسمى العيال بالمصدر ؛ كما تقول : من مات وترك فقرا ؛ أي فقراء .   (٢) الزيادة عن صحيح البخاري .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطى من الصدقة فى الكُرَاع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف العدو عن الحَوْزة ؛ لأنه كلّه من سبيل الغَزْو ومنفعته . وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقة فى نازلة سهل بن أبى حَثْمة إطفاءً للثائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبى حَثْمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَداه مائة من إبل الصدقة ، يعنى دية الأنصاريّ الذى قُتل بخَيْبر . وقال عيسى بن دينار : تحل الصدقة لغاز فى سبيل الله، قد احتاج فى غزوته وغاب عنه غناؤه ووَفْرُه . قال : ولا تحلّ لمن كان معه ماله من الغزاة، إنما تحل لمن كان ماله غائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يُعْطَى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطَعًا به . وهذه زيادة على النص، والزيادة عنده على النص نسخ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر، وذلك معدوم هنا ، بل فى صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنيّ إلا لخمسة لغازٍ فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين فأهدى المسكين للغنى" . رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورفعه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . فكان هذا الحديث مفسّرا لمعنى الآية، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها، ومفسّرا لقوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذى مِرّة سَوِيّ" لأن قوله هذا مجمل ليس على عمومه بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لغنيّ أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه فى سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقى به ماله ويؤدّى منها دينه وهو عنها غنيّ . قال: وإذا احتاج الغازى فى غزوته وهو غنيّ له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستقرض، فاذا بلغ بلده أدّى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه فى ذلك . وروى أبو زيد وغيره

عن ابن القاسم أنه قال : يُعطَى من الزكاة الغازى وان كان معه فى غَزاته ما يكفيه من ماله وهو غنىّ فى بلده . وهذا هو الصحيح؛ لظاهر الحديث: "لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة". وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السبيل الطريق ؛ ونُسب المسافر اليها لملازمته اياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسألونى عن الهوى فأنا الهَوَى * وآبن الهَوَى وأخو الهَـوَى وأبوهُ

والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقرّه وماله ؛ فإنه يُعْطَى منها وان كان غنيًا فى بلده، ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالسّلف . وقال مالك فى كتاب ابن سُحنون : اذا وجد من يسلفه فلا يعطى . والأول أصح؛ فانه لا يلزمه أن يدخل تحت منّة أحد وقد وجد منّة الله تعالى . فان كان له ما يغنيه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى؛ فان أخذ فلا يلزمه ردّه اذا صار إلى بلده ولا إخراجه .

الرابعة والعشرون — فان جاء وآدّعى وصفًا من الأوصاف، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فأما الدّين فلا بدّ أن يثبته ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويُكتفى به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [عن أبيه](١) قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صدر النهار، قال : فجاءه قوم حُفاةٌ عُراةٌ مُجْتَابِى النِّمَار(٢) أو العبَاء متقلّدى السيوف، عامّتهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر، فتمعّر(٣) وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال : " يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم — الآية الى قوله — رقيبا» والآية التى فى الحشر «ولتنظر نفس ما قدمت لِغَد» تصدّق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاعِ بره — حتى قال — ولو بشق تمرة" قال: فجاء رجل

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتاب القميص : لبسه . والنمار (بكسر النون) : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب؛ كأنها أخذت من لون النمر لمـا فيها من السواد والبياض . (٣) تمعر : تغيّر .

من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مُذْهَبة[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنّ فى الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمِل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شيء ومن سَنّ فى الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء". فاكتفى صلى الله عليه وسلم بظاهر حالهم وحَثّ على الصدقة، ولم يطلب منهم بيّنة، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا . ومثله حديث أبرَص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن فى بنى إسرائيل أبرَص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملَكًا فأتى الأبرصَ فقال أىُّ شىء أحبُّ إليك فقال لَوْن حَسَن وجِلد حَسَن ويذهب عنى الذى قد قَذِرنى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قذره وأُعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأىّ المال أحبُّ إليك قال الإبل — أو قال البقر، شك إسحاق، إلا أن[2] الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال آخر البقر — قال فأعطى ناقة عُشَراء قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأقرعَ فقال أىُّ شىء أحبُّ إليك قال شَعر حَسَن ويذهب عنى هذا الذى قد قَذِرَنى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قال فأُعطىَ شعرا حسنا قال فأىّ المال أحبُّ إليك قال البقر فأعطىَ بقرة حاملا قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى فقال أىّ شىء أحبّ إليك قال أن يَرُدّ الله إلىّ بصرى فأُبصر به الناسَ قال فمسحه فردّ الله إليه بصره قال فأىّ المال أحبُّ إليك قال الغنم فأعطى شاة والدا فأُنتج هذان[3] وولّد هذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم قال ثم إنه أتى الأبرصَ فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بى الحِبال[4] فى سفرى فلا بلاغَ لى اليومَ إلا بالله وبك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلّغ عليه فى سفرى

(١) أى فضة مموّهة بذهب فى إشراقه . (٢) كذا فى الأصول وصحيح مسلم . ورواية البخارى : « شك إسحاق فى ذلك أن الأبرص » بغير لفظ « إلا » . (٣) أى صاحبا الإبل والبقر .
(٤) الحبال : جمع حبل . والمراد الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق .

فقال له الحقوق كثيرة فقال له كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله فقال إنما وَرِثتُ هذا المال كابرًا عن كابر فقال إن كنتَ كاذبا فصيرك الله الى ما كنتَ فقال وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد على هذا فقال إن كنتَ كاذبا فصيرك الله الى ما كنت قال وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لىَ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى ردّ عليك بصرك شاةً أتبلّغ بها فى سفرى فقال قد كنتُ أعمى فرد الله الىّ بصرى فخذ ما شئتَ ودَعْ ما شئتَ فوالله لا أجْهَدُك اليومَ شيئا أخذته لله فقال أمسك مالك فإنما ابتُليتم فقد رُضِىَ عنك وسُخِط على صاحبيك " . وفى هذا أدل دليل على أن من ادعى زيادةً على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يُكشف عنه إن قدر ؛ فإن فى الحديث " فقال رجل مسكين وابنُ سبيل أسألك شاة" ولم يكلفه إثبات السفر . فأما المكاتب فإنه يكلَّف إثباتَ الكتابة لأن الرق هو الأصل حتى تثبت الحرية .

الخامسة والعشرون ـــ ولا يجوز أن يعطىَ من الزكاة مَن تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتبه ولا مدبَّره ولا أمّ ولده ولا عبدا أعتق نصفه ؛ لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج الى الله تعالى بواسطة كَفّ الفقير ، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لاتقبل شهادة بعضهم لبعض . قال : والمكاتب عبد ما بَقِىَ عليه درهم وربما يعجز فيصير الكسب له . ومعتَق البعض عند أبى حنيفة بمنزلة المكاتب . وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد بمنزلة حُرّ عليه دَين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون ـــ فإن أعطاها لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيه ؛ فمنهم من جوّزه ومنهم من كرهه . قال مالك : خوف المحمدة . وحكى مُطَرِّف أنه قال : رأيت مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدىّ قال مالك : أفضل مَن وَضعتَ فيه زكاتك

قرابتُك الذين لا تَعُول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة " . واختلفو فى إعطاء المرأة زكاتها لزوجها، فذُكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز، وخالفه صاحباه فقالا : يجوز . وهو الأصح لما ثبت أن زينب امرأة عبد الله أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى أريد أن أتصدّق على زوجى أيجزينى ؟ فقال عليه السلام : " لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقة المطلقة هى الزكاة ، ولأنه لا نفقة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبي . اعتلّ أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحديث محمول على التطوع . وذهب الشافعيّ وأبو ثَوْر وأشهب إلى إجازة ذلك، اذا لم يصرفه اليها فيما يلزمه لها ، وإنما يصرف ما يأخذه منها فى نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون — واختلفوا أيضا فى قدر المُعْطَى؛ فالغارم يُعْطَى قدر دَيْنه، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما . وفى جواز إعطاء النصاب أو أقلّ منه خلافٌ ينبنى على الخلاف المتقدم فى حدّ الفقر الذى يجوز معه الأخذ . وروى علىّ بن زياد وابن نافع : ليس فى ذلك حدّ، وإنما هو على اجتهاد الوالي . وقد تقلّ المساكين وتكثر الصدقة فيعطى الفقير قوت سنة . وروى المُغيرة : يعطَى دون النصاب ولا يبلغه . وقال بعض المتأخرين : إن كان فى البلد زكاتان نقد وحَرْث أخذ ما يبلغه الى الأخرى . قال ابن العربى : الذى أراه أن يعطى نصابا، وإن كان فى البلد زكاتان أو أكثر؛ فإن الغرض إغناء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هذا مذهب أصحاب الرأى فى إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفة مع الجواز، وأجازه أبو يوسف؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال، فكان الفاضل عن حاجته للحال دون المائتين، واذا أعطاه أكثر من مائتى درهم جملةً كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المائتين فلا يجوز . ومن متأخرى الحنفية من قال : هذا اذا لم يكن له عيال .

ولم يكن عليه دَين ، فإن كان عليه دين فلا بأس أن يعطيه مائتى درهم أو أكثر ، مقدار ما لو قضى به دَينه بقى له دون المائتين . و إن كان مُعِيلا لا بأس بأن يعطيه مقدار ما لو وزّع على عياله أصاب كلّ واحد منهم دون المائتين ؛ لأن التصدّق عليه فى المعنى تصدّق عليه وعلى عياله . وهذا قول حسَن .

الثامنة والعشرون — اعلم أن قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ مطلقٌ ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بنى هاشم أو غيرهم ؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط : منها ألا يكونوا من بنى هاشم ، وألّا يكونوا ممن لا تلزم المتصدّق نفقته . وهذا لا خلاف فيه . وشرط ثالث ألا يكون قويًّا على الاكتساب ؛ لأنه عليه السلام قال : " لا تحل الصدقة لِغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ " . وقد تقدم القول فيه . ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحلّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم . وقد رُوى عن أبى يوسف جوازُ صرف صدقة الهاشمىّ للهاشمىّ ؛ حكاه الكِيا الطبرىّ . وشذ بعض أهل العلم فقال : إن موالى بنى هاشم لا يحرم عليهم شىء من الصدقات . وهذا خلاف الثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبى رافع مولاه : " و إن مَوْلَى القوم منهم " .

التاسعة والعشرون — واختلفوا فى جواز صدقة التطوّع لبنى هاشم ؛ فالذى عليه جمهور أهل العلم — وهو الصحيح — أن صدقة التطوع لا بأس بها لبنى هاشم ومواليهم ؛ لأن عليًّا والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدّقوا وأوقفوا أوقافا على جماعة من بنى هاشم ، وصدقاتُهم الموقوفة معروفة مشهورة . وقال ابن الماجِشون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ولا من التطوع . وقال ابن القاسم : يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع . قال ابن القاسم : والحديث الذى جاء : " لا تحلّ الصدقة لآل محمد " إنما ذلك فى الزكاة لا فى التطوع . واختار هذا القول ابن خُوَيْزِمَنْداد ، وبه قال أبو يوسف ومحمد . قال ابن القاسم : و يُعْطَى مواليهم من الصدقتين . وقال مالك فى الواضحة : لا يعطى لآل محمد من التطوع . قال ابن القاسم : — قيل له يعنى مالكا — فمواليهم ؟ قال : لا أدرى ما الموالى .

فاحتججت عليه بقوله عليه السلام : " مَوْلَى القوم منهم " . فقال قد قال : " ابن أخت القوم منهم " . قال أَصْبَغ : وذلك فى البِرّ والحُرْمة .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ﴾ بالنصب على المصدر عند سيبويه . أى فرض الله الصدقات فريضةً . ويجوز الرفع على القطع فى قول الكسائى؛ أى هن فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها ابراهيم بن أبى عَبْلة ، جعلها خبرا ، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعالى : وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

بين تعالى أن فى المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة فى أذِيّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتبنى حلفتُ له بأنى ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهرى : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد؛ يستوى فيه الواحد والجمع . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى « هو أذن » قال : مستمع وقابل . وهذه الآية نزلت فى عَتّاب بن قُشير، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نَبْتَل بن الحارث؛ قاله ابن اسحاق . وكان نبتل رجلا جسيما ثائرَ شعر الرأس واللحية، آدمَ أحمر العينين أسفعَ الخدّين مشوّه الخِلْقة، وهو الذى قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث " . السُّفعة (بالضم) : سواد مُشْرَب بحمرة . والرجل أسفع؛ عند الجوهرى . وقرئ « أذن » بضم الذال وسكونها . ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ أى هو أذن خير لا أذن شر؛ أى يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قل أذنٌ خيرٌ لكم » بالرفع والتنوين، الحسنُ وعاصم فى رواية أبى بكر . والباقون بالإضافة . وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . والباقون بالرفع عطف على « أذن »، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ،

أي هو مستمع خير لا مستمع شر، أي هو مستمع مايجب استماعه، وهو رحمة. ومن خفض فعلى العطف على « خير » . قال النحاس : وهـذا عند أهل العربيـة بعيد؛ لأنه قد تباعد ما بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض. المهدوي: ومن جر الرحمة فعلى العطف على « خير » والمعنى مستمعُ خير ومستمع رحمة ؛ لأن الرحمة من الخير . ولا يصح عطف الرحمة على المؤمنين ؛ لأن المعنى يصدّق بالله و يصدّق المؤمنين ؛ فاللام زائدة في قول الكوفيين . ومثله « لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ » أي يرهبون ربهم . وقال أبو علي : هو كقوله « رَدِفَ لَكُم »(1) وهي عند المبرّد متعلقة بمصدر دل عليه الفعل، التقدير: إيمانه للمؤمنين؛ أي تصديقه للمؤمنين لا للكفار. أو يكون محمولا على المعنى ؛ فإن معنى يؤمن يصدّق ، فعُدّي باللام كما عُدّي في قوله تعالى : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ـ روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا ، فيهم الجُلَاس بن سُوَيد ووديعة بن ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يُدْعَى عامر بن قيس ، فحقّروه فتكلموا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إنما يقول حق وأنتم شر من الحمير؛ فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقولهم، فحلفوا أن عامرا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكَذَبة ، وحلف على ذلك وقال : اللّهُـمّ لا تفرق بيننا حتى يتبيّن صدقُ الصادق وكَذِب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية وفيها « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ » .

الثانيـة ـ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ابتـداء وخبر . ومذهب سيبويه أن التقدير : والله أحقّ أن يرضوه ورسولُه أحقّ أن يرضوه، ثم حذف، كما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

(1) آية ٧٢ سورة النمل .

وقال محمد بن يزيد : ليس فى الكلام محذوف ، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله ، على التقديم والتأخير . وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله افتتاح كلام ؛ كما تقول : ما شاء الله وشئتَ . قال النحاس : قول سيبويه أولاها ؛ لأنه قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم النهيُ عن أن يقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدّر فى شيء تقديم ولا تأخير ، ومعناه صحيح :

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ؛ ألا ترى أنه قال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »[1] . وكان الربيع بن خُثَيْم إذا مرّ بهذه الآية وقف، ثم يقول : حُرِّفَ وأيّما حرف، فوّض اليه فلا يأمرنا الا بخير .

الثالثة — قال علماؤنا : تضمنت هذه الآية قبولَ يمين الحالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا . واليمين حقّ للمدّعى . وتضمّنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حَسْبُ . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من حلف فليحلف بالله أو لِيَصْمُت ومن حُلف له فليصدّق " . وقد مضى القول فى الأيمان والاستثناء فيها مستوفًى فى المائدة[2] .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ يعنى المنافقين . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن « تعلموا » بالتاء على الخطاب . ﴿ أَنَّهُ ﴾ فى موضع نصب بيعلموا ، والهاء كناية عن الحديث . ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء . والمحادّة : وقوع هذا فى حدّ وذاك فى حدّ ؛ كالمشاقّة . يقال : حادّ فلان فلانا أى صار فى حدّ غير حدّه . ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ يقال : ما بعد الفاء فى الشرط مبتدأ ؛ فكان يجب أن يكون « فإنّ » بكسر الهمزة . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فإن له نار جهنم » بالكسر . قال سيبويه : وهو جيّد وأنشد :

---

(١) آية ٨٠ سورة النساء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

وعلمى بأسدام المياه فلم تزل * قلائص تخدى فى طريق طلائح
وأنى إذا ملت ركابى مناخها * فإنى على حظى من الأمر جامح (١)

إلا أن قراءة العامة «فأن» بفتح الهمزة. فقال الخليل أيضا وسيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى. وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجرمى، قال: إن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام؛ ونظيره « وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ » (٢). وكذا « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا » (٣). وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له. وأنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل إن « أن » المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر. وقال على بن سليمان: المعنى فالواجب أن له نار جهنم؛ فأن الثانية خبر ابتداء محذوف. وقيل: التقدير فله أن له نار جهنم. فأن مرفوعة بالاستقرار على إضمار المجرور بين الفاء وأن.

قوله تعالى: يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر وليس بأمر. ويدل على أنه خبر أن ما بعده « إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » لأنهم كفروا عنادا. وقال السدى: قال بعض المنافقين والله وددت لو أنى قدمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شىء يفضحنا؛ فنزلت الآية. يحذر: أى يتحرز. وقال الزجاج: معناه ليحذر؛ فهو أمر؛ كما يقال: يفعل ذلك.

---

(١) البيتان لابن مقبل. والشاهد فيهما كسر « إن » الثانية. والأسدام: المياه المتغيرة لقلة الوارد، واحدها سدم. وتخدى: تسرع. والطلائح: المعيية لطول السفر. ومعنى « ملت ركابى مناخها »: توالى سفرها وإناختها به وارتحالها. والجامح: الماضى على وجهه. أى لا يكسرنى طول السفر ولكنى أمضى قدما لما أرجوه من ألخلاف أمرى. (عن شرح الشواهد). (٢) آية ٥ سورة النمل. (٣) آية ١٧ سورة الحشر.

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب ، أى من أن تنزّل . ويجوز على قول سيبويه أن تكون فى موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون فى موضع نصب مفعولة ليحذر؛ لأن سيبويه أجاز : حذرت زيدا؛ وأنشد :

حَذِرٌ أمورا لا تَضِـيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَـه من الأقدار

ولم يُجِزْه المُبَرِّد؛ لأن الحذر شيء فى الهيئة . ومعنى ﴿عليهم﴾ أى على المؤمنين ﴿ سورة ﴾ فى شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم؛ ولهذا سُمِّيت الفاضحة والمثيرة والمبعثرة ، كما تقـدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثـة ـــ قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِئُوا ﴾ هذا أمر وعيد وتهديد . ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ﴾ أى مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلا، ثم نَسخ تلك الأسماء من القرآن رأفة منه ورحمة؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعيِّر بعضهم بعضـا . فعلى هـذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : « إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيل : إخراج الله أنه عرّف نبيّه عليـه السلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت فى القرآن، ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ »(١) وهو نوع إلهام . وكان من المنافقين من يتردّد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان فيهم من يعرف صدقه ويعاند .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ هذه الآية نزلت فى غزوة تبوك . قال الطبرى وغيره عن قتادة : بينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وركْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا

(١) آية ٣٠ سورة محمد .

انظروا ، هــذا يفتح قصــور الشام ويأخذ حصون بنى الأصــفر ! فأطلعه الله سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدّثون به ، فقال : " احبسوا علىّ الركب — ثم أتاهم فقال — قلتم كذا وكذا " فحلفــوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ؛ يريدون كنا غير مجدِّين . وذكر الطبرى عن عبدالله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ بن ثابت متعلّقا بحقَب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول : إنمــا كنا نخوض ونلعب . والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » . وذكر النقاش أن هــذا المتعلّق كان عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول . وكذا ذكر القُشيرى عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تَبُوك . قال القشيرى : وقيل إنما قال عليه السلام هــذا لوديعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان فى غزوة تبوك . والخوض : الدخول فى المــاء، ثم استعمل فى كل دخول فيه تلويث وأذًى .

الثانيــــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّا أو هزلا ، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة . فإن التحقيق أخو العلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله « أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

الثالثــــة — واختلف العلمــاء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقا . يلزم مطلقا . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم فى النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعىّ فى الطلاق قولا واحدا . ولا يلزم فى البيع . قال مالك فى كتاب محمــد : يلزم نكاح الهازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية : لا يلزم . وقال علىّ بن زياد : يُفسخ قبلُ وبعدُ . وللشافعىّ فى بيع الهازل قولان . وكذلك يخرّج من قول علمائنا القولان . وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جِدّ الطلاق وهزْله سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع لم يلزم، وإن اختلفا غلب الجد الهزل . وروى أبو داود والترمذىّ والدَّارَقُطْنىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث جِدّهن

جِدّ وهَزْلُهُنّ جِدّ النكاحُ والطلاق والرَّجعة ". قال الترمذي : حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : كذا في الحديث " والرَّجعة ". وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيِّب قال : ثلاث ليس فيهن لَعِب النكاح والطلاق والعتق . وكذا روى عن عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي الدَّرْداء، كلهم قال : ثلاث لا لعب فيهن واللاعب فيهن جادٌّ النكاح والطلاق والعتق . وعن سعيد بن المسيّب عن عمر قال : أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور. وعن الضحاك قال : ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والنذور .

قوله تعالى : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه يقول : لا تفعلوا مالا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الاعتذار من الذنب . واعتذر بمعنى أعذر، أي صار ذا عذر . قال لَبِيد :

* ومَن يَبْكِ حولًا كاملا فقد اعتذر * (١)

والاعتذار : مَحْوُ أثر المَوْجِدة ؛ يقال : اعتذرتِ المنازلُ دَرَست . والاعتذار الدُّروس . قال الشاعر (٢) :

أم كنتَ تعرف آياتٍ فقد جعلتْ * أطلالُ إلفك بالودكاء تعتذرُ

وقال ابن الأعرابي : أصله القطع . واعتذرت إليه قطعت ما في قلبه من المَوْجِدة . ومنه عُذرة الغلام وهو ما يُقطع منه عند الختان . ومنه عُذرة الجارية لأنه يقطع خاتم عُذرتها .

(١) هذا عجز بيت، وصدره : * الى الحول ثم اسم السلام عليكما *

(٢) هو ابن أحمر الباهلي ؛ كما في اللسان مادة « عذر » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ قيل : كانوا ثلاثة نفر، هزئ اثنان وضحك واحد، فالمعفوّ عنه هو الذى ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنبارى : يطلق لفظ الجمع على الواحد، كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفا، والهاء للمبالغة . واختُلف فى اسم هذا الرجل الذى عُفِىَ عنه على أقوال . فقيل: مَخْشِىّ بن حُمَيِّر، قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن مخشى . وقال خليفة ابن خياط فى تاريخه : اسمه مخاشن بن حُمَيِّر . وذكر ابن عبد البر مخاشن الحميرى . وذكر جميعهم أنه استُشهد باليمامة، وكان تاب وسُمّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يُقتل شهيدا ولا يُعلم بقبره . واختلف هل كان منافقا أو مسلما . فقيل : كان منافقا ثم تاب توبة نَصُوحا . وقيل : كان مسلما، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يُنكر عليهم .

قوله تعالى : ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ ابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا، ويكون الخبر « من بعض » . ومعنى ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى هم كالشىء الواحد فى الخروج عن الدِّين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : « يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » أى ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف. وقَبْضُ أيديهم عبارة عن [ترك] الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا، أى تركوا ما أمرهم الله به فتركهم فى الشك . وقيل : إنهم تركوا أمره حتى صار كالمَنْسِىّ فصيرهم بمنزلة المنسىّ من ثوابه . وقال قتادة : « نَسِيَهُم » أى من الخير، فأما من الشر فلم يَنْسَهم . والفسق : الخروج عن الطاعة والدِّين . وقد تقدم .(١)

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقال : وعد الله بالخير وَعْداً . ووعد بالشر وعيدا . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال والعامل محذوف ، أي يصلَوْنها خالدين . ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، أي هي كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم . واللّعن : البعد ، أي من رحمة الله ، وقد تقدّم (١) . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي واصب دائم .

قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أي وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وَعدَ الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، فحذف المضاف . وقيل : أي أنتم كالذين من قبلكم ، فالكاف في محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . ولم ينصرف « أشدّ » لأنه أفعل صفة . والأصل فيه أَشْدَد ، أي كانوا أشد منكم قوة فلم يتهيأ لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل .

الثانية — روى سعيد عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر و باعًا بباع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

جُحر ضَبٍّ لدخلتموه " . قال أبو هريرة : وإن شئتم فاقرءوا القرآن : « كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوّةً وأكثرَ أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم — قال أبو هريرة : والخَلاق الدِّين — فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » حتى فرغ من الآية . قالوا : يا نبيّ الله ، فما صنعت اليهود والنصارى؟ قال : " وما الناس إلّا هم " . وفي الصحيح عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لتتّبِعُنّ سَنَن مَن قبلكم شبرا بشبرٍ وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه " قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلةَ بالبارحة ، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ أي انتفعوا بنصيبهم من الدِّين كما فعل الذين من قبلهم . ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أي كخوضهم . فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف؛ أي وخضتم خوضا كالذين خاضوا . و « الذى » اسم ناقص مثل مَن، يعبّر به عن الواحد والجمع . وقد مضى في « البقرة »[1] . ويقال : خُضْتُ الماء أخوضه خَوْضا وخِياضا . والموضع مَخاضَة؛ وهو ما جاز الناسُ فيها مُشاةً ورُكبانا . وجمعها المَخاض والمَخاوِض أيضا؛ عن أبي زيد . وأخضت دابّتي في الماء . وأخاض القوم، أي خاضت خيلهم . وخضت الغَمرات : اقتحمتها . ويقال : خاضه بالسيف، أي حرّك سيفه في المضروب . وخوّض في نَجيعه[2] شدّد للمبالغة . والمِخْوَض للشراب كالمِجْدَح[3] للسَّويق؛ يقال منه : خضت الشراب . وخاض القوم في الحديث وتخاوضوا أي تفاوضوا فيه؛ فالمعنى : خضتم في أسباب الدنيا باللّهو واللعب . وقيل : في أمر محمد بالتكذيب . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت . وقد تقدّم[4] . ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقد تقدّم[5] أيضا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) النجيع : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .
(٣) المجدح : خشبة في رأسها خشبتان معترضتان .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانيـة .
(٥) راجع جـ ١ ص ٢٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴾ أي خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . والألف لمعنى التقرير والتحذير؛ أي ألم يسمعوا إهلاكنا الكفار من قبل . ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الذين . ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي نمرود بن كنعان وقومه . ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ اسم للبلد الذي كان فيه شعيب ، أهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قيل : يراد به قوم لوط؛ لأن أرضهم ائتفكت بهم ، أي انقلبت؛ قاله قتادة . وقيل : المؤتفكات كل من أهلك ؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني جميع الأنبياء . وقيل : أتت أصحاب المؤتفكات رسلُهم؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده؛ ولكنه بعث في كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قريات ، وقيل أربع . وقوله تعالى في موضع آخر : «والمؤتفكة»(١) على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسل الواحد؛ كقوله «يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ»(٢) ولم يكن في عصره غيره .

قلت — وهذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين" الحديث . وقد تقدّم في «البقرة» . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم .

قوله تعالى : وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

(١) في آية ٥٣ سورة النجم . (٢) آية ٥١ سورة المؤمنون .

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى قلوبهم متحدة فى التوادّ والتحابّ والتعاطف . وقال فى المنافقين «بعضهم من بعض» لأن قلوبهم مختلفــة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبرى عن أبى العاليــة أنه قال : كل ما ذُكر فى القرآن من الأمر بالمعــروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المــائدة (١) وآل عمران (٢)، والحمد لله .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تقدم فى أوّل « البقرة » (٣) القول فيه . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس، وبحسب هــذا تكون الزكاة هنا المفروضــة . ابن عطيّة : والمدحُ عندى بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أحْرى بإقامة الفرائض .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما سنّ لهم . والسين فى قوله « سيرحمهم الله » مُدْخِلةٌ فى الوعد مُهْلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه؛ وفضلُه تعالى زعيم بالإنجاز .

قوله تعــالى : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٤٢ وما بعــدها . (٢) راجــع جـ ٤ ص ٤٧ طبعــة أولى أو ثانيــة .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تقدّم فى « البقرة » أنها تجرى منضبطة بالقدرة فى غير أخدود[1] . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والدّر والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أى فى دار إقامة . يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ؛ ومنه المَعْدِن . وقال عطاء الخُراسانيّ : « جنات عدن » هى قصبة الجنة ، وسقفها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بُطنان الجنة ، أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عَدْل ؛ ونحوه عن الضحاك . وقال مُقاتل والكلبيّ : عدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بها ، وهى مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أى أكبر من ذلك . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفارَ . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدّة الزجر والتغليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فان لم تستطع فاكفهرّ[2] فى وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان — واختاره قتادة — وكانوا أكثر من يصيب الحدود . ابن العربيّ : « أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) اكفهر الرجل : اذا عبس .

وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامنًا، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك في اللسان؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثرِّب عليها"(1) . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »(2) . ومنه قول النسوة لعمر : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم(3) . ومعنى الغلظ خشونة الجانب . فهي ضد قوله تعالى : « وَٱخْفِضْ جناحك لِمَنِ ٱتّبعك مِن المؤمنين »(4) . « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »(5) . وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوٓا إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

---

(1) أي لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع في عقوبتها بالتثريب، بل يضربها الحد؛ فإن زنى الاماء لم يكن عند العرب مكروها ولا منكرا، فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرائر . (نهاية ابن الأثير) .

(2) آية ١٥٩ سورة آل عمران .

(3) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في «باب مناقب عمر رضي الله عنه» قالا : «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته؛ فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب" فقال عمر : أنت أحق أن يهبن يا رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلن : نعم ! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيهاً يابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك" .

(4) آية ٢١٥ سورة الشعراء .

(5) آية ٢٤ سورة الاسراء .

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ رُوى أن هذه الآية نزلت فى الجُلَاس ابن سُوَيد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت ؛ وقعوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير . فقال له عامر ابن قيس : أجل ! والله إن محمدا لصادق مصدَّق ؛ وإنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم . وجاء الجُلَاس فحلف بالله عند منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم إن عامرا لكاذب . وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللّهُمَّ أنزل على نبيّك الصادق شيئا ، فنزلت . وقيل : إن الذى سمعه عاصم بن عَدِىّ . وقيل حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمير بن سعد ؛ فيما قال ابن إسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره ؛ ففيه نزل : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لما قال له صاحبه إنى سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال : ذلك هى الإشارة بقوله : « وهَمُّوا بما لم ينالوا » . وقيل : إنها نزلت فى عبد الله بن أُبَىّ ، رأى رجلا من غفار يتقاتل مع رجل من جهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا الغِفارىُّ الجُهَنِىّ . فقال ابن أبىّ : يا بنى الأَوْس والخزرج ، انصروا أخاكم ! فوالله ما مَثَلُنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل : « سَمِّن كَلْبَك يأكلك » ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذَلّ . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أُبَىّ فحلف أنه لم يقله ؛ قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ؛ قاله الحسن . ابن العربىّ : وهو الصحيح ؛ لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبىّ .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجُلَاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمير . وقول عبد الله بن أبىّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . قال القشيرى : كلمة الكفر سبُّ النبىّ صلى الله عليه وسلم والطعنُ فى الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أى بعد الحكم بإسلامهم . فدلّ هذا على أن المنافقين كفار . وفى قوله تعالى : « ذَلِكَ بأنهم آمنوا ثم كفروا »(١) دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضا على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة ؛ وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعال إلا فى الصلاة . قال إسحاق بن راهويه : ولقد أجمعوا فى الصلاة على شىء لم يجمعوا عليه فى سائر الشرائع ؛ لأنهم بأجمعهم قالوا : من عُرف بالكفر ثم رأوه يصلى الصلاة فى وقتها حتى صلى صلوات كثيرة؛ ولم يعلموا منه إقرارا باللسان أنه يحكم له بالإيمان، ولم يحكموا له فى الصوم والزكاة بمثل ذلك .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ يعنى المنافقين من قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فى غزوة تبوك ، وكانوا اثنى عشر رجلا . قال حذيفة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدهم كلّهم . فقلت : ألا تبعثُ إليهم فنقتلَهم ؟ فقال : " أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيهم الله بالدُّبيلة " . قيل : يا رسول الله وما الدُّبيلة ؟ قال : " شهاب من جهنم يجعله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه " . فكان كذلك . خرّجه مسلم بمعناه . وقيل همّوا بعقد التاج على رأس ابن أبيّ ليجمعوا عليه . وقد تقدّم قول مجاهد فى هذا .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى ليس ينقمون شيئا ؛ كما قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم * بهنّ فُلول من قِراع الكتائب

ويقال نَقَم ينقِم، ونَقِم ينقَم؛ قال الشاعر :

ما نقموا من بنى أمية إلا * أنهم يحلُمون إن غضبوا

وقال زهير :

يؤخّر فيوضع فى كتاب فيُدّخر * ليوم الحساب أو يُعجّل فينقم

(١) آية ٣ سورة المنافقون .

ينشد بكسر القاف وفتحها. قال الشعبيّ: كانوا يطلبون دِيَةً فيقضي لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا. ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفا. و يقال: إن القتيل كان مَوْلَى الجُلَاس. وقال الكلبيّ: كانوا قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة؛ فلما قدم عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم آستغنَوْا بالغنائم. وهذا المثل مشهور (آتق شرّ من أحسنت اليه). قال القشيريّ أبو نصر: قيل للبَجَلِيّ أتجد في كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه؟ قال نعم، «وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله».

الخامســة — قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ روى أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب. فدل هذا على توبة الكافر الذى يسر الكفر و يظهر الإيمان؛ وهو الذى يسميه الفقهاء الزنديق. وقد اختلف في ذلك العلماء؛ فقال الشافعيّ: تقبل توبته. وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف؛ لأنه كان يُظهر الإيمان و يسرّ الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. وكذلك يفعل الآن في كل حين، يقول: أنا مؤمن وهو يضمر خلاف ما يظهر؛ فاذا عثر عليه وقال: تبت، لم يتغيّر حاله عما كان عليه. فإذا جاءنا تائبا من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قُبلت توبته؛ وهو المراد بالآية. والله أعلم.

السادســة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أي يُعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى مانع يمنعهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى معين. وقد تقدّم [1].

قوله تعالى: وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

(١) راجع ج ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة.

فيــه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار قال : لئن رزقنى الله شيئا لأؤدين فيه حقه ولأتصدقن؛ فلمــا آتاه الله ذلك فعــل ما نُصّ عليكم ، فاحذروا الكذب فانه يؤدى الى الفجور . وروى علىّ بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة الباهلىّ أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى (فسماه) قال للنبىّ صلى الله عليــه وسلم : أُدْعُ الله أن يرزقنى مالاً . فقال عليه الســلام : "وَيْحَكَ يا ثعلبــة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقــه " . ثم عاد ثانيــا فقال النبىّ صلى الله عليه وســلم : " أمَا ترضى أن تكون مثل نبىّ الله لو شئتُ أن تسير معى الجبال ذهبا لسارت " . فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقنى مالا لأعطينّ كلّ ذى حق حقَّه . فدعا له النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصــلى الظهر والعصر فى جمــاعة ، وترك ما ســواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تنمى حتى ترك الجمعة أيضا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا وَيْحَ ثعلبة" ثلاثا . ثم نزل «خُذْ مِن أموالِهم صَدَقَةً» . فبعث صلى الله عليه وســلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : "مُرَّا بثعلبة وبفلان ــ رجل من بنى سُلَيم ــ فخذا صدقاتهما " . فأتيــا ثعلبة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وســلم ، فقال : ما هــذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيــل : سبب غناء ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيــل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه «ومنهم من عاهد الله» الآية ؛ إذ منــع الزكاة ، فالله أعلم . وما جاء فيمن شاهــد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قلوبِهِم » الآية .

قلت : وذُكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبى بَلْتَعة أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سَلِم ذلك لأتصدقن منه ولأصلن منه . فلما سَلِم بَخِل بذلك فنزلت .

قلت : وثعلبة بدرى أنصارى وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان؛ حسب ما يأتى بيانه فى أول الممتحنة؛ فما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر: ولعل قول من قال فى ثعلبة أنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير .[1]

قلت : وهذا أشبه بنزول الآية فيهم؛ إلا أن قوله «فأعقبهم نفاقا» يدل على أن الذى عاهد لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات ، وهو قوله : « إلى يوم يلقونه » على ما يأتى .

الثانية — قال علماؤنا : لما قال تعالى « ومنهم من عاهد الله » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة؛ فإن الأعمال بخواتيمها والأيام بعواقبها . و « من » رفع بالابتداء والخبر فى المجرور . ولفظ اليمين ورد فى الحديث وليس فى ظاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتباط والالتزام ، أما إنه فى صيغة القسم فى المعنى فإن اللام تدل عليه ، وقد أتى بلامين الأولى للقسم والثانية لام الجواب ، وكلاهما للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثة — العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به؛ قاله علماؤنا . وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به؛ وهو القول الآخر لعلمائنا . ابن العربى : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه؛ كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه . قال ابن العربى : وهذا أصل بديع ، وتحريره أن يقال : عقدٌ لا يفتقر فيه المرء إلى غيره فى التزامه فانعقد عليه بنية . أصله الإيمان والكفر .

---

(١) يلاحظ أن الذى سيذكره المؤلف فى أول سورة الممتحنة إنما هو حاطب بن أبى بلتعة ، لا ثعلبة بن حاطب .

قلت : وحجة القول الثانى ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به" . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشىء . هذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ؛ كما يكفر بقلبه و إن لم ينطق به لسانه . والأول أصح فى النظر وطريق الأثر، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجاوز الله لأمتى عما وسوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله يد " .

الرابعة — إن كان نذرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . و إن كانت يمينا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بَيْدَ أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة ؛ فسأل الله مالا تلزمه فيه الزكاة و يؤدى ما تعين عليه من فرضه، فلما آتاه الله ما شاء من ذلك ترك ما التزم مما كان يلزمه فى أصل الدين لو لم يلتزمه، لكن التعاطى بطلب المال لأداء الحقوق هو الذى أورطه إذ كان طلبه من الله تعالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدرى ما كُتب له فى غيب الله عز وجل من أمنيته " . أى من عاقبتها، فرُبَّ أمنية يفتتن بها أو يطغى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطرة غائلتها. وأما تمنى أمور الدين والأخرى فتمنيها محمود العاقبة محضوض عليها مندوب اليها .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ دليل على أن من قال: إن ملكتُ كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ و به قال أبو حنيفة . وقال الشافعى : لا يلزمه . والخلاف فى الطلاق مثله ، وكذلك فى العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك فى العتق ولا يلزمه فى الطلاق ؛ لأن العتق قُرْبة وهى تثبت فى الذمة بالنذر؛ بخلاف الطلاق فانه

تصرّف فى محل، وهو لا يثبت فى الذّمة . احتجّ الشافعىّ بما رواه أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك" لفظ الترمذىّ . وقال : وفى الباب عن علىّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديثُ عبد الله بن عمرو حديثٌ حسن، وهو أحسن شىء رُوى فى هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم . ابن العربىّ : وسرد أصحاب الشافعىّ فى هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصحّ منها شىء فلا يعوّل عليها، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى أعطاهم . ﴿ بَخِلُوا بِهِ ﴾ أى بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال فى الخير، وبالوفاء بما ضَمِنوا والتزموا . وقد مضى البخل فى « آل عمران »(1) . ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن طاعة الله . ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الإسلام، أى مظهرون للإعراض عنه .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ مفعولان ؛ أى أعقبهم الله تعالى نفاقا فى قلوبهم . وقيل : أى أعقبهم البخل نفاقا؛ ولهذا قال : « بخلوا به » . ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ فى موضع خفض؛ أى يلقون بخلهم، أى جزاء بخلهم؛ كما يقال: أنت تلقى غدًا عملك. وقيل: « إلى يوم يلقونه » أى يلقون الله . وفى هذا دليل على أنه مات منافقا . وهو يبعد أن يكون المنزّل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعمر : "وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" . وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها . ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنة — قوله تعالى: ﴿ نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان فى القلب فهو الكفر. فأما إذا كان فى الأعمال فهو معصية. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا ٱئْتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر" . خرجه البخارى . وقد مضى فى «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة[1] ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس فى تأويل هـذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدّث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لا يعتقد الوفاء به ، وينتظر الأمانة للخيانة فيها . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما خارجَيْن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال علىّ : مالى أراكما ثقيلين؟ قالا : حديثا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين "إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا ٱئتمن خان وإذا وعد أخلف". فقال علىّ : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكنى سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ماقالاه ، فقال : "قد حدثتهما ولم أضعه على الوضع الذى وضعاه ولكن المنافق إذا حدّث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدّث نفسه أنه يُخلف وإذا ٱئتمن وهو يحدّث نفسه أنه يخون" . ٱبن العربى : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلّقوا بما رواه مقاتل بن حيّان عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه فقلنا : يارسول الله ، إنك قلت "ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ٱئتمن خان ومن كانت فيه خَصْلة منهن ففيه ثلث النفاق" فظننا أنا لم نَسلم منهن أو من بعضهن ولم يَسلم منهن كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "مالكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله فى كتابه أما قولى إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل «إذا جاءك المنافقون» ـ الآية ـ أفأنتم

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٨ ، ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

كذلك" ؟ قلنا لا . قال: "لا عليكم أنتم من ذلك براء وأما قولى إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله على « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله » — الآيات الثلاث — "أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا ، والله لو عاهدنا الله على شيء أوفينا به . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برآء وأما قولى و إذا ائتمن خان فذلك فيما أنزل الله على « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانة على السموات والأرض والجبال » — الآية — فكل إنسان مؤتمن على دينه فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية] أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برآء " . و إلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخارى وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربى : والذى عندى أنه لو غلبت عليه المعاصى ما كان بها كافرا مالم تؤثر فى الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخلفوه ، وحدثوه فكذبوه ، وائتمنهم على يوسف فخانوه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبى رباح : قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . وروى البخارى عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، وإن كان عالما فإنه سيجازيهم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا أيضا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يلمزون » يعيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدّق بنصف ماله ، وكان ماله ثمانية آلاف فتصدّق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ؛ فأنزل الله « الذين يَلْمِزُون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات » . وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبرة (١) من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ . وخرج مسلم عن أبي مسعود قال : أُمِرنا بالصدقة — قال : كنا نحامل (٢) ، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدّق أبو عَقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغنيّ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ؛ فنزلت « الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحَبْحاب . والجُهْد : شيء قليل يعيش به المُقِلّ . والجُهْد والجَهْد بمعنًى واحد . وقد تقدم (٣) . و « يلمزون » يعيبون . وقد تقدم . و « المطوعين » أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرّعا من غير أن يجب عليهم . « والذين » في موضع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و « فيسخرون » عطف على « يلمزون » . ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي سَخِر منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخريتهم . وقد تقدم في « البقرة » (٤) .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾

(١) الصبرة (بالضم) : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض . (٢) معناه : نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة أو نتصدق بها كلها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٣ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يأتى بيانه عند قوله تعالى : « ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا »[1] .

قوله تعالى : فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أى بقعودهم . قعد قعودا ومقعدا؛ أى جلس. وأقعده غيره؛ عن الجوهرى . والمخلّف المتروك؛ أى خلّفهم الله وثبّطهم، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لمّا علموا تثاقلهم عن الجهاد؛ قولان . وكان هذا فى غزوة تبوك . ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﴾ مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا . والخلاف المخالفة . ومن قرأ « خَلْفَ رسولِ الله » أراد التأخر عن الجهاد . ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ ﴾ أى قال بعضهم لبعض ذلك . ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أى قل لهم يا محمد نار جهنم . ﴿ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان؛ أى من ترك أمر الله تعرض لتلك النار .

قوله تعالى : فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ أمرٌ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » فى جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر . إنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا . ﴿ جَزَاءً ﴾ مفعول من أجله؛ أى للجزاء .

(١) آية ٨٤ من هذه السورة .

الثانيــة ــ من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفسه وفساد حاله فى اعتقاده من شدّة الخوف، وإن كان عبدا صالحا . قال صلى الله عليه وسلم : "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُّعُدات (١) تجأرون الى الله تعالى لوددت (٢) أنى كنت شجرة تُعْضَد" خرجه الترمذى . وكان الحسن البصرىّ رضى الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتجّ على الحسن ويقول : الله أضحك وأبكى . وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهىّ عنه، وهو من فعل السفهاء والبَطَالة . وفى الخبر : "أن كثرته تميت القلب" . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فمحمود ؛ قال عليه السلام : "ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سُفُنًا أجريت فيها لجرت" . خرّجه ابن المبارك من حديث أنس، وابن ماجه أيضا .

قوله تعالى : فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ (٨٣)

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أى المنافقين . وإنما قال : « إلى طائفة » لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا . وسيأتى . ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ أى عاقبهم بألا تصحبهم أبدا . وهو كما قال فى سورة الفتح : « قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا (٣) » . و﴿ الْخَالِفِينَ ﴾ جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصعدات : هى الطرق ، وهى جمع صعد . وصعد جمع صعيد ؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كظلمة ، وهى فناء باب الدار وممر الناس بين يديه . (٢) قال الترمذى : ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال لوددت أنى كنت شجرة تعضد . (٣) آية ١٥

« الخالفين » من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال، فغلّب المذكر . وقيل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين؛ من قولهم فلان خالفةُ أهل بيته اذا كان فاسدا فيهم؛ من خُلوف فم الصائم . ومن قولك : خلف اللبنُ؛ أى فسد بطول المكث فى السِّقاء؛ فعلى هذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهذا يدلّ على أن استصحاب المخذِّل فى الغزوات لا يجوز .

قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبَيّ بن سَلُول وصلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك . ورُوى عن أنس بن مالك ان النبيّ صلى الله عليه وسلم لما تقدّم ليصلّى عليه جاءه جبريل فجَبَذ ثوبه وتلا عليه « ولَا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً » الآية ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلّ عليه . والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففى البخارى عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تُصلّ على أحد منهم مات أبدا » . ونحوه عن ابن عمر ؛ خرّجه مسلم . قال ابن عمر : لما تُوُفّى عبد الله بن أبَيّ بن سَلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلّى عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى عليه، فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلّى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما خيّرنى الله تعالى فقال : « استغفر لهم أوْ لَا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة » وسأزيد على سبعين " قال : إنه

منافق. فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تَقُمْ على قَبْرِه» فترك الصلاة عليهم. وقال بعض العلماء: إنما صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أُبَيّ بناء على الظاهر من لفظ إسلامه. ثم لم يكن يفعل ذلك لمّا نُهى عنــه.

الثانيــة ــ إن قال قائل فكيف قال عمر: أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه؛ ولم يكن تقدّم نهى عن الصلاة عليهم. قيل له: يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره، ويكون من قبيل الإلهام والتحدّث الذى شهد له به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد كان القرآن ينزل على مراده، كما قال: وافقتُ رَبِّى فى ثلاث. وجاء: فى أربع. وقد تقدم فى البقرة[1]. فيكون هــذا من ذلك. ويحتمل أن يكون فَهِم ذلك من قوله تعالى: «استغفر لهم أَوْ لَا تستغفر لهم» الآية. لا أنه كان تقدّم نهى على ما دلّ عليه حديث البخاريّ ومسلم. والله أعلم.

قلت: ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ»[2] لأنها نزلت بمكة. وسيأتى القول فيها.

الثالثــة ــ قوله تعــالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية. بين تعالى أنه وإن آسـتغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الآسـتغفار. قال القُشَـيرىّ: ولم يثبت ما يروى أنه قال: "لأزيدنّ على السبعين".

قلت: وهــذا خلاف ما ثبت فى حديث ابن عمر "وسأزيد على سبعين" وفى حديث ابن عباس "لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها". قال: فصــلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه البخارى.

الرابعــة ــ واختلف العلماء فى تأويل قوله: ﴿ استغفر لهم ﴾ هل هو إياس أو تخيير؛ فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». وذِكْرُ السبعين وفاقٌ جرى، أو هو عادتهم فى العبارة عن الكثرة والإعيــاء. فإذا قال قائلهم: لا أكلمه

(١) راجع ج ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية. (٢) آية ١١٣ من هذه السورة.

سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكلمه أبدا . ومثله فى الإعياء قوله تعالى : «فى سلسلة ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا»[1] ، وقوله عليه السلام : " من صام يوما فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا " . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وقتادة وعُروة — إن شئت استغفر لهم و إن شئت لا تستغفر . ولهذا لما أراد أن يصلى على ابن أُبَىّ قال عمر : لا تصلّ على عدو الله ، القائل يوم كذا كذا وكذا . فقال : " إنى خُيِّرت فاخترت " . قالوا : ثم نسخ هذا لما نزل « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم »[2] . « ذلك بأنهم كفروا » أى لا يغفر الله لهم بكفرهم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وهـذه الآية نزلت بمكة عند موت أبى طالب ، على ما يأتى بيانه . وهذا نفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدم على هذه الآية التى فهم منها التخيير بقوله : " إنما خيّرنى الله " وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجوّ الإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفى هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربّه فى أن يأذن له فيـه لأمّه فلم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للمنافقين الذى خُيّر فيه فهو استغفار لسانىّ لا ينفع ، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفَر له . والله أعلم .

السادسة — واختلف فى إعطاء النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه يوم بدر . وذلك أن العباس لما أُسر يوم بدر — على ما تقدم — وسُلب ثوبه رآه النبىّ صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليه ، فطلب له قميصا فما وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما فى طول القامة ؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه فى الدنيا ، حتى لا يلقاه فى الآخرة وله عليه يد يكافئه بها . وقيل : إنما أعطاه القميص إكراما لابنه وإسعافا له فى طلبته وتطييبا لقلبه . والأوّل أصح ؛ خرّجه البخارىّ عن جابر

---

(١) آية ٣٢ سورة الحاقة .	(٢) آية ٦ سورة المنافقون .

ابن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أُتى بأُسارى وأُتِى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب[1] النبىّ صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أُبَىّ يَقْدِر عليه ، فكساه النبىّ صلى الله عليه وسلم إياه ؛ فلذلك نزع النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه . وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا و إنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومى " . كذا فى بعض الروايات "من قومى" يريد من منافقى العرب . والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " . ووقع فى مغازى ابن إسحاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السابعة ــ لما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماؤنا : هذا نص فى الامتناع من الصلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . و يكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »[2] يعنى الكفار ؛ فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون ؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهى الأحاديث الواردة فى الباب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلّوا عليه" قال : فقمنا فصففنا صفين ؛ يعنى النجاشى . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشىّ فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين ، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين ؛ وراثةً عن نبيهم صلى الله عليه وسلم قولا وعملا . والحمد لله . واتفق العلماء على ذلك إلا فى الشهيد كما تقدّم ، و إلا فى أهل البدع والبغاة .

---

(١) فى نسخ الأصل : « فنظر » (٢) آية ١٥ سورة المطففين

الثامنــة — والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثا فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر خمسا ؛ و روى عن ابن مسعود وزيد بن أرقم . وعن علي : ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمعول عليه أربع . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أُبَيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبّرت عليه أربعا وقالوا هذه سنتكم يا بني آدم " .

التاســعة — ولا قراءة في هذه الصلاة في المشهور من مذهب مالك ، وكذلك أبو حنيفة والثوري ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داود من حديث أبي هريرة . وذهب الشافعي وأحمد و إسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " حملا على عمومه . و بما خرجه البخاري عن ابن عباس وصلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : لتعلموا أنها سنة . وخرج النسائي من حديث أبي أمامة قال : السنة في الصلاة على الجنائز أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافتة ، ثم يكبر ثلاثا ، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد ابن نصر المَرْوَزِيّ عن أبي أمامة أيضا قال : السنة في الصلاة على الجنائز أن تكبر ، ثم تقرأ بأم القرآن ، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص الدعاء للميت . ولا يقرأ إلا في التكبيرة الأولى ثم يسلم . قال شيخنا أبو العباس : وهذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والعمل على حديث أبي أمامة أولى ؛ إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام : "لا صلاة" وبين إخلاص الدعاء للميت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العــاشرة — وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ؛ لما رواه أبو داود عن أنس وصلّى على جنازة فقال له العلاء بن زياد : يا أبا حمزة ، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على الجنائز كصلاتك ، يُكبر أربعا و يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؟ قال نعم . ورواه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : صلّيت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على أم كعب ماتت وهي نُفَساء ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسطها .

الحادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت، على ما بيناه (فى التذكرة) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

كرره تأكيدا . وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

انتدب[(١)] المؤمنون إلى الإجابة وتعلّل المنافقون. فالأمر للؤمنين باستدامة الإيمان وللنافقين بابتداء الإيمان. و﴿ أَنْ ﴾ فى موضع نصب؛ أى بأن آمنوا. و﴿ الطَّوْل ﴾ الغنى؛ وقد تقدّم[(٢)]. وخصهم بالذكر لأن من لا طَوْل له لا يحتاج إلى إذن لأنه معذور . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ « الخوالف » جمع خالفة؛ أى مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف أيضا إذا كان غير نجيب؛ على ما تقدّم . يقال : فلان خالفةُ أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

(١) انتدب : أسرع . (٢) راجع ج ٥ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

وأصله من خَلَف اللبنُ يخلف إذا حَمُض من طول مكثه . وخَلَف فمُ الصائم إذا تغيّر ريحه ؛ ومنه فلان خَلَف سَوء ؛ إلا أن فواعل جمع فاعلة . ولا يجمع « فاعل » صفة على فواعل إلا في الشعر، الا في حرفين ، وهما فارس وهالك. وقوله تعالى في وصف المجاهدين : ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ قيل : النساء الحسان ؛ عن الحسن . دليله قوله عز وجل : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ »[1] . ويقال : هي خَيْرة النساء . والأصل خيّرة نخفّف ؛ مثل هَيّنة وهَيْنة . وقيل جمع خير. فالمعنى لهم منافع الدارين . وقد تقدّم معنى الفلاح[2] . والجنات : البساتين . وقد تقدّم أيضا[3] .

قوله تعالى : وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قرأ الأعرج والضحاك « المُعْذِرون » مخففا . ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم ، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال الجوهري : وكان ابن عباس يقرأ « وجاء المُعْذِرُون » مخففة ، من أعذر . ويقول : والله لهكذا أُنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكَلْبِيّ ، وهي من أعذر ؛ ومنه قد أعذر من أنذر ؛ أي قد بالغ في العذر من تقدّم إليك فأنذرك . وأما « المعذّرون » بالتشديد ففيه قولان : أحدهما أنه يكون المحقّ ؛ فهو في المعنى المعتذر ، لأن له عذرا . فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ولكن التاء قلبت ذالا فأدغمت فيها وجعلت حركتها على العين ؛ كما قرئ « يَخِصِّمُونَ »[4] بفتح الخاء . ويجوز « المعِذّرون » بكسر العين لاجتماع الساكنين . ويجوز ضمها اتباعا للميم . ذكره الجوهري والنحاس . إلا أن النحاس حكاه عن الأخفش والفراء وأبي حاتم وأبي عبيد . ويجوز أن يكون الأصل المعتذرون ، ثم أدغمت التاء في الذال ؛ ويكونون الذين لهم عذر . قال لَبِيد :

إلى الحَوْل ثم اسم السلام عليكما ٭ ومن يَبْك حَوْلاً كاملا فقد اعتذر

---

(١) آية ٧٠ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ١ ص ١٨٢ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع حـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٩ سورة يس .

والقول الآخر أن المعذِّر قد يكون غير محق، وهو الذى يعتذر ولا عذر له . قال الجوهرى : فهو المعذِّر على جهة المُفَعِّل؛ لأنه المُمَرِّض والمقصّر يعتذر بغير عذر . قال غيره : يقال عذّر فلان فى أمر كذا تعذيرا؛ أى قصّر ولم يبالغ فيه . والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب . قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذِّرين . كأن الأمر عنده أن المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر، اعتلالا من غير حقيقة له فى العذر . النحاس : قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الادغام فيقع اللبس . ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال : لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا . قال النحاس : وأصل المعذرة والاعذار والتعذير من شىء واحد وهو مما يصعب ويتعذر . وقول العرب : مَن عَذِيرى من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحقّ أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ [فمن يَعذِرُنى] إن عاقبته . فعلى قراءة التخفيف قال ابن عباس : هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : هم رهط عامر بن الطُّفَيل قالوا : يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طيّئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وعلى قراءة التشديد فى القول الثانى، هم قوم من غِفَار اعتذروا فلم يعذرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم . وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين اخبر الله تعالى عنهم فقال : ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والمراد بكذبهم قولهم : إنا مؤمنون . و ﴿لِيُؤْذَنَ﴾ نصب بلام كَىْ .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

فيــه ست مســائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل فى سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنــه ، فتارة إلى بدل هــو فعل ، وتارة إلى بدل هو عزم؛ ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المــال؛ ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »(١) وقوله : «لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ »(٢) . وروى أبو داود عن أنس أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه". قالوا : يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: "حبسهم العذر". فبيّنت هــذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعــذورين، وهم قــوم عرف عذرهم كأرباب الزَّمانة والهرم والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون؛ فقال : ليس على هؤلاء حرج .﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيهــا اللواء فقطعها، فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصــدره وقرأ «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»(٣) . هذه عزائم القوم.والحق يقول : «لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ » وهو فى الأوّل . «وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمرو بن الجَمُوح من نقباء الأنصار أعرج وهو فى أوّل الجيش . قال له الرسول عليه السلام : " إن الله قــد عذرك " فقال : والله لأحفرنّ(٤) بعرجتى هــذه فى الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدّم فى هــذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى(٥) بين الرجلين حتى يقام فى الصف .

---

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

(٤) يقال : حفر الطريق اذا أثر فيها بمشيه عليها . (٥) أى يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

الثانيــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا ﴾ النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النَّصُوح . قال نَفْطَوَيْه : نصح الشيء إذا خَلَص . ونصح له القول أى أخلصه له . وفى صحيح مسلم عن تميم الـدّارىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثا . قلنـا لمن ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" . قال العلمـاء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوحدانية، ووصفُه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى محابّه والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ، ومحبته ومحبة آل بيته ، وتعظيمُه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلّق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم. وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيـه ، والذب عنـه وتعليمه و إكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المسـلمين : ترك الخروج عليهم، و إرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيـام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، و إرشادهم وحب الصالحين منهـم ، والدعاء لجميعهم و إرادة الخير لكافتهم . وفى الحـديث الصحيح " مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهـم وتعاطفهم مثـل الجسد إذا اشتكى منـه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى " .

الثالثــة ـــ قوله تعـالى:﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ « من سبيل » فى موضع رفع اسم « ما » أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن. ولهذا قال علماؤنا فى الذى يقتص من قاطع يده فيفضى ذلك فى السراية إلى إتلاف نفسه : إنه لا دية له؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : تلزمه الدّية . وكذلك إذا صال فحل على رجل فقتله فى دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه؛ وبه قال الشافعىّ. وقال أبو حنيفـة : تلزمه لمالكه القيمة . قال ابن العـربىّ : وكذلك القـول فى مسائل الشريعة كلها .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ رُوى أن الآية نزلت فى عِرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مُقَرِّن — وعلى هـذا جمهور المفسرين — وكانوا سـبعة إخوة ، كلّهم صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الصحابة سـبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومَعْقِل وعَقِيـل وسُويد وسنان وسابع لم يُسمّ[1] . بنو مقرّن المُزَنيّون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم — فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة — فى هـذه المكرمة غيرهم . وقد قيل إنهم شهدوا الخندق كلُّهم . وقيل : نزلت فى سبعة نفر من بطون شتّى ، وهم البكّاءون أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ؛ فتولّوا وأعينهم تَفِيض من الدّمع حَزَنًا ألا يجـدوا ما ينفقون ؛ فسُمّوا البكائين . وهم سالم بن عمير من بنى عَمرو بن عوف وعُلْبة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار . وعمرو بن الحُمَام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغفّل المزنيّ ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزنيّ . وهَرَمِيّ بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعِرْباض بن سارية الفزارى ، هكذا سماهم أبو عمر فى كتاب الدرر له . وفيهم اختلاف . قال القشيريّ : مَعْقِل بن يَسار وصخر بن خنساء ، وعبد الله بن كعب الأنصارى ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غَنَمة ، وعبد الله بن معقل وآخر . قالوا : يانبى الله ، قـد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنـا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك . فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولّوا وهم يبكون . وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج الى بعـيرين ، بعير يركبه وبعير يحمـل ماءه وزاده لبعد الطـريق . وقال الحسن : نزلت فى أبى موسى وأصحابه أتوا النبيّ صـلى الله عليه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منه غضبا فقـال : " والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليـه " فتولوا يبكون ؛ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأعطاهم ذَوْدًا[2] . فقـال أبو موسى :

---

(١) لم يذكر المؤلف غير ستة . والذى فى القاموس (مادة قرن) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيـل ومعقل والنعمان وسويد وسنان ؛ أولاد مقرن كمحدث صحابيون » .

(٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث الى العشر ؛ وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، والكثير أذواد .

ألستَ حلفتَ يارسول الله ؟ فقال : " إنى إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفّرت عن يمينى " .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخاريّ ومسلم بلفظه ومعناه . وفى مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرى[(١)] ... الحديث . وفى آخره : "فانطلقوا فإنما حملكم الله" . وقال الحسن أيضا وبكر بن عبد الله : نزلت فى عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيّ ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجُرْجانيّ : التقدير أى ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد . فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بغير واو ، والجواب « تولّوا » . ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ الجملة فى موضع نصب على الحال . ﴿ حَزَنًا ﴾ مصدر . ﴿ أَلَّا يَجِدُوا ﴾ نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يجعل لا بمعنى ليس . وهو عند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامسة — والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه فى غَزْوه أنه لا يجب عليه . وقال علماؤنا : اذا كانت عادته المسألة لزمه كالحج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغيّر يتوجّه الفرض عليه كتوجّهه على الواجد . والله أعلم .

السادسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ ما يستدلّ به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضروريّ ، ومنها ما يحتمل الترديد . فالأول كمن يمر على دار قد علا فيها النّعى وخُمشت الخدود وحُلقت الشعور وسُلِقت[(٢)] الأصوات وخرقت الجيوب ونادوْا على صاحب الدار بالثُّبور ؛ فيُعلم أنه قد مات . وأما الثانى فكدموع الأيتام على أبواب الحُكّام ؛ قال الله تعالى مخبرا عن إخوة يوسف عليهم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » .

---

(١) أى بيض الأسنمة ؛ فإن «الغر» جمع الأغر وهو الأبيض . والذرى : جمع ذروة ، وذروة كل شىء أعلاه .
(٢) السلق : شدة الصوت .

ومع هذا فإنها قرائن يستدلّ بها فى الغالب فتُبْنَى عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال وغالبها . وقال الشاعر :

إذا اشتبكتْ دموع فى خدود * تبيّن من بكى ممن تباكى

وسيأتى هذا المعنى فى « يوسف » مستوفًى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أى العقوبة والمأثم . ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ والمراد المنافقون . كرر ذكرهم للتأكيد فى التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعالى : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى لن نصدقكم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أى أخبرنا بسرائركم . ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما تستأنفون ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازيكم بعملكم . وقد مضى هذا كله مستوفًى .

قوله تعالى : سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى من تبوك . والمحلوف عليه محذوف؛ أى يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج . ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى لتصفحوا عن

أوبهم . وقال ابن عباس : أى لا تكلموهم . وفى الخبر أنه قال عليه السلام لما قدم من تبوك : « ولا تجالسوهم ولا تكلموهم » . ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى عملهم رجس ؛ والتقدير : إنهم ذو رجس ؛ أى عملهم قبيح . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهرى : المأوى كل مكان يأوى إليه شيء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويًّا ، على فعول ، و إواء . ومنه قوله تعالى : « سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ »(1) . وآويته أنا إيواء . وأويته إذا أنزلته بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبى زيد . ومأوِى الإبل (بكسر الواو) لغة فى مأوَى الإبل خاصّةً ، وهو شاذ .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حلف عبد الله بن أُبَىّ ألا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه .

قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائيا عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل : لأنهم أقسى قلبا وأجفى قولا وأغلظ طبعا وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أى أخلق . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ « أن » فى موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، و إن أتيت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيام .

(1) آية ٤٣ سورة هود .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنها عوض من المحذوف . ﴿ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى فرائض الشرع . وقيل : حجج الله فى الربوبية وبعثة الرسل لقلة نظرهم .

الثانيـــة — ولما كان ذلك ودلّ على نقصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن سواهم ترتبت على ذلك أحكام ثلاثة :

أولها — لا حق لهم فى الفَىْء والغنيمة؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم من حديث بُريدة، وفيه : "ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين".

وثانيها — إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة؛ لما فى ذلك من تحقق التُّهَمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعى كل تُهَمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة. وأجازها الشافعىّ إذا كان عدلا مرضيًّا؛ وهو الصحيح لما بيناه فى « البقرة »(1) . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها — بالكفر والنفاق . والثانى — بأنه يتخذ ما ينفق مَغْرَمًا ويتربص بكم الدوائر . والثالث — بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول؛ فمن كانت هذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء » .

وثالثها — أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة لجهلهم بالسنة وتركهم الجمعة . وكره أبو مِجْلَز إمامة الأعرابى . وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقرأهم . وقال سفيان الثورىّ والشافعىّ وإسحاق وأصحاب الرأى : الصلاةُ خلف الأعرابى جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أشْدَدُ، وقد تقدّم. ﴿ كُفْرًا ﴾ نصب على البيان. ﴿ وَنِفَاقًا ﴾ عطف عليه . ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أشدّ، ومعناه أخلق؛ يقال : فلان جدير بكذا أي خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجديرون . وأصله من جَدْر الحائط وهو رفعه بالبناء . فقوله : هو أجدر بكذا أي أقرب إليه وأحق به . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ أي بألا يعلموا . والعرب : جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيّ بيّن العُرُوبة ، وهم أهل الأمصار . والأعراب منهم سكان البادية خاصّة . وجاء في الشعر الفصيح أعاريب . والنسبة إلى الأعراب أعرابيّ لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنَبَط ؛ وإنما العرب اسم جنس . والعرب العاربة هم الخُلّص منهم، وأخذ من لفظه وأكّدبه، كقولك : لَيْل لائل . وربما قالوا : العرب العَرْباء . وتعرّب تشبّه بالعرب . وتعرّب بعد هجرته أي صار أعرابيا . والعرب المُسْتَعْرِبة هم الذين ليسوا بخُلّص، وكذلك المتعرِّبة، والعربية هي هذه اللغة . ويَعْرُب بن قَحْطان أوّل من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلّهم . والعُرْب والعَرَب واحد، مثل العُجْم والعَجَم . والعُرَيْب تصغير العرب، قال الشاعر:

ومَكْن الضِّباب طعام العُرَيْب * ولا تشتهيه نفوسُ العَجَمْ (١)

إنما صغرهم تعظيما، كما قال : أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ، وعُذَيْقُها المُرَجَّبُ (٢) كله عن الجوهريّ . وحكى القشيريّ وجمع العَرَبِيّ العَرَب ، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب . والأعرابي إذا قيل له يا عَرَبِيّ فرح ، والعَرَبِيّ إذا قيل له يا أعرابي غضب . والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب . وسميت العرب عَرَبًا لأن ولد إسماعيل نشئوا من عَرَبة وهي من تِهامة فنسبوا إليها . وأقامت قريش بعَرَبة وهي مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها .

---

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبد القدوس . والمكن : بيض الضبة والجرادة ونحوها . (٢) الجذيل تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة . والمحكك : الذي تحكك به الإبل الجربى، وهو عود ينصب في مبارك الإبل لذلك . والعذيق : تصغير العذق، وهو النخلة . والمرجب : الذي جعل له رجبة، وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة .

وهو من قول الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه . يريد أنه قد جربته الأمور، وله رأي وعلم يشتفى بهما كما تشتفى الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ ﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ مفعولان، والتقدير ينفقه، فحذفت الهاء لطول الاسم . ﴿ مَغْرَمًا ﴾ معناه غُرْما وخسرانا، وأصله لزوم الشيء، ومنه : « إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » أى لازما، أى يرون ما ينفقونه فى جهاد وصدقة غُرما ولا يرجون عليه ثوابا . ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ التربص الانتظار، وقد تقدّم[1] . والدوائر جمع دائرة، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة الى البلية، أى يجمعون الى الجهل بالإنفاق سوء الدُّخلة وخبث القلب . ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفى الفتح، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السين فى قوله : « مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ »[2] . والفرق بينهما أن السُّوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفرّاء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالا : ولا يجوز آمرأ سُوء بالضم ، كما لا يقال : هو آمرُؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد ابن يزيد قال : السَّوء بالفتح الرداءة . قال سيبويه : مررت برجل صدق، ومعناه برجل صلاح . وليس من صدق اللسان، ولو كان من صدق اللسان لما قلت : مررت بثوب صدق . ومررت برجل سَوْء ليس هو من سُؤته ، وإنما معناه مررت برجل فساد . وقال الفراء : السَّوء بالفتح مصدر سُؤته سَوْءا ومساءة وسوائية . قال غيره : والفعل منه ساء يسوء . والسُّوء بالضم اسم لا مصدر، وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

(١) راجع ج ٣ ص ١٠٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى صدق . والمراد بنو مُقَرِّن من مُزَينة ؛ ذكره المهدوى . ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة، وهى ما يتقرب به الى الله تعالى؛ والجمع قُرَب وقُرُبات وقُرَبات وقُرْبات؛ حكاه النحاس . والقربات (بالضم) ما تقرب به الى الله تعالى؛ تقول منه : قربت لله قُربانا . والقِرْبة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء؛ والجمع فى أدنى العدد قِرْبات وقِرِبات وقِرَبات، والكثير قِرَب. وكذلك جمع كل ما كان على فِعْلة؛ مثل سِدْرة وفِقرة؛ لك أن تفتح العين وتكسر وتسكّن؛ حكاها الجوهرى . وقرأ نافع فى رواية وَرْش « قُرُبة » بضم الراء وهى الأصل . والباقون بسكونها تخفيفا؛ مثل كُتْب ورُسْل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ابن سعدان أن يزيد بن القَعْقاع قرأ « ألا إنها قُرُبة لهم » . ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ استغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضروب ؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » . والصلاة من الملائكة الدعاء، وكذلك هى من النبى صلى الله عليه وسلم؛ كما قال : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة. ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى تقربهم من رحمة الله، يعنى نفقاتهم .

قوله تعالى : وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - لما ذكر أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار، وبيّن أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين، وأثنى عليهم. وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفا نبيّن الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ « والأنصارُ » رفعا عطفا على السابقين . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار

الوجه ؛ لأن السابقين منهما . والأنصار آسم إسلامى . قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول النـاس لكم : الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تُدْعَوْنَ به فى الجاهليـة ؟ قال : بل آسم سمانا الله به فى القرآن؛ ذكره أبو عمر فى الاستذكار .

الثانيـــة — نص القرآن على تفضـيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصـار وهم الذين صـلّوْا الى القبلتين؛ فى قول سـعيد بن المسيّب وطائفـة . وفى قول أصحاب الشافعيّ هم الذين شهدوا بيعـة الرضوان، وهى بيعـة الحُدَيْبِيَة؛ وقاله الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهى :

الثالثـــة — فقال أبو منصور البَغْـدادىّ التميمى : أصحابنا مجمعون على أن أفضـلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة .

الرابعـــة — وأما أولهم إسـلاما فروى مجالد عن الشعبى قال : سألت آبن عباس من أول الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شَجْوًا من أخى ثقـة * فآذكر أخاك أبا بكر بمـا فعـلَا

خيرَ الـبرية أتقـاها وأعدلهـا * بعـد النبيّ وأوفاها بمـا حَمـلَا

الثانِيَ التـالِيَ المحمودَ مشهـدُه * وأوّلَ الناس منهم صدّق الرسلَا

وذكر أبو الفرج الجَوْزى عن يوسف بن يعقوب بن المـاجشون قال : أدركت أبى وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعةَ بن أبى عبد الرحمن وصالح بن كَيْسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأَخْنَسيّ وهم لا يشكون أن أول القوم إسلاما أبو بكر؛ وهو قول آبن عباس وحسان وأسماء بنت أبى بكر، وبه قال ابراهيم النَّخَعِيّ . وقيل : أوّل من أسـلم علىّ ؛ رُوِى ذلك عن زيد آبن أرقم وأبى ذر والمِقْـداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبـد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن عليًّا أولهم إسـلاما . وقيل : أوّل من أسـلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو

ذلك عن الزهرى . وهو قول سليان بن يسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبى أنس .
وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهرى ، وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق بن يسار وجماعة ، وروى أيضا عن ابن عباس . وادعى الثعلبى المفسر اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها .
وكان إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلى يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سعد قال : أخبرنى مصعب بن ثابت قال حدثنى أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبى بكر وكان رابعا أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدثنى أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين .
وروى أن عليا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامسة ــ والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخارى فى صحيحه : من صحب النبى صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد الصحابى إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جرير بن عبد الله البجلى أو من شاركه فى فقد ظاهر ما اشترطه فيهم مما لا نعرف خلافا فى عده من الصحابة .

السادسة ــ لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق . قال ابن العربى : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : "نحن الآخرون الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد" . فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا

بتكليفه والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه ولا نختار معه، ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب؛ وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه؛ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السابعـــة — قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هــذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، فى العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام . وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . واختلف العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم؛ فروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر يفضل فى خلافته؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم؛ فمات من ليلته . والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قرأ عمر « والأنصارُ » رفعا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار؛ فراجعه زيد بن ثابت، فسأل عمرُ أُبَىَّ بن كعب فصدّق زيدا؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أُبَىّ : مصداق ذلك فى كتاب الله فى أول سورة الجمعة : « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ »(١) وفى سورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »(٢) . وفى سورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ »(٣) . فثبتت القراءة بالواو . وبيّن تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات؛ إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم .

الثانيـــة — واختلف العلماء فى التابعين ومراتبهم؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعى من صحب الصحابى؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعىّ . وكلام الحاكم أبى عبد الله وغيره

---

(١) آية ٣ (٢) آية ١٠ (٣) آخر السورة .

مُشْعِر بأنه يكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدَيْبِيَة ، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مُسْلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عَوف شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخالد : " دَعُوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصفه " . ومن العجب عَدّ الحاكم أبي عبد الله النعمانَ وسويدا ابني مُقَرِّن المزنيّ في التابعين عند ما ذكر الإخوة من التابعين ، وهما صحابيان معروفان مذكوران في الصحابة ، وقد شهدا الخَنْدَق كما تقدم . والله أعلم . وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله ابن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة في بيت واحد فقال :

فخذهم عبيدُ الله(١) عروةُ قاسمٌ * سعيدٌ أبو بكر(٢) سليمانُ خارجة

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ؛ فقيل له : فعلقمة والأسود . فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وعنه أيضا أنه قال : أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ، هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلْية التابعين . وقال أيضا : كان عطاء مفتي مكة والحسن مفتي البصرة ، فهذان أكثر الناسُ عنهم ؛ وأَبْهَمَ . وروى عن أبي بكر بن أبي داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما ـ وليست كهما ـ أم الدَّرْداء . وروى عن الحاكم أبي عبد الله قال : طبقة تعدّ في التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النَّخَعِيّ وليس بإبراهيم بن يزيد النخعيّ الفقيه ، وبكير بن أبي السميط(٣) ، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرَهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس في أتباع التابعين ، وقد لقوا الصحابةَ منهم أبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، لقيَ عبد الله بن عمر وأنسًا . وهشامُ بن عروة ، وقد أدخل على عبد الله بن عمر ،

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة . (٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن .

(٣) في التقريب : « السميط بفتح المهملة ، ويقال بالضم » .

وجابرُ بن عبد الله وموسى بن عقبة، وقد أدرك أنس بن مالك. وأمُّ خالد بنتُ خالد بن سعيد. وفى التابعين طبقة تسمَّى بالمُخَضْرَمين، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم. واحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خُضْرِم، أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها. وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا، منهم أبو عمرو الشيبانيّ، وسُوَيد بن غَفَلة الكنديّ، وعمرو بن ميمون الأوْديّ، وأبو عثمان النَّهْديّ، وعبد خير بن يزيد الخيرانى (بفتح الخاء)، بطن من هَمْدان، وعبد الرحمن بن مُلّ. وأبو الحَلال العَتَكى ربيعةُ بن زُرَارة. وممن لم يذكره مسلم؛ منهم أبو مسلم الخَوْلانيّ عبدُ الله بن ثُوَب، والأحنف بن قيس. فهذه نبـذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن الكريم، رضوان الله عليهم أجمعين. وكفانا نحن قوله جل وعز: «كُنتم خيرَ أمّة أخرجت للناس»[1] على ما تقدّم. وقوله عز وجل: «وكذلك جعلناكم أمّة وسطًا»[2] الآية. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وددت أنا قد رأينا إخواننا..." الحديث. فجعلنا إخوانه؛ إن اتقينا الله واقتفينا آثاره حشرنا الله فى زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله.

قوله تعـالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ ابتداء وخبر. أى قوم منافقون؛ يعنى مُزَينة وجُهَينة وأسلم وغِفار وأشجع. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أى قوم مردوا على النفاق. وقيل: «مردوا» من نعت المنافقين؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، المعنى. وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة مثل ذلك. ومعنى: «مردوا» أقاموا ولم يتوبوا؛ عن ابن زيد. وقال غيره: لَجُّوا فيه وأبوا غيره؛

(١) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية.

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد؛ فكأنهم تجردوا للنفاق . ومنه رملة مرداء لا نبت فيها . وغصن أمرد لا ورق عليه . وفرس أمرد لا شعر على ثنته (1) . وغلام أمرد بيّن المرد ؛ ولا يقال جارية مرداء . وتمريد البناء تمليسه؛ ومنه قوله : « صرح ممرد (2) » . وتمريد الغصن تجريده من الورق ؛ يقال مرد (3) يمرد مرودا ومرادة .

قوله تعالى : ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ (4) » على ما تقدم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس : بالأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة . فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة . وقيل : العذاب الأول الفضيحة باطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتي بيانه في المنافقين . والعذاب الثاني عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر . ابن زيد : الأول بالمصائب في أموالهم وأولادهم، والثاني عذاب القبر . مجاهد : الجوع والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السباء والقتل . وقيل : الأول أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر . وقيل : أحد العذابين ما قال تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ — إلى قوله — إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (5) » . والغرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

أي ومن أهل المدينة وممن حولكم قوم أقروا بذنوبهم، وآخرون مرجون لأمر الله يحكم فيهم بما يريد . فالصنف الأول يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مردوا على النفاق، ويحتمل

(1) الثنة : مؤخر الرسغ ، وهي شعرات مدلاة مشرفات من خلف . (2) آية ٤٤ سورة النمل .
(3) من باب نصر وكرم . (4) آية ٦٠ سورة الأنفال . (5) آية ٥٥ من هذه السورة .

أنهم كانوا مؤمنين . وقال ابن عباس : نزلت فى عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك؛ فأوثق سبعة منهـم أنفسهم فى سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »؛ ذكره المهدوى . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية . وقيل كانوا ستة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية فى أبى لُبابة الأنصارى خاصّة فى شأنه مع بنى قُريظة؛ وذلك أنهم كلّموه فى النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلقه . يريد أن النبى صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت؛ فمكث كذلك حتى عفا الله عنه، ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه؛ ذكره الطبرى عن مجاهد ، وذكره ابن اسحاق فى السيرة أوعب من هـذا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وآخرون » فى شأن أبى لبابة وأصحابه، وقال حين أصاب الذنب : يارسول الله، أجاورك وانخلع من مالى؟ فقـال : " يجزيك من ذلك الثلث وقـد قال تعـالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » " ورواه ابن القاسم وابن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت فى شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقهم ويرضى عنهم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رغبوا عنّى وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين" فأنزل الله هذه الاية ؛ فلما نزلت أرسل اليهم النبى صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله، هذه أموالنـا التى خلّفتنا عنك، فتصدّق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا. فقال : " ما أمرت ان آخذ من أموالكم شيئا " فأنزل الله تعـالى « خذ من أموالهم صـدقة » . قال ابن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبولبابة؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارةَ الذنوب التى أصابوها . فكان عملهم السيئ التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا فى الصلاح؛ فقال الطبرى وغيره : الاعتراف والتوبة والندم. وقيل : عملهم الصالح الذى عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وربطوا

أنفسهم بسوارى المسجد وقالوا : لا نقرب أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرنا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح غزوهم فيما سلف من غزو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الاية و إن كانت نزلت فى أعراب فهى عامّـة إلى يوم القيـامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ؛ فهى ترجى .

ذكر الطبرى عن حجاج بن أبى زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » .

وفى البخارى عن سمُرة بن جُنْدُب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنـا : "أتانى الليلة آتيان فابتعثـانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ولَبِن فضّة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشَـطْرٌ كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهـر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالا لى هذه جنة عَدْن وهـذاك منزلك قالا أمّا القوم الذى كانوا شَطْر منهم حَسَن وشـطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم". وذكر البيهقىّ من حديث الرّبيع بن أنس عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : "ثم صعد بى إلى السماء ..." ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : "حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفـة ونعم المجئ جاء فإذا برجل أشمط[(١)] جالس على كرسى عنـد باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شىء فأتوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا منـه وقد خَلَص من ألوانهم شىء ثم إنهم أتوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقـد خلصت ألوانهم مثلَ ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقـال ياجبريل مَن هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هـذا أبوك إبراهيم هو أوّل رجل شَمِطَ على الأرض وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمـانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم . فأما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

---

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

وأما النهر الثالث فسقاهم ربهم شرابا طهورا " وذكر الحديث . والواو في « وآخر سيئا » قيل هي بمعنى الباء، وقيل بمعنى مع؛ كقولك استوى الماء والخشبة. وأنكر ذلك الكوفيون وقالوا: لأن الخشبة لا يجوز تقديمها على الماء، و « آخر » في الآية يجوز تقديمه على الأول؛ فهو بمنزلة خلطت الماء باللبن .

قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ اختلف في هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل : هي صدقة الفرض؛ قاله جُويبر عن ابن عباس، وهو قول عكرمة فيما ذكر القشيري. وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم، وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء؛ ولهذا قال مالك: إذا تصدّق الرجل بجميع ماله أجزاه إخراج الثلث؛ متمسّكا بحديث أبي لُبابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقتضي بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه وزوالها بموته . وبهذا تعلق مانعو الزكاة على أبي بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضا منها التطهيرَ والتزكية والصلاة علينا وقد عدمناها من غيره . ونظم في ذلك شاعرهم فقال : —

أطعنا رسول الله ما كان بيننا * فيا عجبا ما بال مُلْك أبي بكر

وإن الذي سالوكمُ فمنعتمُ * لكالتمر أو أحلى لديهم من التمر

سنمنعهم ما دام فينا بقيّة * كرامٌ على الضّراء في العسر واليسر

وهذا صنف من القائمين على أبي بكر أمثلهم طريقة، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. ابن العربيّ : أما قولهم إن هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدِّين؛ فإن الخطاب في القرآن لم يرد بابا واحدا ولكن اختلفت موارده على وجوه؛ فمنها خطاب توجه إلى

جميع الأمة كقوله : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة »(1) وقوله « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام »(2) ونحوه . ومنها خطاب خُصّ به ولم يَشركه فيه غيره لفظا ولا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ »(3) وقوله : « خَالِصَةً لَكَ » . ومنها خطاب خُصّ به لفظا وشَرِكه جميع الأمة معنًى وفعلا؛ كقوله : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ »(3) الآية . وقوله : «فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله»(4) وقوله : «وإذا كنت فيهم فأقمتَ لهم الصلاة»(5) . فكل من دَلَكتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة . وكذلك من خاف يقيم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القبيل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : «يأيها النبيّ اتق الله»(6) و «يأيها النبيّ إذا طلقتم النساء»(7) .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهى دوس : إلى أن المال الثيابُ والمتاع والعُروض . ولا تسمّى العين مالا . وقد جاء هذا المعنى فى السنة الثابتة من رَواية مالك عن ثَوْر بن زيد الدِّيلى عن أبى الغيث سالم مولى ابن مطيع عن أبى هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنم ذهبا ولا وَرِقا إلا الأموال الثياب والمتاع . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المال الصامتُ من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصّة؛ ومنه قولهم : المال الإبل . وقيل جميع الماشية . وذكر ابن الأنبارى عن أحمد بن يحيى النحوى قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والوَرِق فليس بمال؛ وأنشد :

والله ما بلغتْ لى قطُّ ماشيةٌ ＊ حدّ الزكاة ولا إبل ولا مال

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك هو مال؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "يقول ابن آدم مالى مالى وإنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدّق

(1) آية ٦ سورة المائدة . (2) آية ١٨٣ سورة البقرة . (3) آية ٧٨ سورة الاسراء .
(4) آية ٩٨ سورة النحل . (5) آية ١٠٢ سورة النساء . (6) أول سورة الأحزاب .
(7) أول سورة الطلاق .

فأمضى " . وقال أبو قتادة : فأعطانى الدرع فابتعت به مَخْرَفًا[(١)] فى بنى سَلِمة؛ فإنه لأول مال تأثلته[(٢)] فى الإسلام . فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن؛ إلا أن ينوى شيئا بعينه فيكون على مانواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملّك يسمّى مالا . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صدقة ﴾ مطلق غير مقيّد بشرط فى المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ؛ وإنما بيان ذلك فى السنة والإجماع، حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبىّ صلى الله عليه وسلم الزكاة فى المواشى والحبوب والعين، وهذا مالا خلاف فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العُروض . وسيأتى ذكر الخيل والعسل فى « النّحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبى سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة " . وقد مضى الكلام فى « الأنعام »[(٣)] فى زكاة الحبوب وما تنبته الأرض مستوفًى . وفى المعادن فى «البقرة»[(٤)] وفى الحلى فى هذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقيّة أربعون درهما؛ فإذا ملك الحر المسلم مائتى درهم من فضة مضروبة — وهى الخمس أواق المنصوصة فى الحديث — حولا كاملا فقد وجبت عليه صدقتها، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم . وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام : " ليس فى مال زكاةٌ حتى يحول عليه الحول " . أخرجه الترمذى . وما زاد على المائتى درهم من الورق فبحساب ذلك فى كل شىء منه ربُع عشره قلّ أو كثر ؛ هذا قول مالك والليث والشافعى وأكثر أصحاب أبى حنيفة وابن أبى لَيْلَى والثّورى والأوزاعى وأحمد بن حنبل وأبى ثور وإسحاق وأبى عبيد . ورُوى ذلك عن على وابن عمر . وقالت طائفة : لا شىء فيما زاد على المائتى درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهما ؛ فإذا بلغتها

(١) المخرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النخل ، ست أو سبع يشتريها الرجل لخرفة (الجنى) . وقيل : هى جماعة النخل ما بلغت . (٢) تأثل مالا : اكتسبه واتخذه وثمره (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

كان فيها درهم وذلك ربع عشرها . هـذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعبي والزهري ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعـــة ـ وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلمـاء على أن الذهب إذا كان عشرين دينارا قيمتها مائتا درهم فما زاد أن الزكاة فيها واجبة؛ على حديث عليّ؛ أخرجه الترمذي عن ضَمْرة والحارث عن عليّ . قال الترمذي : سألت محمـد بن اسماعيل عن هذا الحـديث فقال كلاهما عندي صحيح عن أبي اسحاق؛ يحتمل أن يكون عنهما جميعا. وقال الباجي في المنتقَى : وهذا الحديث ليس إسناده هناك، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه ، والله أعلم. وروى عن الحسن والثوري، وإليه مال بعض أصحاب داود بن عليّ على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا، وهذا يردّه حديث عليّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأخـذ من كل عشرين دينـارا نصف دينار، ومن الأربعـين دينارا دينارا؛ على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذُكر .

الخامســـة ـ اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس ذَودٍ من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا ففيها شاة. والشاة تقع على واحدة من الغنم ، والغنم الضأن والمعز جميعا. وهذا أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس في خمس إلا شاة واحدة؛ وهي فريضتها . وصدقة المواشي مبيّنـة في الكتاب الذي كتبه الصدّيق لأنس لمـا وجّهه إلى البحرين ؛ أخرجه البخاري وأبو داود والدّارَقُطْني والنّسائي وابن ماجه وغيرهم ، وكله متّفق عليه. والخلاف فيه في موضعين؛ أحدهما في زكاة الإبل، وهي إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدّق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لَبُون، وإن شاء أخذ حِقّتين[1] . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حِقة وآبنتا لبون. قال آبن القاسم : ورأيي على قول ابن شهاب. وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبي سلمة وعبد العزيز بن أبي

(١) ابن لبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ، ودخل في الثالثة . والحق (بالكسر) : الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة .

حازم وابن دينار يقولون بقول مالك . وأما الموضع الثانى فهو فى صدقة الغنم ، وهى إذا زادت على ثلثمائة شاة وشاة ؛ فإن الحسن بن صالح بن حى قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربعمائة شاة وشاة ففيها خمس شياه ؛ وهكذا كلما زادت ، فى كل مائة شاةٌ . وروى عن إبراهيم النخعى مثله . وقال الجمهور : فى مائتى شاة وشاة ثلاث شياه ، ثم لا شىء فيها إلى أربعمائة فيكون فيها أربع شياه ، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعا واتفاقا . قال ابن عبد البر : وهذه مسألة وهم فيها ابن المنذر ، وحكى فيها عن العلماء الخطأ ، وخلط وأكثر الغلط .

السادسة — لم يذكر البخارى ولا مسلم فى صحيحهما تفصيل زكاة البقر . وخرّجه أبو داود والترمذى والنّسائى والدّارَقُطْنِى ومالك فى مُوَطَّئه وهى مرسلة ومقطوعة وموقوفة . قال ابن عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . وممن أسنده بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما ينفرد به بَقِيّة عن الثقات . ورواه الحسن بن عُمارة عن الحكم كما رواه بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم ، والحسن مجتمع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس ؛ ذكره عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر والثورى عن الأعمش عن أبى وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ؛ فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعا أو تبيعة (١) ، ومن أربعين مُسِنّةً [(٢) ، ومن كل حالم دينارا] أو عِدْله مَعافر (٣) ؛ ذكره الدّارقطنى وأبو عيسى الترمذى وصححه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة فى زكاة البقر عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : فى ثلاثين بقرة تبيع ؛ وفى أربعين مُسِنّةٌ ؛ إلا شىء رُوى عن سعيد بن المسيِّب وأبى قِلابة والزُّهرى وقَتادة ، فإنهم يوجبون فى كل خمس من البقر شاةً إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وفروعها فى كتب الفقه . ويأتى ذكر الخُلْطة (٤) فى سورة « ص » إن شاء الله تعالى .

(١) التبيع : ولد البقرة فى أول سنة . والمسن : ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة . (٢) زيادة عن صحيح الدارقطنى والترمذى . (٣) المعافر : برود باليمن منسوبة الى معافر ، وهى قبيلة باليمن .
(٤) فى قوله تعالى : « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض » آية ٢٤ .

السابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ صَدَقَةً ﴾ مأخوذ من الصّدق؛ إذ هى دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزون المطوّعين من المؤمنين فى الصدقات . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للخاطب؛ التقدير : خذها مطهّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها . ويجوز أن يجعلهما صفتين للصدقة؛ أى صدقة مطهرةً لهم مُزَكِّيَةً، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب، ويعود الضمير الذى فى « بها » على الموصوف المنكّر . وحكى النحاس ومَكّىّ أنّ « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيهم بها » حال من الضمير فى « خُذْ » وهو النبىّ صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أى فإنك تطهرهم وتزكيهم بها، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم؛ ومنه قول امرئ القيس :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

وقرأ الحسن تُطْهِرهم (بسكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طَهَر وأطهرته، مثل ظهر وأظهرته .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أصلٌ فى فعل كلّ إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للتصدّق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبى أوفَى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهُم صلّ عليهم " فأتاه ابن أبى أوفَى بصدقته فقال : " اللهم صلّ على آل أبى أوفَى " . ذهب قوم إلى هذا، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصلّ على أحد إلا على النبىّ صلى الله عليه وسلم وحده خاصّة؛ لأنه خُصّ بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . وبأنّ عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلّى على أحد إلا على النبىّ صلى الله عليه وسلم . والأول أصح؛ فإن الخطاب ليس مقصورا عليه كما تقدم؛ ويأتى فى الآية بعد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

عليه وسلم، والتأسي به؛ لأنه كان يمتثل قوله : « وصَلّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » أى إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سكّن ذلك قلوبهم وفرحوا به . وقد روى جابر آبن عبد الله قال : أتانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت لامرأتى : لا تسألى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ! فقالت : يارسول الله، صلّ على زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلى الله عليك وعلى زوجك " . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب الدعاء؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحمزة والكسائيّ « إن صلاتك » بالتوحيد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف فى « أصلاتك تأمُرُكَ[1] » وقرئ « سكْن » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لهم . والسَّكَن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يكلّمون ولا يجالسون، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصّة التى خُصُّوا بها دوننا؛ فنزلت : « ألم يعلموا » ؛ فالضمير فى « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معناه آبن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى « هو » تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يَقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولُ رسوله قبولا منه؛ فبيَّنت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبيّ ولا ملك .

---

(١) آية ٨٧ سورة هود .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نصّ صريح فى أن الله تعالى هو الاخذ لها والمثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واسطة، فان تُوُفّى فعامله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حيّ لا يموت . وهذا يبيّن أن قوله سبحانه وتعالى « خُذْ من أموالهم صدقةً » ليس مقصورا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيُرْبيها لأحدكم كما يربى أحدكم مُهْره حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحُد وتصديق ذلك فى كتاب الله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويُرْبى الصدقات ". قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : " لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيّب إلا أخذها الله بيمينه ـــ فى رواية ـــ فتربُو فى كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبل أن تقع فى كف السائل فيربيها كما يربى أحدُكم فَلُوَّه(1) أو فَصِيله والله يضاعف لمن يشاء " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هـذا كناية عن القبول والجزاء عليها؛ كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليه بقوله : " يآبن آدم مَرِضت فلم تَعُدْنى " الحديث . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » . وخصّ اليمين والكف إذ كل قابل لشىء إنما يأخذه بكفه وبيمينه أو يوضع له فيه؛ فخرج على ما يعرفونه، والله جل وعز منزّه عن الجارحة . وقد جاءت اليمين فى كلام العرب بغير معنى الجارحة؛ كما قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد * تلقـاها عَرابة باليمين

أى هو مؤهّل للمجد والشرف ، ولم يُرِد بهـا يمين الجارحة ؛ لأن المجد معنًى فاليمـين التى تتلقى به رايته معنى . وكذلك اليمين فى حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى "تربو فى كف الرحمن" عبارة عن كفة الميزان التى توزن فيها الأعمال، فيكون من باب حذف المضاف؛ كأنه قال : فتربو فى كفّة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثورى وآبن المبارك أنهم قالوا فى تأويل هذه

(1) الفلو : ولد الفرس .

الأحاديث وما شابهها : أَمِرُّوها بلا كَيْف ؛ قاله الترمذي وغيره . وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٥)

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا ﴾ خطاب للجميع . ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي باطلاعه إياهم على أعمالكم . وفي الخبر : " لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كُوَّة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان "

قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠٦)

نزلت في الثلاثة الذين تِيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أميّة من بني واقف ومُرارة آبن الربيع ؛ وقيل آبن رِبْعِي العَمْري ؛ ذكره المهدوي . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا مياسير ؛ على ما يأتي من ذكرهم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجَوْن ؛ من أرجأته أي أخرته . ومنه قيل : مُرْجِئة ؛ لأنهم أخروا العمل . وقرأ حمزة والكسائي « مُرْجَوْن » بغير همز ؛ فقيل : هو من أرجيته أي أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجيته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ « إما » في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أي ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (١٠٧)

فيه عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ معطوف ، أي ومنهم الذين اتخذوا مسجدا ؛ عطف جملة على جملة . ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء والخبر محذوف كأنه « يعذّبون » أو نحوه . ومن قرأ « الذين » بغير واو وهي قراءة المدنيين فهو عنده رفع بالابتداء ، والخبر « لا تقم » التقدير : الذين اتخذوا مسجدا لا تقم فيه أبدا ؛ أي لا تقم في مسجدهم ؛ قاله الكسائي . وقال النحاس : يكون خبر الابتداء « لا يزال بُنْيانهم الذي بَنَوْا رِيبةً في قلوبهم » . وقيل : الخبر « يعذبون » كما تقدّم . ونزلت الآية فيما روى في أبي عامر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فبَنَوْا مسجد الضّرار يرصدون مجيئه فيه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدّمت قصته في الأعراف[1] . وقال أهل التفسير : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء وبعثوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وقالوا : نبني مسجدا ونبعث الى النبيّ صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصلي لنا كما صلى في مسجد إخواننا ، ويصلّي فيه أبو عامر إذا قدم من الشام ؛ فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله ، قد بنينا مسجدا لذي الحاجة ، والعلّة والليلة المطيرة ، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إني على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه" . فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار ؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم مالكَ بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدِي وعامر بن السَّكَن ووَحْشِيًّا قاتلَ حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شُعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا : خِذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومن داره أخرج مسجد الضرار ، ومعتّب بن قُشير ، وأبو حبيبة بن الأذعر ، وعبّاد ابن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف . وجارية بن عامر ، وابناه مُجمّع وزيد بن جارية ، ونَبْتَل بن الحارث ، و بَحْزَج ، وبِجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت ، وثعلبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر ؛ لأنه شهد بدرا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا منهم بماذا أعنت فى هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشر بها ! سارية فى عنقك من نار جهنم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ضِرَارًا﴾ مصدر مفعول من أجله . ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ عطف كله . وقال أهل التأويل : ضرارا بالمسجد ، وليس للمسجد ضرار ، إنما هو لأهله . وروى الدّارقُطْنى عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ضَرَر ولا ضِرار مَن ضارّ ضَرّ الله به ومن شاقّ شاقّ الله عليه" . قال بعض العلماء : الضرر : الذى لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضِّرار : الذى ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنًى واحد ، تكلّم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثــة — قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحلّة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزِه . وقد أحرق النبىّ صلى الله عليه وسلم مسجد الضّرار وهدمه . وأسند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصلّى فى مسجد بنى غاضرة (١) فوجد الصلاة قد فاتته ؛ فقيل له : إن مسجد بنى فلان لم يصلّ فيه بعدُ ؛ فقال : لا أحبّ أن أصلى فيه ؛ لأنه بُنى على ضرار . قال علماؤنا : وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء وسُمعة فهو فى حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألّا يصلى فى كنيسة ونحوها ؛ لأنها بنيت على شرّ .

---

(١) كذا فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر : « بنى عامرة » . والذى فى الطبرى : « بنى عامر » .

قلت : هذا لا يلزم، لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضرر بالغير، وإن كان أصل بنائها على شر، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهودُ البيعة موضعا يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلماء على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة . وذكر البخارى أن ابن عباس كان يصلى فى البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

الرابعة ـ قال العلماء : إن من كان إماما لظالم لا يصلَّى وراءه، إلا أن يظهر عذره أو يتوب، فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قُباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلىّ بهم فى مسجدهم، فقال : لا ولا نُعْمَة عين ! أليس بإمام مسجد الضرار ! فقال له مُجَمِّع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ، فوالله لقد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئا ، فصليت ولا أحسِب ما صنعتُ إثما ، ولا أعلم بما فى أنفسهم، فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قُباء .

الخامسة ـ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذى يُتّخذ للعبادة وحضّ الشرع على بنائه فقال : " من بنى لله مسجدا ولو كمَفْحَص[1] قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة " يُهدَم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره، فما ظنك بسواه ! بل هو أحْرَى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم . وذلك كمن بنى فُرْنًا أو رَحًى أو حفر بئرا أو غير ذلك مما يُدخل به الضرر على الغير . وضابط هذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضررا مُنع . فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله فى ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نُظر إلى ذلك الفعل ؛ فان كان تركُه أكبرَ ضررا من الضرر الداخل على الفاعل قُطع أكبر

(١) الموضع الذى تجثم فيه وتبيض .

الضررين وأعظمهما حرمة فى الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كُوة فى منزله يَطّلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء فى بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار فى حوائجهن، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرم وقد ورد النهى فيه؛ فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفى غلقه عليه ضرر؛ لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين، إذ لم يكن بُدٌّ من قطع أحدهما. وهكذا الحكم فى هذا الباب، خلافا للشافعى ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعى : لو حفر رجل فى ملكه بئرا وحفر آخر فى ملكه بئرا يسرق منها ماء البئر الأولة جاز؛ لأن كل واحد منهما حفر فى ملكه فلا يُمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يُفسده عليه لم يكن له منعه؛ لأنه تصرف فى ملكه . والقرآن والسنة يردّان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه، كدخان الفرن والحمّام وغبار الأندر(١) والدود المتولد من الزّبل المبسوط فى الرحاب؛ وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تماديه . وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نفض الثياب والحصر عند الأبواب؛ فإن هذا مما لا غنًى بالناس عنه، وليس مما يستحق به شىء؛ فنفىُ الضرر فى منع مثل هذا أعظمُ وأكبر من الصبر على ذلك ساعةً خفيفة . وللجار على جاره فى أدب السُّنّة أن يصبر على أذاه على ما يقدر، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة — ومما يدخل فى هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبى أُويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عَرَض لها، يعنى مَسًّا من الجن، فكانت إذا أصابها زوجُها وأجنبت أو دنا منها يشتد ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها .

---

(١) الأندر : البيدر، وهو الموضع الذى يداس فيه الطعام .

السابعــــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لمـا كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُبـاء ولا لمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله آبن العربى. وقيل: «وكفرا» أى بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بمـا جاء به؛ قاله القشيرىّ وغيره .

الثامنــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يفرقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا يدلك على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة، وعقدُ الذّمام والحرمة بفعل الدّيانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

التاســـعة ــ تفطّن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصلّى جماعتان فى مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد رُوى عن الشافعىّ المنع؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف و يبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال آبن العربى : وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدما منهم فى الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العاشرة ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى أبا عامر الراهب؛ وسُمّى بذلك لأنه كان يتعبّـد ويلتمس العلم فمات كافرا بِقِنَّسْرِين[1] بدعوة النبيّ صـلى الله عليه وسلم؛ فانه كان قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين. فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال: استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وآبنوا مسجدا فانى ذاهب إلى قيصر فآتٍ بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هـذا هو والد حنظلة غَسيل الملائكة[2] . والإرصاد : الانتظار؛ تقول: أرصدت كذا إذا أعددته مرتقبا له به . قال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير، وأرصدت له فى الشر . وقال آبن الأعرابى :

---

(١) قنسرين (بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده و يكسر) : كورة بالشام .

(٢) سمى غسيل الملائكة لأنه استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة؛ وذلك أنه كان قد ألمّ بأهله فى حين خروجه الى أحد، ثم هجم عليه من الخروج فى النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه؛ فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (عن الاستيعاب) .

لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت . وقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبل بناء مسجد الضرار . ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أى ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهى الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذى العلة والحاجة . وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى يعلم خُبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعنى مسجد الضرار؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصلى؛ ومنه الحديث الصحيح : "من قام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه" . أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ...؛ فذكره . وقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يُتخذ كُناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقُمامات .

الثانية — قوله تعالى : ﴿أَبَدًا﴾ « أبدا » ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدّر كاليوم، وظرف مُبهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر .

وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن « أبدا » وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال : لا تقم، لكفى فى الانكفاف المطلق . فإذا قال : « أبدا » فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فأما النكرة فى الإثبات إذا كانت خبرا عن واقع لم تعمّ، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبدا طلقت طلقة واحدة .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أى بُنيت جُدُره ورُفعت قواعده . والأُسّ أصل البناء ؛ وكذلك الأساس . والأَسَس مقصور منه . وجمع الأُسّ إساس ؛ مثل عُسّ وعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثل قَذال وقُذُل . وجمع الأَسَس آساس ؛ مثل سبب وأسباب . وقد أسّست البناء تأسيسا . وقولهم : كان ذلك على أُسّ الدهر ، وأَسّ الدهر ، وإِسّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِدم الدّهر ووجه الدهر . واللام فى قوله « لمسجد » لام قَسَم . وقيل لام الابتداء ؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلا ؛ وهى مقتضية تأكيدا . ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ نعت لمسجد . ﴿ أَحَقُّ ﴾ خبر الابتداء الذى هو « لَمَسْجِدٌ » . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتّقَى بها العقوبة ؛ وهى فَعْلى من وَقيت ؛ وقد تقدّم[1] .

الرابعة ــ واختلف العلماء فى المسجد الذى أسّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : « من أول يوم » ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم ؛ فإنه بُنِي قبل مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذيّ عن أبى سعيد الخُدْرِيّ : قال تَمارَى[2] رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أول يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُبَاء ، وقال آخر هو مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو مسجدى هذا " . حديث صحيح . والقول الأوّل أليق بالقصة ؛ لقوله « فيه » وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين ؛ فهو مسجد قُباء . والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء « فيه رجال يحبّون أن يَتَطَهَّرُوا والله يحب المُطَّهِّرِينَ » قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . قال الشّعبيّ : هم أهل مسجد قُباء ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : " إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء فى التطهر

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) المماراة : المجادلة .

فما تصنعون"؟ قالوا : إنا نغسل أثر الغائط والبول بالماء؛ رواه أبو داود . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» فقال: "يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطُّهور فما طُهوركم هذا"؟ قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فهل مع ذلك من غيره " ؟ فقالوا : لا غير، إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحبّ أن يستنجي بالماء . قال : "هو ذلك فعَلَيْكُموه" . وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنه مسجده فلا نظر معه . وقد روى أبو كُرَيب قال : حدثنا أبو أسامة قال حدثنا صالح بن حيان قال حدثنا عبد الله بن بريدة في قوله عز وجل « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » قال : إنما هي أربعة مساجد لم يَبْنِهِنّ إلا نبيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبيت أَرِيحا بيتُ المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ومسجد قُباء اللذَين أُسِّسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامسة — ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ « من » عند النحويين مقابلة منذ؛ فمنذ في الزمان بمنزلة من في المكان . فقيل : إن معناها هنا معنى منذ؛ والتقدير : منذ أول يوم ٱبتُدِئ بنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أوّل الأيام، فدخلت على مصدر الفعل الذي هو أسس؛ كما قال :

لمنِ الديار بقُنَّة الحِجْرِ * أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ [1]

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لزهير بن أبي سلمى مدح بها هرم بن سنان . والقنة (بالضم) : أعلى الجبل، وأراد بها هنا ما أشرف من الأرض . والحجر (بكسر الحاء) : منازل ثمود بناحية الشام عند وادي القرى . وأقوين : خلون وأقفرن . والحجج : السنون . (راجع هذا البيت والكلام عليه في الشاهد الرابع والسبعين بعد السبعمائة من خزانة الأدب للبغدادي) .

أى من مَرّ حجج ومن مَرّ دهر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « مِن » لا تُجَرّ بها الأزمان ، وإنما تُجَرّ الأزمان بمنذ؛ تقول ما رأيته منذ شهر أو سنةٍ أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدّر مضمر يليق أن يُجَرّ بمن؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت . ٱبن عطية . ويحسن عندى أن يستغنى فى هذه الآية عن تقدير، وأن تكون « مِن » تجر لفظة « أول » لأنها بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ أى بأن تقوم ؛ فهو فى موضع نصب . «وأحق» هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مَزِيّة على الآخر؛ فمسجد الضّرار وإن كان باطلا لا حقّ فيه ، فقد اشتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن ان القيام فيه جائز للمسجدية؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثل هذا قوله تعالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل؛ فان العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملائم فهو حلو؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعة ــ قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فالهاء فى «أحقّ أن تقوم فيه» عائد إليه، و« فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء، فالضمير فى « فيه » عائد إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنة ــ أثنى الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على من أحبّ الطهارة وآثر النظافة، وهى مُروءة آدمية ووظيفة شرعية؛ وفى الترمذيّ عن عائشة أنها قالت : مُرْنَ أزواجكنّ أن يستطيبوا بالماء فإنى أستحييهم . قال : حديث صحيح . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

كان يحمل الماء معه فى الاستنجاء، فكان يستعمل الحجارة تخفيفا والماء تطهيرا . آبن العربى : وقد كان علماء القيروان يتخذون فى متوضآتهم أحجارا فى تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء .

التاسعة — اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفى نجاسة سائر البدن والثوب التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده فى حالتى وجود الماء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء . وشذ ابن حبيب فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء . والأخبار الثابتة فى الاستجمار بالأحجار مع وجود الماء تردّه .

العاشرة — واختلف العلماء من هذا الباب فى إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ، بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث مالم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأول — أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلّى بثوب نجس عالما كان بذلك أو ساهيا ؛ روى عن آبن عباس والحسن وابن سيرين ، وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثور ، ورواه آبن وهب عن مالك ، وهو قول أبى الفرج المالكى والطبرى ؛ إلا أن الطبرى قال : إن كانت النجاسة قدر الدرهم أعاد الصلاة . وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف فى مراعاة قدر الدرهم قياسا على حلقة الدبر . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان ، وجوبَ سنة وليس بفرض . قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة فى الوقت فإن خرج الوقت فلا شىء عليه ؛ هذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية آبن وهب عنه . وقال مالك فى يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة فى وقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو هذا كله من مذهب مالك قولُ الليث . وقال آبن القاسم عنه : تجب إزالتها فى حالة الذكر دون النسيان ؛ وهى من مفرداته . والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : "إنهما ليعذّبان وما يعذّبان فى كبير أمّا أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله" . الحديث ؛ خرّجه البخارى ومسلم ، وحَسْبُك . وسيأتى فى سورة «سبحان» (1) . قالوا : ولا يعذّب الإنسان إلا على ترك واجب ؛ وهذا ظاهر .

---

(1) فى قوله تعالى : « وإن من شىء الا يسبح بحمده ... » آية ٤٤

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أكثر عذاب القبر في البول" . احتج الآخرون بخلع النبيّ صلى الله عليه وسلم نعليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قذرا وأذًى ... الحديث . خرّجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْري، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى (١) . قالوا : ولمّا لم يُعِد ما صلى دل على أن إزالة النجاسة وصلاته صحيحة، ويعيد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة – قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغلي (٢) ؛ [يعني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار] (٣) قياسا على المَسْرُبة (٤) ففاسد من وجهين ؛ أحدهما – أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني – أن هذا الذي خُفف عنه في المَسْرُبة رخصة للضرورة، والحاجة والرخص لا يقاس عليها؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرَدّ إليه .

قوله تعالى : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ أي أصّل، وهو استفهام معناه التقرير . و « مَن » بمعنى الذي، وهي في موضع رفع بالابتداء، وخبره « خير » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أُسِّسَ بُنْيانُه » على بناء أسّس للمفعول ورفع بنيان فيهما . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ « أَسَّسَ بنيانَه » على بناء الفعل للفاعل ونصب بنيانه فيهما، وهي اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به ، وأن الفاعل سمّي فيه . وقرأ نصر بن عاصم وابن عليّ « أفمن

(١) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » آية ١٢ .
(٢) دراهم ضربها رأس البغل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (٣) زيادة عن ابن العربي .
(٤) المسربة (بفتح الراء وضمها) : مجرى الحدث من الدبر، يريد أعلى الحلقة .

أَسَّسُ» بالرفع «بُنيانِه» بالخفض . وعنه أيضا « أساس بنيانه » وعنه أيضا « أُسُّ بنيانِه » بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهى « أفمن آساس بنيانه » . قال النحاس : وهذا جمع أُسٍّ؛ كما يقال : خف وأخفاف، والكثير « إساس » مثل خِفاف . قال الشاعر :

أصبح المُلْكُ ثابت الآساس * فى البَهالِيـلِ من بنى العَبّاس[1]

الثانيــة — قوله تعــالى : ﴿ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ﴾ قراءة عيسى بن عمــر — فيما حكى سيبويه — بالتنوين، والألف ألف إلحاق كألف تَتْرًى فيما نُوِّن، وقال الشاعر :[2]

* يَسْتَنُّ فى عَلْقَى وفى مُكُورِ *[2]

وأنكر سيبويه التنوين، وقال : لا أدرى ما وجهه . ﴿ عَلَى شَفَا ﴾ الشفا : الحرف والحدّ، وقد مضى فى «آل عمران »[3] مستوفًى. و ﴿ جُرُفٍ ﴾ قرئ برفع الراء، وأبو بكر وحمزة بإسكانها؛ مثل الشُّغُل والشُّغْل، والرُّسُل والرُّسْل، يعنى جُرُفًا ليس له أصل. والجُرُف: ما يُتجرَّف بالسيول من الأودية، وهو جوانبه التى تنحفر بالماء، وأصله من الجَـرْف والاجتراف؛ وهو اقتـلاع الشىء من أصله. ﴿ هَارٍ ﴾ ساقط؛ يقال: تهوّر البناء إذا سقط، وأصله هائر، فهو من المقلوب يقلب وتؤخر ياؤها، فيقال : هارٍ وهائر، قاله الزجاج. ومثله لاثَ الشىءُ به إذا دار؛ فهو لاثٍ أى لائث . وكما قالوا : شاكى السلاح وشائك . قال العجاج :

* لاثٍ به الأشاء والعُـبْرِىّ *

الأشاء النخل ، والعُبْرِىّ السِّدْر الذى على شاطىء الأنهار . ومعنى لاث به مُطِيف به . وزعم أبو حاتم أن الأصل فيــه هاوِر، ثم يقال هائر مثل صائم، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائى أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء، وأنه يقال : تهور وتهير .

قلت : ولهذا يمـال و يفتح .

---

(١) راجع هذا البيت وشرحه فى الأغانى ج ٤ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو العجاج، يصف ثورا يرتعى فى ضروب من الشجر؛ والعلق والمكور: ضربان من الشجر . ومعنى يستن: يرتعى، وسنّ الماشية رعيا . (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع ج ٤ ص ١٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثــة ــ قوله تعـالى . ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل آنهار الجُرُف؛ كأنه قال : فانهار الجرف بالبنيان فى النار؛ لأن الجرف مذكر . ويجوز أن يكون الضـمير فى به يعود على مَن وهو البانى؛ والتقدير : فانهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهـذه الآية ضربُ مثلٍ لهم، أى من أسس بنيانه على الإسـلام خير أمْ مَن أسس بنيانه على الشرك والنفاق . وبيّن أن بناء الكافر كبناء على جُرُف جهنم يتهور بأهله فيها . والشَّفا : الشفير . وأشفى على كذا أى دنا منه .

الرابعــــة ــ فى هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنيّة تقوى الله تعالى والقصـد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويَسْـعَد به صاحبه ويصـعد إلى الله ويرفع إليه، ويخبر عنه بقوله : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلَالِ وَالْإِكْرَامِ » على أحد الوجهين . ويخبر عنه أيضا بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامســــة ــ واختلف العلمـاء فى قوله تعالى : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول ــ أن ذلك حقيقة وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهدم رؤى الدخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جُبير . وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضع الذى انهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبى النَّجُود عن زِرّ بن حُبيش عن آبن مسعود أنه قال : جهنم فى الأرض ، ثم تلا « فانهار به فى نار جهنم » . وقال جابر ابن عبدالله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى ــ أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء فى نار جهنم ، فكأنه انهـار إليه وهَوَى فيه؛ وهـذا كقوله تعالى : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » . والظاهر الأول، إذ لا إحالة فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا ﴾ يعنى مسجد الضّرار . ﴿ رِيبَةً ﴾ أى شكا فى قلوبهم ونفاقا؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ

وقال الكلبى : حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنيانه . وقال السُّدّىّ وحبيب والمبرّد : « رِيبة » أى حزازة وغيظا . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : اى تنصدع قلوبهم فيموتوا؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »(١) لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين؛ وقاله قتادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم فى قبورهم؛ وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة فى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم. وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون فى شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا. واختلف القراء فى قوله « تَقَطَّع » فالجمهور « تُقَطَّع » بضم التاء وفتح القاف وشد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب كذلك إلا أنهم فتحوا التاء . وروى عن يعقوب وأبى عبد الرحمن « تُقْطَع » على الفعل المجهول مخفف القاف . وروى عن شبل وابن كثير « تَقْطع » خفيفة القاف « قلوبَهم » نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم(٢) .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

---

(١) آية ٤٦ سورة الحاقة . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيــه ثمــان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ قيل : هذا تمثيل؛ مثل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »(١) . ونزلت الآية في البيعة الثانية؛ وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيهـا رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنًّا عُقبة بن عمرو؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أشترِطُ لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فمـا لنا ؟ قال : "الجنة" قالوا : رَبِح البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل؛ فنزلت : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الآية . ثم هي بعــدُ ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمــة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانيـــة ــ هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده، وإن كان الكل للسيد لكن إذا ملّكه عامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه وبين غيره؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثـــة ــ أصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع ؛ فاشترى الله سبحانه من العبـاد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظيم لا يدانيــه المعوّض ولا يقاس به، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء، فمن العبـد تسليم النفس والمـال، ومن الله الثواب والنوال؛ فسمى هــذا شراء . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذُل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بِرّ فوق ذلك " . وقال الشاعر :

الجود بالمـال جود فيــه مكرمة * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(١) آية ١٦ سوره البقرة .

وأنشد الأصمعي لجعفر الصادق رضي الله عنه :

أُثَامِنُ بالنفس النفيسة ربَّها * وليس لها في الخلق كلِّهم ثَمَنْ
بها تُشترى الجناتُ ، إن أنا بعتها * بشيء سواها إن ذلكم غَبَنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيا أصبتُها * لقد ذهبتْ نفسي وقد ذهب الثمن

قال الحسن : ومرّ أعرابيّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم » فقال : كلام مَن هذا ؟ قال : "كلام الله" قال : بيعٌ والله مُرْبِح لا نُقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغَزْو واستُشْهِد .

الرابعة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلّفين كذلك اشترى من الأطفال فآلمهم وأسقمهم ؛ لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين ، فإنهم لا يكونون عند شيء أكثر صلاحا وأقلّ فسادا منهم عند ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهَمّ ويتعلق بهم من التربية والكفالة . ثم هو عز وجل يعوّض هؤلاء الأطفال عِوَضا إذا صاروا إليه . ونظير هذا في الشاهد أنك تكترى الأجير ليَبْنِيَ وينقل التراب وفي كل ذلك له ألم وأذى ، ولكن ذلك جائز لما في عمله من المصلحة ولما يصل إليه من الأجر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لما يقاتَل له وعليه ؛ وقد تقدم . ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ النَّخَعِيّ والأعمش وحمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* فإن تَقتُلونا نُقتّلكم ... *

أي إن تقتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام . و « وعدًا » و « حقًّا » مصدران مؤكّدان .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحدَ أوفى بعهده من الله . وهو يتضمّن الوفاء بالوعد والوعيد ، ولا يتضمن وفاء البارئ بالكل ؛ فأما وعده فللجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وببعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أى أظهروا السرور بذلك . والبشارةُ إظهارُ السرور فى البَشَرة . وقد تقدم[1] . وقال الحسن : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعالى : ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع ، والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين . ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أى الراضون بقضائه المصرفون نعمته فى طاعته ، الذين يحمدون الله على كل حال . ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : « عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ »[2] . وقال سفيان بن عُيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلَّها من المطعم والمشرب والنكاح . وقال أبو طالب :

وبالسائحين لا يذوقون قطرة * لربّهم والذاكرات العوامل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥ سورة التحريم .

وقال آخـــر :

برًّا يصـــلّى ليـــله ونهـــاره ﴿ يَظَلّ كثـيرَ الذكر لله سائحا

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيامُ ؛ أسنده الطبرى . ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتى الصيام " . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أُمامة أن رجلا استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى السياحة فقال : " إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : السائحون المهاجرون ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم؛ قاله عكرمةُ . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتعظيمه ؛ حكاه النقاش . وحُكى أن بعض العُبّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه فى أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر؛ فقيل له فى ذلك فقال : أدخلت أصبعى فى أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : « إذ الأغْلَالُ فى أعْنَاقِهِمْ والسَّلاسِلُ »(1) وذكرت كيف أتلقى الغُلّ وبقيت ليلى فى ذلك أجمع .

قلت : لفظ «سَيح» يدل على صحة هذه الأقوال؛ فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ؛ فالصائم مستمر على الطاعة فى ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذُكر . وفى الحديث : " إن لله ملائكة سياحين مشّائين فى الآفاق يبلغوننى صلاة أمتى " ويروى " صياحين " بالصاد، من الصِّياح . ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة وغيرها . ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بالسُّنّة ، وقيل بالإيمان . ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ قيل عن البِدْعة ، وقيل عن الكفر . وقيل : هو عموم فى كل معروف ومنكر . ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ أى القائمون لما أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

---

(1) آية ٧١ سورة غافر .

الثانيــة — واختلف أهل التأويل فى هذه الآية، هل هى متصلة بمـا قبلُ أو منفصلة؛ فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها ؛ يقع تحت تلك المبايعة كُلّ موحّد قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات فى هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة : هــذه الأوصاف جاءت على جهــة الشرط، والآيتان مرتبطتان؛ فلا يدخل تحت المبايعة الا المؤمنون الذين هم على هــذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم فى سبيل الله؛ قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلمــاء والشرع أنها أوصاف الكَمَلَة من المؤمنين، ذكرها الله ليستبق اليها أهل التوحيد حتى يكونوا فى أعلى مرتبــة . وقال الزجاج : الذى عنــدى أن قوله « التائبون العابدون » رفع بالابتــداء وخبره مضمر؛ أى التائبون العابدون — إلى آخر الآية — لهم الجنــة أيضا وإن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناد وقصــد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض فى الجهاد . واختار هذا القول القشيرى وقال : وهذا حسن؛ إذ لو كان صفة للؤمنين المذكورين فى قوله : « اشترى من المؤمنين » لكان الوعد خاصا للجاهدين . وفى مصحف عبــد الله « التائبــين العابدين » إلى آخرها ؛ ولذلك وجهان : أحدهما الصــفة للؤمنين على الإتباع . والثانى النصب على المدح .

الثالثــة — واختلف العلماء فى الواو فى قوله : ﴿ وَالنَّاهُونَ عنِ المُنْكَرِ ﴾ فقيل : دخلت فى صفة الناهين كما دخلت فى قوله تعالى : « حــمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الْعليم . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها . وهذا سائغ معتاد فى الكلام ولا يُطلب لمثله حكمة ولا علّة . وقيل : دخلت لمصاحبة الناهى عن المنكر الآمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفردا . وكذلك « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا »(١) . ودخلت فى « والحافظون » لقربه من المعطوف . وقد قيل : إنها زائدة، وهــذا ضعيف لا معنى له . وقيل : هى واو الثمانية، لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح . وكذلك قالوا فى قوله : « ثَيِّبَاتٍ وأبكارا »

(١) آية ٥ سورة التحريم .

وقوله فى أبواب الجنة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »[1] وقوله : « ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبهم »[2] وقد ذكرها ابن خالويه فى مناظرته لأبى على الفارسى فى معنى قوله : « وفتحت أبوابها » وأنكرها أبو على . قال ابن عطية : وحدثنى أبى رضى الله عنه عن الأستاذ النحوى أبى عبد الله الكفيف المالقى، وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها فى مدة ابن حبوس أنه قال : هى لغة فصيحة لبعض العرب؛ من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة؛ وهكذا هى لغتهم . ومتى جاء فى كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو . قلت : هى لغة قريش . وسيأتى بيانه ونقضه فى سورة « الكهف »[3] إن شاء الله تعالى وفى الزمر[4] .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدَ الله بن أبى أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عَمِّ، قل لا إله إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخرما كلّمهم : هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمَا والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك " فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولِي قُرْبَى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم » . وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) فى قوله تعالى : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ...» آية ٢٢ (٤) فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣

لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١) » . فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمه؛ فإنه استغفر له بعد موته على ماروى فى غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن، ومات طالب فى عنفوان الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانيــة ــ هذه الآية تضمّنت قطع موالاة الكفار حيّهم وميتهم؛ فان الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين؛ فطلبُ الغفران للمشرك ممـا لايجوز . فان قيل : فقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد حين كسروا رَبَاعِيَته وشجّوا وجهه : " اللّهمّ اغفر لقومى فانهم لا يعلمون "؛ فكيف يجتمع هـذا مع منع الله تعالى رسولَه والمؤمنـين من طلب المغفرة للمشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا كان على سبيل الحكاية عمّن تقدمه من الأنبيـاء، والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأنى أنظر إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم يحكى نبيّا من الأنبيـاء ضربه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون " . وفى البخارى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر نبيّا قبله شجّه قومُـه فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال : " اللّهمّ اغفـر لقومى فانهم لا يعلمون " .

قلت : وهذا صريح فى الحكاية عمن قبله، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبيّ الذى حكاه هو نوح عليه السلام؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « هود » إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار فى الآية الصلاةُ . قال بعضهم : ما كنت لأدَعَ الصلاة على أحد من أهل القبـلة ولو كانت حبشيّة حُبلى من الزنى ؛ لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية . قال عطاء بن أبي رَبَاح : الآية فى النهى عن الصـلاة على المشركين ، والاستغفارُ هنـا يراد به الصلاة . جواب ثالث ــ وهو أن الاستغفار للأحيـاء جائز؛ لأنه مرجوّ إيمانهم، ويمكن

(١) آية ٥٦ سورة القصص

تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم فى الدّين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعُوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ماداما حيين. فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعَى له. قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت، فأمسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثة ــ قال أهل المعانى : « ما كان » فى القرآن يأتى على وجهين : على النفى نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »[1] ، « ومَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ »[2]. والآخر بمعنى النهى كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ »[3]، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى النّسائىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبويه . فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فنزلت ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾. والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ؛ فان ذلك لم يكن إلا عن عِدَة . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعدَ إبراهيم الخليلَ أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر علم أنه عدوّ الله، فترك الدعاء له ؛ فالكناية فى قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ؛ أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ؛ فلما مات مشركا تبرّأ منه . ودلّ على هذا الوعد قوله : « سأَسْتغفرُ لك ربِّى »[4] . قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : تعلق النبىّ صلى الله عليه

(١) آية ٦٠ سورة النمل. (٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران. (٣) آية ٥٣ سورة الأحزاب.
(٤) آية ٤٧ سورة مريم.

وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى : « سأستغفر لك ربّي » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبيّن الكفر منه، فلما تبيّن له الكفر منه تبرأ منه، فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانيـــة — ظاهر حالة المرء عند الموت يُحكم عليه بها؛ فإن مات على الإيمان حكم له به، وإن مات على الكفر حُكم له به؛ وربّك أعلم بباطن حاله؛ بَيْدَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يارسول الله، هل نفعت عمّك بشيء ؟ قال : "نعم". وهذه شفاعة في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار؛ على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء في الأوّاه على خمسة عشر قولا : الأول — أنه الدّعّاء الذي يكثر الدعاء؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير . الثاني — أنه الرحيم بعباد الله؛ قاله الحسن وقتادة، وروي عن ابن مسعود . والأول أصح إسنادا عن ابن مسعود؛ قاله النحاس . الثالث — أنه الموقن؛ قاله عطاء وعكرمة، ورواه أبو ظبيان عن ابن عباس . الرابع — أنه المؤمن بلغة الحبشة؛ قاله ابن عباس أيضا . الخامس — أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة؛ قاله الكلبي وسعيد ابن المسيّب . السادس — أنه الكثير الذكر لله تعالى؛ قاله عقبة بن عامر، وذكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : "إنه لأوّاه" . السابع — أنه الذي يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروي عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن — أنه المتأوّه؛ قاله أبو ذرّ . وكان إبراهيم عليه السلام يقول : "آه من النار قبل ألّا تنفع آه" . وقال أبو ذرّ : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه : أَوْهِ أَوْهِ؛ فشكاه أبو ذرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دعه فإنه أوّاه" فخرجتُ ذات ليلة فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . التاسع — أنه الفقيه؛ قاله مجاهد والنَّخَعيّ . العاشر — أنه المتضرع الخاشع؛ رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت امرأة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء كرهه فنهاها عمر فقال النبيّ صلى الله عليه

وسلم : "دَعُوها فإنها أوّاهة" قيل : يا رسول الله، وما الأوّاهة ؟ قال : "الخاشعة" .
الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياه آستغفر منها؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر —
أنه الكثير التأوّه من الذنوب؛ قاله الفرّاء . الثالث عشر — أنه المعلِّم[1] للخير؛ قاله سعيد
ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشفيق ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق
رضى الله عنه يُسمّى الأوّاه لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجع عن كل ما يكره الله
تعالى ؛ قاله عطاء . وأصله من التأوّه ، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفّس الصُّعَداء .
قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوّه . قال الجوهرى : قولهم عند الشكاية
أَوْهِ من كذا (ساكنة الواو) إنما هو توجّع . قال الشاعر :

فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتها * ومن بُعد أرض بيننا وسماء

وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : آهِ من كذا . وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء
فقالوا : أَوِّهْ من كذا . وربما حذفوا مع التشديد الهاء فقالوا : أوِّ من كذا؛ بلا مدّ .
وبعضهم يقول : آوّهْ، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية .
وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أوّتاه؛ يمدّ ولا يمدّ . وقد أوّه الرجل تأويها وتأوّه تأوّها إذا
قال أوّهْ . والاسم منه الآهة بالمد . قال المثقّب العَبْدِىّ :

إذا ما قمتُ أرحلُها بليلٍ * تأوّهُ آهةَ الرجلِ الحزينِ

والحليم : الكثير الحلم، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم
يعاقب أحدا قطّ إلا فى الله ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان ابراهيم عليه السلام كذلك،
وكان إذا قام يصلى سُمع وجيب[2] قلبه على ميلين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ
لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

(١) معلم كل شىء : مظنته . (٢) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ أى ما كان الله ليوقع الضلالة فى قلوبهم بعد الهُدَى حتى يُبيّن لهم ما يتقون فلا يتقوه، فعند ذلك يستحقون الإضلال .

قلت : ففى هذا أدل دليل على أن المعاصى إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سببا إلى الضلالة والردى، وسُلّما إلى ترك الرشاد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنه . وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله فى قوله « حتى يبيّن لهم » : أى حتى يحتج عليهم بأمره؛ كما قال : « وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها »(١) وقال مجاهد : « حتى يبيّن لهم » أى أمر إبراهيم ؛ أى لا يستغفروا للمشركين خاصّة ويبين لهم الطاعة والمعصية عامّة . وروى أنه لما نزل تحريم الخمر وشُدّد فيها سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عمن مات وهو يشربها ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قوما بعد إذ هداهم حتى يُبيّنَ لهم ما يتقون » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمانهم ؛ كما تقدّم(٢) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم معناه غير مرة(٣) .

قوله تعالى : لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

روى الترمذى حدّثنا عبد بن حميد حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم أتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ، ولم يعاتب النبيّ صلى الله عليه وسلم أحدا تخلّف عن بدر، إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مُغوثين لعيرهم، فالتقوا عن غير موعد؛

(١) آية ١٦ سورة الاسراء . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . وجـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

كما قال الله تعالى ؛ ولعمرى إن أشرف مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس لبَدْر ، وما أحبّ أنى كنت شهدتُها مكان بيعتى ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعدُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها ، وآذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرحيل ؛ فذكر الحديث بطوله قال : فانطلقت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كاستنارة القمر ، وكان إذا سُرّ بالأمر استنار ؛ فجئت فجلست بين يديه فقال : " أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك " فقلت : يا نبيّ الله ، أمن عند الله أم من عندك ؟ قال : "بل من عند الله — ثم تلا هذه الآية — " لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة — حتى بلغ — إن الله هو التواب الرحيم " قال : وفينا أنزلت أيضا « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وذكر الحديث . وسيأتى مكمّلا فى صحيح مسلم فى قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء فى هذه التوبة التى تابها الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبيّ لأجل إذنه للمنافقين فى القعود ؛ دليله قوله : « عفا الله عنك لِمَ أذِنتَ لهم »(1) وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدوّ ، وعبّر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم ؛ كقوله « فأن لله خُمُسَه وللرسول » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى فى وقت العسرة ، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشدّ الساعات التى مرت بهم فى تلك الغزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهر وعسرة الزاد

---

(1) آية ٤٣ من هذه السورة .

وعسرة الماء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم ، وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة المنتنة [(١)] ، وكان النّفَر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جُرْعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم ، فلا يبقى على التمرة إلا النواة ؛ فمضَوْا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سئل عن ساعة العسرة : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه [(٢)] فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا . قال : " أتحب ذلك " ؟ قال نعم ؛ فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعةٌ وقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا [(٣)] فأكلنا وادّهنا . [فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " افعلوا "] [(٤)] فجاء عمر وقال : يا رسول الله إن فعلوا قلّ الظَّهر ، ولكن ادْعُهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك . قال " نعم " ثم دعا بنطع [(٥)] فبُسط ، ثم دعا بفضل الأزواد ؛ فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير . قال أبو هريرة : فحزّرته فإذا هو قدر رُبضة العنز [(٦)] ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ ثم قال : " خذوا فى أوعيتكم " فأخذوا فى أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ، وفضلت فضلة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسولُ الله لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة " . خرّجه مسلم فى صحيحه

---

(١) الإهالة : الشحم . (٢) الفرث : السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .
(٣) الناضح : البعير يستقى عليه ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل الماء . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .
(٥) النطع : بساط من الأديم . (٦) ربضة العنز (بضم الراء وتكسر) : جثتها إذا بركت .

بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ابن عرفة : سُمّي جيشُ تبوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَب الناس إلى الغزو في حَمَارّة القيظ، فغلُظ عليهم وعَسُر، وكان إبّان ابتياع الثمرة . قال : وإنما ضُرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغز قبله في عدد مثله؛ لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، ويوم أُحُد سبعمائة، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة، ويوم الفتح عشرة آلاف، ويوم حُنين اثنى عشر ألفا؛ وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة، وهي آخر مغازيه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب وأقام بتبوك شعبان وأياما من رمضان، وبثّ سراياه وصالح أقواما على الجزية . وفي هذه الغزاة خلّف عليًّا على المدينة فقال المنافقون : خلّفه بُغضا له؛ فخرج خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره، فقال عليه السلام : " أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى " ؛ وبيّن أن قعوده بأمره عليه السلام يوازي في الأجر خروجه معه؛ لأن المدار على أمر الشارع . وإنما قيل لها غزوة تبوك لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى قوما من أصحابه يَبُوكُون حِسْيَ تبوك، أي يدخلون فيه القدح ويحركونه ليخرج الماء، فقال : " ما زلتم تَبُوكُونها بَوْكًا " فسمّيت تلك الغزوة غزوة تبوك . الحسي (بالكسر) ما تنشفه الأرض من الرمل ، فإذا صار إلى صلابة أمسكته، فتحفر عنه الرملَ فتستخرجه، وهو الاحتساء؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ « قلوب » رفع بيزيغ، عند سيبويه . ويضمر في « كاد » الحديث تشبيها بكان؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان . وإن شئت رفعتها بكاد، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص « يزيغ » بالياء، وزعم أبو حاتم أن من قرأ « يزيغ » بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجميع . حكى الفراء : رَحُب البلاد وأرحبت، ورَحُبت لغة أهل الحجاز . واختلف في معنى تزيغ، فقيل : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقال ابن عباس : تعدل — أي تميل — عن الحق في الممانعة والنصرة.

وقيل : من بعد ما همّ فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به . وقيل : هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وذلك سُنّة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطّنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منك أرجو ولستُ أعرف رَبًّا * يُرْتَجى منه بعضُ ما منك أرجو
وإذا اشتدت الشدائد في الأر * ض على الخلق فاستغاثوا وعجُّوا
وابتليتَ العبادَ بالخوف والجو * ع وصرّوا[1] على الذنوب ولجُّوا
لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ * فتيقّنتُ أنني بك أنجُو

وقال في حق الثلاثة « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فقيل : معنى « ثم تاب عليهم » أي وفقهم للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم؛ أي فسّح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا . وقيل : تاب عليهم ليثبتوا على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا؛ دليله قوله عليه السلام : " اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له " .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ قيل : عن التوبة؛ عن مجاهد وأبي مالك . وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحُكي عن محمد بن زيد معنى « خُلِّفوا » تُركوا؛ لأن معنى خلّفت فلانا تركته وفارقته قاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفوا » أي أقاموا بعقب

(١) يريد « أصروا » .

ول الله صلى الله عليه وسلم. ورُوى عن جعفر بن محمد أنه قرأ «خالفوا» . وقيل. «خلفوا» أى أرجئوا وأُخّروا عن المنافقين فلم يُقض فيهم بشيء . وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقُبل عذرهم، وأخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن. وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما . واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثةُ عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللهُ فيه؛ فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا و إرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبِل منه . وهذا الحديث فيه طول ، هذا آخره[1] .

والثلاثة الذين خُلِّفوا هم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن ربيعة العامريّ ، وهلال ابن أميّة الواقفيّ، وكلّهم من الأنصار . وقد خرّج البخاريّ ومسلم حديثَهم، فقال مسلم عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قطّ إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلّف عنه، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عِير قريش؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبّ أنّ لى بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدرٌ أذْكَرَ فى الناس منها، وكان من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قطّ حتى جمعتهما فى تلك الغزوة؛ فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوّا كثيرا؛ فجَلّا للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبة غَزْوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتابُ حافظ

---

(١) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة .

— يريد بذلك الديوان — قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله تعالى، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال؛ فأنا إليها أصعر(١)، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل كذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأدركهم؛ فياليتنى فعلت ! ثم لم يقدّر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا(٢) عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : "ما فعل كعب بن مالك" ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله، حبسه برداه والنظر فى عطفيه(٣) . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينا هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب(٤) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كن أبا خيثمة" ؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى، وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى؛ فلما قيل لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه

(١) أى أميل . (٢) أى مطعونا عليه فى دينه، متهما بالنفاق . (٣) هذا كناية عن كونه معجبا بنفسه، ذا زهو وتكبر . (٤) المبيض (بكسر الياء): لابس البياض . والسراب : ما يظهر فى الهواجر فى البرارى كأنه الماء . ويزول أى يتحرك .

ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المُغْضَب ، ثم قال : "تعال" بجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لى : " ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك " ؟ قال : قلت يارسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيتُ جَدَلا (١) ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليومَ حديثَ كذب ترضى به عنى ليوشكن اللهُ أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد (٢) علىّ فيه إنى لأرجو فيه عُقبى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضيَ الله فيك " . فقمت وثار (٣) رجال من بنى سَلِمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ! لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى . قال : ثم قلت لهم هل لَقِيَ هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن ربيعة العامرىّ وهلال بن أمية الواقفىّ . قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى . قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثةُ من بين من تخلف عنه . قال فاجتنبنا الناسُ ، وقال : تغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرضُ ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القومِ وأجلدَهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى

(١) أى فصاحة وقوة كلام بحيث اخرج من عهدة ما ينسب إلىّ بما يقبل ولا يرد . (٢) تجد : تغضب .
(٣) أى وثبوا علىّ .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك علىّ من جَفْوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبى قتادة، وهو ٱبن عمّى وأحبّ الناس إلىّ فسلّمت عليه، فوالله ما ردّ علىّ السلام، فقلت له : يا أبا قتادة أنْشُدُك بالله ! هل تعلَمَنّ أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعُدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناى، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نَبَطِىٌّ من نَبَط أهلِ الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ قال : فطفق الناس يُشيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتابا من مَلِك غسّانَ ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة فٱلْحَقْ بنا نُواسِك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء! فتياممت بها التنّورَ فَسَجَرْتُه بها(١)، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين وٱستلبَثَ الوَحْىُ إذا رسولُ(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل ٱمرأتك . قال فقلت : أطلقها أمماذا أفعل؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربَنّها . قال : فأرسل إلى صاحِبَىّ بمثل ذلك . قال فقلت لامرأتى : ٱلْحَقِى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخْدُمَه ؟ قال : " لا ولكن لا يقربَنّك" فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء! ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهلى لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ٱمرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمه . قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يُدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

---

(١) أى أوقدته بالصحيفة . (٢) قال الواقدى . هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت .

استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا . قال : ثم صلّيت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبت سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْع[(١)] يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . قال : فخَرَرت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبل صاحبيّ مُبَشِّرون ، وركض رجل إليّ فرسا ، وسعى ساعٍ من أسلَمَ قِبَلي وأوفى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أتأمّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا ، يهنئونني بالتوبة ويقولون : لِتَهْنِئْكَ توبةُ الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيرُه . قال : فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور ويقول : " أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك " . قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟ قال : " لا بل من عند الله " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعةُ قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك " . قال فقلت : فإني أمسك سهميَ الذي بخيبر . قال وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقا ما بقيت . قال : فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ

---

(١) أي أشرف على جبل سلع . قال الواقدي : هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا أحسنَ ممـا أبلانى الله به، والله ما تعمّدت كَذِبة منذ قلتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا، و إنى لأرجو الله أن يحفظنى فيما بَقِىَ؛ فأنزل الله عز وجل : « لقد تاب الله على النبىّ والمهاجرين والأنصار الذين ٱتبعوه فى ساعة العُسْرة ـ حتى بلغ ـ إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمـا رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم ـ حتى بلغ ـ اتقوا ٱلله وكونوا مع الصادقين » . قال كعب : والله ما أنعم الله علىّ من نعمة قطُّ بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألّا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوَحْىَ شرّ ما قال لأحد، وقال الله تعـالى : «سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لكم إذا ٱنقلبتم إليهم لِتُعْرِضُوا عنهم فأعْرِضوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنم جزاء بمـا كانوا يكسبون . يحلفون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهـم فإن الله لا يرضى عن القـوم الفاسقين » . قال كعب : كنا خُلِّفنا أيهـا الثلاثةُ عن أمر أولئك الذين قَبِل منهـم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حَلَفُوا له فبايَعهم وٱستغفرَ لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة » ، وليس الذى ذَكر الله ممـا خُلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو، و إنمـا هو تخليفه إيانا و إرجاؤه أمرنا عمن حلف له وٱعتذر إليه فقَبِل منه .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أى بمـا ٱتسعت؛ يقال : منزل رَحْب ورحيب ورُحاب . و « ما » مصدرية ؛ أى ضاقت عليهم الأرض برَحْبهـا ، لأنهم كانوا مهجورين لا يعامَلون ولا يكلَّمون . وفى هذا دليل على هِجران أهل المعاصى حتى يتوبوا .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أى ضاقت صدورهم بالهمّ والوَحْشة ، و بمـا لقوه من الصحابة من الجَفْوة . ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ أى تيقّنوا أن لا ملجأ يلجئـون إليه فى الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الورّاق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بمـا رَحُبت . وتضيق عليه نفسـه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : غلطت فى أربعة أشياء : فى الابتداء مع الله تعالى، ظننت أنى أحبه فإذ هو أحبنى؛ قال الله تعالى: « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أنى أرضى عنه فإذا هو قد رضى عنى؛ قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أنى أذكره فإذا هو يذكرنى؛ قال الله تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أنى أتوب فإذا هو قد تاب على؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة؛ كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمنوا »[1] . وقيل : أى فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »[2]

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين . قال مُطَرِّف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقا لا يكذب إلا مُتِّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أى اتقوا مخالفة أمر الله . ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين . أى كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم . وقيل : هم الأنبياء؛ أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة . وقيل : هم المراد بقوله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم[3] — الآية إلى قوله — أولئك الذين صدقوا » . وقيل : هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى : « رجالٌ صدقوا ما عاهدوا

---

(١) آية ١٣٦ سورة النساء . (٢) آية ١٦٠ سورة النساء . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية .

الله عليه(١)» . وقيل : هم المهاجرون؛ لقول أبى بكر يوم السقيفة : إن الله سمّانا الصادقين فقال : « للفقراء المهاجرين » الآية(٢)، ثم سماكم بالمفلحين فقال : « والذين تبوّءوا الدارَ والإيمانَ » الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربى : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التى إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق فى العقيدة والمخالفةُ فى الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبى بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبى بكر الصديق فهو الذى يعم الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانيــة ـــ حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصّدق فى الأقوال، والإخلاص فى الأعمال، والصفات(٣) فى الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال صلى الله عليه وسلم : "عليكم بالصّدق فإن الصّدق يهدى إلى البرّ وإن البرّ يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصْدُق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا" . والكذب على الضد من ذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" . خرّجه مسلم . فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة، وقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة رجل فى كذبة كذبها . قال معمر : لا أدرى أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل شُريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله، رجل سمعتُه يكذب متعمّدا أؤصلّى خلفه؟ قال لا . وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » هل ترون فى الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يُقبل خبر الكاذب فى حديث الناس وإن صدق فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : يُقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كملت خصاله ولا خصلة هى أشرّ من الكذب فهى تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (٢) آية ٨ سورة الحشر . (٣) لعلها « الصفاء » بالمد .

قوله تعـالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر ؛ كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ » وقد تقدم . ﴿ أَنْ يَتَخَلَّفُوا ﴾ في موضع رفع اسم كان . وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها ؛ كمُزَيْنة وجُهينة وأَشْجَع وغفار وأسلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . والمعنى : ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا؛ فإن النفير كان فيهم، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستنفَروا ؛ في قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل مسلم، وخصّ هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحقّ بذلك من غيرهم .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدّعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المشقة . يقال رغِبت عن كذا أي ترفّعت عنه .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي عطش . وقرأ عبيد ابن عمير « ظَمَاء » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ عطف، أي تعب، ولا زائدة للتوكيد . وكذا ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعة . وأصله ضمور البطن، ومنه رجل خميص

وآمرأة مُحصانة . وقد تقدم.(١) ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى فى طاعته . ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ أى أرضا . ﴿ يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أى بوطئهم إياها، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للموطىء، أى غائظا . ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ أى قتلا وهزيمة . وأصله من نِلْت الشىء أنال أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمرٌ منيل منه ؛ وليس هو من التناول، إنما التناول من نُلْته العطية . قال غيره : نُلت أنول من العطية، من الواو والنيلُ من الياء، تقول: نِلته فأنا نائل، أدركته . ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ العرب تقول : وادٍ وأودية، على غير قياس. قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعلة سواه، والقياس أن يجمع ووادى، فآستثقلوا الجمع بين واوين وهم يستثقلون واحدة، حتى قالوا : أقِّتَتْ فى وُقِّتت . وحكى الخليل وسيبويه فى تصغير واصل اسم رجل أُوَيْصل فلا يقولون غيره . وحكى الفراء فى جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداء، قال جرير :

عرفت ببُرْقَة الأوداءِ رَسْما * مُحِيلا طال عَهْدُك من رُسوم(٢)

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم ﴾ قال ٱبن عباس : بكلِّ روعة تنالهم فى سبيل الله سبعون ألف حسنة . وفى الصحيح : "الخيل ثلاثة ... — وفيه — وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مَرْج(٣) أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كُتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات" . الحديث . هذا وهى فى مواضعها فكيف إذا أُدْرِب(٤) بها .

الرابعة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تُستحق بالإدراب والكون فى بلاد العدو، فإن مات بعد ذلك فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك، وأحد قولى الشافعى . وقال مالك وٱبن القاسم : لا شىء له ؛ لأن الله عز وجل إنما ذكر فى هذه الآية الأجر ولم يذكر السهم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى ديوانه ومعجم البلدان لياقوت : «ببرقة الرداء» والوداء : واد أعلاه لبنى العدوية والتيم ، وأسفله لبنى كليب وضبة . (٣) المرج : مرعى الدواب .
(٤) أدرب القوم : دخلوا أرض العدو .

قلت — الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذى يغيظهم ويدخل الذل عليهم ، فهو بمنزلة نيل الغنيمة والقتل والأسر؛ وإذا كان كذلك فالغنيمة تُستحق بالإدراب لا بالحيازة ، ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : ما وُطئ قوم فى عُقر دارهم إلا ذلّوا . والله أعلم

الخامســـة — هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلة ، فلما كثروا نُسخت وأباح الله التخلف لمن شاء؛ قاله ابن زيد . وقال مجاهد : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادى ليعلّموا الناس فلما نزلت هـذه الآية خافوا ورجعوا ؛ فأنزل الله « وما كان المؤمنون لينفِروا كافّة » . وقال قتادة : كان هـذا خاصًّا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ؛ فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خَلْفَه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث — أنها محكمة ؛ قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعيّ وابن المبارك والفزاريّ والسَّبيعى وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هـذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها

قلت — قول قتادة حسن ؛ بدليل غَزاة تبوك ، والله أعلم .

السادســـة — روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سِرتم مَسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا من وادٍ إلا وهم معكم فيـه" قالوا : يارسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينـة . ؟ قال : "حبسهم العذر" . خرّجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فقال : "إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض" . فأعطى صلى الله عليه وسلم للمعذور من الأجر مثلَ ما أعطى للقويّ العامل . وقد قال بعض الناس : إنمـا يكون الأجر للمعـذور غير مضاعف ، ويضـاعف للعامل المباشر . قال ابن العربيّ : وهذا تحكّم على الله تعالى وتضييق لسَعة رحمته ، وقد عاب بعض الناس فقال :

أنهم يُعطون الثواب مضاعفا قطعا ، ونحن لا نقطع بالتضعيف فى موضع فإنه مبنىّ على مقدار النيات ، وهذا أمر مُغَيَّب ، والذى يُقطع به أن هناك تضعيفا وربّك أعلم بمن يستحقه

قلت : الظاهر من الأحاديث والآى المساواةُ فى الأجر ، منها قوله عليه السلام : " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : "من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » . وبدليل أن النية الصادقة هى أصل الأعمال ، فإذا صحت فى فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بُعْد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه ؛ لقوله عليه السلام : " نية المؤمن خير من عمله " . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهى أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدم ؛ إذ لو نفر الكل لضاع مَن وراءهم من العيال ، فليخرج فريق منهم للجهاد وليُقِم فريق يتفقهون فى الدين ويحفظون الحريم ، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلّموه من أحكام الشرع ، وما تجدّد نزوله على النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى . « إلّا تنفروا » وللآية التى قبلها ؛ على قول مجاهد وآبن زيد .

الثانيــة ــ هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافّة والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مقيم لا يَنْفِر فيتركوه وحده . ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيتها مع النبىّ صلى الله عليه

وسلم ليتحملوا عنـه الدين ويتفقهوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بمـا سمعوا وعلموه ؛ وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان . ويدلّ عليه أيضا قوله تعالى : « فَاسْـأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كنتم لاتعلمون » (١) . فدخل فى هذا من لا يعلم الكتاب والسـنن .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ قال الأخفش : أى فهلّا نفر . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ ﴾ الطائفة فى اللغـة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقـدّم أن المراد بقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَـذِّبْ طَائِفَةً » (٢) رجل واحد . ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين؛ أحدهما عقلا ، والآخر لغة . أما العقل فلأن العلم لا يتحصّل بواحد فى الغالب ، وأما اللغة فقوله « لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّين ولِيُنْذِرُوا قومَهم » ؛ فجاء بضمير الجماعة . قال آبن العربي : والقاضي أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفـة ها هنا واحد، ويعتضدون (٣) فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهـة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبرُ واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنصّ ما يُستدلّ به على أن الواحد يقال له طائفة قولُه تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين آقتتلوا » (٤) يعنى نفسين . دليله قوله تعالى : « فأصلحوا بين أخَوَيكم » فجاء بلفظ التثنية ، والضـمير فى « اقتتلوا » وإن كان ضمـير جماعة فأقلّ الجماعة اثنان فى أحد القولين للعلمـاء .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ الضمير فى « ليتفقّهوا، وَلِيُنْذِرُوا » للقيمين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبرى . ومعنى ﴿ ليتفقّهوا فى الدين ﴾ أى يتبصّروا ويتيقّنوا بمـا يُريهم الله من الظهور على

---

(١) آية ٤٣ سورة النحل . (٢) آية ٦٦ من هذه السورة . (٣) فى الأصول : « ويقضون به على وجوب العمل » الخ . والتصويب عن ابن العربى . (٤) آية ٩ سورة الحجرات .

المشركين ونُصرة الدين . ﴿ ولِيُنْذِروا قومَهم ﴾ من الكفار . ﴿ إذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نبيّه والمؤمنين ، وأنهم لا يدانِ(١) لهم بقتالهم وقتالِ النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قات : قول مجاهد وقتادة أبيَن؛ أى لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفوز فى السّرايا . وهذا يقتضى الحثّ على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك فى قوة الكلام، وإنما لزم طلب العلم بأدلته؛ قاله أبو بكر بن العربى .

الخامســة ــ طلب العلم ينقسم قسمين : فرضٌ على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام .

قلت ــ وفى هــذا المعنى جاء الحــديث المروى " إن طلب العــلم فريضة " . روى عبــد القدوس بن حبيب أبو ســعيد الوُحَاظى عن حماد بن أبى سليمان عن ابراهيم النَّخَعِى قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرضٌ على الكفاية؛ كتحصين الحصون(٢) و إقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه؛ إذ لا يصلح أن يتعلّمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم وتنقص وتبطل معايشهم؛ فتعيّن بين الحالين أن يقــوم به البعض من غير تعيــين، وذلك بحسب ما يسّره الله لعبــاده وقسّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

السادســة ــ طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ روى الترمذى من حديث أبى الدَّرْداء قال : سمعت رسول الله صــلى الله عليه وســلم يقول : " من سلك طريقا يلتمس فيــه علما ســلك الله به طريقا إلى الجنة و إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم و إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف المــاء و إن فضــل العالم على العابد كفضل القمر ليــلة البدر على سائر الكواكب و إن العلماء ورثة الأنبيــاء و إن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارا ولا درهما إنمــا ورَّثوا العلم فمن أخذ به أخــذ بحظ

---

(١) يقال : مالى بفلان يدان؛ أى طاقة . (٢) فى الأصول : « كتحصيل الحقوق » .

وافر". وروى الدارمي أبو محمد في مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي عن الحسن قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم". أسنده أبو عمر في كتاب (بيان العلم) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي". وقال ابن عباس: أفضل الجهاد من بنى مسجدا يعلم فيه القرآن والفقه والسنة". رواه شريك عن ليث بن أبي سليم عن يحيى بن أبي كثير عن علي الأزدي قال: أردت الجهاد فقال لي ابن عباس: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتي مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه. وقال الربيع سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة. وقوله عليه السلام: "إن الملائكة لتضع أجنحتها" الحديث يحتمل وجهين: أحدهما — أنها تعطف عليه وترحمه، كما قال الله تعالى فيما وصى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» أي تواضع لهما. والوجه الآخر — أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها؛ لأن في بعض الروايات "وإن الملائكة تفرش أجنحتها" أي إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته وحملته عليها؛ فمن هناك يسلم فلا يحفى إن كان ماشيا ولا يعيا، وتقرب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المال وضلال الطريق. وقد مضى شيء من هذا المعنى في «آل عمران» عند قوله تعالى: «شهد الله» الآية.(1) وروى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة". قال يزيد بن هارون: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم.

(1) راجع جـ ٤ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية.

قلت : وهذا قول عبد الرزاق فى تأويله الآية ، إنهم أصحاب الحديث ، ذكره الثعلبيّ .
سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوى المحدّث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسى القرطبي المعروف بابن أبى حجة رحمه الله يقول فى تأويل قوله عليه السلام : " لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " : إنهم العلماء ، قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدّلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس ، ويطلق على فَيْضَة من الدمع . فمعنى " لا يزال أهل الغَرب " أى لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعالى : « إنما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العلماءُ »[1] .

قلت : وهذا التأويل يعْضُده قولُه عليه السلام فى صحيح مسلم : " من يُرِد الله به خيرا يفقهه فى الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

فيه مسألة واحدة – وهو أنه سبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدوّ ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين ؛ فهى من التدريج الذى كان قبل الإسلام . وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقتَ نزولها العربُ ، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله »[2] . وقد روى عن ابن عمر أن المراد بذلك الدَّيْلَم . ورُوى عنه أنه سئل بمن يُبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الدَّيلم والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى .

---

(١) آية ٢٨ سورة فاطر (٢) آية ٢٩ من هذه السورة .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار آبن العربي أن يُبدأ بالروم قبل الدّيلم؛ على ما قاله آبن عمر لثلاثة أوجه . أحدها — أنهم أهل كتاب ؛ فالحجة عليهم أكثر وآكد . الثاني — أنهم إلينا أقرب ؛ أعني أهل المدينة . الثالث — أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب . والله أعلم .

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شدّة وقوّة وحمِيّة . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غَلْظة » بفتح الغين وإسكان اللام . قال الفرّاء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر الغين، ولغة بني تميم « غُلْظة » بضم الغين

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

« ما » صلة، والمراد المنافقون . ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ قد تقدّم القول في زيادة الإيمان ونقصانه في سورة « آل عمران »[1] . وقد تقدّم معنى السورة في مقدّمة الكتاب[2] ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز[3] « إن للإيمان سننا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أعش فسأبيّنها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » . ذكره البخاري . وقال آبن المبارك : لم أجد بُدًّا من أن أقول بزيادة الإيمان، وإلّا رددت القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

---

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) الذي في البخاري : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي ... » الخ ؛ فراجعه في كتاب الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[(١)] أي شك وريب ونفاق . وقد تقدم .
﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي شكا إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم . وقال مقاتل :
إثما إلى إثمهم ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قراءة العامة بالياء ، خبرا عن المنافقين . وقرأ حمزة ويعقوب بالتاء خبرا عنهم وخطابا للمؤمنين . وقرأ الأعمش «أو لم يروا» . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أَوَلَا ترى» وهي قراءة ابن مسعود ، خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال الطبري : يختبرون . قال مجاهد : بالقحط والشدة . وقال عطية : بالأمراض والأوجاع ؛ وهي روائد الموت . وقال قتادة والحسن ومجاهد : بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ «ما» صلة ، والمراد المنافقون ؛ أي إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآنا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرعب على جهة التقرير ؛ يقول : هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد ؛ وذلك جهل منهم بنبوته ، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن «نَظَرَ» في هذه الآية بمعنى أنبأ . وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : «نظر» في هذه الآية موضع قال .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أي انصرفوا عن طريق الاهتداء . وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر . فلو

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

اهتَدَوْا لكان ذلك الوقت مَظِنة لإيمانهم، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون(١) فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مَظِنة النظر الصحيح والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم سَماعَ من يتدبره وينظر في آياته؛ «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ»(٢). «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»(٣).

قوله تعالى: ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ دعاء عليهم؛ أي قولوا لهم هذا. ويجوز أن يكون خبرا عن صرفها عن الخير مجازاةً على فعلهم. وهي كلمة يدعى بها؛ كقوله: «قاتلهم الله». والباء في قوله: «بأنهم» صلة لـ «صرف».

الثانية — قال ابن عباس: يكره أن يقال انصرفنا من الصلاة؛ لأن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا قضينا الصلاة؛ أسنده الطبري عنه. قال ابن العربي: وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح؛ فإن نظام الكلام أن يقال: لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة؛ فإن قوما قيل فيهم: «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم». أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسيّ الواعظ حدثنا أبو الفضل الجوهريّ سَماعا منه يقول: كنا في جنازة فقال المنذر بها: انصرفوا رحمكم الله! فقال: لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم ذمّهم: «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم» ولكن قولوا: انقلبوا رحمكم الله؛ فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ»(٤).

الثالثة — أخبر الله سبحانه تعالى في هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلبها، ردّا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحكمهم، يتصرّفون بمشيئتهم ويحكمون بإرادتهم واختيارهم؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب: ما أبين هذا في الردّ على القدرية «لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ». وقوله عز وجل لنوح: «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ»(٥) فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول.

(١) ارتبك في الأمر إذا وقع فيه ونشب ولم يتخلص. (٢) آية ٢٢ سورة الأنفال
(٣) آية ٢٤ سورة محمد. (٤) آية ١٧٤ سورة آل عمران (٥) آية ٣٦ سورة هود.

قوله تعالى : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

هاتان الآيتان فى قول أُبَىّ أقربُ القرآن بالسماء عهدا . وفى قول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن « وٱتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله » على ما تقدم (١) . فيحتمل أن يكون قول أُبَىّ أقرب القرآن بالسماء عهدًا بعد قوله : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » . والله أعلم .

والخطاب للعرب فى قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم فى ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه ، وشُرِّفوا به غابرَ الأيام . وقال الزجاج : هى مخاطبة لجميع العالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه قال : يا معشر العرب، لقد جاءكم رسول، من بنى إسماعيل . والقول الثانى أوكد للحجة ؛ أى هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتمّوا به .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها . وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم" . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنى من نكاح ولست من سفاح" . معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيه زنى . وقرأ عبد الله بن قسيط المكى « من أنفَسِكم » بفتح الفاء من النفاسة ؛ ورُويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضى الله عنها ؛ أى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : شىء نفيس إذا كان مرغوبا فيه . وقيل : من أنفسكم ؛ أى أكثركم طاعة .

(١) راجع ج ٣ ص ٣٧٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يعز عليه مشقتكم . والعنت ، المشقة ؛ من قولهم : أكمة عنوت إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأنبارى : أصل التعنت التشديد؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعنت فلانا ويعنته فمرادهم يشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه . وقد تقدم فى « البقرة »(١) . « وما » فى « عنتم » مصدرية ، وهى ابتداء و « عزيز » خبر مقدم . ويجوز أن يكون « ما عنتم » فاعلا بعزيز ، و « عزيز » صفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « حريص عليكم » وكذا « رءوف رحيم » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ عزيزا عليه ما عنتم حريصا رءوفا رحيما ، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدى قال حدثنا عبد الله بن محمد الخزاعى قال سمعت عمرو بن على يقول : سمعت عبد الله بن داود الخُرَيْبى يقول فى قوله عز وجل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » قال : أن تدخلوا النار ، « حريص عليكم » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشيء : الشُّح عليه أن يضيع ويتلف . ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الرءوف : المبالغ فى الرأفة والشفقة . وقد تقدم فى « البقرة »(٢) معنى « رءوف رحيم » مستوفى . وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : « بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال : « إن الله بالناس لرءوف رحيم »(٣) . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رءوف رحيم ، عزيز عليه ما عنتم لا يهمه إلا شأنكم ، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سُنته ؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التى منّ الله عليهم بها فقل حسبى الله ؛ أى كافى الله تعالى . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت ، وإليه فوضت جميع أمورى . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ خصّ العرش

(١) راجع ج ٣ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية ، و ج ٤ ص ١٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) آية ١٤٣ سورة البقرة .

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض « العظيم » نعتا للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب، رُويت عن ابن كثير، وهي قراءة ابن مُحَيْصن . وفى كتاب أبى داود عن أبى الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا . وفى نوادر الأصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مُكْفِياً مُجْزِيًا خمسٌ للدنيا وخمس للآخرة حسبي الله لديني حسبي الله لدنياى حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن بغى علىّ حسبي الله لمن يحسدنى حسبي الله لمن كادنى بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المسألة فى القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب " . وحكى النقاش عن أبىّ بن كعب قال : أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة؛ وقد بيناه . وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه الآية ؛ ذكره الماوردى . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه ؛ على ما ذكرناه فى البقرة، وهو أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد ؛ لأن السورة مدنية، والله أعلم . وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يثبت آية فى المصحف حتى يشهد عليها رجلان؛ فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بينة، كذلك كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأثبتهما . قال علماؤنا : الرجل هو خزيمة بن ثابت ، وإنما أثبتهما عمر رضى الله عنه بشهادته وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فهى قرينة تُغنى عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب « رجالٌ صدَقوا ما عاهدوا الله عليه »(1) فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى فى مقدمة الكتاب . والحمد لله .

(1) آية ٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونس عليه السلام مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «فإن كنتَ فى شك» (١) إلى آخرهن . وقال مقاتل : إلا آيتين وهى قوله : « فإن كنت فى شك » نزلتْ (٢) بالمدينة . وقال الكلبى : مكية إلا قوله : « ومنهم من يُؤمن به ومنهم من لا يؤمن به » (٣) نزلت بالمدينة فى اليهود . وقالت فرقة : نزل من أولها نحوٌ من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ قال النحاس : قرئ على أبى جعفر أحمد بن شعيب بن على بن الحسين بن حريث قال : أخبرنا على بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدّثه عن ابن عباس : الر، وحم، ونون [حروف] الرحمن مفرّقة؛ فحدّثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هذا ولا تخبرنى به . وعن ابن عباس أيضا قال : معنى « الر » أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛ لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرًّا فَا * ولا أريد الشرّ (٤) إلا أنْ تَا

وقال الحسن وعكرمة : « الر » قَسَم . وقال سعيد عن قتادة : « الر » اسم السورة؛ قال : وكذلك كل هجاء فى القرآن . وقال مجاهد : هى فواتح السُّوَر . وقال محمد بن يزيد : هى تنبيه، وكذا حروف التهجى . وقرئ « الر » من غير إمالة . وقرئ بالإمالة لئلا تُشبه ما ولا من الحروف .

---

(١) آية ٩٤ (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عطية . (٣) آية ٤٠

(٤) أجزيك بالخير خيرات وإن كان منك شركان منى مثله ، ولا أريد الشر إلا أن تشاء . (عن شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنث . وقيل : « تلك » بمعنى هذه؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خَيْلى منه وتلك رِكابى * هنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

أى هذه خيلى . والمراد القرآن وهو أولى بالصواب؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر؛ ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته »[1] وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة «البقرة»[2] . والحكيم : المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم؛ أى أنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق؛ فعيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ »[3] . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه؛ فهو فعيل بمعنى المفعول؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف؛ فعيل بمعنى مفعَل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغريبةٍ تأتى الملوكَ حكيمةٍ * قد قلتها ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

(١) أول سورة هود . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٢١٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ . و « عجبا » خبر كان ، واسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ وهو فى موضع رفع ؛ أى كان إيحاؤنا عجبا للناس . وفى قراءة عبد الله «عجب» على أنه اسم كان . والخبر «أن أوحينا» . ﴿ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ قرئ «رجْل» باسكان الجيم . وسبب النزول فيما روى عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بُعث محمد : إن الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيمَ أبى طالب ؛ فنزلت : «أكان للناس» يعنى أهل مكة «عجبا» . وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى موضع نصب بإسقاط الخافض ؛ أى بأن أنذر الناس ؛ وكذا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ . وقد تقدم معنى النذارة والبشارة (١) وغير ذلك من ألفاظ الآية . واختلف فى معنى « قَدَمَ صِدْقٍ » فقال ابن عباس : قدم صدق منزلَ صدق ؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » (٢) . وعنه أيضا : أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صدق » سَبْق السعادة فى الذكر الأول ؛ وقاله مجاهد . الزجاج : درجة عالية . قال ذو الرُّمَّة :

لكم قدمٌ لا ينكر الناس أنها ٭ مع الحسب العالى طَمَّت على البحر (٣)

قتادة : سلف صدق . الربيع : ثواب صدق . عطاء : مقام صدق . يَمَان : إيمان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صالحٌ قدّموه . الماوردىّ : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء . وقال الحسن وقتادة أيضا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيع مطاع يتقدمهم ؛ كما قال : " أنا فَرَطُكم على الحوض " (٤) . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : " هى شفاعتى توسّلون بى الى ربكم " . وقال الترمذىّ الحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم فى المقام المحمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم فى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٠ سورة الإسراء .
(٣) فى ديوانه وتفسير الطبرى « العادى » . (٤) أى متقدمكم اليه .

عبد العزيز بن يحيى : « قَدَمَ صدق » قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(١) . وقال مقاتل : أعمالا قدّموها؛ واختاره الطبرى . قال الوضّاح :

صلّ لذى العرش واتّخذ قدَمًا * تُنجيك يومَ العِثار والزَّلل

وقيل : هو تقديم الله هـذه الأمة فى الحشر من القبر وفى إدخال الجنـة . كما قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق". وحقيقته أنه كناية عن السعى فى العمل الصالح؛ فكنّى عنه بالقَدَم كما يُكنّى عن الإنعام باليد وعن الثناء باللسان . وأنشد حسان :

لنا القَدم العليا إليك وخَلْفُنا * لأولنـا فى طـاعة الله تابـع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة؛ والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم؛ يقال : لفلان قَدَم فى الإسلام، وله عندى قَدَم صدق وقدم شر وقـدم خير . وهو مؤنث وقد يذكر؛ يقـال : قَدَم حَسَن، وقدم صـالحة . وقال ابن الأعرابى : القدم التقدّم فى الشرف؛ قال العجّاج .

زلّ بنـو العوّام عن آل الحَكَمْ * وتركوا المُلْك لملك ذى قَدَم

وفى الصحاح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى خمسة أسماء . أنا محمد وأحمد وأنا المـاحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناسُ على قدمى وأنا العاقب " يريد آخر الأنبياء؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وابن كثير والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش « لساحر » نعتا لرسول الله صلى الله عليه وسـلم . وقرأ الباقون « لسحر » نعتا للقرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى «البقرة»(٣) .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٤٠ سورة الأحزاب . (٣) راجع ج ٢ ص ٣ ٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف (١) . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ قال مجاهد : يقضيه ويقدّره وحده . ابن عباس : لا يشركه في تدبير خلقه أحد . وقيل : يبعث بالأمر . وقيل : يُنزل به . وقيل : يأمر به ويمضيه؛ والمعنى متقارب . فجبريل للوحي ، وميكائيل للقطر، وإسرافيل للصُّور، وعزرائيل للقبض . وحقيقته تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها ، واشتقاقه من الدُّبُر . والأمر اسم لجنس الأمور . ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ ﴾ في موضع رفع؛ والمعنى ما شفيع ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقد تقدم في « البقرة » (٢) معنى الشفاعة . فلا يشفع أحد نبيٌّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا ردّ على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » (٣) فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي ذلكم الذي فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي وحّدوه وأخلصوا له العبادة . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي بمخلوقاته فتستدلوا بها عليه .

قوله تعالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران؛ أي وعد الله ذلك وعدا وحققه « حقا » صدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة « وَعْدُ اللَّهِ حقٌّ » على الاستئناف .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٨ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أى من التراب . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إليه . مجاهد : ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث ؛ أو ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد ابن القعقاع « أنه يبدأ الخلق » تكون « أن » فى موضع نصب ؛ أى وعدكم أنه يبدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ؛ كما يقال : لبيك أن الحمد والنعمة لك ؛ والكسر أجود . وأجاز الفراء أن تكون «أن» فى موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداؤه الخلق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد انتهى حره ، والحميمة مثله . يقال : حممت الماء أحمه فهو حميم ، أى محموم ؛ فعيل بمعنى مفعول . وكل مسخن عند العرب فهو حميم . ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى موجع ، يخلص وجعه إلى قلوبهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم ؛ فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤنث لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء . ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ عطف ، أى منيرا ، أوذا نور . فالضياء ما يضىء الأشياء ، والنور ما يبين فيخفى ؛ لأنه من النار من أصل واحد . والضياء جمع ضوء ؛ كالسياط والحياض جمع سوط وحوض . وقرأ قنبل عن ابن كثير « ضئاء » بهمز الياء ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوى : ومن قرأ ضئاء بالهمز فهو مقلوب ، قدمت

الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف فصار ضئايا، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة . وكذلك إن قدرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها فإنها تقلب همزة أيضا فوزنه فلاع مقلوب من فعال . ويقال : إن الشمس والقمر تضيء وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي ذا منازل، أو قدر له منازل . ثم قيل : المعنى وقدرهما، فوحد إيجازا واختصارا، كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »[1]. وكما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما ٭ عندك راض والرأي مختلف

وقيل : إن الإخبار عن القمر وحده، إذ به تحصى الشهور التي عليها العمل في المعاملات ونحوها، كما تقدم في « البقرة »[2] . وفي سورة يس « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ »[3] أي على عدد الشهر، وهو ثمانية وعشرون منزلا . ويومان للنقصان والمحاق[4]، وهناك يأتي بيانه .

قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ قال ابن عباس : لو جعل شمسين شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل، لم يعلم عدد السنين وحساب الشهور . وواحد « السنين » سنة، ومن العرب من يقول : سنوات في الجمع . ومنهم من يقول : سنهات . والتصغير سُنَيَّة وسُنَيْهة .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك إلا الحكمة والصواب، وإظهارا لصنعته وحكمته، ودلالةً على قدرته وعلمه، ولتجزى كل نفس بما كسبت؛ فهذا هو الحق .

قوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تفصيل الآيات تبيينها ليُستدلّ بها على قدرته تعالى، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب؛

(١) آخر سورة الجمعة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية . (٣) آية ٣٩ .

(٤) المحاق (مثلثة) : آخر الشهر إذا أمحق الهلال فلم ير .

فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص و يعقوب « يفصل » بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلا بالحق » وبعده « وما خلق الله في السموات والأرض » فيكون متبعا له . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « تُفَصَّل » بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و « الآيات » رفعا . الباقون « نفصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

تقدم في « البقرة » وغيرها معناه[(١)]، والحمد لله. وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة سألوا آية فردهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها؛ قاله ابن عباس . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي الشرك؛ فأما من أشرك ولم يستدل فليست الآية له آية .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون؛ ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لسعَها * وحالفها في بيت نُوب عَواسل[(٢)]

وقيل يرجون يطمعون؛ ومنه قول الآخر :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي * وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

(١) راجع جـ٢ ص ١٩١ طبعة ثانية . (٢) البيت لأبي ذؤيب . وقوله : «وخالفها» بالخاء المعجمة : جاء الى عسلها وهي غائبة ترعى . ويروى « وحالفها » بالمهملة ؛ أي لازمها . والنوب : النحل : لأنها ترعى ثم تنوب الى موضعها . ويروى : «عوامل» بدل «عواسل» وهي اتي تعمل العسل والشمع . (عن شرح ديوان أبي ذؤيب) .

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ؛ أي لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما . وقيل : يجرى اللقاء على ظاهره ، وهو الرؤية ؛ أى لا يطمعون فى رؤيتنا . وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد ؛ كقوله تعالى : « مالَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلهِ وَقاراً »(١) . وقال بعضهم : بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى رَضُوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لها . ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ أى فرحوا بها وسكنوا إليها ، وأصل اطمأن طأمن طُمأنينة ، فقدمت ميمه وزيدت نون وألف وصل ؛ ذكره الغزنوى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أى عن أدلتنا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لا يعتبرون ولا يتفكرون . ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ ﴾ أى مثواهم ومُقامهم . ﴿ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أى يزيدهم هداية ؛ كقوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى »(٢) . وقيل : « يهديهم ربهم بإيمانهم » إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار . وقال أبو رَوْق : يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة . وقال عطية : « يهديهم » يثيبهم ويجزيهم . وقال مجاهد : « يهديهم ربهم » بالنور على الصراط إلى الجنة ، يجعل لهم نورا يمشون به . ويُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوى هذا أنه قال : " يتلقى المؤمنَ عملُه فى أحسن صورة فيؤنسه ويهديه ويتلقى الكافرَ عملُه فى أقبح صورة فيوحشه ويضله " . هذا معنى الحديث . وقال ابن جريج : يجعل عملهم هاديا لهم . الحسن : « يهديهم » يرحمهم .

قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ قيل : فى الكلام واو محذوفة ، أى وتجرى من تحتهم ؛ أى من تحت بساتينهم . وقيل : من تحت أسرّتهم ؛ وهذا أحسن فى النزهة والفرجة .

(١) آية ١٣ سورة نوح . (٢) آية ١٧ سورة محمد .

قوله تعالى : دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ دعواهم : دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر دعا يدعو، كالشكوى مصدر شكا يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد . وقيل : نداؤهم الخدم ليأتوهم بما شاءوا ثم سبّحوا. وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التمنّى؛ قال الله تعالى: « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »(١) أى ما تتمنون . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ أى تحية الله لهم أو تحية الملك أو تحية بعضهم لبعض : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفى(٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قيل : إن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فإذا أكلوا حمدوا الله ؛ فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد . ولم يحك أبو عبيد إلا تخفيف « أن » ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما نراهم اختاروا هذا وفرقوا بينها وبين قوله عز وجل « أنّ لعنة الله » و « أنّ غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال : الحمد لله . قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن « أنْ » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : ويجوز «أن الحمدَ لله» يعملها خفيفة عملها ثقيلة ؛ والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى بردة قرأ « وآخر دعواهم أنّ الحمدَ لله ربّ العالمين » .

قلت : وهى قراءة ابن مُحيصن، حكاها الغزنوى لأنه يحكى عنه .

(١) آية ٣١ سورة فصلت . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٩٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيــة — التسبيح والحمــد والتهليل قد يُســمَّى دعاء؛ روى مسلم والبخاريّ عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : "لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ . لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربّ السموات وربُّ الأرض وربّ العرش الكريم" . قال الطبريّ : كان السلف يدعون بهذا الدعاء و يسمُّونه دعاء الكرب . وقال ابن عُيينة وقد سئل عن هذا فقال : أمَا علمتَ ان الله تعالى يقول "إذا شَغل عبدى ثناؤه عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمّى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناءٌ عليه ما رواه النّسائى عن سعد ابن أبى وَقّاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوة ذى النُّون إذ دعا بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين نانه لن يدعُوَ بهــا مسلم فى شيء إلا استجيب له" .

الثالثــة — من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يسمّى الله عنــد أكله وشربه ويحمَده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليرضى عن العبــد أن يأكل الأكلة فيحمَده عليهــا أو يشرب الشَّربة فيحمَده عليها" .

الرابعــة — يستحبّ للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمــد لله رب العالمين؛ وحَسَن أن يقرأ آخر الصافات (١) فانهــا جمعت تنزيه البارئ تعــالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعــالى : وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ⦗١١⦘

---

(١) هو قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقا ضعيفا ، وليس هم كذا يوم القيامة ، لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته الى الخير لأهلكهم ، وهو معنى «لقُضِي إليهم أجلُهم» . وقيل : إنه خاص بالكافر ، أي ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجّل له خير الدنيا من المال والولد لعجّل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ؛ قاله ابن إسحاق . مقاتل : هو قول النضر بن الحارث : اللّهُمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ؛ فلو عجّل لهم هذا لهلكوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك له فيه والعنه ، أو نحو هذا ؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لَقُضي إليهم أجلهم . فالآية نزلت ذامّة لِخُلُق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا

الثانيــة ـ واختُلف في إجابة هذا الدعاء ؛ فرُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني سألت الله عز وجل ألّا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه " . وقال شَهْر ابن حَوْشَب : قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملائكة الموكّلين بالعبد : لا تكتبوا على عبدي في حال ضجره شيئا ؛ لطفا من الله تعالى عليه . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ؛ واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخر الكتاب ، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بَطْن بُواط[1] . وهو يطلب المَجْدِيّ بن عمرو الجُهَنِيّ

(١) بواط (بضم اوله) : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى (جبل بالمدينة عند ينبع) ، غزاه النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من الهجرة يريد قريشا م

وكان الناضح يَعْتَقِبه(1) منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عُقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركب، ثم بعثه فتلدَّن(2) عليه بعض التلدّن؛ فقال له : شأْ، لعنك الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا اللاعنُ بعيرَه"؟ قال : أنا يا رسول الله؛ قال : "انزِل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم".

فى غير مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فلعن رجل ناقته فقال: "أين الذى لعن ناقته"؟ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله؛ فقال : "أخّرها عنك فقد أُجبت فيها". ذكره الحَلِيميّ فى منهاج الدين . «شأ» يروى بالسين والشين، وهو زجر للبعير بمعنى سِر .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ ﴾ قال العلماء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد . وقال أبو علىّ : هما من الله ، وفى الكلام حذف؛ أى ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف اليه مقامه؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء: كما تقول ضربت زيدا ضربك، أى كضربك . وقرأ ابن عامر «لَقَضَى إليهم أَجَلَهم» . وهى قراءة حسنة ؛ لأنه متصل بقوله «ولو يعجل الله للناس الشر» .

قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى لا يعجل لهم الشر فربما يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيرون . والطغيان : العلو والارتفاع ؛ وقد تقدّم فى «البقرة»(3) . وقد قيل: إن المراد بهذه الآية أهل مكة، وإنها نزلت حين قالوا : «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك»(4) الآية، على ما تقدّم والله أعلم.

---

(1) أى يتعاقبونه فى الركوب واحدٌ بعد واحد . والعقبة : النوبة . (2) تلدن : تلكأ وتوقف ولم ينبعث .
(3) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (4) جـ ٧ ص ٣٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر ، قيل : هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك ، تصيبه البأساء والشدة والجهد . ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ أى على جنبه مضطجعا . ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضر أشد فى غالب الأمر ؛ فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشد ، ثم القاعد ثم القائم . ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أى استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مر على ما كان عليه من المعاصى ؛ فالآية تعم الكافر وغيره . ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ قال الأخفش : هى « كأن » الثقيلة خففت ؛ والمعنى كأنه ؛ وأنشد :

وَىْ كأنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضر [١]

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أى كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى . وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣)

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعنى الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ أى كفروا وأشركوا . ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾

(١) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ؛ فراجعه فى خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والسبعين بعد الأربعمائة .

أى بالمعجزات الواضحات والبراهين النيّرات . ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون . يخوّف كفار مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . وهـذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان .
وقيـل : معنى « وما كانوا ليؤمنوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ؛ ويدلّ على هذا أنه قال : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ ﴾ مفعولان . والخلائف جمع خليفة، وقد تقدّم آخر « الأنعام »(١) أى جعلناكم سكانا فى الأرض ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد القرون المهلكة . ﴿ لِنَنْظُرَ ﴾ نصب بلام كى، وقد تقدّم نظائره وأمثاله ؛ أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غيبًا . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسل ؛ أى لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله تعملون ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ « تتلى » تقرأ، و« بينات» نصب على الحـال ؛ أى واضحات لا لبس فيهـا ولا إشكال . ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يعنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشركى أهل مكة . ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبـديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه؛ وفى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها — أنهـم سألوه أن يحوّل الوعد وعيـدا والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا؛ قاله ابن جرير الطبرى .

الثـانى — سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسـفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثـالث — أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور؛ قاله الزجاج .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ أى قل يا محمد ما كان لى ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ومن عندى؛ كما ليس لى أن ألقاه بالرّد والتكذيب . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى لا أتبع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيـد ، وتحريم وتحليل، وأمر ونهى . وقد يستدلّ بهـذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة؛ لأنه تعـالى قال : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى » وهـذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثـل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول صلى الله عليـه وسلم قادرا على ذلك، ولم يسألوه تبـديل الحكم دون اللفظ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليـه وسلم إذا كان وحياً لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أى إن خالفت فى تبديله وتغييره أو فى ترك العمل به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعنى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ أى لو شاء الله ما أرسلنى إليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ؛ يقال : دَرَيْتُ الشيءَ وأدرانى الله به ، ودرّيته ودريت به . وفى الدراية معنى الختل ؛ ومنه دريت الرجل أى ختلته ، ولهذا لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضا عُدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير « ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ؛ والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم ؛ فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراتكم به » بتحويل الياء ألفا، على لغة بنى عقيل؛ قال الشاعر :[(١)]

لعمرك ما أخشى التّصعلك ما بَقى * على الأرض قَيْسِيّ يسوق الأباعرا

وقال آخر .

ألا آذنتْ أهلَ اليمامة طَيِّئُ * بحرب كناصات الأغرّ المشهّر

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعيّ يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » إلا الغلط . قال النحاس : معنى قول أبى عبيد «لا وجه» إن شاء الله على الغلط ؛ لأنه يقال : دريت أى علمت ، وأدريت غيرى ، ويقال : درأت أى دفعت ؛ فيقع الغلط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب «ولا أدريتكم به» فأبدل من الياء ألفا على لغة بنى الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفا إذا انفتح ما قبلها ؛ مثل «إنّ هذان لساحران» .[(٢)] قال المهدوىّ : ومن قرأ « أدراتكم » فوجهه أن أصل الهمزة ياء ، فأصله « أدريتكم » فقلبت الياء ألفا وإن كانت ساكنة ، كما قال : يايس فى يئس وطايئ فى طيئ ، ثم قلبت الألف

(١) أى أن الأصل : « لدريتكم » . (٢) آية ٦٣ سورة طه .

همزة على لغة من قال فى العالم العألم وفى الخاتم الخأتم . قال النحاس : وهذا غلط، والرواية عن الحسن « ولا أدرأتكم » بالهمزة، وأبو حاتم وغيره تكلّم أنه بغير همز، ويجوز أن يكون من درأت أى دفعت؛ أى ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ ظرف، أى مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أى من قبل القرآن، تعرفوننى بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِبلى . وقيل : معنى « لبثت فيكم عمرا » أى لبثت فيكم مدّة شبابى لم أعص الله، أفتريدون منى الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأغيّر ما ينزله علىّ . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء، وتُوُفِّىَ صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجَحْد، أى لا أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكذب، وبدّل كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله . وكذلك لا أحدَ أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم ليس هذا كلامه . وهذا مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : المُفْتَرِى المشركُ، والمكذّب بالآيات أهلُ الكتاب . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال . وقيل : « شفعاؤنا » أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معاشنا في الدنيا . ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قراءة العامة « تنبّئون » بالتشديد . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوي « أتنبئون الله » مخففا ، من أنبأ ينبئ . وقراءة العامة من نبّأ ينبّئ تنبئة؛ وهما بمعنًى واحد، جمعهما قوله تعالى : « من أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ »(1) أي أتخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بغير إذنه ، والله لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه . نظيره قوله : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ »(2) ثم نزّه نفسه وقدسها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميّز « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبئوه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون! . وقرأ حمزة والكسائي « تشركون » بالتاء، وهو اختيار أبي عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقدّم في « البقرة »(3) معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقيل : كل مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر؛ أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي بينهم في الدنيا . فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل

(1) آية ٣ سورة التحريم (2) آية ٣٣ سورة الرعد (3) راجع جـ ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو رَوْق: « لقُضي بينهم » لأقام عليهم الساعة . وقيل: لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخّر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لقضي بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة . والآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عمن كفر به . وقيل : الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل؛ كما قال : « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا »[1] وقيل : الكلمة قوله : " سبقت رحمتي غضبي " ولولا ذلك لما أخر العصاة إلى التوبة . وقرأ عيسى « لقَضى » بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يريد أهل مكة؛ أي هلّا أنزل عليه آية ، أي معجزة غير هذه المعجزة ، فيجعل لنا الجبال ذهبا ويكون له بيت من زُخرف ، ويحيي لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا موسى . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أي قل يا محمد إن نزول الآية غيب . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أي تربصوا . ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لنزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المُبطل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يريد كفار مكة . ﴿ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ قيل : رخاء بعد شدّة ، وخصب بعد جدب . ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقنا » : « إذا لهم » على قول الخليل وسيبويه . ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَكْرًا ﴾ على البيان ، أي

(١) آية ١٥ سورة الإسراء .

أعجل عقوبة على جزاء مكرهم ، أى أن ما يأتيهم من العذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر . ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العامة « تمكرون » بالتاء خطابا . وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس وأبو عمرو فى رواية هارون العَتَكى « يمكرون » بالياء ، لقوله : « إذا لهم مكر فى آياتنا » قيل : قال أبو سفيان قُحِطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك ؛ فسُقُوا باستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا ، فهذا مكرهم .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ أى يحملكم فى البر على الدواب وفى البحر على الفُلْك . وقال الكلبى : يحفظكم فى السير . والآية تتضمن تعديد النعم فيما هى الحال بسبيله من ركوب الناس الدوابَّ والبحر . وقد مضى الكلام فى ركوب البحر فى « البقرة »[(١)] . و﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ قراءة العامة . ابن عامر « ينشركم » بالنون والشين ، أى يبثكم ويفرقكم . والفُلْك يقع على الواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث ، وقد تقدم القول فيه[(١)] . وقوله ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة ، وهو فى القرآن وأشعار العرب كثير ، قال النابغة :

يادارَ ميّة بالعَلْياء فالسَّنَد • أقْوَتْ وطال عليها سالف الأمَد

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قال ابن الأنبارى : وجائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا »[1] فأبدل الكاف من الهاء .

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ تقدم الكلام فيها فى البقرة[2] . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير فى « جاءتها » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة ؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت ، فهى عاصف ومُعْصِف ومُعْصِفة أى شديدة ، قال الشاعر :

حتى إذا أعصفت ريح مُزَعزِعة * فيها قطار ورعد صوته زَجِل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهى القاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء . ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به ؛ كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفى هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتى بيانه فى «النمل»[3] ان شاءالله تعالى . وقال بعض المفسرين . إنهم قالوا فى دعائهم أهيا شراهيا ؛ أى يا حى ياقيوم ؛ وهى لغة العجم .

مســألة — هذه الاية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنّة حديثُ أبى هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ... الحديث . وحديث أنس فى قصة أم حرام يدل على جواز ركوبه فى الغزو ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[4] مستوفى والحمد لله . وقد تقدم فى آخر « الأعراف » حكم راكب البحر فى حال ارتجاجه وغليانه ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمله هناك[5] .

---

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية . (٣) فى قوله تعالى : أمن يجيب المضطر اذا دعاه ... » آية ٦٢ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ أى من هذه الشدائد والأهوال . وقال الكلبي : من هذه الريح . ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص و ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ أى خلصهم وأنقذهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يعملون فى الأرض بالفساد و بالمعاصى . والبغى : الفساد والشرك ؛ من بَغَى الجرحُ إذا فسد ؛ وأصله الطلب ؛ أى يطلبون الاستعلاء بالفساد . ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى بالتكذيب ؛ ومنه بَغَت المرأةُ طلبت غير زوجها .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى و باله عائد عليكم ؛ وتم الكلام ؛ ثم ابتدأ فقال : ﴿ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له . قال النحاس : « بَغْيُكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « على أنفسكم » مفعول معنى فعل البَغْى . ويجوز أن يكون خبره « على أنفسكم » وتضمر مبتدأ ؛ أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ و بين المعنيين فرق لطيف ؛ إذا رفعت متاعا على أنه خبر « بغيكم » فالمعنى إنما بَغْى بعضكم على بعض ؛ مثل « فسلّموا على أنفسكم » وكذا « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . و إذا كان الخبر « على أنفسكم » فالمعنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل « وإنْ أسأتم فلها » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البغى متاع الحياة الدنيا ؛ أى عقوبته تعجّل لصاحبه فى الدنيا ؛ كما يقال : البَغْىُ مَصْرعةٌ . وقرأ ابن أبى إسحاق « متاعَ » بالنصب على أنه مصدر ؛ أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا . أو بنزع الخافض ؛ أى لمتاع . أو مصدر بمعنى المفعول على الحال ؛ أى متمتعين . أو هو نصب على الظرف ؛ أى فى متاع الحياة الدنيا . ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل فى البغى . و «على أنفسكم» مفعول ذلك المعنى .

قوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء، أي مثل ماء، فالكاف في موضع رفع. وسيأتي لهذا التشبيه مزيد بيان في «الكهف»(١) إن شاء الله تعالى. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ نعت لماء. ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ روى عن نافع أنه وقف على «فاختلط» أي فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتدأ « به نبات الأرض » أي بالماء نبات الأرض؛ فأخرجت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على « فاختلط » مرفوع باختلط؛ أي اختلط النبات بالمطر، أي شرب منه فتندّى وحَسُن واخضرّ. والاختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض.

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلإ والتبن والشعير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب زُخرف. ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تزينت أدغمت التاء في الزاي وجيء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبيّ ابن كعب « وتزينت » على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأَزْيَنَت » أي أتت بالزينة عليها، أي الغلّة والزرع؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعلّه لقال وأزانت. وقال عوف ابن أبي جميلة الأعرابي : قرأ أشياخنا « وازْيَانّت » وزنه اسوادّت. وفي رواية المُقدّمي « وازّاينت » والأصل فيه تزاينت، وزنه تفاعلت ثم أدغم. وقرأ الشعبيّ وقتادة « وأزْينت » مثل أفعلت. وقرأ أبو عثمان النّهديّ « وأزْيَنّت » مثل افعلّت، وعنه أيضا « وازْيانّت » مثل افعالّت، وروى عنه « ازْيانّت » بالهمزة؛ ثلاث قراءات.

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أي أيقن. ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والمعنيّ النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل : ردّ

(١) آية ٤٥

إلى العلة، وقيل إلى الزينة . ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا، أو أمرنا بهلاكها . ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ﴾ ظرفان . ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ مفعولان، أى محصودة مقطوعة لاشيء فيها . وقال «حصيدا» ولم يؤنث لأنه فعيل بمعنى مفعول . قال أبو عبيد : الحصيد المستأصل . ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ أى لم تكن عامرة ؛ من غَنِيَ إذا أقام فيه وعمّره . والمغانى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة : كأن لم تنعم . قال لبيد :

وغَنِيتُ سَبْتًا قبل مَجْرَى داحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُوجِ خلودُ [1]

وقراءة العامة « تغن » بالتاء لتأنيث الأرض . وقرأ قتادة « يغن » بالياء ، يذهب به الى الزخرف ؛ يعنى فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا . ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبينها . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى آيات الله .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ لما ذكر وصف هذه الدار وهى دار الدنيا وصف الآخرة فقال : ان الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم الى الطاعة لتصيروا الى دار السلام، أى الى الجنة . قال قتادة والحسن : السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات . ومن أسمائه سبحانه السلام؛ وقد بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . ويأتى فى سورة « الحشر » [2] إن شاء الله . وقيل : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . والسلام والسلامة بمعنى كالرضاع والرضاعة ؛ قاله الزجاج . قال الشاعر :

تُحَيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لك بعد قومك من سلام

---

(١) السبت : البرهة من الدهر . وداحس : اسم الفرس . (٢) فى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو ... » آية ٢٣

وقيل : أراد والله يدعو إلى دار التحية ، لأن أهلها ينالون من الله التحيه والسلام ، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهـل الجنة ، وهو تحيتهم ؛ كما قال : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَـلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ، فإن أجبته من دنياك دخلتها ، و إن أجبته من قبرك مُنعتها . وقال ابن عباس : الجنان سـبع ؛ دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهارا لحجته ، وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعـالى " . وقيل الإسلام ؛ رواه النوّاس بن سمعان عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت فى المنام كأن جبريل عنـد رأسى، وميكائيل عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له اسمع سمعتْ أذناك واعْقِل عَقَل قلبك إنما مثلُك ومثلُ أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدُبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فاللهُ الملكُ والدارُ الإسلامُ والبيتُ الجنةُ وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل فى الإسلام ومن دخل فى الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها ـــ ثم تلا يعنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ـــ « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » " . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو الى دار السلام » . وهذه الآية بيّنةُ الحجة والردّ على القدرية ؛ لأنهـم قالوا : هـدى الله الخلق كلّهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » فردّوا على الله نصوص القرآن .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ روى من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ؛ قال : "للذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الحسنى وهى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم" . وهو قول أبى بكر الصديق وعلىّ ابن أبى طالب فى رواية، وحذيفة وعُبادة بن الصامت وكعب بن عُجْرة وأبى موسى وصُهيب وابن عباس فى رواية، وهو قول جماعة من التابعين؛ وهو الصحيح فى الباب . وروى مسلم فى صحيحه عن صُهيب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجابَ فما أُعطُوا شيئا أحبَّ اليهم من النظر الى ربهم عز وجل — وفى رواية ثم تلا — للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" . وخرّجه النَّسائى أيضا عن صهيب قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ نادى منادٍ يأهل الجنة إن لكم موعدا عند الله يريد أن يُنجزكموه قالوا ألم يبيّض الله وجوهنا ويُثقّل موازيننا ويُجِرْنا من النار قال فيكشف الحجابَ فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبَّ اليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم" . وخرّجه ابن المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب، والحمد لله . وخرّج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا على بن حجر حدّثنا الوليد بن مسلم عن زُهير عن أبى العالية عن أُبىّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين فى كتاب الله؛ فى قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : "النظر إلى وجه الرحمن" . وعن قوله «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» (1) قال :

---

(1) آية ١٤٧ سورة الصافات .

"عشرون ألفا" . وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك ؛ روى عن ابن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله فى الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى : «وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة» (١) . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتُمطرهم من كل الفواكه التى لم يروها ، وتقول : ياأهل الجنة ، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرتهم إياه . وقيل : الزيادة انه ما يمر عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف مَلَك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأوا مثل تلك الهدايا قطّ ؛ فسبحان من لا تُتناهى مقدوراته . وقيل : « أحسنوا » أى معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إذن الله تعالى فيها وقبوله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ قيل : معناه يلحق ؛ ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل يعلو . وقيل يغشى ؛ والمعنى متقارب . ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبار . ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أى مذلة ؛ كما يلحق أهل النار ؛ أى لا يلحقهم غبار فى محشرهم إلى الله ولا تغشاهم ذلة . وأنشد أبو عبيدة للفرزدق :

مُتَوَّجٌ برداء الملك يتبعه * مَوج ترى فوقه الرايات والقَتَرا

وقرأ الحسن « قَتْر » بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرة والقَتْرة بمعنًى واحد ؛ قاله النحاس . وواحد القَتَر قَتَرة ؛ ومنه قوله : « تَرْهَقُهَا قَتَرَة » (٢) أى تعلوها غَبرة . وقيل : قَتَرٌ كآبةٌ وكسوف . ابن عباس : القتر سواد الوجوه . ابن بحر : دخان النار ؛ ومنه قُتار القِدْر . وقال ابن أبى ليلى : هو بُعْدُ نظرهم إلى ربهم عزّ وجل .

---

(١) آية ٢٢ سورة القيامة . (٢) آية ٤١ سورة عبس

قلت : هـذا فيه نظر؛ فإن الله عزّ وجل يقول : « إنّ الذين سبقت لهم منّا الحُسنَى أولئك عنها مبعدون . — إلى قوله — لا يَحْزُنهم الفزعُ الأكبرُ »[1] وقال فى غير آية : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال : « إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا »[2] . وهذا عام فلا يتغير بفضل الله فى موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن، ولا يعلوه شيء من دخان جهنم ولا غيره؛ « وأما الذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون »[3] .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عملوا المعاصى . وقيل الشرك . ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ جزاء مرفوع بالابتداء، وخبره بمثلها . قال ابن كَيْسان : الباء زائدة؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها؛ كقولك : إنما أنا بك؛ أى إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاء، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن؛ فحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جزاء » مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة؛ فيكون مثل قوله « فعِدّة من أيام أُخَر » أى فعليه عدة، وشبهه؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثْلِيّة أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلا لذنوبهم؛ أى هم غير مظلومين، وفعلُ الربّ غير معلّل بعلة . ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى من عذاب الله . ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى مانع يمنعهم منه . ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أى ألبست .

---

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٣٠ سورة فصلت . (٣) آية ١٠٧ سورة آل عمران .

﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا ﴾ جمع قطعة، وعلى هـذا يكون « مظلمـا » حال من الليل؛ أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حال ظلمته . وقرأ الكسائى وٱبن كثير « قطْعا » بإسكان الطاء؛ فـ « ـمظلما » على هذا نعت، ويجوز أن يكون حالا من الليل . والقِطْع اسم ما قُطِع فسَقط. وقال ٱبن السِّكيت : القِطْع طائفة من الليل؛ وسيأتى فى « هود »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أى نجمعهم، والحشر الجمع . ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال. ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أى اتخـذوا مع الله شريكا . ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أى الزموا وٱثبتوا مكانكم، وقفوا مواضعكم . ﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ وهذا وعيد . ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا؛ يقال : زَيَّلتـه فتزيّل، أى فرقته فتفرق، وهو فعّلت ؛ لأنك تقول فى مصدره تزييلا، ولو كان فَيْعَلْت لقلت زَيْلَةً . والمزايلة المفارقة؛ يقال : زايله الله مزايلة وزِيالا إذا فارقه . والتزايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم « فزايلنا بينهم »؛ يقـال : لا أزايل فلانا، أى لا أفارقه؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أخاتله . ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم ﴾ عنى بالشركاء الملائكة . وقيـل الشياطين ، وقيل الأصنام؛ فينطقها الله تعـالى فتكون بينهم هـذه المحاورة . وذلك أنهم ٱدّعوا على الشـياطين الذين أطاعوهم والأصـنام التى عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حُمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دَهَشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص ، وقد يجرى مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعـالى : فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

(١) فى قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » آية ٨١

قوله تعالى : ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ «شهيدا» مفعول، أى كفى الله شهيدا، أو تمييز، أى اكتف به شهيدا بيننا و بينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضيناه منكم . ﴿ إِن كُنَّا ﴾ أى ما كنا ﴿ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا كنا جمادا لاروح فينا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى موضع نصب على الظرف . ﴿ تَبْلُو ﴾ أى فى ذلك الوقت . و «تبلو» أى تذوق . وقال الكلبى : تعلم . مجاهد : تختبر . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ أى جزاء ما عملت وقدمت . وقيل : تسلم، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها . وقرأ حمزة والكسائى « تتلو » أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها . وقيل « تتلو » تتبع؛ أى تتبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا؛ قاله السدّى . ومنه قول الشاعر :

إن المُريبَ يتبــع المُريبــا * كما رأيت الذّيب يتــلو الذّيبا

قوله تعــالى : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ بالخفض على البدل أو الصفة . ويجوز نصب الحق من ثلاث جهات؛ يكون التقدير : وردوا حقا، ثم جىء بالألف واللام . ويجوز أن يكون التقدير : مولاهم حقا لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحا؛ أى أعنى الحق . ويجوز أن يرفع « الحق »، ويكون المعنى مولاهم الحق — على الابتداء والخبر، والقطع ممــا قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منــه كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه؛ أى كل عدل وحق فمن قبله . وقال ابن عباس : « مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » أى الذى يجازيهم بالحق . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ « يفترون » فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر، أى افتراؤهم . فإن قيــل كيف قال : وردوا إلى الله مولاهم الحق وقد أخبر بأن الكافرين لامولى لهم . قيــل : ليس بمولاهم فى النصرة والمعونة، وهو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)

المرادُ بمساق هـذا الكلام الردُّ على المشركين وتقريرُ الحجة عليهم؛ فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فيقرّر عليه أن هـذه السموات والأرض لابدّ لها من خالق؛ ولا يتمارى في هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . ﴿ مِنَ السَّماءِ ﴾ أي بالمطر . ﴿ والأَرْضِ ﴾ بالنبات . ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أي مَن جعلهما وخلقهما لكم . ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أي النباتَ من الأرض، والإنسانَ من النطفة، والسُّنْبُلَةَ من الحبة، والطيرَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر . ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أي يقدّره ويقضيه . ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ لأنهم كانوا يعتقـدون أن الخالق هو الله؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا فقل لهم يا محمد ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون عقابه ونقمته في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أي هـذا الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق، لا ما أشركتم معه . ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ ﴾ « ذا » صلة، أي ما بعـد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المتقدمين : ظاهر هـذه الآية يدل على أن ما بعـد الله هو الضـلال؛ لأن أولها « فذلكم الله ربكم الحق » وآخرها « فماذا بعد الحق إلا الضلال » فهذا في الإيمان والكفر، ليس في الأعمال . وقال بعضهم : ان الكفر تغطية الحق، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى؛ فالحرام ضلال والمباح هدًى؛ فإن الله

هو المبيح والمحرّم. والصحيح الأوّل؛ لأن قبل « قُل من يرزقكم من السماء والأرض » ثم قال «فذلكم الله ربكم الحق» أى هذا الذى رزقكم، وهذا كله فعله هو. ﴿ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى الذى تحق له الألوهية ويستوجب العبادة، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغيرُ حق.

الثانيـــة — قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنمـا هو فى تعديد وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »(١)، وقوله عليه السـلام : " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهمـا أمور متشابهات " . والكلام فى الفروع إنمـا هو فى أحكام طارئة على وجود ذات مقررة لا يختلفُ فيها وإنمـا يختلف فى الأحكام المتعلقة بها .

الثالثـــة — ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جَوْف الليل قال : " اللهم لك الحمد " الحديث . وفيه " أنت الحق ووَعْدُك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمـد حق " الحديث . فقـوله " أنت الحق " أى الواجب الوجود ، وأصـله من حَقّ الشىء أى ثبت ووجب. وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه ممـا يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجِده لا من نفسه . وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد :

* ألَا كلُّ شيءٍ ما خـلا اللهَ باطلُ *

وإليه الإشارة بقوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٢) .

الرابعـــة — مقابلة الحقّ بالضلال عرف لغة وشرعا، كما فى هذه الآية . وكذلك أيضا مقابلة الحق بالبـاطل عرف لغـة وشرعا ؛ قال الله تعـالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

---

(١) آية ٤٨ سورة المائدة . (٢) آخر سورة القصص .

ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ[1] » . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سمته . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد ؛ يقال : ضل عن الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه . وخُصّ في الشرع بالعبارة عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بعدمه جهل أوشك ، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » أي غافلا ، في أحد التأويلات ، يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ[2] » .

الخامسة — روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك في قوله تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » قال : اللّعِب بالشِّطْرَنْج والنَّرْدِ من الضلال . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ؛ فقال مالك : ما يعجبني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل — يعني مالكا — عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشيء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبغي لذي العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبها .

السادسة — اختلف العلماء في جواز اللّعب بالشِّطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القمار ؛ فتحصيل مذهب مالك وجمهورِ الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطَّلَع عليه ولا يُعلم به أنه مَعْفُوٌّ عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلّع[3] به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدّت شهادته . وأما الشافعيّ فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادةُ اللاعب بالنّرد والشِّطرنج ، إذا

(١) آية ٦٢ سورة الحج . (٢) آية ٥٢ سورة شورى . (٣) تخلع في الشراب : انهمك فيه ولازمه ليلا ونهارا .

كان عدلا فى جميع أصحابه، ولم يظهر منه سفه ولا ريبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قمارا، فإن لعب بهما قمارا وكان بذلك معروفا سقطت عدالته وسفه نفسه لأكله المال بالباطل .
وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكل اللهو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم . قال ابن العربى : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف النرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القريحة . والنرد قمار غرر لا يعلم ما يخرج له فيه كالاستقسام بالأزلام .

السابعة — قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غذى بلبانه . والنرد هو الذى يعرف بالطبل ويعرف بالكعاب ويعرف فى الجاهلية أيضا بالأرز ويعرف أيضا بالنردشير (١) . وفى صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه". قال علماؤنا : ومعنى هذا أى هو كمن غمس يده فى لحم الخنزير يهيئه لأن يأكله، وهذا الفعل فى الخنزير حرام لا يجوز ؛ يبينه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبى موسى الأشعرى وهو حديث صحيح، وهو يحرم اللعب بالنرد جملة واحدة. وكذلك الشطرنج، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال، وأخبر أن فاعل ذلك عاص لله ورسوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهى عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لما روى من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمار . وحمل ذلك على العموم قمارا وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحليمى فى كتاب منهاج الدين : ومما جاء فى الشطرنج حديث يروى فيه كما يروى فى النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لعب بالشطرنج فقد عصى الله ورسوله" . وعن على رضى الله عنه أنه مر على مجالس من بنى تيم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : " أما والله لغير هذا خلقتم! أما والله لولا أن تكون سنة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضى الله عنه أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؛ لأن يمس أحدكم

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه الأسماء؛ ولم نهتد الى وجه الصواب فيها .

جمرا حتى يطفأ خير من أن يمسها . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هى شر من النرد . وقال أبو موسى الأشعرى : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال : دعونا من هذه المجوسية . وفى حديث طويل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وأن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكعاب مقته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله " . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم اللعب بها بلا قمار، والله أعلم . وقد ذكرنا فى «المائدة» بيان تحريمها[1] وأنها كالخمر فى التحريم لاقترانها به، والله أعلم . قال ابن العربى فى قبسه : وقد جوّزه الشافعى، وانتهى حال بعضهم إلى أن يقول : هو مندوب إليه، حتى اتخذوه فى المدرسة؛ فإذا أعيا الطالب من القراءة لعب به فى المسجد . وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها، وما كان ذلك قطّ ! وتالله ما مستها يَدُ تَقِيّ . ويقولون إنها تَشْحَذ الذهن، والعيانُ يكذبهم، ما تبحّر فيها قطُّ رجل له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسى يقول بالمسجد الأقصى فى المناظرة : إنها تعلّمُ الحرب . فقال له الطُّرْطُوشِيّ : بل تفسد تدبير الحرب؛ لأن الحرب المقصود منها الملك واغتياله ، وفى الشّطرنج تقول : شاهْ إياك : الملك نَحِّه عن طريق؛ فاستضحك الحاضرين . وتارة شـدّد فيها مالك وحرّمها وقال فيها : « فماذا بعد الحق إلا الضـلال » . وتارة استهان بالقليـل منها والأهون ؛ والقول الأوّل أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة كان لها ابن وكان ملِكا فأصيب فى حرب دون أصحابه ؛ فقالت : كيف يكون هـذا أَرُونِيه عيانا ؛ فعُمل لهـا الشطرنج، فلما رأته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضى الله عنه فقال : لا بأس بمـا كان من آلة الحرب ؛ قيـل له : هـذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال هذا لأنه شُبّه عليه أن اللعب بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب، فلما قيل له ذلك ولم يحط به علمه قال :

(١) راجع المسألة الثانية عشرة جـ ٦ ص ٢٩١ .

لا بأس بما كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظنّ أن ذلك ليس يُتَلهّى به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المسنَد لم يبلغهم. قال الحَليمي: وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجة فيه على الكافة.

الثامنة — ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مرّ بغلمان يلعبون بالكُجّة، وهي حفر فيها حصًى يلعبون بها، قال فسدّها ابن عمر ونهاهم عنها. وذكر الهروى في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس: في كل شيء قِمار حتى في لعب الصبيان بالكُجّة؛ قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذ الصبي خرقة فيدوّرها كأنها كرة، ثم يتقامرون بها. وكجّ إذا لعب بالكُجّة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أى كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت.

قوله تعالى: كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أى حكمه وقضاؤه وعلمه السابق. ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أى خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى لا يصدقون. وفي هذا أوفَى دليل على القدرية. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها «كذلك حقّت كلمات ربك» وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة. الباقون بالإفراد. و «أنّ» في موضع نصب؛ أى بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أي آلهتكم ومعبوداتكم . ﴿ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير ؛ فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وليس غيره يفعل ذلك . ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ يقال : هداه الطريق وإلى الطريق بمعنًى واحد[1] ، وقد تقدم . أي هل من شركائكم من يُرشد إلى دين الإسلام ؛ فإذا قالوا لا ولا بدّ منه فقل لهم ﴿ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ ثم قل لهم موبّخا ومقررا ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي ﴾ أي يرشد ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى . ﴿ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ﴾ يريد الأصنام التي لا تهدى أحدا ، ولا تمشي إلا أن تُحمل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر[2] :

للفتى عقلٌ يَعيش به * حيث تَهْدِي ساقَه قدَمُهْ

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هُدًى إلا أن يُرْشَدوا .

وفي « يَهِدِّي » قراءات ست :

الأولى — قرأ أهل المدينة إلا ورشًا « يَهْدِّي » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ؛ فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله « لَا تَعْدُوا »[3] وفي قوله « يَخْصِمُون » . قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفية إلى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو طرفة ؛ كما في اللسان .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والإسكان، على مذهبه فى الاختفاء والاختلاس .

الثالثـــة — قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مُحَيصن « يَهَدِّى » بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بيِّنة فى العربية، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها على الهاء .

الرابعـــة — قرأ حفص و يعقوب والأعمش عن أبى بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا : لأن الجزم إذا اضطُرّ إلى حركته حُرِّك إلى الكسر . قال أبو حاتم : هى لغة سُفْلَى مضر .

الخامسة — قرأ أبو بكر عن عاصم «يِهِدِّى» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم فى البقرة فى «يخطف»[1] . وقيل : هى لغة من قرأ «نستعين»[2] و « لن تمسنا النار » ونحوه . وسيبويه لا يجيز «يِهِدِّى» ويجيز «تِهِدِّى» و «نِهِدِّى» و «إهدى» قال : لأن الكسرة فى الياء تثقل .

السادســـة — قرأ حمزة والكسائى وخلف و يحيى بن وَثّاب والأعمش « يَهْدِى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال؛ من هَدَى يهدى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان فى العربية وإن كانت بعيدة، وأحد الوجهين أن الكسائى والفراء قالا : «يهدى» بمعنى يهتدى . قال أبو العباس : لا يعرف هـذا، ولكن التقدير أمن لا يهدى غيره، تمّ الكلام، ثم قال : « إلا أن يهدى » اسـتأنف من الأول، أى لكنه يحتاج أن يهدى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول : فلان لا يُسمِع غيره إلا أن يُسمَع، أى لكنه يحتاج أن يُسْمَع . وقال أبو إسحاق : « فما لكم » كلام تام، والمعنى : فأى شىء لكم فى عبادة الأوثان . ثم قيل لهم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغنى عن أنفسها شيئا إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؛ فموضع «كيف» نصب بـ«تحكمون».

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريد الرؤساء منهم؛ أى ما يتبعون إلا حدسا وتخريصا فى أنها آلهة وأنها تشفع، ولا حجة معهم . وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليدا . ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى من عذاب الله؛ فالحق هو الله . وقيل « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفى هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن فى العقائد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « أن » مع « يفترى » مصدر، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب، أى يحب الركوب؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : المعنى وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى؛ كقوله « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ »(١) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »(٢) . وقيل : « أن » بمعنى اللام، تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى . وقيل : بمعنى لا، أى لا يفترى . وقيل : المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتى بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائى والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديقَ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . ﴿ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، فإنها قد بشرت به فجاء

(١) آية ١٦١ سورة آل عمران . (٢) آية ١٢٢ سورة التوبة .

مصدقا لها في تلك البشارة، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبيّ الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن . «وتفصيلُ» بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق . والتفصيل : التبيين، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة . والكتاب اسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بيّن في القرآن من الأحكام . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أي لا شك فيه أي في نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أم هاهنا في موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هي أم المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة؛ كقوله تعالى: « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه » أي بل أيقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو، مجازه : ويقولون افتراه . وقيل : الميم صلة، والتقدير : أيقولون افتراه، أي اختلق محمد القرآن من قِبَل نفسه ، فهو استفهام معناه التقريع . ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ؛ لأنه مصدّق الذي بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتكلم محمد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترًى . وقد مضى القول في إعجاز القرآن ، وأنه معجز في مقدّمة الكتاب[1]، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أي كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهذا يدل على أنه يجب أن يُنظر في التأويل . وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم . أو كذبوا بما في القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أي حقيقة ما وعدوا في الكتاب؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، في موضعين : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » وقوله « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم »[1] . ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية، أي كذا كانت سبيلهم . والكاف في موضع نصب . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي أخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة، أي ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من أهل السعادة . و « مَن » رفع بالابتداء والخبر في المجرور . وكذا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعنى ومنهم من يُصر على كفره حتى يموت؛ كأبي طالب وأبي لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام في جميع الكفار؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير في « به » يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أخر العقوبة لأن منهم من سيؤمن . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أي من يُصرّ على كفره؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

(1) آية ١١ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾ رفع بالابتداء، والمعنى : لى ثواب عملى فى التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى جزاؤه من الشرك . ﴿ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مثله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف؛ فى قول مجاهد والكلبى ومقاتل وابن زيد .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ يريد بظواهرهم ، وقلوبهم لا تعى شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى لا تُسمع؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفى، وجعلهم كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها، أى لا تقدر على هداية من أصمه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهذا وما كان مثله يرد على القدرية قولهم؛ كما تقدم فى غير موضع . وقال : «يستمعون» على معنى « مَن » و « ينظر » على اللفظ؛ والمراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم؛ أى كما لا تقدر أن تسمع من سلب السمع ولا تقدر أن تخلق للأعمى بصرا يهتدى به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : ﴿ يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أى يديم النظر إليك؛ كما قال : « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » (١) قيل : إنها نزلت فى المستهزئين، والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

(١) آية ١٩ سورة الأحزاب .

لما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لا يظلمهم، وأن تقدير الشقاء عليهم وسلبه سمع القلب وبصره ليس ظلما منه، لأنه تصرف فى ملكه بما شاء، وهو فى جميع أفعاله عادل. ﴿ وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم . وقرأ حمزة والكسائى « ولكنْ » مخففا « الناس » رفعا . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو آثرت التشديد، وإذا حذفوا الواو آثرت التخفيف، واعتل فى ذلك فقال: لأنها اذا كانت بغير واو أشبهت بل فخففوها ليكون مابعدها كما بعد بل، وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشددوها ونصبوا بها، لأنها « إنّ » زيدت عليها لام وكاف وصُيِّرت حرفا واحدا، وأنشد :

* ولكننى من حبها لعميد *

فجاء باللام لأنها « إنّ » .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ بمعنى كأنهم خففت، أى كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ أى قدر ساعة، يعنى أنهم استقصروا طول مقامهم فى القبور لهول ما يرون من البعث ؛ دليله قولهم : « لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »(1) . وقيل : إنما قصُرت مدة لبثهم فى الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم فى القبر . ابن عباس : رأوا أن طول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة . ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال من الهاء والميم فى « يحشرهم » . ويجوز أن يكون منقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون . قال الكلبى : يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم فى الدنيا إذا خرجوا من قبورهم ؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح ؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر ؛ وليس

(1) آية ١٩ سورة الكهف .

تعارف شفقة ورأفة وعطف . ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة كما قال : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا »[1] . وقيل : يبقى تعارف التوبيخ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى: « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ — إلى قوله — وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا »[2] ، وقوله : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا »[3] الآية، وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا »[4] الآية . فأما قوله « ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » وقوله « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ »[5] فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى «يتعارفون» يتساءلون، أى يتساءلون كم لبثتم؛ كما قال «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ»[6] وهذا حسن. وقال الضحاك : ذلك تعارف تعاطف المؤمنين؛ والكافرون لا تعاطف عليهم؛ كما قال « فلا أنساب بينهم » . والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أى بالعرض على الله . ثم قيل : يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله عز وجل بعد أن دل على البعث والنشور، أى خسروا ثواب الجنة . وقيل خسروا فى حال لقاء الله؛ لأن الخسران إنما هو فى تلك الحالة التى لا يرجى فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم، يقولون هذا . ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ يريد فى علم الله .

قوله تعالى : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط . ﴿ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أى من إظهار دينك فى حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذى وعدهم قتل من قتل وأسر من أسر ببدر . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف على «نرينك» أى أو نتوفينك قبل ذلك . ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب

(١) آية ١٠ سورة المعارج. (٢) آية ٣١ وما بعدها سورة سبأ. (٣) آية ٣٨ سورة الأعراف.
(٤) آية ٦٧ سورة الأحزاب. (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون . (٦) آية ٢٧ سورة الصافات.

« إمّا » . والمقصود إن لم تنتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد ﴿ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من محاربتك وتكذيبك . ولو قيل : « ثَمّ الله شهيد » بمعنى هناك، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمة بشهيد » . وقال ابن عباس : تُنكر الكفار غدا مجيء الرسل اليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلغتكم الرسالة ؛ فحينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شهيدا »[1] . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون فى الدنيا حتى يرسل اليهم؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[2] . والقسط : العدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يعذبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى يعدنا محمد . وقيل : هو عام فى كل أمة كذبت رسولها

قوله تعالى : قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة . (١) آية ١٥ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لما استعجلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا؛ أي ليس ذلك لي ولا لغيري. ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا. ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم في علمه سبحانه. ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وقت انقضاء أجلهم. ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين في الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون.

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ ظرفان، وهو جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » وتسفيهٌ لآرائهم في استعجالهم العذاب؛ أي إن أتاكم العذاب فما نفعكم فيه، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ. ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم؛ أي ما أعظم ما يستعجلون به؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبته : ماذا تجني على نفسك! والضمير في « منه » قيل يعود على العذاب، وقيل يعود على الله سبحانه وتعالى. قال النحاس : إن جعلت الهاء في « منه » تعود على العذاب كان لك في « ماذا » تقديران : أحدهما أن يكون « ما » في موضع رفع بالابتداء، و «ذا» بمعنى الذي، وهو خبر «ما» والعائد محذوف. والتقدير الآخر أن يكون «ماذا» اسما واحدا في موضع رفع بالابتداء، والخبر في الجملة؛ قاله الزجاج. وإن جعلت الهاء في « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت «ما»، و « ذا » شيئا واحدا، وكانت في موضع نصب بـ « يستعجل »؛ والمعنى : أيّ شيء يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل.

قوله تعالى : أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : آلآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : إن « ثم » ها هنا بمعنى « ثَمَّ » بفتح الثاء، فتكون ظرفا ، والمعنى أهنالك، وهو مذهب الطبري، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الآن » قيل : أصله فعل مبنيّ مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت، وهو حد الزمانين . ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ ﴾ أي بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم . ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الذي لا ينقطع . ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي جزاء كفركم

قوله تعالى : وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ﴿ أَحَقٌّ ﴾ ابتداء . ﴿ هُوَ ﴾ سدّ مسدّ الخبر، وهذا قول سيبويه . ويجوز أن يكون « هو » مبتدأ ، و « أحقّ » خبره . ﴿ قُلْ إِى ﴾ « إي » كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ﴿ وَرَبِّى ﴾ قسم . ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ جوابه، أي كائن لا شك فيه . ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي فائتين عن عذابه ومجازاته .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى أشركت وكفرت ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبل منها ؛ كما قال : « إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّارٌ فلن يُقبَل من أحدهم مِلءُ الأرض ذَهَبًا ولو افتَدَى به »[1] . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفوها ؛ يعنى رؤساءهم ، أى أخفوا ندامتهم عن أتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار ، فاذا وقعوا فى النار ألهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا »[2] . فبيّن أنهم لا يكتمون ما بهم . وقيل : « أسرّوا » أظهروا ، الكلمة من الأضداد ؛ ويدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلّد وتصبّر . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كُثيّر :

فأسررتُ الندامة يوم نادى ∗ بردّ جمال غاضرة المنادى

وذكر المبرّد فيه وجها ثالثا — أنه بدت بالندامة أسرّة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، واحدها سِرار . والندامة : الحسرة لوقوع شىء أو فوت شىء ، وأصلها اللزوم ؛ ومنه النديم لأنه يلازم المجالس . وفلان نادم سادم . والسَّدَم اللَّهج بالشىء . ونَدِم وتندّم بالشىء أى اهتمّ به . قال الجوهرى : السَّدَم (بالتحريك) الندم والحزن ؛ وقد سَدِم بالكسر أى اهتمّ وحَزِن . ورجل نادمٌ سادم ، وندمانُ سَدْمانُ ؛ وقيل هو إتباع . وماله همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك . وقيل : الندم مقلوب الدمن ، والدَّمْن اللزوم ؛ ومنه فلان مدمن الخمر . والدِّمْن : ما اجتمع فى الدار وتلبّد من الأبوال والأبعار ؛ سُمّى به للزومه . والدِّمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دِمَن . وقد دَمِنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دَمِنت على فلان أى ضَغِنت . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أى بين الرؤساء والسُّفّل بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾

---

(١) راجع ج ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٠٦ سورة المؤمنون .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)

« أَلَا » كلمة تنبيه للسامع تزاد فى أول الكلام ؛ أى انتبهوا لما أقول لكم : إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

بيّن المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يعنى قريشا . ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أى وعظ . ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن ، فيه مواعظ وحكم . ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أى من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى ورشدا لمن اتبعه . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى نعمة . ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى الملك القَرْم وابنِ الهُمام * وليثِ الكَتيبة فى المُزْدَحَمْ

قوله تعالى : قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ قال أبو سعيد الخدرىّ وابن عباس رضى الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتى « بذلك » للواحد والاثنين والجمع . وروى عن النبىّ صلى

الله عليه وسلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالتاء ؛ وهي قراءة يزيد بن القعقاع ويعقوب وغيرهما؛ وفي الحديث "لتأخذوا مصافّكم". والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب. وقد ذمّ الفرح في مواضع؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »[1] وقوله : « إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »[2] ولكنه مطلق. فإذا قُيّد الفرح لم يكن ذمّا؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »[3] وهاهنا قال تبارك وتعالى : « فبذلك فليفرحوا » أي بالقرآن والإسلام فليفرحوا؛ فقيد. قال هارون : وفي حرف أُبيّ « فبذلك فافرحوا ». قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهي حرفا؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للمخاطَب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل؛ منه « فبذلك فلتفرحوا ». ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني في الدنيا. وقراءة العامة بالياء في الفعلين؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ «فليفرحوا» بالياء «تجمعون» بالتاء، خطابا للكافرين. وروى عن الحسن أنه قرأ بالتاء في الأوّل، و «يجمعون» بالياء على العكس. وروى أبان عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه — ثم تلا — « قُلْ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »".

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يخاطب كفار مكة. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ « ما » في موضع نصب بأرأيتم. وقال الزجاج : في موضع نصب بأنزل. ﴿وأنزل﴾ بمعنى خلق؛ كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »[4]. « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

(١) آية ٧٦ سورة القصص. (٢) آية ١٠ سورة هود. (٣) آية ١٧٠ سورة آل عمران.
(٤) آية ٦ سورة الزمر.

بَأْسٌ شَدِيدٌ »[1] . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذى فى الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ قال مجاهد : هو ما حكوا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[2] . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا »[3] . ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أى فى التحليل والتحريم . ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ ﴾ « أم » بمعنى بل . ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانيــة ــ استدل بهذه الآية من نفى القياس ، وهذا بعيد ؛ فإن القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عند وجود دلالة نصبها الله تعالى على الحكم ، فإن خالف فى كون القياس دليلا لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعالى : وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ « يوم » منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحو ما ظنك زيدا ؛ والمعنى : أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهم فى حرم آمن . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى الكفار . ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للجحد ؛ أى لست فى شأن ، يعنى من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك . والشأن الخطب، والأمر، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شأنتُ شأنَه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والزجاج : الهاء فى « منه » تعود على الشأن، أى تحدث شأنا فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيتلى . وقال الطبرى : « منه » أى من كتاب الله تعالى . ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أعاد تفخيما؛ كقوله : « إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ » . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون فى شأن » خطاب له والمراد هو وأمته ؛ وقد يخاطَب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أى نعلمه؛ ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[1] . ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الراعى :

فأفضْن بعد كُظومهنّ بجِرّة ❊ من ذى الأباطح إذ رَعَيْن حَقِيلَا

ابن عباس : « تُفيضون فيه » تفعلونه . الأخفش : تتكلمون . ابن زيد : تخوضون . ابن كيسان : تنشرون القول . وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن؛ المعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب . ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب . وقال أبو روق : يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب . وقرأ الكسائىّ « يعزِب » بكسر الزاى حيث وقع ؛ وضم الباقون، وهما لغتان فصيحتان؛ نحو يعرِش و يعرُش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يعزب عن ربك مثقال ذرة؛ أى وزن ذرّة، أى نملة حمراء صغيرة، وقد تقدم فى « النساء »[2] . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ عطف على لفظ مثقال، وإن شئت على ذرّة . وقرأ يعقوب وحمزة برفع الراء فيهما عطفا على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : ويجوز الرفع على الابتداء، وخبره ﴿ إِلَّا

---

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ يعنى اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به . قال الجرجانى : « إلا » بمعنى واو النسق ، أى وهو فى كتاب مبين ؛ كقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » (١) أى ومن ظلم . وقوله : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » (٢) أى والذين ظلموا منهم ؛ فـ « إلا » بمعنى واو النسق، وأضمر هو بعده، كقوله : « وقولوا حِطَّةٌ » (٣) أى هى حطة . وقوله : « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » (٤) أى هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيه : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٥) وهو فى كتاب مبين .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفقد الدنيا . وقيل : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا ــ أى عن جهنم ــ مُبْعَدُونَ ــ الى قوله ــ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » (٦) . وروى سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : مَن أولياء الله؟ فقال : " الذين يُذكر الله برؤيتهم . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى " . قيل : يارسول الله، خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم . قال : " هم قوم تحابّوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ــ ثم قرأ ــ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . وقال

(١) آية ١٠ سورة النمل . (٢) آية ١٥٠ سورة البقرة . (٣) آية ٥٨ سورة البقرة .
(٤) آية ١٧١ سورة النساء . (٥) آية ٥٩ سورة الأنعام . (٦) آية ١٠١ وما بعدها سورة الأنبياء .

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من العبر، خمص البطون من الجوع، يبس الشفاه من الذّ(١) . وقيل : « لا خوف عليهم » فى ذريتهم، لأن الله يتولاهم . ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على دنياهم لتعويض الله إياهم فى أولاهم وأخراهم لأنه وليهم ومولاهم

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ فيكون « الذين » فى موضع نصب على البدل من اسم « إنّ » وهو « أولياء » . وإن شئت على أعنى . وقيل : هو ابتداء، وخبره « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »؛ فيكون مقطوعا مما قبله . أى يتقون الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن أبى الدرداء قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " ما سألنى أحد عنها غيرك منذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له " خرجه الترمذى فى جامعه . وقال الزهرى وعطاء وقتادة : هى البشارة التى تبشر بها الملائكة المؤمن فى الدنيا عند الموت . وعن محمد بن كعب القرظى قال : إذا استنقعت(٢) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : " السلام عليك ولىّ الله الله يقرئك السلام " . ثم نزع بهذه الآية « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم(٣) » ذكره ابن المبارك . وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو من قبل أن يموت . وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه؛ لقوله : « يبشرهم ربهم

(١) ذوى العود والبقل يذوى ذَويا وذُويا؛ كلاهما ذبل، فهو ذاو، وهو ألا يصيبه رِيُّه أو يضربه الحر فيذبل ويضعف .

(٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع الماء فى قراره؛ وأراد بالنفس الروح . (ابن الأثير) .

(٣) آية ٣٢ سورة النحل .

برحمة منه ورضوان[1] »، وقوله : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات[2] » .
وقوله : « وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون[3] » ولهذا قال : « لا تبديل لكلمات الله »
أى لا خلف لمواعيده، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ﴿ وفى الآخرة ﴾ قيل : بالجنة اذا خرجوا
من قبورهم . وقيل : اذا خرجت الروح بُشّرت برضوان الله . وذكر أبو اسحاق الثعلبي :
سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجَوْزَقيّ[4] يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ فى المنام راكبا
برذونًا عليه طيلسان وعمامة، فسلمت عليه وقلت له : أهلا بك، إنا لانزال نذكرك ونذكر
محاسنك ؛ فقال : ونحن لانزال نذكرك ونذكر محاسنك، قال الله تعالى : « لهم البشرى
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » الثناء الحسن ، وأشار بيده . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أى
لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره، أى لا ينسخها بشىء، ولا تكون إلا كما قال .
﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تم الكلام، أى لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك،
ثم ابتدأ فقال ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ أى القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ؛
فهو ناصرك ومعينك ومانعك . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال، ولا يعارض هذا قوله : « ولله
العزة ولرسوله وللمؤمنين[5] » فإن كل عزة بالله فهى كلها لله؛ قال الله سبحانه : « سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[6] » . ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم
وأفعالهم وجميع حركاتهم .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة . (٢) آية ٢٥ سورة البقرة . (٣) آية ٣٠ سورة فصلت .
(٤) هذه النسبة الى جوزق (بفتح) بلدة بنيسابور . (٥) آية ٨ سورة المنافقون
(٦) آية ١٨٠ سورة الصافات .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يحكم فيهم بما يريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه ! .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ « ما » للنفى ؛ أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل: « ما » استفهام؛ أى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحا لفعلهم ، ثم أجاب فقال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون، وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بيّن أن الواجب عبادةُ من يقدر على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شىء . ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم . والمبصر : الذى يبصر، والنهار يُبْصَر فيه . وقال : « مُبْصِرا » تجوزا وتوسّعا على عادة العرب فى قولهم « ليل قائم، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى ﴿﴾ ونِمْتِ وما ليلُ المطىِّ بنائم

وقال قُطْرُب: يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا ضياء وبصر.

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى علامات ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعنى الكفار . وقد تقدّم[1] . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق ، وأن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وعبدا ؛ « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا[2] » . ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أى ما عندكم من حجة بهذا . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له ، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقون . ﴿ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ اى لا يفوزون ولا يأمنون ؛ وتم الكلام . ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى ذلك متاع ، أو هو متاع فى الدنيا ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : لهم متاع فى الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز النصب فى غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا . ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى رجوعهم . ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أى الغليظ ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية . (٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين، ويخوّفهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « اتل » لأنه أمر؛ أى اقرأ عليهم خبر نوح . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عظم وثقل عليكم . ﴿ مَقَامِى ﴾ المقام (بفتح الميم) : الموضع الذى يقوم فيه . والمُقام (بالضم) الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت؛ أى إن طال عليكم لُبْثِى فيكم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم، وتخويفى لكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ وعزمتم على قتلى وطردى ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . وهذا هو جواب الشرط، ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله فى كل حال، ولكن بيّن أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم؛ أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكل على من ينصرنى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العامة « فأجمعوا » بقطع الألف « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجحدرىّ « فَاجْمَعُوا » بوصل الألف وفتح الميم؛ من جمع يجمع . « شركاءكم » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « فأجمعوا » بقطع الألف « شركاؤكم » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشيء إذا عزم عليه . وقال الفراء : أجمع الشيء أعدّه . وقال المؤرّج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه . وأنشد :

يا ليت شعرى والمُنَى لا تنفع * هل أَغْدُوَنْ يوما وأمرى مُجْمَعُ

قال النحاس : وفى نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائى والفراء : هو بمعنى وادعوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى؛ كما قال :

يا ليت زوجك فى الوغى * متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لا يتقلد، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم؛ كما يقال : التقى الماء والخشبة . والقراءة الثانية من الجمع ، اعتبارا بقوله تعالى : « فجمع كيده ثم أتى »[1] . قال أبو معاذ : ويجوز أن يكون معنى جمع وأجمع بمعنى واحد ، « وشركاءكم » على هذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ، وإن شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يجيز قام زيد وعمرا . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع فى أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد؛ لأنه لو كان مرفوعا لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يُرَ فى المصاحف واو فى قوله « وشركاءكم » ، وأيضا فإن شركاءهم الأصنام، والأصنام لا تصنع شيئا ولا فعل لها حتى تُجْمِع . قال المهدوى: ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسب ذلك إلى الشركاء وهى لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ اسم يكن وخبرها . وغُمّة وغَمّ سواء، ومعناه التغطية؛ من قولهم : غُمّ الهلال إذا استتر؛ أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه مما شئتم؛ لا كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمّة * نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد

---

(١) آية ٦٠ سورة طه .

الزجاج : غُمـة دا غم ، والغم والغُمة كالكَرْب والكُرْبة . وقيل . إن الغمة ضيق الأمر الذى يوجب الغم فلا يتبين صاحبـه لأمره مصدرا لينفرج عنه ما يغُمه . وفى الصحاح : والغمة الكربة . قال العجاج :

لو شهدت الناس إذ تُكُمُّوا (١) * بغُمة لو لم تُفَرَّج غُمُّـوا

يقال : أمرٌ غُمة ، أى مُبْهَم ملتبس ؛ قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » . قال أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والغمة أيضا : قعر النِّحى (٢) وغيره . قال غيره : وأصل هذا كله مشتق من الغمامة .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ألف «اقضوا» ألف وصل ، من قضى يقضى . قال الأخفش والكسائى : هو مثل « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ (٣) » أى أنهيناه اليـه وابلغناه إياه . وروى عن ابن عباس « ثم اقضوا إلى ولا تنظرونِ » قال : امضوا إلى ولا تؤخرون . قال النحاس : هـذا قول صحيح فى اللغـة ؛ ومنه : قَضَى الميت أى مضى ، وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه ، وهذا من دلائل النبوات . وحكى الفراء عن بعض القراء « ثم أفضوا إلىّ » بالفاء وقطع الألف ، أى توجهوا ؛ يقال : أفضت الخـلافة إلى فلان ، وأفضى إلىّ الوجع . وهذا إخبار من الله تعـالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقا ، ومن كيدهم غير خائف ؛ علما منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون . وتعزيةٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم وتقويةٌ لقلبه .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

---

(١) تكموا : غطوا بالغم (٢) النحى (بالكسر) : زق السمن . (٣) آية ٦٦ سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى فإن أعرضتم عما جئتكم به فليس ذلك لأنى سألتكم أجرا فيثقل عليكم مكافاتى . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ فى تبليغ رسالته . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى الموحدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء « أجرىَ » حيث وقع ، وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعنى نوحا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى من المؤمنين . ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ أى السفينة ، وسيأتى ذكرها . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ أى سكان الأرض وخلفا ممن غرق . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ يعنى آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد نوح . ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . ﴿ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بما كذبوا به من قبل » أى من قبل يوم الذر ، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بأعيانهم ؛ مثل « أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »[1] . ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أى نختم . ﴿ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أى المجاوزين الحد فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يرد على القدرية قولهم كما تقدم .

(١) آية ٦ سورة البقرة .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد الرسل والأمم . ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي أشراف قومه . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدم ذكرها (1) . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي عن الحق . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه . ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ قيل : في الكلام حذف، المعنى: أتقولون للحق هذا سحر . فـ«أتقولون» إنكار وقولهم محذوف أي هذا سحر، ثم استأنف انكارا آخر من قِبَله فقال أسحر هذا ! . فحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم، منكرا على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهم قالوا أسحر هذا . فقيل لهم : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؛ وروى عن الحسن . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أي لا يفلح من أتى به .

قوله تعالى : قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أى تصرفنا وتلوينا ، يقال : لفته يلفته لفتًا إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

تلفتُّ نحـو الحىّ حتى رأيتنى * وجعتُ من الإصغاء ليتًا وأخدعا[1]

ومن هـذا ٱلتفتَ إنمـا هو عدل عن الجهة التى بين يديه . ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والملك والسلطان . ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . ويقال للملك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب فى الدنيـا . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » باليـاء لأنه تأنيث غير حقيقى وقد فصل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضى اليوم آمرأتان .

قوله تعـالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

إنمـا قاله لمـا رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائى وابن وثاب والأعمش « سحار » . وقد تقدم فى الأعراف القول فيهما[2] .

قوله تعـالى : فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم . وقد تقدم فى الأعراف القول فى هذا مستوفى[2] .

قوله تعـالى : فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) البيت للصمة القشيرى . والاصغاء الميل . والليت (بالكسر) صفحة العنق . والأخدع : عرق فى صفحة العنق .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ تكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر « جئتم به » والتقدير : أى شيء جئتم به ، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر . وقراءة أبى عمرو « آلسحر » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون «ما» على قراءة من استفهم بمعنى الذى ، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون « السحر » على الخبر ، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جئتم به سحر » . وقراءة أُبَىّ « ما أتيتم به سحر » ؛ فـ«ما» بمعنى الذى ، و « جئتم به » الصلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والسحر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جعلتها بمعنى الذى نصبا لأن الصلة لا تعمل فى الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما للشرط ، وجئتم فى موضع جزم بما والفاء محذوفة ؛ التقدير : فإن الله سيبطله . ويجوز أن ينصب السحر على المصدر ، أى ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين ، فلا يحتاج على هذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القول النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر ؛ كما قال :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها *

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز ألبتة . وسمعت على بن سليمان يقول : حدثنى محمد ابن يزيد قال حدثنى المازنى قال سمعت الأصمعى يقول : غيّر النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية

* من يفعل الخير فالرحمن يشكره *

وسمعت على بن سليمان يقول : حذف الفاء فى المجازاة جائز . قال : والدليل على ذلك «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»[1] . « وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم » قراءتان مشهورتان معروفتان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يعنى السحر . قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية « ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين » لم يضره كيد ساحر . ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر .

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

قوله تعالى : وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ ﴾ أى يبينه ويوضحه . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بكلامه وحججه وبراهينه . وقيل : بعداته بالنصر . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ من آل فرعون .

قوله تعالى : فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الهاء عائدة على موسى . قال مجاهد : أى لم يؤمن منهم أحد، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى اسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء فآمنوا ؛ وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقابُ الإنسان ، وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى اسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ؛ منهم مؤمنُ آل فرعون وخازنُ فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوامٌ آباؤهم من القبط ، وأمهاتهم من بنى إسرائيل فسُمّوا ذرية كما يسمى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ؛ قاله الفراء. وعلى هذا فالكناية فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ لأنه كان مسلّطا عليهم عاتيا . ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ولم يقل وملئه؛ وعنه ستة أجوبة : أحدها — أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع . الثانى — أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره ، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولى الفراء . الثالث — أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود . الرابع — أن يكون التقدير : على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،

وهو القول الثانى للفراء . وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما قامت هند، وأنت تريد غلامها . الخامس — مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبرى . السادس — أن يكون الضمير يعود على قومه . قال النحاس : وهذا الجواب كأنه أبلغها . ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ وحّد « يفتنهم » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « خَوْف » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . ﴿ وإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى عاتٍ متكبر . ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر؛ لأنه كان عبدا فادّعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ ﴾ أى صدقتم . ﴿ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أى اعتمدوا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ كرر الشرط تأكيدا، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى أسلمنا أمورنا إليه، ورضينا بقضائه وقدره، وانتهينا إلى أمره . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أولا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدى أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلّط عليهم؛ فيُفتنوا . وقال أبو مجلز وأبو الضحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا .

قوله تعالى : وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى خلّصنا ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أى اتخذا . ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ يقال : بوّأت زيدا مكانا، وبوّأت لزيد مكانا . والمبوّأ المنزل الملزوم؛ ومنه بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه؛ ومنه الحديث : " من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار " قال الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك * تبوّأ المجد بنا والملك

ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية ؛ فى قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر، ومصر ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسرين : كان بنو اسرائيل لا يصلّون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بنى إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيّرا لبنى إسرائيل بيوتا بمصر، أى مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة . هذا قول ابراهيم وابن زيد والربيع وأبى مالك وابن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا . والقول الأوّل أصح؛ أى اجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل : بيت المقدس، وهى قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ، وهذا يدل على أن القبلة فى الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ فى التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلّوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام

على الصلاة ، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله : « قال موسى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا[(١)] » الاية . وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البِيَع والكنائس ما داموا على أمن ، فاذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم . قال ابن العربى : والأول أظهر القولين ؛ لأن الثانى دعوى .

قلت : قوله « دعوى » صحيح ؛ فإن فى الصحيح قوله عليه السلام : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " وهذا مما خُصّ به دون الأنبياء ؛ فنحن بحمد الله نصلّى فى المساجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة فى المنازل أفضل منها فى المساجد ، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها . وقبل الصلوات المفروضات وبعدها ؛ إذ النوافل يحصل فيها الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خَلَص العمل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوّعه قالت : كان يصلى فى بيتى قبل الظهر أربعا ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيصلى ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصلى ركعتين ، ثم يصلى بالناس العشاء ، ويدخل بيتى فيصلى ركعتين ... " الحديث . وعن ابن عمر قال : صليت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين وبعدها سجدتين وبعد المغرب سجدتين ؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بنى الأشهل فصلى فيه المغرب ؛ فلما قضوا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : " هذه صلاة البيوت " .

الثالثة — واختلف العلماء من هذا الباب فى قيام رمضان ، هل إيقاعه فى البيت أفضل أو فى المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه فى البيت أفضل لمن قوى عليه ، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعى . وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعى إلى أن حضورها فى الجماعة أفضل . وقال الليث : لو قام الناس فى بيوتهم ولم يقم أحد فى المسجد

(١) آية ١٢٨ سورة الاعراف .

لا ينبغي أن يخرجوا إليه . والحجة لمالك ومن قال بقوله قولُه صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " خرجه البخاريّ . احتج المخالف بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد صلاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاعا متفرقين ، الى ان جمعهم عمر على قارئ واحد فاستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة .

الرابعة — وإذا نزلنا على أنه كان أبيح لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدلّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذي يبيح له ذلك المرض الحابس، أوخوف زيادته، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطرُ الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع، ومن له وليّ حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه ؛ وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أي بشر بني إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوّهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ « آتيت » اى أعطيت . ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ اى مال الدنيا ، وكان لهم من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزبرجد والزمرد والياقوت .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف فى هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها — وهو قول الخليل وسيبويه — أنها لام العاقبة والصيرورة ؛ وفى الخبر " إن لله تعالى ملكا ينادى كل يوم لدوا للموت وابنوا للخراب " . أى لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا . وقيل : هى لام كى ، أى أعطيتهم لكى يضلوا ويبطروا ويتكبروا . وقيل : هى لام أجل ، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال عز وجل : « يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تَضلوا »(١) . والمعنى : لئلا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف « لا » إلا مع أن ؛ فموه صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل « أن تضلوا » . وقيل : اللام للدعاء ، أى ابتلهم بالضلال عن سبيلك ؛ لأن بعده و « اطمس على أموالهم واشدد » . وقيل : الفعل معنى المصدر أى إضلالهم ؛ كقوله عز وجل « لِتُعرضوا عنهم » . قرأ الكوفيون « لِيُضلوا » بضم الياء من الإضلال ، وفتحها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم . قال الزجاج : طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعدُ . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا تُرى ؛ يقال : عين مطموسة ، وطمس الموضع إذا عفا ودرس . وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة . محمد ابن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألنى عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة . وقال السدى : وكانت إحدى الآيات التسع « واشدد على قلوبهم » . قال ابن عباس : أى امنعهم الإيمان . وقيل : قسها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ؛ والمعنى

---

(١) آخر سورة النساء .

واحد . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا ﴾ قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ؛ قاله الزجاج والمبرد . وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء . وقوله « ربنا اطمس ، واشدد » كلام معترض . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم عندهم ؛ أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما آنزوى * ولا تلقَنِى إلا وأنفـك راغـم

أى لا آنبسط . ومن قال « ليضلوا » دعاء — أى ابتلهم بالضلال — قال : عطف عليه « فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر ؛ أى واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا . وهذا قول الأخفش والفراء أيضا ، وأنشد الفراء :

يا ناق سيرى عَنَقًا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب . ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : هو الغرق . وقد آستشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحُكم الرسل استدعاء إيمان قومهم ؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن »(١) وعند ذلك قال : « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديارا »(٢) . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ قال أبو العالية : دعا موسى وأمّن هارون ؛ وقد أمّن على الدعاء داعيا . التأمين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فقولك آمين دعاء ، أى رب

---

(١) آية ٣٦ سورة هود . (٢) آية ٢٦ سورة نوح .

استجب لى . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال أهل المعانى : ربما خاطبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ؛ قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تُعجلانا * بنزع أصوله فاجتز شيحا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرأ عليّ والسُّلَمِيّ «دعواتكما» بالجمع . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «أجبتُ دعوتكما» خبرا عن الله تعالى، ونصب دعوة بعده . وتقدم القول فى « آمين » فى آخر الفاتحة مستوفىً . وهو مما خُصّ به نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أعطى أمتى ثلاثا لم تُعْطَ أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد تقدم فى الفاتحة (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ قال الفراء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن عليّ وابن جريج : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استقيما » أى على الدعاء ؛ والاستقامة فى الدعاء ترك الاستعجال فى حصول المقصود، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب . ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون فى موضع جزم على النهى، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين . وقرأ ابن ذَكْوان بتخفيف النون على النفى . وقيل : هو حال من استقيما؛ أى استقيما غير متّبعين ، والمعنى . لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعيدى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ تقدّم القول فيه في « البقرة » في قوله « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ »(١) . وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان . ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبع وأتبع بمعنًى واحد ، اذا لحقه وأدركه . واتّبع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، واتبعه (بوصل الألف) إذا اتبع أثره ، أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرأ قتادة « فاتّبعهم » بوصل الألف . وقيل : « اتّبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا ؛ هذا قول أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنًى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا ، وتبعه فرعون مُصْبِحًا في ألفي ألف وستمائة ألف . وقد تقدّم(٢) . ﴿ بَغْيًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَعَدْوًا ﴾ معطوف عليه ؛ أي في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم ؛ يقال : عدا يعدو عَدْوًا ؛ مثل غزا يغزو غَزْوًا . وقرأ الحسن « وعُدُوًّا » بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثل علا يعلو عُلُوًّا . وقال المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوًا » في الفعل ؛ فهما نصب على المفعول له . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ أي ناله ووصله . ﴿ قَالَ آمَنتُ ﴾ أي صدّقت . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما حذف الخافض تعدّى الفعل فنصب . وقرئ بالكسر ؛ أي صرت مؤمنا ثم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل ، حسب ما تقدّم في « النساء »(٣) بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

البحر وكان على حصان أدهم ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى؛ فجاء جبريل على فرس وديق — أى شَهِىّ (١) — فى صورة هامان وقال له : تقدّم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون، وميكائيل يسوقهم لا يشذّ منهم أحد، فلما صار آخرهم فى البحر وهَمّ أوّلهم أن يخرج انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ فقال : آمنتُ بالذى آمنت به بنو إسرائيل؛ فدس جبريل فى فمه حال البحر . وروى الترمذى عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذى يكون فى أرضه؛ قاله أهل اللغة . وعن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر : "أن جبريل جعل يدسّ فى فى فرعون الطين خشيةَ أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه" . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال عون بن عبد الله : بلغنى أن جبريل قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم ما ولد إبليسُ أبغضَ إلىّ من فرعون، فإنه لما أدركه الغرق قال «آمنت» الآية، فخشيت أن يقولها فيرحم، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها فى فيه . وقيل : إنما فُعل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتى . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيل مصر عن الجرى فى زمانه، فقالت له القبط : إن كنت ربنا فأجرِ لنا الماء؛ فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرّع لله تعالى فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده فى هيئة مُسْتَفْتٍ وقال : ما يقول الأمير فى رجل له عبد قد نشأ فى نعمته لا سند له غيره، فكفر نعمه وجحد حقّه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريّان جزاؤه أن يغرق فى البحر؛ فأخذه جبريل ومرّ فلما أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطّه . وقد مضى هذا فى «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا؛ وكان هذا فى يوم عاشوراء على ما تقدّم بيانه فى «البقرة» أيضا فلا معنى للإعادة .

(١) أى تشتهى الفحل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من الموحّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثمّ قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة ؛ ونظيره « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أثنى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيقى كلام القلب .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى نلقيك على نَجْوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك، فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوس بن حَجَر يصف مطرا :

فمَن بعَقْوته كمَن بنَجْوته ◦ والمُسْتَكِنّ كمَن يَمْشى بقِرْواح[1]

وقرأ اليزيدىّ وابن السَّمَيْقع « نُنَحّيك » بالحاء من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريج : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيرا أحمر كأنه ثور . وحكى علقمة عن عبدالله أنه قرأ « بندائك » من النداء . قال أبو بكر الأنبارىّ : وليس بمخالف لهجاء مصحفنا، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من ندائك فى ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بهما الحذف استوى هجاء بدنك وندائك، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين ؛ والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أوّل، وفى معناها نقص عن

(١) العقوة والعقاة : الساحة وما حول الدار والمحلة ؛ و جمعها عقاء . والقرواح : الأرض البارزة للشمس .

تأويل قراءتنا، إذ ليس فيها للدرع ذكر ، الذى تتابعت الآثار بأن بنى إسرائيل اختلفوا فى غرق فرعون ، وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا فألقوه على نجوة من الأرض ببدنه وهو درعه التى يلبسها فى الحروب . قال ابن عباس ومحمد بن كعب القُرَظى : وكانت درعه من لؤلؤ منظوم . وقيل من الذهب وكان يعرف بها . وقيل من حديد؛ قاله أبو صخر . والبدن الدرع القصيرة . وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وبيضاء كالنِّهى مَوْضُونة • لها قَوْنَسٌ فوق جَيْب البَدَنْ(١)

وأنشد أيضا لعمرو بن معد يكرب :

ومضى نساؤهم بكل مُفاضة • جَدْلاء سابغة وبالأبدان(٢)

وقال كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبَغات • على الأبطال واليَلَب الحصينا

أراد بالأبدان الدروع، واليلب الدروع اليمانية، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة . قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيضُ واليَلَبُ اليمانى • وأسيافٌ يَقُمن ويَنْحَنِينا

وقيل : « ببدنك » بجسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد . قال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك فليس بشىء . قال أبو بكر : لأنهم لما ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا أبرزه لهم فرأوا جسدا لا روح فيه، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم! ياموسى هذا فرعون وقد غرق؛ فخرج الشك من قلوبهم وابتلع البحر فرعون كما كان . فعلى هذا « ننجيك ببدنك » احتمل معنيين : أحدهما — نلقيك على نجوة من الأرض . والثانى — نظهر جسدك الذى لا روح فيه . والقراءة الشاذة « بندائك » يرجع معناها الى معنى قراءة الجماعة؛ لأن النداء يفسر تفسيرين؛ أحدهما — نلقيك بصياحك كلمة التوبة ، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

---

(١) البيضاء : الدرع . والنهى (بالفتح والكسر) : الغدير وكل موضع يجتمع فيه الماء . والموضونة : الدرع المنسوجة . والقونس : أعلى بيضة فى الحديد . (٢) المفاضة (بضم أوله) : الدرع الواسعة . والجدلاء : الدرع المحكمة النسج .

وقت قبولها «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» على موضع رفيع . والآخر — فاليوم نعزلك عن غامض البحر بندائك لما قلت أنا ربكم الأعلى ، فكانت تنجيته بالبدن معاقبةً من رب العالمين له على ما فرط من كفره الذى منه نداؤه الذى افترى فيه وبُهت ، وادّعى القدرة والأمر الذى يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قال أبو بكر الأنباريّ : فقراءتنا تتضمن ما فى القراءة الشاذة من المعانى وتزيد عليها .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى لبنى اسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته اليه هذا الخبر . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خَلَفك » (بفتح اللام) ؛ أى لمن بقى بعدك يخلفك فى أرضك . وقرأ علىّ بن أبى طالب « لمن خلقك » بالقاف ؛ أى تكون آية لخالقك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أى منزل صدق محمود مختار ، يعنى مصر . وقيل الأُرْدُنّ وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار وغيرها . وقال ابن عباس : يعنى قُريظة والنَّضير وأهل عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل ؛ فانهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وينتظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ أى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبرى . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصى .

قوله تعالى : فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكنّ غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى « فإن كنت فى شك » أى قل يا محمد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى يا عابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سلّام وأمثاله ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرّون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن يسألوا من يقرّون بأنهم أعلم منهم ، هل يبعث الله برسول من بعد موسى . وقال القتبيّ : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك ضيق الصدر ؛ أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبرَ الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . والشك فى اللغة أصله الضيق ؛ يقال : شكّ الثوبَ أى ضمه بخلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السّفرة تُمدّ[1] علائقها حتى تنقبض ؛ فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته ؛ والدليل عليه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : « والله لا

(١) كذا فى الأصول . والظاهر أنها « تشك ».

أشـك ـ ثم استأنف الكلام فقال ـ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين " أى الشاكين المرتابين . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ والخطاب فى هاتين الآيتين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدم القول فيـه فى هذه السورة[1] . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضبُ الله وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون . ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ أنث « كلا » على المعنى ؛ أى ولو جاءتهم الآيات ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعـالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ قال الأخفش والكسائى : أى فهـلا . وفى مصحف أُبَيّ وابن مسـعود « فهلا » وأصـل لولا فى الكلام التحضيض ، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره . ومفهومٌ من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصـل ؛ لأن تقديره ما آمن أهـل قرية إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه فى (باب مالا يكون إلّا منصـوبا) . قال النحاس : « إلا قـومَ يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن قوم يونس ؛ هـذا قول الكسائى والأخفش والفراء . ويجوز « إلا قومُ يونس »

(١) آية ٣٣ ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

بالرفع ، ومن أحسن ما قيل فى الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال : يكون المعنى غيرُ قومِ يونس ، فلما جاء بإلّا أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير ؛ كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقه أخـوه * لَعَمْرُ أبيك إلا الفَرْقدانِ

وَروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا بِنِيَنَوَى من أرض المَوْصِل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الإسلام وترك ماهم عليه فأَبَوْا ؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ؛ فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك ؛ فلما كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم فى تلك الحالة . وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى ميل . ورُوى على ميل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبرى : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاينة التى لا تنفع التوبة معها هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويَعْضُد هذا قولُه عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد مالم يُغَرْغر " . والغرغرة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا . والله أعلم . وقد روى معنى ماقلناه عن ابن مسعود ، وأن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة

أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدل على توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسيأتى مسندا مبينا فى سورة «الصافات» إن شاء الله تعالى . ويكون معنى ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هذا الإشكال لا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل نينوى فى سابق العلم من السعداء . وروى عن على رضى الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : «إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا » . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل إلى أجلهم ؛ قاله السُّدّى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو النار ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أى لاضطرهم إليه . «كلهم» تأكيد لمن . «جميعا» عند سيبويه نصب على الحال . وقال الأخفش : جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيدا ؛ كقوله : «لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ[1]» .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان جميع الناس ؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة فى الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة فى الذكر الأول . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ؛ وهو عن ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) آية ٥١ سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ «ما» نفى؛ أى ما ينبغى أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته و إرادته . ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل «ونجعل» بالنون على التعظيم . والرُّجس : العذاب ؛ بضم الراء وكسرها لغتان . ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أمرَ الله عز وجل ونهيه .

قوله تعالى : قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدم القول فى هذا المعنى فى غير موضع مستوفًى[1] . ﴿ وَمَا تُغْنِي ﴾ « ما » نفى؛ أى ولن تغنى . وقيل استفهامية؛ التقدير أىّ شىء تغنى . ﴿ الْآيَاتُ ﴾ أى الدلالات . ﴿ وَالنُّذُرُ ﴾ أى الرسل، جمع نذير، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى عمن سبق له فى علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأيام هنا بمعنى الوقائع؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنِّعم أياما؛ كقوله تعالى: «وذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ الله»[2] . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أى تربصوا؛ وهذا تهديد ووعيد . ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ أى المتربصين لموعد ربى .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) آية ٥ سورة ابراهيم .

قوله تعالى : ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين، و « ثُمَّ » معناه ثم اعلموا أنا ننجي رسلنا . ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أي واجبا علينا؛ لأنه أخبر ولا خُلف في خبره . وقرأ يعقوب « ثم نُنْجِي » مخففا . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب « ننجي المؤمنين » مخففا؛ وشدد الباقون؛ وهما لغتان فصيحتان : أنجى يُنْجِي إنجاء، ونَجَّى يُنَجِّي تنجية بمعنًى واحد .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يريد كفار مكة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أي في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه . ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأوثان التي لا تعقل . ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أي يميتكم ويقبض أرواحكم . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين بآيات ربهم .

قوله تعالى : وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ « أن » عطف على « أن أكون » أي قيل لي كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : عملك ، وقيل نفسك ؛ أي استقم بإقبالك على ما

أمرت به من الدين . ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى قويما به مائلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادى * من الإشراك للدين الحنيف

وقد مضى فى « الأنعام » (١) اشتقاقه والحمد لله . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى: وقيل لى لا تشرك؛ والخطاب له والمراد غيره؛ وكذلك قوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ أى لا تعبد . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ أى عبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أى يصبك به ﴿ فَلَا كَاشِفَ ﴾ أى لا دافع ﴿ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أى يصبك برخاء ونعمة ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ ﴾ أى بكل ما أراد من الخير والشر ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى القرآن . وقيل الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أى صدق محمدا وآمن بما جاء به ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨ ، وقد تكلم عنه المؤلف فى البقرة مستوفى فراجعه فى جـ ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية

أي الخلاص نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أي ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول . قال ابن عباس : نسخها آية السيف .

قوله تعالى : وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ قيل : نسخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما نزلت جمع النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم ستجدون بعدي أثرة[1] فاصبروا حتى تلقوني على الحوض " . وعن أنس بمثل ذلك ، ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين نثا[2] كلامي

بأنا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس ، والحمد لله وحده

---

(١) أي يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء .

(٢) النثا في الكلام يطلق على القبيح والحسن .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد الدارمى فى مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذى عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : "شَيَّبتنى هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعَمّ يتساءلون و إذا الشمس كُوِّرتْ" . قال: هذا حديث حسن غريب ، وقد رُوى شىء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » : حدّثنا سفيانُ بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بشر عن علىّ بن صالح عن أبى إسحق عن أبى جُحَيْفة قال : قالوا يارسول الله نراك قد شبتَ ! قال : "شَيَّبتنى هودٌ وأخواتُها" . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يُذهل النفس فينشِّف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة مَنْبع ، ومنه يَعْرَق ، فإذا نَشَّف الفزعُ رطوبتَه يبست المنابع فيبس الشعر فابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سِقاؤه يبس فابيضّ ؛ و إنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويُبْس جلده ، فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، ويُنَشِّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ؛ فمنه تَشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فإنما فيها ذكر الأمم ، وماحلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقّ لهم ؛ ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلْطُف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كوّرت »

و « القارعة » ، ففى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرءوس . وقد قيل إن الذى شيب النبىّ صلى الله عليه وسلم من سورة « هود » قوله : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : " يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء " . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد لم تصرف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هودٌ بالتنوين على أنه اسم للسورة؛ وكذا إن سمى امرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هودٌ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدم القول فيه (١) . ﴿ كِتَابٌ ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ما قيل فى معنى «أحكمت آياته» قول قتادة ؛ أى جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أى نُظمت نظمًا مُحكمًا لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أى لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى؛ أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ . وقد تقدم القول فيه (٢) .

(١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العالية : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكمت جملة ، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع مايُحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جُمعت فى اللوح المحفوظ ، ثم فُصِّلت فى التنزيل . وقيل : «فُصِّلت» نزلت نَجْما نَجْما لتُتَدبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخففا أى حَكَمَت بالحق . ﴿ مِنْ لَدُنْ ﴾ أى من عند . ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى محكم للأمور . ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الكسائى والفراء : أى بألا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله . قال الزجاج : لئلا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من الله . ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى مخوِّف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إنى لكم منه نذير ؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأول . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفراء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : استغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبةُ الكذابين . وقد تقدّم هذا المعنى فى « آل عمران »[1] مستوفى . وفى « البقرة »[2] عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أول فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل: يمتعكم بعمركم ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع الله بك ومتّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل: هو الموت . وقيل: القيامة. وقيل : دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف ، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكربها ؛ والأول أظهر لقوله في هذه السورة : « وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم. قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقذر والجيف والكلاب . ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته « فَضْلَهُ » أي الجنة ، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ أي يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولوا فقل لهم إني أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولوا فإني أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي بعد الموت . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يثنون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شَرِيق ، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وامتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثَنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يتنسّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التنسّك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ابن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : «ألا إنهم تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » (١) قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عبّاد عن ابن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِي صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى «تثنوى» والقراءتين الأخريين متقارب ؛ لأنها لا تثنوى حتى يثنوها . وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يساره فى الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) فى الأصل : « تثنوى » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن عيينة ، ويعضده ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس «ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

« لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أى يغطون رءوسهم بثيابهم . قال قَتَادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره ، وآستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه همّه .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفى و « من » زائدة و «دابة» فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابةٌ . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « من » ؛ أى من الله رزقها؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلّ ماجاءها من رزق فن الله. وقيل: «على الله» أى فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى فى « النساء »[1] وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيل : هى عامة؛ وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيته ، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟ ! والدّابة كل حيوان يَدبّ . والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحىّ ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال إن اللّبن الذى فى الثدى ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق لوكان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى «البقرة»[2] هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من اين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرحى يأتيها بالطّحين ، والذى شدق

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الأشداق هو خالق الأرزاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقـرَ واللهُ رازقي * ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ

تكفّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كلِّهم * وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أرملوا[1] من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ؛ فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغَوْث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شيء رزقكموه الله " .

(١) أرملوا من الزاد : أي نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : « مستقرها » فى الرَّحم . « ومستودعها » فى الصُّلب . وقيل : « يعلم مستقرها » فى الجنة أو فى النار . « ومستودعها » فى القبر؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »(1) بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على مَتْن الرِّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين . قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : "اقبلوا البشرى يابنى تميم" قالوا : بشّرتنا فأعطنا [مرتين](2) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا : قَبِلنا، جئنا لنتفقه فى الدِّين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال : "كان الله ولم يكن شىءٌ غيرُه وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(1) راجع ج ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) الزيادة عن صحيح البخارى .

فى الذِّكْر كلَّ شىء " ثم أتانى رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبتْ ، فانطلقت أطلبها فإذا هى يقطعُ دونها السَّرابُ ؛ وايمُ الله لوددْتُ أنها قد ذهبتْ ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك ليبتلى عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قتادة : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أتم عقلا . وقال الحسن وسفيان الثّورىّ : أيكم أزهد فى الدنيا . وذُكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : يانائم قم فتعبَّدْ ، فقال : ياروح الله قد تعبَّدتُ ، فقال : « وما تعبَّدتَ » ؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها ؛ قال : نَمْ فقد فقتَ العابدين . الضحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « أيكم أحسن عملا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها ، وسيأتى فى « الكهف »[1] هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت « إنّ » لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و ﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل ، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ » كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لئن » للقسم ، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَىٰ أُمَّةٍ » إلى أجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمة هنا

(١) راجع المسألة الثانية فى تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » . آية ٧

المدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وأصل الأمة الجماعة ؛ فعبر عن الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى انقراض أمة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن . والأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأمة تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ » . والأمة أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام . والأمة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأمة الدين والملة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمة » . والأمة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأمة أي القامة . والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده"(١). والأمة الأم ؛ يقال : هذه أمة زيد ، يعني أم زيد . ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أي ما الذي يحبسه عنا . ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل وأحاط . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت . وقيل : في عبد الله بن أبي

(١) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه

أمية المخزومى» . «رحمة» أى نعمة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أى سلبناها إياه . ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أى يائس من الرحمة ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ابن الأعرابى . النحاس : «ليؤوس» من يَئِس يَيْأَس ، وحكى سيبويه يَئِس يَيْئِس على فَعِل يفعِل، ونظيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم ، ويَئِس يَيْئِس، وبعضهم يقول : يَئِس يَئِسُ؛ لا يعرف فى الكلام إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل؛ وفى واحد منها اختلاف. وهو يَئِسٌ و«يؤوس» على التكثير كفخور للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ أى صحة ورخاء وسعة فى الرزق . ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أى بعد ضُرّ وفقر وشدّة . ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى الخطايا التى تسوء صاحبها من الضُّرّ والفقر . ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى يفرح و يفخر بما ناله من السَّعة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاخر إذا افتخر — وفخور للمبالغة — قال يعقوب القارئ : وقرأ بعض أهل المدينة «لَفَرُحٌ» بضم الراء كما يقال : رجل فَطُن وحَذُر ونَدُس . ويجوز فى كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعنى المؤمنين؛ مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو فى موضع نصب . قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأوّل؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو استثناء من «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ» أى من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو استثناء متصل وهو حسن . ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف . ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هَمّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام النفى مع استبعاد؛ أى لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهمّ النبى صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والهاء فى « به » تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال : «ضائق» ولم يقل ضيّق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض، والضيّق ألزم منه . ﴿ أَن يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا » أى لئلا تضلّوا ، أو لأن يقولوا. ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزومىّ؛ فقال الله تعالى : يامحمد ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد.

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدّم فى « يونس »[1] أى قد أزحت علّتهم وإشكالهم فى نبوّتك بهذا القرآن ، وحجَجْتهم به ؛ فإن قالوا : افتريته ــ أى اختلقته ــ فليأتوا بمثله مفترًى بزعمهم. ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون افتراه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة ؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد، واعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدّم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولاتهيأت لكم المعارضة « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل : الضمير فى « لكم » للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وفى « فاعلموا » للشركين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة[(1)] ، ولهذا جزم الجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد ؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنية يَلْقها * ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(1) قال فى البحر : ولعله لا يصح ، إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط « يريد » ، وكان يكون مجزوما .

له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في « براءة »(1) مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجل له الثواب ولم يُنقص شيئا في الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، و بحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء " صُمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك " ثم قال : " إن هؤلاء أولُ من تُسْعَر بهم النارُ " . رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم بمعناه والترمذي أيضا . وقيل : الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّي ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّي في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وُفّي في الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وُفّيها، أي وُفّي أجر الغزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية ـ قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: "إنما الأعمال بالنيات". وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدل على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة ـ ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قيدها وفسرها التي في « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محظورا » فأخبر سبحانه أن العبد ينوي و يريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

(1) راجع المسألة الثانية من تفسير قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعا أو كرها » . آية ٥٤ .

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتقييد ، ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائما على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . والنسخ فى الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور فى الأصول ؛ ويأتى فى « النحل »(1) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التخليد ، والمؤمن لا يخلد ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ » الآية . فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان ؛ وفى الحديث [الماضى](2) يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه فى «النساء»(3) ويأتى فى آخر « الكهف »(4) . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أى وباطل عمله . وفى حرف أبى وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(1) فى المسألة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ... » آية ٦٧ .

(2) فى الأصل (العاصى) وهو تحريف ؛ والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى " صمتم وصليتم ... " . (3) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية

(4) فى تفسير قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ ! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال ابن زيد : إن الذى على بيّنة من اتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ من الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أفمن كان على بيّنة من ربه » النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ » ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسلمه . والهاء فى « ربّه » تعود عليه . وقوله : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » روى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعيّ . والهاء فى « منه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل . وقال مجاهد : الشاهد ملك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده . وقال الحسن البصرى وقتادة : الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛ وروى عن عليّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال له رجل : أى شيء نزل فيك ؟ فقال عليّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » . وقيل : الشاهد هى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن فى نظمه وبلاغته، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء فى « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ؛ والهاء فى « منه » لله عزّ وجلّ . وقيل : البيّنة معرفة الله التى أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذى يتلوه العقل الذى رُكّب فى دماغه وأشرق صدره بنوره . ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل الإنجيل . ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف فى كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوىّ عن الكلبيّ ؛ يكون معطوفا على الهاء فى « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بنى إسرائيل، أى يؤمنون بما فى التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيرى . والهاء فى « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام . ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى من الملل كلها ؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى هو من أهل النار ؛ وأنشد حسّان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً ۝ فالنـارُ موعدُها والموتُ لاقيهـا

وفى صحيح مسلم من حديث أبى يونس عن النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودىٌ ولا نصرانىٌ [ثم يموت](١) ولم يؤمن بالذى أرسلتُ به إلا كان من أهل النار " . ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبى : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إنه الحق » أى القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا ، فأضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفى صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

---
(١) زيادة من صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين . وقيل : هو ٱبتداء خطاب من الله تعالى؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا.

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ٱبن عباس : لم يعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني أنصارا، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ٱبن عباس رضي الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق و إبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل و بما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه[1] :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بِهِ * فقــد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفا، والمعنى : يضاعف لهم أبدا، أي وقت ٱستطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها ؛ إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب الزبيدي . أراد (بالخير) فحذف و وصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جمع المال؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء : ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس : وهـذا معروف فى كلام العرب؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعـالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ابتـداء وخبر . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ضاع عنهم افتراؤهم وتلف .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه : « لا جَرَم » بمعنى حَقّ، « فلا » و « جَرَم » عندهما كلمة واحدة، و « أنّ » عندهما فى موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس . قال المهدويّ : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة، وهو قول الفرّاء أيضا؛ ذكره الثعلبيّ . وقال الزّجاج : « لا » هاهنا نفى؛ وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم؛ كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك، وجَرَم بمعنى كَسَب؛ أى كَسَب ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و « أنّ » منصوبة بجرم، كما تقول : كَسَب جفاؤُك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر :

نَصبنا رأسه فى جِذْع نَخْلٍ * بما جَرَمتْ يداه وما ٱعتدينا

أى بما كَسَبت . وقال الكسائيّ : معنى « لَا جَرَم » لا صَدّ ولا منع عن أنهم . وقيـل : المعنى لا قَطْعَ قاطعٌ، فحـذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجَـرْم القَطْع؛ وقد جَرَم النَّخلَ وٱجترَمه أى صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّمٌ وجُرَّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة أى جززتُه، وقد جَرَمتُ منه أى أخذتُ منه؛ مثل جَلَمْت الشيء جَلْمًا أى قطعتُ؛

وجَلَمت الجزورَ أجلمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأجذت الشيء بجَلْمته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع، وهـذه جَلَمة الجزور — بالتحريك — أي لحمها أجمع؛ قاله الجوهري . قال النحاس : وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أنْ ذا جَرَمَ، قال : وناس من فَزارة يقولون : لا جَرَ أنّهم بغير ميم . وحكى الفراء فيه لغتين أخريين قال : بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال : وناس من العرب يقولون : لا جُرْم بضم الجيم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » اسم « إنّ » و « آمنوا » صلة، أي صدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ عطف على الصلة . قال ابن عباس : أخبتوا أنابوا . مجاهد : أطاعوا . قتادة : خشعوا وخضعوا . مقاتل : أخلصوا . الحسن : الإخبات الخشوع للخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء . « إِلَى رَبِّهِمْ » قال الفراء : إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى : وجهوا إخباتهم إلى ربهم . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ خبر « إنّ » .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ ابتداء، والخبر ﴿ كَالْأَعْمَى ﴾ وما بعده . قال الأخفش : أي كمثل الأعمى . النحاس : التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى][1] والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فرد إلى الفريقين وهما اثنان؛

(١) الزيادة من النحاس .

روى معناه عن قتادة وغيره. قال الضحاك : الأعمى والأصم مثلٌ للكافر . والسميع والبصير مثل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير، وهل يستوى الأصم والسميع . ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في الوصفين وتنظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿ إِنِّى ﴾ أى فقال : إنى؛ لأن في الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أَنِّى» بفتح الهمزة؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» ثم قال: «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى اتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إنى » بالكسر جعله معترضا في الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملأ الرؤساء ؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقد تقدم هذا في « البقرة » (٢) وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾ أى

(١) قال ابن عطية : وفي هذا نظر ، وإنما هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

آدميًّا . ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال ، و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين ؛ كما قال الشاعر[1] :

* يا رُبَّ مِثْلِكِ في النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أراذل جمع أَرْذَل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب . وقيل : الأراذل جمع الأَرْذَل ، كأساود جمع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النَّـذْل ؛ أرادوا اتّبعك أخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحِياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفي الحديث " إنهم كانوا حاكَة وحَجّامين " . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيـه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنمـا عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهـم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنمـا كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنهـا ، والأَنَفة من الانقياد للغير ؛ والفقير خليٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيـا .

الثالثـــة — اختلف العلماء في تعيين السَّفِلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السَّــفِلة هم الذين يتقلّسون[2] ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبـون الشهادات .

---

(١) هو أبو مِحْجَن الثّقفي ، وتمام البيت :

* بيضاءُ قد مَتَّعْتُها بطلاقِ *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومتّعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها . ا ه .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو . ا ه .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السّفلة الذى يأكل الدنيا بدينه ؛ قيل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذى يُصلح دنيا غيره بفساد دينه . وسئل على رضي الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا ، و إذا تفرقوا لم يعرفوا . وقيل لمالك بن أنس رضى الله عنه : مَن السّفلة ؟ قال : الذى يسبّ الصحابة . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأرذلون الحاكة والحجامون . يحيى بن أكثم : الدّباغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

الرابعـــة ــ إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفلة ، فقال : إن كنتُ منهم فأنت طالق ؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال : إن امرأتى قالت لى يا سَفلة ، فقلت : إن كنتُ سَفلةً فأنت طالق ؛ قال الترمذىّ : ما صناعتك ؟ قال : سمّاك ؛ قال : سَفلة والله ، سَفلة والله .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابى لا يلزمه شيء .

قوله تعـالى : ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ . أى ظاهر الرأى ، و باطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار

و يقال للبرّية بادية لظهورها . وبدا لى أن أفعل كذا ، أى ظهر لى رأى غير الأول . وقال الأزهرى : معناه فيما يبدو لنا من الرأى . ويجوز أن يكون « بَادِيَ الرَّأْي » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ « بَادِئَ الرأى » أى أول الرأى ؛ أى اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » . ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى فى اتباعه ؛ وهذا جحد منهم لنبوته . ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه .

قوله تعالى : قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين ؛ قاله أبو عمران الجَوْنيّ . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم في « الأنعام »(١) هذا المعنى . ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهي رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عَمِيت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَمِيتُ عن كذا ، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه . والمعنى : فعَمِيت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي ، ودخل الخفّ في رجلي . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي « فعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمّ فاعله ؛ أي فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أُبَيّ « فعمّاها » ذكرها الماوردي . ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أي أنلزمكم قبولها ، وأوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

أن يردّ عليهم . وحكى الكسائيّ والفرّاء «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفا ؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد[1] :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستحقِبٍ * إثمًا من الله ولا واغلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن[2]] أنلزمكُمها يجرى المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول: أنلزمكم ذلك. ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ أي لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عنها. قال قتادة : والله لو استطاع نبيّ الله نوح عليه السلام لألزمها قومه، ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به ﴿ مَالًا ﴾ فيثقل عليكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ثوابي في تبليغ الرسالة . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالي والفقراء ، حسب ما تقدّم « في الأنعام[3] » بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصام ؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي من طردهم . ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ في استرذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفرّاء : أي يمنعني من عذابه . ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ أي لأجل إيمانهم . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أدغمت التاء في الذّال . ويجوز حذفها فتقول : تذكرون .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أخبر بتذلله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله ؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده ؛

---

(١) البيت لامرىء القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) في حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لي الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذري فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .

(٢) الزيادة عن النحاس . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ . ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة »(1) . ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم . والدال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تزتري، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالا ؛ لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أزريتُ عليه إذا عبته . وزريتُ عليه إذا حقّرته . وأنشد الفراء :

يُباعدُه الصديقُ وتَزْدَرِيه * حَليلتُه ويَنْهَرُه الصَّغيرُ

﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم . ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ﴿ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدم ذكره . « وإذًا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجدل

(1) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وهو شدّة القتل ؛ ويقال للصقر أيضا أجدل لشدّته في الطير ، وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»(١) بأشبع من هذا . وقرأ ابن عباس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجدل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجح وأفلح ، ومن ردّه خاب وخسر . وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه في الدارين ملوم. ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي من العذاب. ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في قولك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين . وقيل : بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ أي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدّم في «براءة»(٢) معنى النصح لغة. ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلكم . وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصي العاصي ، ولا يكفر الكافر، ولا يغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة»(٣) وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه في « الأعراف » في إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي المضلّ؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا . وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يفضي إلى الهلاك . الطبري : « يغويكم » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طيء : أصبح فلان غاويا أي مريضا، وأغويته أهلكته، ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء ، وإليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) في تفسير قوله تعالى : «ليس على الضعفاء ....» آية ٩١ (٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٤ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . ٱفترى ٱفتعل ؛ أى اختلق القرآن من قِبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وافتعلته ؛ يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أى عقاب إجرامى ، وإن كنت محقًّا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصدر أجرم؛ وهو اقتراف السّيئة . وقيل : المعنى أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأَجْرَم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال[1] :

طَرِيدُ عَشِيرةٍ ورَهِينُ جُرْمٍ * بما جَرَمتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِى

ومن قرأ « وأَجْرَامِى » بفتح الهمزة ذهب الى أنه جمع جُرْم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه آسم ما لم يُسمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « بيؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم ، واستدامة كفرهم، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضّحاك : فدعا عليهم لما أُخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل آبنه على كتفه ، فلما رأى الصبىُّ نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا؛ فأعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ

(١) البيت للهيردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .

آمن» . ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا. والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حَمِيمٍ رُزِئْتُه * فلم أبتئسْ والرُّزْءُ فيه جَليلُ

يقال ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتئاس حزن فى استكانه .

قوله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : «فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ» «فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ» «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة؛ وهو سبحانه منزّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره . وقيل : المعنى «بأعيننا» أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ومعونتك ؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : « بأعيننا » أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضحّاك وسفيان : « بأعيننا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مُغرقهم .

قوله تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها . وروى آبن القاسم عن آبن أشرس عن مالك قال : بلغنى أن قوم نوح مَلَئوا الأرض، حتى مَلَئوا السهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يغرس الشجر مائة عام لعمل السفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : لما آستنقذ الله سبحانه وتعالى مَن فى الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فآصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بنجار، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القدوم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تخطئ ، فجعلوا يمرون به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبى صار نجارا ؛ فعملها فى أربعين سنة .

وحكى الثعلبى وأبو نصر القشيرى عن آبن عباس قال: اتخذ نوح السفينة فى سنتين. زاد الثعلبى : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن آصنعها كجُؤجُؤ الطائر . وقال كعب : بناها فى ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدوى: وجاء فى الخبر أن الملائكة كانت تعلمه كيف يصنعها، وآختلفوا فى طولها وعرضها ؛ فعن آبن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعا ؛ وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكلبى وقتادة وعكرمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذراع إلى المنكب قاله سلمان الفارسى . وقال الحسن البصرى : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاه الثعلبى فى كتاب العرائس . وروى على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فآنطلق بهم حتى آنتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب، قال أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هـذا كعبُ[1] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسـه ، وقد شاب ؛ فقـال له عيسى : أهكذا هلكت؟ قال : لا بل متّ وأنا شاب ،ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمّ شِبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير . وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى[2] . وقال الكَلْبيّ فيما حكاه النقاش : ودخل المـاء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السِّباع والطّير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ابن عبـاس : جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسـفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسـط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهـم في الكَوْثَل[3] . وقيل : جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبـلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذَكَرك ؛ فمن قـرأ حين يخاف مَضَرّتهما « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيريّ وغيره . وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السـلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " . قوله تعـالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف . ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكِسـائي يقال : سَخِرتُ به ومنه . وفي سخريتهم منه قولان : أحدهما ـ أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يانوح صرتَ بعد النبوّة نجارا . الثـاني ـ لمـا رأوه يبني السـفينة ولم يشاهـدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يانوح

(١) كذا في الطبري والدر المنثور والكشاف ، وفي الأصل (قبر سام بن نوح) .

(٢) جاء في البحر : واختلفوا في هيئتها من التربيع والطول ، وفي مقـدار مدة عملها ، وفي المكان الذي عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .
وقال الفخر الرازي : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

(٣) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم ، وقيل : هو السكان .

ما تصنع ؟ قال : أبني بيتا يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان . ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة .﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ غدا عند الغرق . والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ تهديد، و « من » متصلة بـ« سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « من » استفهامية ؛ أي أيّنا يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « من » في موضع رفع بالابتدا و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائي أن أناسا من أهل الحجاز يقولون: سوف تعلمون؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سف تعلمون[1]؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي يجب عليه وينزل به . ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة ؛ الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . الثاني — أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنورا من حجارة؛ وكان لحواء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك . وأنبع الله الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فقالت : يانوح فار الماء من التنور؛ فقال : جاء وعد ربي حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس. الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سو يكون فحذفوا اللام ، وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون فحذفوا العين .

موضع آجتماع الماء فى السفينة ؛ عن الحسن أيضا . الرابع ــ أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم نوّر الفجر تنويرا ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخامس ــ أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا ، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية التّنور بالكوفة . وقال : آتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور على يمين الداخل مما يلى كندة . وكان فوران الماء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورُهم وجاش بماءٍ * صار فوق الجبالِ حتى علاها

السادس ــ أنه أعالى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع ــ أنه العين التى بالجزيرة « عين الوردة » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له « عين وَرْدة » . وقال آبن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفوران الغليان . والتنور آسم أعجمىّ عربته العرب ، وهو على بناء فَعَّل ؛ لأن أصل بنائه تنر ، وليس فى كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم حَمِيَ الوَطيس إذا آشتد الحرب . والوطيس التنور . ويقال : فارت قدر القوم إذا آشتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركتم قِدْرَكم لا شيءَ فيها * وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ يعنى ذكرا وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرأ حفص « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ » بتنوين « كلّ » أى من كل شيء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحد معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال للآثنين : هما زوجان ، فى كل آثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعل إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمام ، وعليه زوجا

قيود ؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ » . ويقال للمرأة هي زوج الرجل ، والرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين والصنفين ، وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » . أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكلّ زوجٍ من الدّيباج يلبسه * أبو قُدامةَ محبوٌّ بذاك معا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » فى موضع نصب بـ « احمل » . « اثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى واحمل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » فى موضع نصب بالاستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أى بالهلاك ؛ وهو ابنه كنعان وامرأته واعلة كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وابن جريج : أى احمل من آمن بى ، أى من صدقك ؛ فـ « مَن » فى موضع نصب بـ « احمل » . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه ، سام وحام ويافث ، وثلاث كنائن(1) له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد فى خبر أنه كان فى السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجته غير التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عُيينة وابن جُريج ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام امرأته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قليلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

(1) الكنّة (بالفتح) : امرأة الابن أو الأخ .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا﴾ أمرٌ بالركوب ؛ ويُحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلوّ على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدين . وفى الكلام حذف؛ أى اركبوا الماء فى السفينة . وقيل : المعنى اركبوها . و « فى » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عِكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَتادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطَّبَرىّ فى هذا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أول يوم فى رجب ، وصام الشهر أجمع ،وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرست على الجُودىّ ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطَّبَرىّ عن ابن إسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجُودىّ فاستوت عليه .

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ؛ فمُجراها ومُرساها فى موضع رفع

بالابتداء ؛ ويجوز أن تكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير : بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرأ الاعمش وحمزة والكسائى « بسم الله مَجريها » بفتح الميم و « مُرساها » بضم الميم . وروى يحيي بن عيسى عن الأعمش عن يحيي بن وثاب « بِسمِ ٱللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصدر من جرت تجرى جريا ومَجرى ، ورَست رُسوًّا ومَرْسى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرى وأبو رجاء العُطَارِدى « بِسمِ اللهِ مُجْرِيها ومُرْسِيها » نعت لله عز وجل فى موضع جر . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أى هو مُجريها ومُرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مَرساها رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن على عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك بسم الله الرحمن الرحيم « وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » « بِسمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » ". وفى هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه فى البسملة (1) ، والحمد لله . ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لأهل السفينة . وروى عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل ، فخرج منه فار وفارة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة ، ولما حمل الأسد فى السفينة قال : يارب من أين أطعمه؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحُمّى ؛ فهو الدهر محموم . قال ابن عباس : وأول ما حمل نوح من البهائم فى الفلك حمل الأوزّة ، وآخرها حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبه ، ويداه قد دخلتا فى السفينة ، ورجلاه خارجة بعد ، فجعل الحمار يضطرب

---

(1) راجع جـ ١ ص ٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : آدخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : آدخل ويلك ! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى فى السفينة . فقال له : ياعين ما أدخلك بيتى ؟! قال : أنت أذنت لى؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معك ؛ فكان فيا يزعمون فى ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدةٌ مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . آبن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهى فى موضع خفض نعت للوج . وجاء فى التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾ قيل : كان كافرا وآسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه « ونادى نوح آبنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ ، وأنشد[1] :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَ وَكَانَ » فقراءة شاذة ، وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «آبنه» ؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن آبنه كان كافرا ، وأنه

(١) البيت لشماخ ، والشاهد فى (كأنه) حيث حذف الواو ضرورة . وتمامه :

* إذا طلبَ الوسيقةَ أو زَميرُ *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهى أتانه التى يضمها ويجمعها ؛ من وسقت الشيء أى جمعته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن، ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتى . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق، وقبل رؤية اليأس ، بل كان فى أول ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم ﴿ يَا بُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها . وأصل « يا بنى » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير فى لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء فى هذا الموضع ؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء» وهو أيضا أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف ، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف ؛ قال النحاس : رأيت علىّ بن سليان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام فى هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على انه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: « يا ويلتا » وكما قال الشاعر :

* فيا عجبا من رحلها المتحمَّل *

فيريد يا بنيا ،ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جاءنى عبدا الله فى التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أى أرجع وأنضم . ﴿ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أى يمنعنى من الماء فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار . وانتصب «عاصم» على التبرئة . ويجوز « لا عاصمُ اليوم » تكون لا بمعنى ليس . ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ فى موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون فى موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أى مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر :

بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا ... مِ أمسى فؤادي به فاتِنا

أي مفتونا . وقال آخر:(١)

دَعِ المكارمَ لا تنهض لبغيتها ... واقعدْ فإنّك أنتَ الطاعمُ الكاسي

أي المطعوم المكسو. قال النحاس : ومن أحسن ماقيل فيه أن تكون «مَن» في موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ؛ أي إلا الله . وهذا اختيار الطبري . ويُحسّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكنّ» . ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ يعني بين نوح وابنه . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ قيل: إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه: « يا بني اركب معنا » فما استتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من الماء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه ويبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذي آوى إليه « طورسيناء » .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ هذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تُميّز به . والذي قال إنه مجاز قال : لو فُتّش كلام العرب والعجم ماوجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها، واشتمال المعاني فيها . وفي الأثر : أن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قط إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملك . وذلك قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » فجرت بهم السفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلَع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حمد يحمد؛ لغتان حكاهما الكسائي والفراء . والبالوعة

---

(١) البيت للحطيئة يهجو الزبرقان .

الموضع الذى يشرب الماء . قال ابن العربى : التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ » . وقيل : ميز الله بين الماءين؛ فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أى نقص؛ يقال : غاض الشىء وغضته أنا؛ كما يقال: نقص بنفسه ونقصه غيره، ويجوز « غيض » بضم الغين[1] . ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لما كثر الماء فى السكك خشيت أم صبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء استوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى .

قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . الجودى جبل بقرب الموصل؛ استوت عليه فى العاشر من المحرم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجودى لم يتطاول تواضعا لله، فاستوت السفينة عليه، وبقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " لقد بقى منها شىء أدركه أوائل هذه الأمة " . وقال مجاهد : شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق، فعلا

(١) أى بإشمام الكسرة الضم .

الماء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجوديّ اسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفيل[1] :

سُبحانه ثم سُبحانًا يَعودُ له * وقَبْلَنا سبَّح الجُوديُّ والجُمُدُ

ويقال : إن الجُوديّ من جبال الجنة؛ فلهذا آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر؛ الجوديّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لما تواضع الجوديّ وخضع عزّ ، ولما آرتفع غيره وآستعلى ذلّ ، وهذه سنّة الله في خلقه، يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع، ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تَخضُّعًا * منّا إليكَ فعِـزُّها في ذلّهـا

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء، وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابيّ على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين؛ وقالوا : سُبِقت العضباءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقًا على الله ألا يَرفع شيئا من الدنيا إلا وَضعه " . وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نَقصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبدا بعفوٍ إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَبغي أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " . خرجه البخاريّ .

مسئلة : ـ نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ آبن عساكر في التاريخ له عن الحسن أن نوحا أوّل رسول بعثه الله إلى الأرض؛ فذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابرة وعَتَوا عُتُوًّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرًّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقي نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبي الصلت؛ وفي (معجم ياقوت) : هو لزيد بن عمرو، وقيل لورقة بن نوفل . والجمد كعتق : جبل لبني نصر بنجد .

فيخنقونه حتى يترك وقيذًا، و يضربونه فى المجالس و يطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم و يقول : «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه؛ فذلك قوله تعالى : « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ » . وقال مجاهد وعُبيد بن عمير : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : « رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وقال ابن عباس : إن نوحا كان يضرب ثم يُلف فى لبد فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال : يابني انظر هذا الشيخ لا يغترك، قال : يا أبت أمكنّي من العصا، فأخذ العصا ثم قال : ضعني فى الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضحة فى رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح : « ربّ قد ترى مايفعل بي عبادك فإن يك لك فى عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين » فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال، ولا فى أرحام النساء مؤمن ؛ قال : « وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »؛ أى لا تحزن عليهم؛ « وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » قال : يارب وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر . قال : فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجففها ، فقال : يا رب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة واجعل لها أبوابا فى جنبها ، وشدّها بدُسُر، يعنى مسامير الحديد . فبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ . قال ابن عباس : كانت دار نوح عليه السلام دمشق ، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم و بين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب فى الباب الأول، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين آمرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا يطأها الدوابّ .

قال الزُّهريّ : إن الله عز وجل بعث ريحا فحمل إليه من كل زوجين آثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل لحشرهم ، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت :استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده في ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفا وبدا حياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياءها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين آثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبرا فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ في قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة". وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدجاج : أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبدا، أنت ينتفع بك أمتي؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل في الحرم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبأ فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها ؛ ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراي منكَ أن تهب لي الطوق في عنقي ، والخضاب في رجلي ، وأسكنُ الحَرَم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة في رجليها ودعا لها ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبي أنه بعث بعد الغراب

التُّدْرُج[1] وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ أي دعاه. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق؛ ففي الكلام حذف. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأله نوح ربه ٱبنه لقوله : « وأهلك ». وترك قوله « إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن ٱبني من أهلي » يدل على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أي لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنا في ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن ٱبني من أهلي » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ٱبنه يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أي علمت من حال ٱبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك ٱستحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان ٱبن ٱمرأته . دليله قراءة علي « ونادى نوح ابنها » . ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر. أي حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق .

---

(١) التدرج كحبرج : طائر يغرد في البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق فى الدّين أقوى من النّسب . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ابن عباس وعُروة وعِكرمة ويعقوب والكسائىّ « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب، واختاره أبو عُبيد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال[1] :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادَّكَرتْ * فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذى قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الهاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه . وكان لغير رشدة ؛ وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إن ابنى من أهلى » فقال : لم يقل منى ؛ وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إن ابنى من أهلى » « ونادى نوح ابنه »، ولا يختلف أهل الكتابين أنه ابنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب! إنهم يكذبون . وقرأ « فخانتاهما » . وقال ابن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه؛ ولهذا قال : « فخانتاهما » . وقال ابن عباس : ما بغت امرأة نبىّ قطّ، وأنه كان ابنه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعكرمة وسعيد ابن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم، وأنه كان ابنه لصُلْبه . وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح؛ « إن ابنى من أهلى » أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبّح الله طويلا ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنه ابنه ، وتقول إنه ليس ابنه ! نعم كان ابنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ؛ وهذا

(١) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .

هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى بجلالة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفي عنه أنه ابنه . وقوله : « فخانتاهما » يعني في الدين لا في الفراش؛ وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك؟ فقال لها : نعم . قالت : فمتى؟ قال : إذا فار التنور؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور؛ فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا، كما في الخبر " أولادكم من كسبكم " . ذكره القشيري .

الثالثة — في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعا، ومن أهل البيت؛ فمن وصى لأهله دخل في ذلك ابنه، ومن تضمنه منزله، وهو في عياله . وقال تعالى في آية أخرى . « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعة — ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزبير « ونادى نوح ابنها » يريد ابن امرأته، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه وعن علي رضي الله عنه، وهي حجة للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها . والله أعلم .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللهُ أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تذلله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال . ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ أى بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أعمالا . فقال : « يا نوح اهبط بسلام منا » .

قوله تعالى : قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أى قالت الملائكة ، أو قال الله تعالى له : اهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد ابتلعت الماء وجفت . « بسلام منا » أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحية . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى نعم ثابتة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ؛ وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل فى قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ؛ روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « من » للتبعيض ، وتكون لبيان الجنس . « وأمم سنمتعهم » ارتفع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة وأمما ، وتقديره : ونمتع أمما . وأعيدت « على » مع

« أمم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهى ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدم فى « النساء » بيان هذا مستوفى[1] فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء فى قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف؛ لأنها فى موضع الحال؛ أى اهبط مسلما عليك . و « منا » فى موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات . «وعلى أمم» متعلق بما تعلق به «عليك»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » فى قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف؛ لأنه فى موضع جر نعت للأمم . و « معك » متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى تلك الأنباء ؛ وفى موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمجوس الآن ينكرونه . وقيل: أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ فى الدنيا بالظفر ، وفى الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ
إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾
إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ
إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول : يا أخا تميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدم هذا فى « الأعراف »[(١)] وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » . وعاد اسم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وجل ثم استمر على قوم انتسبوا إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ، و « غيرُه » بالرفع على الموضع، و « غيرَه » بالنصب على الاستثناء . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدم معناه . والفِطرة ابتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم أول السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير ؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مِفعال من أفعل، وقد جاء هاهنا من فَعَل ؛ لأنه من دَرَّت السماء تَدِرُّ وتَدُرُّ فهو مدرار . وكان قوم هود أعنى عادا أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى « الأعراف »[1] . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضحاك : خِصبا إلى خِصبكم . على بن عيسى : عِزّا على عزكم . عكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المال والولد ؛ فتلك القوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النِّعَم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبّك إياها، عن ابن عباس وغيره . يقال : عراه الأمر واعتراه إذا ألمّ به . ومنه « وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ » . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَٱشْهَدُوا ﴾ أى واشهدكم ، لانهم كانوا أهل شهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ، أى لتعرفوا ﴿ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرّى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوّة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : « فَكِيدُونِى جَمِيعًا » . وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أى رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره . ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أى نفس تدبّ على الأرض ؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أى يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ؛ أى فلا تصلون إلى ضرّى . وكل ما فيه روح يقال له دابّ ودابّة ؛ والهاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها . وقال القتبى : قاهرها ؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضحاك : يحييها ثم يميتها ؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلّة والخضوع ؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ؛ أى أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزّوا ناصيته ليعرف بذلك فخرا عليه ؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم ؛ فذلك النور آخذ بنواصيهم ، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " . ولهذا

فويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم في العزم، ولذلك ما قوي هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا في جبهته بين عينيه، فسمي ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر ؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سهيل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصراط في اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شي فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا ؛ فحذفت التاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بينت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه . «ويستخلف» مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فقد أبلغتكم » . وروى عن حفص عن عاصم « وَيَسْتَخْلِفْ » بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل « وَيَذَرْهُمْ(١) فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

---

(١) بالياء وسكون الراء قراءة ؛ كما في (فتح المقفلات) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " لن يُنجى أحدًا منكم عمله " قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ ! قال : " ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن بيّنا لهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله فى « الذاريات » وغيرها وسيأتى . قال القُشيرى أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجى الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلى الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله اسما للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ؛ وإنما جمع هذا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى اتبع سقاطهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعَنود والعاند والمعاند المعارض بالخلاف . ومنه قيل للعِرْق الذى ينفجر بالدم عاند . قال الراجز :

* إنّى كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدا[(1)] *

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أُلحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله : « ويوم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

---

(1) صدر البيت : * إذا رحلت فاجعلونى وَسَطًا *

رَبَّهُمْ ﴾ قال الفراء : أى كفروا نعمة ربهم ؛ قال ، ويقال كفرته وكفرت به ، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك والبُعد التباعد من الخير. يقال: بَعُد يَبعُد بُعْدا إذا تأخر وتباعد . وبَعِد يبعَد بَعَدًا إذا هلك؛ قال:(١)

لا يَبعَدَنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداة وآفةُ الجُزُرِ

وقال النابغة :

فلا تَبعَدَنْ إنّ المنيةَ مَنهَلٌ * وكلُّ امرىء يومًا به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب. ﴿ صَالِحًا ﴾. وقرأ يحيى بن وثاب « وَإِلَى ثَمُودٍ » بالتنوين فى كل القرآن؛ وكذلك روى عن الحسن . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع . وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث . قال النحاس : الذى قال أبو عبيدة — رحمه الله — من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة؛ بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه . والأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيه بنو فلان الصَّرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيد بالغ حسن . وأنشد سيبويه فى التأنيث(٢)

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَماحةً * وكفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

---

(١) تقدّم شرح البيت فى هامش جـ ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى، وغلب ذلك عليها . (شواهد سيبويه) .

الثانيـة ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدم . ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة » (١) و « الأنعام » (٢) وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج . ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى « استعمركم » أعمركم من قوله : أعمر فلان فلانا داره ؛ فهى له عُمْرى . وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون استفعل بمعنى أفعل ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف . ابن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثـة ـ قال ابن العربىّ قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان : منها؛ استفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : استحملته أى طلبت منه حملانا؛ وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استسهلت هذا الأمر اعتقدته سهلا، أو وجدته سهلا ، واستعظمته أى اعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم : استجدته أى أصبته جيدا ؛ ومنها بمعنى فَعَل ؛ كقوله : قرّ فى المكان واستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يستهزئون » « ويستسخرون » منه ؛ فقوله تعالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته واستسهلته ؛ أى أصبته جيدا وسهلا ، وهذا يستحيل فى الخالق، فيرجع إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه استدعى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل، وهو آستدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا ، وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة][1] .

قلت : لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه[2]؛ وهي :

الرابعة — ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »[3] في السكنى والرقبى . وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمَر رجعت إلى الذى أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم بن محمد و يزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي ، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول . الثانى — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهى هبة مبتولة[4] ؛ وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأصحابهما والثّورى والحسن بن حيّ وأحمد ابن حنبل وآبن شُبْرمة وأبى عُبيد ؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العمرى جائزة " و " العمرى لمن وُهبت له " . الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل ؛ وإن قال لعقبك كان كالقول الثانى ؛ وبه قال الزهرىّ وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبى ذئب ، وقد روى عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله فى الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعْمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى الناس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك فى الحبس أيضا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب .

عليه وسلم قال : « أيما رجل أعمر رجلا عمرى له ولعقبه فقال قد أعطيتكها وعقبك ما بقى منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجل أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث » . وعنه قال : إن العمرى التى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: هى لك ولعقبك ، فأما إذا قال: هى لك ما عشت فإنها ترجع إلى صاحبها ؛ قال معمر : وبذلك كان الزهرى يفتى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى ؛ لأن الله سبحانه قال : « وٱستعمركم » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن ؛ وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقب . وفى التنزيل : « وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ » أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : «وجعلنا ذريته هم الباقين» وقال : « وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ » .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ أى ٱرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى فى « البقرة »[1] عند قوله : « فإنى قريب أجيب » القول فيه .

قوله تعالى : قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

(١) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيّدا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنْ نَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وإنّا » والأصل وإنّنا، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » « تدعوننا » لأن الخطاب للرسل . ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهذلىّ (١) :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْب • يَشَمُّ عِطفى ويَبُزُّ (٢) ثوبى
• كأنما أربتُه بِرَيْب •

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفى؛ أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفرّاء .

---

(١) هو خالد بن زهير الهذلىّ كما فى اللسان ؛ وصدر البيت الأول :
• يا قوم مالى وأبا ذؤيب •

(٢) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى « هذه » . وإنما قيل ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل ــ على ما طلبوا ــ على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحِجْر يقال لها الكاثبة؛ فلما خرجت الناقة ــ على ما طلبوا ــ قال لهم صالح : «هذه ناقة الله لكم آية» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وَذِرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذ . وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بتَرَكَ . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفراء : بعقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عقرها .

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدم الكلام فى عقرها فى « الأعراف »(1) ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدم فى « الأعراف » فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول، ثم احمرت فى الثانى، ثم اسودت فى الثالث، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدم فى « الأعراف » .

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — استدل علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمِع على إقامة أربع ليال قَصَر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدّم في «النساء»(١) ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ تقدّم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ ؛ أي من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة ؛ أي نجيناهم من خزي يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لما» و«حتى» لا غير . وقرأ نافع والكسائيّ «يومَئذ» بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ» . وقال أبو حاتم : حدّثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ «ومن خزي يومئذ» أدغم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في «يومئذ» . قال النحاس : الذي يرويه النحويون — مثل سيبويه ومن قارَبه عن أبي عمرو في مثل هذا — الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز ؛ لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز ، كسر الزاي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أي في اليوم الرابع صِيح بهم فماتوا ؛ وذَكَّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا : «وأخذ الذين ظلموا الصيحة» وقال في «الأعراف» «فأخذتهم الرجفة» وقد تقدّم بيانه هناك(٢) . وفي التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة ؟ ! قالوا : فما نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال اثني عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفجاج ، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء ، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس ، فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي ساقطين على وجوههم ، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لحّا(١) ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام ، و إبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم ، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ؛ قاله ابن عباس . الضحاك : كانوا تسعة . السدى : أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، ذوو وضاءة وجمال بارع . ﴿ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطبرى . وأما قوله : « سيقولون ثلاثةٌ » فالثلاثة اسم غير مقول . ولو رفعا جميعا

(١) أي لاصق النسب .

أو نصبا جميعا « قالوا سلاما قال سلام » جاز في العربية . وقيل : انتصب على المصدر .
وقيل : «قالوا سلاما» أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما » أي صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه ابن العربي واختاره .
قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سلام
عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طبتم » . وقيل : دعوا له؛ والمعنى سلمت سلاما . ﴿ قال
سلام ﴾ في رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أي هو سلام ، وأمري سلام .
والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة
استعماله، فحذف الألف واللام كما حذفت من لاهم في قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال
الفراء : السِّلم والسَّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة[(1)] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى؛ قاله كبراء
النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع
نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء ؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛
فلما حذف حرف الجر بقي « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير اسم إبراهيم .
و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن
في موضع رفع، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي،
وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل
حنيذ . و « حنيذ » مشوي . وقيل : هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار .
يقال : حنذت الشاة أحنذها حنذا أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي
حنيذ . وحنذت الفرس أحنذه حنذا ، وهو أن تحضره شوطا أو شوطين ثم تظاهر عليه
الجلال في الشمس ليعرق ، فهو محنوذ وحنيذ ؛ فإن لم يعرق قيل كبا . وحَنَذٌ موضع قريب

(1) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا في هذه الآية فحسب .

من المدينة . وقيل : الحنيذ السَّميط . ابن عباس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .[1]

الثانيــة — فى هذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه ؛ فيقدّم الموجود الميسّر فى الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَة ، ولا يتكلف ما يضرّ به . والضّيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيّين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة »[2] وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة " . والجائزة العطية والصلة التى أصلها على النّدب . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم : " ليلة الضّيف حقّ " إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية . قال ابن العربىّ : وقد قال قوم : إن وجوب الضّيافة كان فى صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبى سعيد الخدرىّ خرجه الأئمة، وفيه : « فاستضفناهم فأبوا أن يُضيّفونا فلُدغ سيّد ذلك الحىّ» الحديث . وقال هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا للاَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أبوا، ولبيّن لهم ذلك .

الثالثــة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون : إنما الضّيافة على أهل القُرى ، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر" . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أخى عبد الرزاق متروك الحديث منسوب

(1) وحنذ موضع قريب من مكة أيضا .
(2) راجع جـ ٢ ص ١٠٨ طبعة ثانية .

إلى الكذب ، وهذا مما انفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة فى القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ؛ ولا شك أن الضيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهى فريضة .

الرابعة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن فى موضع القطع ، وبالقياس فى موضع النقل ؛ من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأى ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة — السنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل ؛ فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يَنْكُتون بقداح (1) كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أى أضمر . وقيل : أحس ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ به * فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جزَعَا

« خيفة » خوفا ؛ أى فزعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادسة — من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر فى ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغى أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(1) قداح (جمع قدح بالكسر) : السهم قبل أن ينصل ويراش .

سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له : أتنظر إلىّ نظر من يرى الشّعرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك.

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول :

وللـوتُ خيرٌ من [زيارة](١) باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم؛ تقول : نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر(٢) :

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين. ويقال : نكرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيـل : كانت من وراء الستر. وقيـل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق : قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود « وامرأته قائمة وهو قاعد ».

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقا للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها * وأهجرُها يومًا إذا تَكُ ضاحكَا

وقال آخــر :

وضِحْــكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثلِ دمِ الجــوفِ يوم اللّقَا

والعرب تقــول : ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم : ضحكت الكافورة — وهي قشرة الطلعة — إذا انشقت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهــور : هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل : هو ضحك التعجّب؛ قال أبو ذؤيب

(١) كذا في العقد الفريد، وفي الأصول (يسارة). (٢) البيت للأعشى.

بِحَاءٍ بِمزيجٍ لم يَرَ الناسُ مثلَه * هو الضَّحْكُ[1] إلا أنه عملُ النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ، ورعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة ؛ وإنما هو كناية .ـ وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله : « وامرأته قائمة » أي قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروع إبراهيم « فضحكت » لقولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت ؛ أي ضحكت سرورا بالولد ، وقد هرمت ؛ والله أعلم أيّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لاتخف ، وأخبروه أنهم رُسُل، فرح بذلك، فضحكت امرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك ؛ فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك انكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه ؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا؛ أي مشرقا ، وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أي مشرقة . وفي الحديث " إن الله يبعث السّحاب فيضحك أحسنَ الضَّحك " . جعل انجلاءه عن البرق ضحكا؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي «فضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوى : وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف . وضَحِك يَضحَك ضَحْكا وضِحْكا وضِحِكا [وضَحِكا][1] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيّر :

* غَلِقت لضَحْكتِه رقابُ المالِ *[2]

قاله الجوهرى :

---

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك)

(١) الزيادة عن كتب اللغة .

(٢) صدر البيت : * غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا *

العاشرة ـ روى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أُسَيد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُرْسه ، فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل فى تَوْر(١)، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخارىّ وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهنّ لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة ـ ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوّله وتحمدوه فى آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحقٍّ اتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يسّر الله للملائكة أن يتشكلوا فى صفة الآدمى جسدا وهيئة أن ييسّر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فجأة](٢) .

الثانية عشرة ـ ودلّ هذا على أن التسمية فى أوّل الطعام، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبرهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه؛ فلقى يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم : سمِّ الله، قال الرجل لا أدرى ما الله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : ارجع، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر؛ فقال : هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا .

---

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب ، وقد يتوضأ منه ؛ ويصنع من صفر أو حجارة .
(٢) الزيادة عن ابن العربى .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنّت سارّة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا ؛ فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون في موضع الحال؛ أي بشّروها بإسحق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوبَ . وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» في موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحق بيعقوب . قال الفرّاء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أوّل من أمس وأمسِ عمرٍو[1] كان قبيحا ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتي؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أي شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعَجَّزت تعجيزا؛ أي طعنت في السنّ .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجِزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها عَجْزا وعُجْزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي ﴾ أي زوجي . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ؛ والعامل فيه التنبيه أو الأشارة . « وهــذا بعلي » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة ابن مسعود وأبيّ « وهذا بعلي شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ؛ فزيد بدل من هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين ؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة ؛ فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرّضت بقولها : « وهذا بعلي شيخا » أي عن ترك غشيانه لها . وسارّة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ، وهي بنت عم إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لما قالت : « وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ؛ أي من قضائه وقــدره ؛ أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحق . وبهذه الآية استدل كثير من العلماء على أن الذبيح إسمعيل ، وأنه أسن من إسحق ؛ لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتي الكلام في هذا ، وبيانه في « الصافات » (١) إن شاء الله تعالى .

(١) في تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » آية ١١٣ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه « عليكِم » بكسر الكاف لمجاورتها الياء . وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصولَ الرحمة والبركة لهم؛ المعنى : أوصـل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنمـا يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب « أهل البيت » على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل على النداء .

الثالثـــة — هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »(1) وسيأتي .

الرابعـــة — ودلّت الآية أيضا على أن منتهى السلام «وبركاته» كما أخبر الله عن صالحي عباده « رحمـة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارّة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان عن أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبـد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : الســلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانيّ الذي يغشاك؛ فعرّفوه إياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم في عصبة من أصحابه ، فقلت : الســلام عليكم؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشر لك" . قال : ودخلت الثانية؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك" . فدخلت الثالثـة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في الســلام سواء" . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي محمود ماجد . وقد بيناهما في « الأسماء » .

---

(1) في آية ٣٣ من سورة « الأحزاب » .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف ؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَوْتِ كَلَّابٍ[1] فبـاتَ له * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق ويعقوب . وقال قتادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا ؛ وأضاف إلى نفسه ، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة ؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إنا مهلكو أهل هـذه القرية » قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال : فعشرون؛ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا قال قتادة : نحوا منه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عنده ذلك : « إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جريج : وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أن «يجادلنا» فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب «لمّا» يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء ، ومبيته على ذلك الحال يسر أعداءه .

﴿ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ تقدم في « براءة »[(1)] معنى « لأواه حليم » . والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى في أموره كلها . وقيل : الأواه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي عذابه لهم . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أي نازل بهم . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(1) تفسير آية ١١٤ .

ورأتا هيئة حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية. قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش، فقالوا: أبها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هـذا الشيخ؛ وأشارتا إلى لوط، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضممت السين، لأن أصلها الضم، والأصل سُوِئَ بهم من السّوء، قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففا، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَع البعيرُ بيديه في سيره ذَرْعا على قدر سَعة خَطْوه؛ فإذا حُمل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل هو من ذَرَعه القيء أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد في الشر. وقال الشاعر:

وإنك إلا تُرْضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ

وقال آخر:

يومٌ عصيبٌ يَعصِبُ الأبطالا * عَصْبَ القَـوِيّ السَّلَمَ الطِّوالا

ويقال: عصيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب بالشر عِصابة؛ ومنه قيل: عُصبة وعِصابة أي مجتمعو الكلمة؛ أي مجتمعون في أنفسهم. وعَصَبة الرجل المتجمعون معه في النسب؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أي مجتمع الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ في موضع الحال. «يُهرعون» أي يسرعون. قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة؛ يقال: أُهرِع الرجل إهراعا أي أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، وهو مُهرَع؛ قال مُهلهل:

فجاءوا يُهرعون وهُـــمْ أُسارَى * تقودُهـــمُ عــلى رَغْــمِ الأنوف

وقال آخـــر :

* بمعجّلاتٍ نحــوه مَهــارع *

وهــذا مثل : أُولِـع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد، وزُهي فلان . وتجيء ولا تســتعمل إلا على هذا الوجه . وقيل: أهرع أى أهرعه حِرصُه، وعلى هذا « يُهرعون » أى يُستحثّون عليــه . ومن قال بالأول قال : لم يســمع إلا أهرِع الرجلُ أى أسرع؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال ٱبن القوطيّــة : هُرِع الإنســان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق وٱســتعجل . وقال الهروىّ يقال : هُرِع الرجلُ وأُهرِع أى ٱســتُحِثّ . قال ٱبن عباس وقَتَادة والســدّىّ : « يُهرعون » يهرولون . الضّحاك : يَســعون . ٱبن عُيينة : كأنهــم يدفعون . وقال شِمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجَمَزى . وقال الحسن : مشىٌ بين مشيين؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ماروى أن ٱمرأة لوط الكافرة،لمـا رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ما رؤى مثلهم جمالا ؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويذكر أن الرســل لمـا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له . وقيــل : وجدوا ٱبنته تستقى ماء فى نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط،وقالت لهم : مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهــم لشر قوم فى الأرض — وقدكان الله عز وجل قال للملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ قَبلُ ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل . وقيل : من قبل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عادتهم إتيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصــدوا أضيافه

قام إليهم لوط مدافعا ، وقال : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ ٱبتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله : « هؤلاءِ بناتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ رثيا وزعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عُتْبة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى ، وكانا كافرين . وقالت فرقة ــ منهم مجاهد وسعيد بن جُبير ــ أشار بقوله : « بناتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ ويقوى هذا أن فى قراءة ٱبن مسعود « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر ؛ أى أزوجكموهن ، فهو أطهر لكم مما تريدون ، أى أحلّ . والتطهّر التنزّه عما لا يحل . وقال ٱبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [الرجال][1] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع فى كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : ٱعْلُ هُبَلُ[2] ٱعْلُ هُبَلَ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : " قل الله أعلى وأجلّ " . وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحال . و « هن » عماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاهنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت .

(١) فى الأصل (النساء) وهو تحريف . (٢) أى أظهر دينك .

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلوني . ومنه قول حسان :

فأخزاكَ ربي يا عُتيبَ بن مالك * ولقّاك قبل الموت إحدى الصّواعقِ

مددتَ يمينًا للنبيّ تعمُّدًا * ودمَّيتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبوارقِ

ويجوز أن يكون من الخزاية ، وهو الحياء ، والخجل ؛ قال ذو الرّمة :

خَزَايةً[1] أدركتْهُ بعدَ جَوْلتِه * من جانبِ الحَبْلِ مخلوطًا بها الغضبُ

وقال آخر :

من البيض لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ * بها مِرْطَها أو زايلَ الحَلْيُ جِيدَها

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ؛ قال الشاعر

لا تَعدَمي الدهرَ شِفارَ الجازِرِ * للضّيفِ والضّيفُ أحقُّ زائرِ

ويجوز فيه التثنية والجمع ؛ والأول أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وزَوْرٌ . وخزِي الرجلُ خَزَايةً ؛ أي استحيا مثل ذَلّ وهان . وخَزِي خِزْيًا إذا افتضح ؛ يَخْزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل : « رشيد » أي ذو رُشد . أو بمعنى راشد أو مرشِد ، أي صالح أو مصلح . ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناهٍ عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرُّشْد ؛ والرُّشْد والرَّشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أن يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم ، وكانت سنتهم أن من رُدّ في خطبة امرأة لم تحل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

---

(١) (خزاية) أي من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام في وصف ثور وحشي تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت في الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

يعني أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

« قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حقّ » و بعد ألّا تكون هذه الخاصيّة فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هنّ قصدنا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى لو وجد عونا على ردهم ، فقال على جهة التفجع والاستكانة : « لو أن لي بكم قوة » أي أنصارا وأعوانا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أن » في موضع رفع بفعل مضمر ، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد في « أن » التابعة لـ « لو » . وجواب « لو » محذوف ، أي لرددت أهل الفساد ، وحلت بينهم و بين ما يريدون . ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ وأنضوي . وقرئ « أو آويَ » بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد ، أي وأن آوي ، فهو منصوب بإضمار « أن » ومراد لوط بالركن العشيرة ، والمنعة بالكثرة . و بلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ، فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفي البخاري عن أبي هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى رُكن شديد " الحديث ، وقد تقدّم في « البقرة »[1] . وخرجه الترمذي وزاد " ما بعث الله بعده نبيًا إلا في ثروة من قومه " . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ، حديث حسن . ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنحّ عن الباب ، فتنحّى وانفتح الباب ، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وعَموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ، قال الله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم »[2] . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار ، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسوّر الجدار ، فلما رأت الملائكة مالقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم ، قالوا : يالوط إن رُكنك لشديد ، و إنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٣٧ من سورة القمر .

و إنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا و إياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها فى وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن فى بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يالوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وآضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكّن قومه من الدخول ، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكروه . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فاسر » بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : « والليل إذا يسر » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى » . وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أسرتْ(١) عليه من الجوزاء سارية ... تُزجى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

وقال آخر :

حَىَّ النضيرةَ ربّةَ الخِدرِ ... أسرتْ إليكَ ولم تكنْ تَسْرى

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أوّل الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال فى النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرءُ أسْرَى ليلةً ظنّ أنّه ... قضَى عملًا والمرءُ ما عاش عاملُ

وقال عبدُ الله بن رَوَاحةَ :

عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى ... وتنجلِى عنهم غَيَاباتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عبّاس : بطائفة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليل . قَتادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابى : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدء من الليل . وقيل : هزيع من

(١) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت فى الجوزاء ، فلذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

ونائحة تنوحُ بقطعِ ليلٍ * على رجلٍ بقارعةِ الصّعيدِ

فإن قيل : السُّرى لا يكون إلا بالليل ، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل » جاز أن يكون أوله . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ؛ وهى القراءة الواضحة البينة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا امرأتك . وكذا فى قراءة ابن مسعود « فأسر بأهلك إلا امرأتك » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كانت من الغابرين » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « إلا امرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا ؛ لأن المعنى يصير ـ إذا أبدلت وجزمت ـ أن المرأة أبيح لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا ﴾

---

(١) هو مالك ابن كنانة

أى من العـذاب . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصـة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لمـا قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . آستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى آبن عمر « أليس الصُّبُحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيـه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت آبنتاه فلا يهولنّك ما ترى؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السـلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهى خمس : سـدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم[1]، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بمـا فيها؛ حتى سمع أهـل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفئ لهم جرّة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رءوسهم، وأتبعهم الله بالحجـارة . مقاتل : أهلكت أربعة، ونجت ضعوه . وقيل : غير هذا؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[2] . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب، ومطرنا فى الرحمة. وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت؛ حكاه الهروى . واختلف فى « السجيل » فقال النحاس[3] : السجيل الشـديد الكثير، وسجيل وسجين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد الكثير؛ وأنشد[4] :

* ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّيناَ *

---

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف؛ لذا أهمل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى بعض الأصول، وفى البعض الآخر (البخارى) . (٤) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٣٨١٢ .

قال النحاس : وردّ عليه هـذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟! قال النحاس : وهـذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبـدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبى عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرّبت، أصلها سَنْج وجيلْ . ويقال : سَنْك وكِيل؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العـرب فجعلتهـما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليـل قوله : « لِنُرسِلَ عليهم حِجارةً مِن طِينٍ » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشـددت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعنى الآجر . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلا اسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوى؛ وحكاه الثعلبى عن أبى العالية؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « ويُنَزِّلُ مِنَ السماءِ مِن جِبالٍ فِيها مِن بَرَدٍ » . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو فى معنى سجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج واختاره . وقيـل : هو فِعّيل من أسجلته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسـلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيته؛ فكأنه عذاب أُعطوه؛ قال (1) :

مَنْ يُساجِلْنِى يُساجِلْ مَاجِدًا * يَمْـلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ

---

(1) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب . وأصل المساجلة ان يستقى ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله (دلوه) مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبـل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأول .

وقال أهل المعاني : السجّيل والسجّين الشديد من الحجر والضرب؛ قال ابن مُقْبل :

ورَجْلَةٍ يضربون البَيْضَ ضاحِيةً[1] ۞ ضَرْباً تَواصَى به الأبطالُ سِجّينا

﴿ مَنضُودٍ ﴾ قال ابن عباس : متتابع . وقال قتادة : نُضد بعضها فوق بعض . وقال الربيع : نُضد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللَّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضيد ونَضَدٌ؛ قال :

۞ ورفّعته إلى السَّجْفَين فالنَّضَد ۞

وقال أبو بكر الهُذَلي : مُعدّ ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظَّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلّمة ؛ من السِّيما وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر آسم من رُمي به ، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض . وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة؛ وقال الشاعر[2] :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعاً ۞ له سِيمِياءٌ لا تَشُقّ على البَصَر

و « مسومة » من نعت حجارة . و « منضود » من نعت « سجيل » . وفي قوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يعني قوم لوط ؛ أي لم تكن تخطئهم . وقال مجاهد : يُرهِب قريشا؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجار الله منها ظالما بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما هي من الظالمين

(١) وروى في اللسان : (يضربون البيض عن عرض)

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ وبعده :

كأن الثريا علقت فوق نحره ۞ وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه

ببعيد » . وفى رواية عنه عليه السلام: " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك ". وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما ـ أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى ـ أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها.

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ
كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين ، كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[1] هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما يقدرون وظلموا ؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحّوا له بغاية ما يقدرون ؛ فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيا عن التطفيف . ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النعم . وقال الحسن : كان سعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد ؛ أى شديد حرّه . واختلف فى ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : غلاء السعر؛ روى معناه عن ابن عباس . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء " . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان ؛ بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصّنجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض ؛ وقد مضى فى « الأعراف »[(1)] زيادة لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم ؛ قال معناه الطّبرى وغيره . وقال مجاهد : « بقية الله خير لكم » يريد طاعته . وقال الربيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . ابن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال ابن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل . يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتهيأ لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « أن » فى موضع نصب؛ قال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقـول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيـل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سـفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك؛ ودلّ هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَمِيّ والضّحاك ابن قيس «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. وروىَ عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف[1] الدراهم . وقيل : معنى « أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه ؟! . ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أي عنـد نفسك بزعمك . وقيـل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة . ومنه قولهم للحبشي : أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجَوْن[2]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عُيينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل؛ كما قيل للّديغ سَليم، وللفلاة مَفازة . وقيل: هو تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هـذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدلّ عليـه « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » أنكروا لمـا رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدلّ عليه « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

---

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه . (٢) الجون هنا الأسود .

مســـئلة ــ قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدًا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم . وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس ؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: « وكان فِى ٱلمدينةِ تِسعة رهطٍ يفسِدون فِى ٱلارضِ ولا يصلِحون » أنهم [illegible] ون الدراهم ؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظى .

مســـئلة : قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقِى : من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع عذر ؛ قال ابن العربى : أما قوله : لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرة ، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة فى هذا فلأنه أمر بيّن لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه ، أو خفى وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك .

مســـئلة : إذا كان هذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ ابن المسيّب برجل قد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال : رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيّب : هذا من الفساد فى الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان . وقال أبو عبد الرحمن التُّجيبى : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل وقد شُهِد عليه فضربه وحلقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول : هذا جزاء من يقطع

الدراهم ؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليه ، فقال : إنه لم يمنعنى أن أقطع يدك إلا أنى لم أكن تقدّمت فى ذلك قبل اليوم ، وقد تقدّمت فى ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضى أبو بكر بن العربى : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، و إنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به فى الفساد ، وهذا هو الواجب فى كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر فى البدن ؛ وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحرز أصلا فى القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرز لها ، وحرز كل شىء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل فى قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أُدب ، وخاتم الله تُقضى به الحوائج فلا يستويان فى العقوبة . قال ابن العربى : وأرى أن يقطع فى قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتى الحكم ، إلا أنى كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للحسدة الضلال ، فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقدّم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حلالا ؛ وكان شعيب عليه السلام كثير المال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفى الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أنهاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتأمروننى بالعصيان فى البخس والتطفيف ، وقد أغنانى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « ـأريد » . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى ليس أنهاكم عن شىء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة؛ وقال : « ما ٱستطعت » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشد . ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى آعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء؛ ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِى ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : لا يكسبنكم شقاق إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم ؛ قاله الزجاج . وقد تقدم معنى « يجرمنكم » فى « المائدة »[1] و « الشقاق » فى « البقرة »[2] وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدى؛ ومنه قول الأخطل :

ألَا مَن مُبلغٌ عنّى رسولًا[3] * فكيف وجَدتُمُ طَعْمَ الشِّقاقِ

وقال الحسن : إضرارى . وقال قتادة : فِراق . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد ؛ فلذلك وحد البعيد . قال الكسائى : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم . ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ آسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيّناهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى» . قال الجوهرى : وَدِدت الرجل أَوَدّه ودّا إذا أحببته، والودود المحبّ، والوُدّ والوِدّ والوَدّ والمودّة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبياء " .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .
(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أى ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه؛ يقال : فقِـه يفقَه إذا فهم فِقْها؛ وحكى الكسائى فَقُه فَقَهاً وفقِها إذا صار فقيها[(1)] . ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصابا ببصره؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر؛ قاله الثورى، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له : مكفوف؛ أى قد كُفّ عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفع بالابتداء؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم؛ ومنه الراهطاء لجُحر اليَرْبُوع؛ لأنه يتوثّق به ويخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرجمناك » لشتمناك؛ ومنه قول الجعدىّ :

تراجمنا بمُرّ القول حتى ✽ نصير كأننا فرسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي﴾ « أرهطى » رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وأعظم وأجلّ وهو يملككم . ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى؛

(1) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقة يفقه إذا فهم فقها وفقها ؛ حكى الكسائى فقها ، وفقه فقها إذا صار فقيها .

يقال : جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وقد مضى في «البقرة»[١] . ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي من الكفر والمعصية . ﴿ مُحِيطٌ ﴾ أي عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد ؛ وقد تقدّم في « الأنعام »[٢] . ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهلكه . و « من » في موضع نصب، مثل « يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ » . ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف عليها . وقيل : أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : في محل رفع ؛ تقديره : ويخزى من هو كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء أنهم إنما جاءوا بـ « هو » في « ومن هو كاذب » لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون : مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فَعَل ويَفْعَل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله[٣] :

مَنْ رَسُولِي إلى الثُّرَيَّا بِأَنِّي * ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالْكِتَابِ

﴿ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة، فإني منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم . ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحة جبريل . وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » فذكّر على معنى الصياح . قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ تقدم معناه . وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ « كما بَعُدت ثمود » بضم العين . قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال بعد

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) هو عمر بن أبي ربيعة .

يبعد بعدا وبعدا إذا هلك . وقال المهدوى : من ضم العين من «بعدت» فهى لغة تستعمل فى الخير والشر، ومصدرها البعد ؛ وبعدت تستعمل فى الشر خاصة ؛ يقال : بعد يبعد بعدا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما فى المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعانى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ بين أنه أتبع النبى النبى لإقامة الحجة، و إزاحة كل علة « بآياتنا » أى بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى حجة بينه ؛ يعنى العصا . وقد مضى فى « آل عمران »(1) معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى شأنه وحاله ، حتى اتخذوه إلها ، وخالفوا أمر الله تعالى . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى بسديد يؤدى إلى صواب . وقيل : « برشيد » أى بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعنى أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قدمهم يقدمهم قدما وقدوما إذا تقدمهم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أى أدخلهم فيها . ذكر بلفظ الماضى؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضى . ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أى بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود؛ وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك . والمورود الماء الذى يورد ، والموضع الذى يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة : رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْدًا ؛ أى أعنته وأعطيته . واسم العطية الرِّفْد ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا القدح الضخم ؛ قاله الجوهرى ، والتقدير: بئس الرفد رفد المرفود . وذكر الماوردى أن الرفد بفتح الراء القدح ، والرفد بكسرها ما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكأنه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرفد الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار ؛ قاله الكلبى .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ «ذلك» رفع على إضمار مبتدأ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء، والمعنى: ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشه، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والنـاس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـــه قائمٌ وحَصِيدُ

وقال آخـــر (١) :

إنمـا نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ * فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِـدُه

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود، وجمعه حَصْدى وحِصَاد مثل مَرْضَى ومِرَاض؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظـلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه، وقـد تقدم فى « البقرة » (٢) مستوفى . ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يعبدون . ﴿ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيـــد :

فلقـد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لِبِـــلًى يعودُ وذاكمُ التَّتْبِيبُ

والتَّبَابُ الهلاكُ والخسران، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنـام، فحذف المضاف؛ أى كانت عبادتهم إيّاها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرىّ وطلحة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ ربك إذ أَخَذَ القرى » . وعن الجحدرىّ أيضا « وكذلك أَخْذُ رَبِّك » كالجماعة «إذْ أَخَذَ

(١) البيت للطرماح ؛ كما فى اللسان . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

القرى » . قال المهدوىّ : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدّم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخْذُ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذ لما مضى، أى حين أخذ القرى؛ و إذا للستقبل . ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل: « وٱسأل القرية » .﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذىّ من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته " ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أى لعبرة وموعظة. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾. ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَجْمُوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَهُ ٱلنَّاسُ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت ارتفاع «الناس» بالابتداء، والخبر «مجموع له» فإنما لم يقل: مجموعون على هذا التقدير؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر؛ أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » و بيّناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وقرئ «يوم يأتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدرِ ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج، وحذفها فى الوقف، وروى أن أُبيًّا وابن مسعود قرأا « يوم يأتى » بالياء فى الوقف والوصل ؛ وقرأ الأعمش وحمزة « يوم يأتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء، ولا يجزم الشىء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائىّ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم ، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء فى الوصل والوقف بحجتين ؛ إحداهما — أنه زعم أنه رآه فى الإمام الذى يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل ؛ تقول : ما أدرِ ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضى الله عنه فشىء يردّه عليه أكثر العلماء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لى ذَهَبَ ؛ وأما حجته بقولهم : « ما أدرِ » فلا حجة فيه ؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه . وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهمًا * جودًا وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أى تعطى . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة ، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ؛ قال : والذى أراه اتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة سنّة ؛ وقد جاء مثله فى كلام العرب . ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الأصل تتكلم ؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار ، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح . وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل : إن لهم فى الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد فى الدِّين ؛ فيقول لم قال : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وقال فى موضع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ » . وقال : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . وقال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » . والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا ؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن الحجة : ما تكلمت بشىء ، وما نطقت بشىء ؛ فسمّى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف فى بعضها يمنعون من الكلام ، وفى بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهـذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم فى قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقى الذى كتبت عليه الشقاوة . والسعيد الذى كتبت عليه السعادة ؛ قال لبيد :

فمنهـم سـعيدٌ آخذٌ بنصيبه * ومنهـم شَـقِيٌّ بالمعيشـة قانعُ

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لمـا نزلت هـذه الآية « فمنهـم شقى وسعيد » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبى الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرِغ منه ، أو على شىء لم يُفرَغ منه ؟ فقال : " بل على شىء قد فُرِغ وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسَّر لمـا خُلِق له ". هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدم فى « الأعراف »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ابتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر ؛ وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، والشهيق من الأنين المرتفع جدا ؛ قال : وزعم أهل اللغـة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتـداء صوت الحمير فى النهيق ، والشهيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار فى النهيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر(٢) :

حَشْرَجَ فى الجوف سَحِيلًا(٣) أو شَهَقْ * حتى يُقـال ناهـقٌ وما نَهَـقْ

وقيل : الزفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج بالنفس ، والشهيق ردّ النفس . وقيـل : الزفير ترديد النفَس من شدة الحزن ؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدته ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لمـاع الخفـق

(٣) السحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

والشهيق النفس الطويل الممتد، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق؛ أى طويل. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » فى موضع نصب على الظرف؛ أى دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك . وآختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفى التنزيل: « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنّ ليلٌ ، أو سَالَ سيلٌ، وما آختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية ؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن آبن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردّان إلى النور الذى أخذتا منه ؛ فهما دائمتان أبدا فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه آستثناء ليس من الأوّل ؛ وقد آختلف فيه على أقوال عشرة : الأوّل — أنه آستثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبى نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شَقُوا بالمعصية " . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدّة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً فى الكفرة والعصاة ، ويكون الآستثناء من « خالدين » ؛ قاله قَتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة[1] أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون " وقد تقدّم هـذا المعنى فى « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛ أى لهم فيهـا زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنـة من النعيم ما ذكر ، ومالم يذكر . حكاه ابن الأنبارى . الرابع — قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدّد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له فى الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس — أن « إلّا » بمعنى «سوى» كما تقول فى الكلام : ما معى رجل إلّا زيد ، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك . قيـل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعـل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعانى قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدين فيهـا ما دامت السـموات والأرض إلا ما شاء ربك » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللمحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيـا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدّة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ؛ واختاره الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقـدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدّة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم

---

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حممة .

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق ، فمن وفى بالعهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخلّد في النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما داما للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله ؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . ما خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحدية ، فمن لقيه موحّدا لأحديته بقي في داره أبدا ، ومن لقيه مشركا بأحديته إلها بقي في السجن أبدا ؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إلا ما شاء ربك » من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلّا » بمعنى الواو ، قاله الفرّاء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا »(1) أي ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه * لعمرُ أبيكَ إلا الفرقدانِ

أي والفرقدان . وقال أبو محمد مكيّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى في «البقرة»(2) بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أي كما قد سلف ، وهو — التاسع . العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » فهو استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك ؛ كأنه قال : إن شاء ربك ؛ فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي عُبيد قال : تقدمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

(1) البيت لعمرو بن معدي كرب . وقيل : هو لحضرمي بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ؛ فقد نعت « كلا » بها .

(2) راجع ج ٢ ص ١٦٩ طبعة ثانية .

في خلود الفريقين في الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما ، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خيارا ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء . وقول ــ حادي عشر ــ وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم ، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من » ، استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني ؛ كأنه قال تعالى : فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سعدوا شقوا بدخول النار ثم سعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي « سُعِدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنا لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله ، وأُسعد مثل أُمرِض ؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوي : ومن ضم السين من « سعِدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبي : « سُعِدوا » بضم السين أي رزقوا السعادة ؛ يقال : سُعِد وأُسعِد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سَعِدوا » بفتح

السين قياسا على «شَقُوا» وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة، تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِم فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود، ولا يقال فيه مُسْعَد، كأنهم آستغنوا عنه بمسعود . وقال القُشيري أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعد؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِي فلان؛ لأنه مما لا يتعدّى .﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذّه أي قطعه؛ قال النّابغة :

تَجُذُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ جزم بالنهي؛ وحذفت النون لكثرة الأستعمال . ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك . ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أي قل يا محمد لكل من شك « لا تك في مرية مما يعبد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم .﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية . الثاني — نصيبهم من العذاب؛ قاله آبن زيد . الثالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله آبن عباس رضي الله عنهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت للنابغة الذبياني يصف فيه السيوف . ويروى (ويوقدن) . والسلوقي : الدرع المنسوب الى سلوق؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذي نسج حلقتين . والصفاح : الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ؛ وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار في الهواء بتصادم حجرين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى إن كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد . واختلف القراء فى قراءة ﴿ وإنّ كُلًّا لَمَّا ﴾ فقرأ أهل الحرمين ـ نافع وابن كثير وأبو بكر معهم ـ « وَإِنْ كُلًّا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إنْ زيدا لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر[1]

* كأنْ ظبيةٌ تَعْطو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية فخفف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشددة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفراء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفف بقوله : « ليوفّينّهم » أى وإن ليوفينهم كلّا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه[2]. وشدد الباقون « إنّ » ونصبوا بها « كلّا » على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر « لَمَّا » بالتشديد، وخففها الباقون على معنى : وإن كلّا ليوفينهم، جعلوا « ما » صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ « ما » . وقال الزجاج : لام « لمّا » لام « إنّ » و « ما » زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمنطلق؛ فإنّ

---

(١) هو : ابن صريم اليشكرى؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل ، والخبر محذوف لعلم السامع . ويجوز جر الظبية على تقدير: كظبية ، وأن زائدة مؤكدة .

(٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسما قبلها .

تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك : إنّ الله لغفور رحيم ، وقوله : « إن في ذلك لذكرى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يتلقّى بها القسم ، وتدخل على الفعل و يلزمها النون المشدّدة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ«ما» و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفراء : « ما » بمعنى « مَنْ » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أي و إنّ كلّا لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى « مَن » . وقيل : ليست بزائدة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إنّ » و « ليوفينهم » جواب القسم ؛ التقدير : و إنّ كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أي مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدّد « لما » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إنّ زيدا إلّا لضربته ، ولا لمّا لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو علي الفارسي : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين في ذلك أقوال : الأوّل — أن أصلها «لمن ما» فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى فصارت «لما» و«ما» على هذا القول بمعنى « من » تقديره : و إن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

وإنّي لمّا أصدرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أعيا بالسَّبيل مَصَادِرُه

و زيّف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثاني — أن الأصل لَمِن ، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات ، والتقدير : وإنّ كلّا لَمِنْ خَلْق ليوفينّهم . وقيل : «لمّا» مصدر « لَمّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهي على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا » أي جامعا للمال المأكول ؛ فالتقدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمّا ؛ أي جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهري « لمًّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

أن « لمّا » بمعنى « إلّا » حكى أهل اللغة: سألتك بالله لمّا فعلت، بمعنى إلّا فعلت؛ ومثله قوله تعالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيرى: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وَإِنْ كُلًّا لمّا » حتى تقدّر « إلا » ولا يقال : ذهب الناس لما زيد . الرابع — قال أبو عثمان المازنى : الأصل وإن كلّا لَمَا بتخفيف « لمّا » ثم ثقلت، كقوله :[1]

لقد خَشِيتُ أَنْ أرى جَدَبًّا * فى عامِنَا ذا بعد مَا أَخْصَبًّا

وقال أبو إسحق الزجاج : هذا خطأ! إنما يخفّف المثقّل، ولا يثقّل المخفّف . الخامس — قال أبو عبيد القاسم بن سلّام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى » بغير تنوين وبتنوين؛ فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى « ما » مثل : «إن كل نفس لما عليها حافظ » وكذا أيضا تشدد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و « لما » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن « لما » يستعمل بمعنى « إلا » .

قلت : هذا القول الذى ارتضاه الزّجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له ، إلا أن ذلك القول « إنْ » فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا .[1] وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَىّ « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » وبتشديد « لما » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد ووعيد .

(١) البيت لرؤبة .

(١) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبى، ومذيلة بكلمة (حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترقا) .

قوله تعالى : فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته؛ قاله السدي . وقيل : « استقم » اطلب الإقامة على الدين من الله وآسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال، كما تقول : آستغفر الله آطلب الغفران . والآستقامة الآستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ أي فاستقم على آمتثال أمر الله . وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال : " قل آمنت بالله ثم آستقم ". وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على آبن عباس فقلت أوصني! فقال : نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة ، آتبع ولا تبتدع . ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي آستقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن آتبعه من أمته . قال آبن عباس : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب! فقال : " شيبتني هود وأخواتها " وقد تقدم في أول السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري (١) يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله! روى عنك أنك قلت : " شيبتني هود " فقال : " نعم " فقلت له : ما الذي شيبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال :" لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » " . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ نهي عن الطغيان . والطغيان مجاوزة الحد؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَآءُ » . وقيل : أي لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) في الأصل (الشنوى) وصوب عن (الدر المنثور) .

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به؛ قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد : « الركون هنا الإدهان (١) وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانيــة ــ قرأ الجمهور « تَرْكَنُوا » بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو : هى لغة أهل الحجاز. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقتادة وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف؛ قال الفراء : وهى لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَن يركَن مثل مَنَعَ يَمْنَع .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفى العصاة، على نحو قوله تعالى: « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية؛ وقد تقدم. وهذا هو الصحيح فى معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصى من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم (٢) :

عن المرء لا تَسألْ وسَلْ عن قَرِينه ❊ فكلُّ قرينٍ بالمُقارِن يَقْتَدِى

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيَّة فقد مضى القول فيها فى « آل عمران » (٣) و « المائدة » (٤) . وصحبة الظالم على التَّقِيَّة مستثناة من النهى بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم فى أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه[1] أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيوخ الصّوفية : إن المراد بهذه الآية آستغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال آبن العربي : وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات[2] و] لا نفلا فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطّرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثـاني صـلاة الظهر والعصر ؛ واختاره آبن عطية . وقيـل : الطّرفان الصبح والمغرب ؛ قاله آبن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطّرف الثـاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضّحاك . وقيل : الطّرفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصّبح ؛ كأن هـذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى المـاوردي أن الطّرف الأول صـلاة الصبح باتفـاق .

قلت : وهذا الآتفاق ينقضه القول الذي قبله . ورجح الطّبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر، قال آبن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال آبن العربي : والعجب من الطّبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليـل ! فقلب القوس رَكْوَة[3] ، وحاد عن البُرْجاس[4] غَلْوة ؛ قال الطّبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطّرفين الصّبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم، أو أصابه غم . (٢) الزيادة عن آبن العربي . (٣) لعله المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) و يضرب في الأدبار وانقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

قلت : هــذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ؛ وقــد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق ــ إلا من شذ ــ بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذاك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطبري في الصبح ؛ وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي في زلف من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة . وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحق وغيرهما « وزُلُفًا » بضم اللام جمع زَلِيف لأنه قد نطق بزليف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلُفة » لغــة ؛ كبُسُرة و بُسُر ، في لغة من ضمّ السين . وقرأ ابن محيصن « وَزُلْفًا » من الليــل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفة تجمــع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدُرّة ودُرّ و بُرّة و بُرّ . وقرأ مجاهــد وابن مُحيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُربى . وقرأ الباقون « وزُلَفًا » بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابي : الزّلف الساعات ، واحدها زُلْفة . وقال قوم : الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعــد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صــلاة العَتَمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيــل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش يعني صلاة الليل ولم يعيّن .

الرابعــــة ــ قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ قال ابن عطية : وهذا على جهة المثــال في الحسنات ، والذي يظهــر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقــوله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتنبتَ الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضــد قول الجمهور ؛ نزلت في رجل من الأنصار ، قيــل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذيّ عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت " فقال له عمر : لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه، فتلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال : " [لا](1) بل للناس كافة ". قال الترمذيّ : حديث حسن صحيح . وخرّج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلةً حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت « أَقِمِ الصلاة طرفي النهارِ وزلفا من الليل إن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولمن عمل بها من أمتي " . قال الترمذيّ : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليَسَر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت: إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتُبْ ولا تُخبر أحدا فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتُبْ ولا تُخبر أحدا فلم أصبر، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخَلَفتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا " حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصلاة طرفي النهارِ وزلفا من الليلِ إن الحسناتِ يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب(2)، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره؛ وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعرض عنه، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

(1) الزيادة عن الترمذي . (2) الذي في صحيح الترمذيّ (صحيح) بدل (غريب) .

" أشهدت معنا الصلاة " قال نعم ؛ قال : " آذهب فإنها كفارة لما فعلت " . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : " قم فصل أربع ركعات ". والله أعلم . وخرج الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث آبن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ، « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » " .

الخامســـة ــ دلت الآية مع هــذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ؛ وقد يستدل به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا فى ثوب واحد ، وهو آختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر آختلاف العلماء فى هذه المسئلة ذكر هـذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شىء (١) ، وسيأتى ما للعلماء فى هـذا فى « النور » إن شاء الله تعالى .

السادســـة ــ ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقم الصلاة » الآية . وقال : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » الآية . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » . وقال : « واركعوا واسجدوا » . وقال : «وقوموا لله قانتين» . وقال : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » على ما تقدّم . وقال : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » فبيّن صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسّجدات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسنتها ، وما لا تصح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال فى صحيح البخارى : "صلّوا كما رأيتمونى أصلى". ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابعة فى تفسير آية ٢ .

بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى . والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث .

قوله تعالى : وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وٱصبر﴾ أى على الصلاة؛ كقوله: «وأمر أهلك بالصلاة وٱصطبر عليها» . وقيل : المعنى وٱصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعني المصلين .

قوله تعالى : ﴿ فلولا كان ﴾ أى هلا كان . ﴿ من القرون من قبلكم ﴾ أى من الأمم التى قبلكم. ﴿ أولو بقية ﴾ أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . ﴿ ينهون ﴾ قومهم. ﴿ عن الفساد في الأرض ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار . وقيل: لولا هاهنا للنفي؛ أى ما كان من قبلكم؛ كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت. ﴿ إلا قليلا ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن قليلا. ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ نهوا عن الفساد فى الأرض. قيل : هم قوم يونس؛ لقوله : « إلا قوم يونس » .وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . ﴿ وٱتبع الذين ظلموا ﴾ أى أشركوا وعصوا . ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أى من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة . ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيا بينهم فى تعاطى الحقوق؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدم[(1)] . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم، أى ما أهلك قوما إلا بعد إعذار و إنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه و إن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جبير : على ملة الإسلام وحدها . وقال الضحاك : أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى؛ قاله مجاهد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق، فهذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

غنيّ وهذا فقير « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » بالقناعة؛ قاله الحسن . ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء : إيماء الإشارة للاختلاف؛ أي وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضّحاك : ولرحمته خلقهم؛ و إنما قال : « ولذلك » ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل . وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار بـ«ـذلك» إلى شيئين متضادين ؛ كقوله تعالى : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » وقال : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » وكذلك قوله : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولما ذُكر خَلَقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السّعير؛ أي خَلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خَلَقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدويّ : وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير ؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلَقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » أي للسّعادة والشّقاوة خلَقهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ معنى « تمت » ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ « مِن » لبيان الجنس؛ أي من جنس الجنة وجنس الناس . « أجمعين » تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جنته بقوله : "ولكل واحدة منكما ملؤها". خرجه البخاريّ من حديث أبي هُريرة وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ «كلا» نصب بـ«نقص» معناه وكلّ الذى يحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : «كُلًّا» حال مقدمة، كقولك : كُلًّا ضربت القوم . ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا و يقينا . وقال ٱبن عباس : ما نشدّ به قلبك . وقال ٱبن جُرَيج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعانى : نُطيّب، والمعنى متقارب . و«ما» بدل من «كلا» المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى فى هذه السورة ؛ عن ٱبن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخصّ هذه السّورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذّكر تأكيدا وإن كان الحقّ فى كلّ القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف لهذه السّورة ؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التّخصيص . «وذِكرى للمؤمنين» أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد. ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ. وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائن السموات والأرض. وقال الضّحّاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو على الفارسىّ: «ولله غيب السمواتِ والأرض» أى علم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول: غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا. ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ أى يوم القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يُرْجَعُ» بضم الياء وفتح الجيم؛ أى يُرَدّ. ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى ألجأ إليه وثِق به. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلّا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: «يعملون» إذا لم يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم معهم؛ قال: وقال بعضهم «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال: قل لهم «وما ربك بغافل عما تعملون». وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله: «ولله غيب السمواتِ والارض» إلى آخر السورة. تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف عليه السلام

وهى مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ؛ وسيأتى . وقال سعد ابن أبى وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١)

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدم القول فيه[1] ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الر » اسم السورة ؛ أى هذه السورة المسماة « الر » . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى القرآن المبين ؛ أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته . وقيل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآنا » على الحال ؛ أى مجموعا . و « عربيا » نعت لقوله قرآنا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيا » على الحال ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أى يُقـرأ بلغتكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنـه "الثَّيِّبُ تُعرب عن نفسها" .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تَعلموا معانيـه ، وتفهموا ما فيـه . وبعض العرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد، كما قال الشاعر[1] :

* يا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَا *

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتكونوا على رجاء من تدبره؛ فيعود معنى الشك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى «أنزلنـاه» أى أنزلنـا خبر يوسف؛ قال النحاس : وهـذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبى صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعـالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير: قصصنا أحسن القَصَص. وأصل القَصَص تتبع الشىء، ومنه قوله تعالى: « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ؛ فالقاص يتبع الآثار فيخبر بهـا . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّـة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحـديث أى جيّد السّياقة له . وقيـل : القَصَص ليس مصدرا، بل هو فى معنى الاسم، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجوّنا ؛ فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا فـ « ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا، أو بدل منـه، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض؛ قال : على التكرير؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

(١) الرجز للعجاج؛ وصدر البيت .

* تقول بنتى قد أنى أناكا *

وأجاز أبو إسحق الرفع على إضمار مبتدأ ، كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو القرآن .
﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناك .

مسئلة — واختلف العلماء لم سُميت هذه السورة أحسن القَصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل : لأنه ليست قصّة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصّة ؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم — بعد إلتقائهم — عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس والأنعام والطّير ، وسير الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنّساء وحيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدّنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القَصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز ؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمزة وكسر السين . وحكى أبو زيد « يؤسَف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ ؛ وقيل : هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكيما — عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

الحزن، والأسيف العبد، وقد اجتمعا في يوسف؛ فلذلك سُمي يوسف. ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَحة وهُزَأة؛ قال النحاس: إذا قلت «يا أَبتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها — أن قولك: «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبي»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال «يا أبتي» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبتِ» فكسر دل على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتي»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبتَ» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتي» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يا أبتُ» بضم التاء. ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحدَ عشرَ، ورأيت ومررت بأحدَ عشرَ، وكذلك ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسما واحدا وأعربوهما بأخف الحركات. قال السّهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح[1] وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقَتَادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قَتَادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كذا في «عقد الجمان» للعيني، وفي الأصل «النطح».

أبيه . (رَأَيْتُهُمْ) توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » بجاء مذكرا ؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمن يعقل . وقد تقدّم هذا المعنى فى قوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) أى يحتالوا فى هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهر ؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له" . وقال : "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا" . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة ، وروى "من سبعين جزءا" . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما "جزء من أربعين جزءا من النبوّة" . ومن حديث ابن عمر "جزء من تسعة وأربعين جزءا" . ومن حديث العباس "جزء من خمسين جزءا من النبوّة" . ومن حديث أنس "من ستة وعشرين" وعن عُبادة بن الصّامت "من أربعة وأربعين من النبوّة" . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ابن بطّال . قال أبو عبد الله المازَرىّ : والأكثر والأصح عند أهل الحديث "من ستة وأربعين" . قال الطّبرىّ : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله : "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان، وأما قوله : " إنها من أربعين ـ أو ـ ستة وأربعين " فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ أنه كان بهما؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات[1]، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة ـــ إن شاء الله ـــ جزء من أربعين جزءا من النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف تضاد وتدافع ـــ والله أعلم ـــ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب؛ كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأَسْفاقُسِيّ عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : " جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة " فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة ثلاثة وعشرين عاما ـــ فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـــ فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛ وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه « المعلم »، واختاره القونوي في تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى : « لهم البشرى » . وهو فاسد من وجهين : أحدهما ـــ ما رواه

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدة البرد .

أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة أن مدّة الوحى كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه ، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثانى — أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شىء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم " الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان " وأن التصديق بها حقّ ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه ؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدّين والحقّ من أهل الرأى والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة .

الرابعة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلّط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتُنَصّر ، الذى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة ، وقد ترجم البخاريّ « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة ؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »[1] أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلّب : إنما ترجم البخاريّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى .

بهذا الجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة ، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة ، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها ، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة .

الخامســة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام ، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم ، وهي المضافة إلى الشيطان ، وإنما سميت ضغثا ؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل ؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة "، قال قلت : سمعت هــذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ الآية . الرؤيا مصــدر رأى في المنام رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقيا والبُشرى ؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا ؛ فقيل : هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة ، كالنوم المستغرق وغيره ؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم ، فيخلق الله تعالى للرائي علما ناشئا ، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك ؛ قال ابن العربي : ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة ، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال ، وإنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم ، فيمثل له صورا محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود ، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة ، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة ؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره : " رأيتُ سوداء (١) ثائرةَ الرأس تخرج من المدينة إلى مَهْيَعة (٢) فأوّلتُها الحُمّى ".

---

(١) أي امرأة سوداء ، كما في رواية النسائي . (٢) المهيعة : هي الجحفة ، ميقات أهل الشام .

و "رأيت سيفي قد انقطع صدره و بقرا تنحر فأولتهما رجل من أهل بيتي يقتل والبقر نفر من أصحابي يقتلون". و"رأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدي". إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولا ، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه .

السابعة — إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ »؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض ؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتي عشرة سنة .

الثامنة — هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ؛ روى أبو رزين العقيلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا " أخرجه الترمذي وقال فيه : حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال : أبالنبوة يلعب ؟ وقال مالك : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل : فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

التاسعة — وفي هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " استعينوا على [إنجاح][(1)] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود ". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة فى هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطّبريّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر فى قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدّم ويأتى .

العاشرة ـــ روى البخاريّ عن أبى هُريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات" قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال: " الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم فى « يونس » فى تفسير قوله تعالى : «لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم .

---

(١) الزيادة من « الجامع الصغير » .

الحادية عشرة — روى البخاريّ عن أبي سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول ؛ وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره ". قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبي قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه " . وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تفل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف في قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ » و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى ، وأصله من جبيت

الشيء أى حصّلته ، ومنه جَبيتُ الماء فى الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى؛ التمكين فى الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام، وهى معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصدّيق رضى الله عنه من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخُلّة ، وإنجائه من النار ﴿ وَإِسْحَقَ ﴾ بالنبوة . وقيل : من الذبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة «آيةٌ» على التوحيد، واختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنها خبر كثير . قال النحاس : و «آية» هنا قراءة حسنة، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيما خبّروا به ؛ لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجّه اليهودُ من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة ، وقيل : عبرة . وروى أنها في بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب . قال الثعلبيّ في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ، قال ابن زيد : كانوا أنبياء ، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ! فبغوه بالعداوة ، وقد تقدّم ردّ هذا القول . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهي بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر ، دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب أثنى عشر رجلا . قال السّهيلي : وأم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين ، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : في اسم الأَمَتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل ، والأخرى لأختها ليا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وقد تقدّم الردّ على ما قاله ابن زيد ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يُوسُفُ » رفع بالابتداء ، واللام للتأكيد ، وهي التي يتلقى بها القسم ؛ أي والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنّى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا في كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة ، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة ؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرهط . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدّين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا، بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم فى الانتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف، أى قال قائل منهم : « اقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر . ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض، وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ * فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ (١)

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير، لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون، قاله وهب بن منبّه . وقال كعب الأحبار : دان . وقال مقاتل : روبيل، والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه، فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه فى أرض . ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر، معناه : يخلص ويصفو ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الذنب . وقيل : من بعد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين، أى تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم، وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين المز، فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره، والعسلان : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ، أى مستلذ عند الهز لينه . (شواهد سيبويه) .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ٱبن عباس. وقيل: روبيل، وهو ٱبن خالته، وهو الذى قال : « فلن أبرح الأرض » . وقيل: شمعون . ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابة ٱلجبّ » . وقرأ أهل المدينة « فى غَيَابَاتِ الجُبِّ » وٱختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة؛ « وغيابات » على الجمع [يجوز من وجهين][1]: حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلالاتٍ، يريد عشية وأصيلا، بجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغيّب غَيابة .[والآخر — أن يكون فى الجبّ غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يَغيبُ][1] غَيْبا وغَيابة وغِيَابا ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبثا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أنا ذاكما قد غَيّبتْنى غِيَابِيا

قال الهروى: والغيابة شبه لَجَفٍ[2] أو طاق فى البئر فويق الماء، يغيّب الشىء عن العين . وقال ٱبن عزيز : كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيابة . قلت : ومنه قيل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يومًا غيّبتنى غَيابَتى * فسيروا بسَيْرى فى العَشيرة والأَهل

والجبّ الرَّكِيّة التى لم تُطوَ، فإذا طُويت فهى بئر؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جُبٍّ ثمانين قامةً * ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماء بسُلَّم[3]

وسميت جبّا لأنها قُطعت فى الأرض قطْعا؛ وجمع الجبّ جِبَبة وجِبَاب وأَجْباب؛ وجمع بين الغيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل:

---

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) اللجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف .

(٣) بعده :

ليستدرجنْكَ القولُ حتى تَهُزَّه * وتعلمَ أنى عنكمُ غيرُ ملجَمِ
وتَشرَقَ بالقول الذى قد أذعتَه * كما شَرِقت صدرُ القناة من الدمِ

هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأُرْدُن ؛ قاله وهب بن منبّه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهـذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السيّارة سيّارة ؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد[1] :

وتَشْرَقُ بالقولِ الّذى قـد أَذَعتَه * كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخـــر :

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنّى * كما أَخَذَ السِّرَارُ[2] مِنَ الهِـلَالِ

ولم يقـل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنمـا قال القائل هـذا حتى لا يحتـاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطـه من السـيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هـذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربمـا لا يأذن لهم أبوهم ، وربمـا يطلع على قصدهم .

الثالثـــة ــ وفى هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، فكانت هذه زلّة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعـــة ــ قال ابن وهب قال مالك : طُرِح يوسف فى الجبّ وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعنى أنه كان صغيرا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة ؛ فيقول له : يعود عليك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرها) وسرره : آخر ليلة منه .

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامسة — الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللّقيط واللّقطة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة، وما قال فى ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال آبن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى: « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد آختلف العلماء فى اللّقيط؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللّقيط حرّ ، وتلا « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن عليّ وجماعة . وقال إبراهيم النّخعى : إن نوى رقه فهو مملوك، وإن نوى الحسبة فهو حرّ . وقال مالك فى موطّئه : الأمر عندنا فى المنبوذ أنه حرّ ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعى؛ واحتج بقوله عليه السلام: « وإنما الوَلَاء لمن أعتق » قال : فنفى الوَلَاء عن غير المعتق . واتفق مالك والشافعى وأصحابهما على أن اللقيط لا يُوالى أحدا، ولا يرثه أحد بالوَلَاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللقيط يوالى من شاء، فمن والاه فهو يرثه ويعقل عنه ؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذى والاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن عليّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه، وإن أحبّ أن يوالى غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرّ . قال آبن العربىّ : إنما كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب؛ فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال آبن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زِىّ اليهود فهو يهودىّ، وإن وجد عليه زِىّ النّصارى فهو نصرانىّ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام. وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأني أجعله مسلما على كل حال، كما أجعله حرا على كل حال . وآختلف الفقهاء في المنبوذ تدل البيّنة على أنه عبد؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها في ذلك ، و إلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حرّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد . وقال آبن القاسم : تقبل البيّنة في ذلك؛ وهو قول الشافعي والكوفي .

السادسة ــ قال مالك في اللقيط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه آبنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا ، و إن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعي : كل من أنفق على من لا تجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما ــ يستقرض له في ذمته . والثاني ــ يقسط على المسلمين من غير عوض .

السابعة ــ وأما اللّقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء؛ و إلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأنكر قول أبي عُبيد القاسم بن سلّام ــ أن الضالّة لا تكون إلا في الحيوان واللّقطة في غير الحيوان ــ وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك للمسلمين : « إن أمّكم ضلّت قِلادتُها » فأطلق ذلك على القِلادة .

الثامنة ــ أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، و إن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين و بين أن ينزل على أجرها ، فأي ذلك تخير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها أن له أكلها .

التاسعة ــ واختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة مالم تكن إبلا . وقال في الشاة: "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" يحضّه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسمعيل آبن إسحق رحمه الله . وقال المُزَنيّ عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العاشرة ــ روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنيّ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : "آعْرِف عِفَاصَها[1] ووِكَاءَها ثم عَرِّفها سنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُك بها" قال : فضالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب". قال : فضالّة الإبل؟ قال : "ما لَكَ ولَهَا معها سِقاؤُها وحذاؤُها تَرِدُ الماءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها" . وفي حديث أُبَيّ قال: "آحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكَاءَها فإن جاء صاحبُها وإلا فآستمتِع بها" ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دفعت له؛ قال ابن القاسم : يُجْبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهل يحلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأوّل لأشهب ، والثاني لآبن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له ؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

---

(١) العفاص : الوعاء الذي يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذي يشد به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهي تقوى بأخفافها على السير وورود الماء والشجر .

ولو كانت البيّنة شرطا في الدّفع لما كان لذكر العِفاص والوِكاء والعَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال ؛ ولمّا جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة ـ نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك آختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير ، وظاهر قول آبن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول آبن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّته " .

الثانية عشرة ـ وآختلف العلماء في النفقة على الضّوالّ ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه آبن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالرهن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضوالّ مَن أخذها فهو متطوع ؛ حكاه عنه الربيع . وقال المُزَنيّ عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دينا ، وما آدّعى قُبل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة .

الثالثة عشرة ـ ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللّقطة بعد التعريف : " فآستمتع بها " أو " فشأنك بها " أو " فهي لك " أو " فآستنفقها " أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما في صحيح مسلم وغيره ما يدلّ على التمليك ، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجُهَنيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف[1]

(١) (إن لم تعرف) : أي إن لم تعرف صاحبها .

فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه " فى رواية " ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه " خرجه البخارى ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللّقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر ، ولا التفات لقوله ، لمخالفة الناس ، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعالى : قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ! ولهذا قيل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لما تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثانى عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول . وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهرى « لَا تَأْمَنَّا » بالإدغام ، وبغير إشمام وهو القياس ؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا . وقرأ طلحة بن مصرّف « لَا تَأْمَنُنَا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين — وروى عن الأعمش — « لَا تِيمَنَّا » بكسر التاء ، وهى لغة تميم ؛ يقولون : أنت تِضرب ؛ وقد تقدّم . وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه وغفلته حتى نردّه إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية . ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ « غدا » ظرف ، والأصل عند سيبويه غُدْوٌ ، وقد نطق به على الأصل ؛ قال النّضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدْوة ،

وكذا بكرة . « نرتع ونلعب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أكلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع في الخصب ؛ وكل مخصب راتع ؛ قال :

* فارعَىْ فزارةُ لاهَنَاكِ المَرْتَعُ * [1]

وقال آخر [2] :

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا آدَّكرتْ * فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارُ

وقال آخر [3] :

أكفرًا بعد رَدِّ الموتِ عنّي * وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعا

أي الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة «ترتع» تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إنا ذهبنا نستبق » لأن المعنى : نستبق في العَدْو إلى غاية بعينها ؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين ؛ إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم ؛ أي ليتدرب بذلك ويترجّل ؛ فمرة يرتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبيّ « نرتع » نتحارس ونتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ؛ من قولك : رعاك الله ؛ أي حفظك . «ونلعب» من اللعب . وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : " فهلّا بكرًا تلاعبها وتلاعبك " [4] .

(١) في الأصل (فارعيني) وهو تحريف . (٢) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخرا . ومعنى (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكلما غفلت عنه رتعت ، فإذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا . (٣) هو القطامي . (٤) الخطاب لجابر بن عبد الله ؛ وذكر ملا علي عن الطيبي : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة ، فإن الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقتادة : « يُرْتِع »[1] على معنى يُرتِع مطيته ، فحذف المفعول ؛ « ويلعبُ » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضرارا به .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ في موضع رفع ؛ أي ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف ، فلذلك خافه عليه ؛ قاله الكلبيّ . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تمالئوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجبّ ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم ؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى . والذئب مأخوذ من تَذَاءبت[2] الريح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

---

(١) (يرتع) من أرتع ؛ وقد ورد في الأصول بالياء ؛ والذي في تفسير ابن عطية والألوسي وأبي حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة « نرتع » بضم النون وكسر التاء ، و « نلعب » بالنون والجزم) .

(٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأصمعي : إن تذاءبت مشتق من الذئب ؛ لأن الذئب يفعله في عدوه ؛ وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

لأنه يجيء من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيبُ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة خففها صارت ياء . ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لخاسرون » لجاهلون بحقه . وقيل لعاجزون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴾ « أن » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيابة الجب . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظنه ، وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنى شفقتى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فأسقه ، وإن أعيا[1] فأحمله ثم عجل برده إلى . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يشيعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على ، وأقرب الأخوة إلى ، فارحمنى وارحم ضعفى » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخى ! ارحم ضعفى وعجزى وحداثة سنى ، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرق قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمت حيا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبى إلى أبيه ، ونعاهده

(١) أعيا الرجل فى المشى : كل

ألا يحدث والده بشيء مما جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجب الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقوه فيه ، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، وإن انفلت على أيدى سيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ؛ فأجمع رأيهم على ذلك ؛ فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف ؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لما » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها ، هذا على مذهب البصريين ؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو عندهم تزاد مع لما وحتى ؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت ، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرؤ القيس :

* فلمّا أجزنا ساحةَ الحيّ وانتحى (١) *

أى انتحى ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو فى الجب على حجر مرتفع عن الماء . وقال الكلبي : ألقى فى الجب وهو ابن ثمانى عشرة سنة ؛ فما كان صغيرا ؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناما ، والأول أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجب تقوية لقلبه ، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به ؛ فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمام البيت : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّىّ وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه فى البئر تعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ ، فإن متّ كان كفنى ، وإن عشت أوارى به عورتى ؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إنى لم أر شيئا ، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام ؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكى ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعله فى عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصّخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتى ، قالوا : وما هى ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كفّ عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند ا

بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، ويا صاحب كلّ وحيد ، ويا ملجأ كلّ خائف، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا، إنك على كل شىء قدير ؛ فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبىّ ، والدعاء دعاء نبىّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجبّ فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجّل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كلّ مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملإ ، ويا مفرّج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، آيتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا ؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال ؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه . وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لما قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحسّ بنفس ، ولم يتحرك له عِرْق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين! ضيّعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ؛

فقال : يارو بيل ! ألم آتمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفّ عنّى بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا ٱشتبكتْ دمــوعٌ فى خُدودٍ * تبيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

قوله تعـالى : قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنـدَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

فيــه ســبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « نستبق » نفتعل ، من المسابقة . وقيل : أى نَنْتَضِل ؛ وكذا فى قراءة عبد الله «إنا ذهبنا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج . وقال الأزهرىّ : النِّضال فى السِّهام، والرِّهان فى الخيل، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيرىّ أبو نصر: «نستبق» أى فى الرمى ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السّدّى وٱبن حبّان : «نستبق» نشتد جريا لنرى أينا أسبق . قال ٱبن العربى : المسابقة شِرْعة فى الشّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقـد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه و بخيله ، وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميــه فسبقها ؛ فلمـا كبر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم سابقها فسبقته ؛ فقال لهـا : " هذه بتلك " .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لمـا رجعوا من ذى قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة ، خرجه مسلم .

الثانيــة — وروى مالك عن نافع عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد أُضمِرت[1] [من الحَفْيَاء[2]] وكان أمدها ثَنِيَّة الوَدَاع[3]، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هــذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقــة بدونها؛ وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيــل التي يجب أن تُضمَّر ويسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثــة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول صــلى الله عليه وســلم فنزلنا منزلا فمنّا من يصلح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل؛ وذكر الحديث. وخرج النّسائيّ عن أبي هُرَيرة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا سَبَق[4] إلا في نَصْــل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر النّصل من حديث آبن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هُرَيرة، ذكره النّسائي؛ وبه يقــول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليــه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبق — قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: "حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعــة — أجمع المســلمون على أن السَّبَق لا يجــوز على وجه الرِّهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ

---

(١) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف. وقيل: تشــد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، ويكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفياء (بالمد ويقصر): موضع بالمدينــة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو ســبعة. (٣) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح البــاء ما يجعل للسابق على سبقه من المــال؛ وبالسكون مصــدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المــال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل «أو جَناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا في الخيل والرمي ؛ لأنه قوة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سبَق الرمي . وظاهر الحديث يسوّى بين السّبق على النُّجُب والسّبق على الخيل . وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤُوّل قوله ؛ لأن حمله على العموم يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق .

الخامســة ــ لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا ؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة ؛ مشترط خَسْقًا[1] أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالي والرجل غير الوالي من ماله متطوّعا فيجعل للسابق شيئا معلوما ؛ فمن سبق أخذه . وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه، وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَّبَق الثالث ــ اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخلا بينهما محلّلا لا يأمنا أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلّل أحرز السَّبَقين جميعا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلّل فيه، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران ــ من أصحاب الشافعي ــ : وحكم الفرس المحلّل أن يكون مجهولا جريه ؛ وسمى محلّلا لأنه يحلّل السَّبَق للمتسابقين أو له . واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل واشترط كلّ واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله

(١) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .

عليه وسلم قال : « من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قمار » . وفى الموطأ عن سعيد بن المسيّب قال : ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيهما محلِّل ، فإن سَبق أخذ السَّبَق ، وإن سُبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . واختلف فى ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلِّل فى الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلِّل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السَّبَق أن يسبق بالهادي(1) أو بعضه ، أو بالكَفَل أو بعضه . والسَّبَق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلّى أبو بكر وثلّث عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صَلَا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصَّلَوان موضع العَجُز .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرد وابن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنا ؛ ولم يصدّقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولاتهمتنا فى هذه القضية ، لشدة محبتك فى يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

(1) الهادى : العنق لتقدمه ؛ راجع (هود) .

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سَخْلة أو جَدْى ذبحوه . وقال قَتَادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ، فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْب الأمير ، أى مضروبه ، وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدال غير المعجمة ، أى بدم طرِىّ ؛ يقال للدم الطرىّ الكَدِب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشعبي . والكَدِبُ أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظُّفر من جهة اختلاف اللونين .

الثانيـة ـ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قَرَن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْيِيب ؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سِمَاك بن حرب عن عِكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة . وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى الماوردىّ أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقى على وجه أبيه فارتدّ بصيرا .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل: إن القميص الذى قُدّ هو الذى أُتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقّ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثة : ٱستدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقَسَامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام ٱستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله ٱبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به أستأنس به؟! ألم يترك لى ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبّله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا؛ فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم منه ؛ أكل ٱبنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يا معشر ولدى! دلونى على ولدى؛ فإن كان حيا رددته إلىّ؛ وإن كان ميتا كفّنته ودفنته ؛ فقيل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا فى مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجبّ ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

في مقالتنا و يقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا ، قال : فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا و يفترسها ، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصبص له الذئب ، فأقبل يدنو و يعقوب يقول له : آدن آدنُ ؛ حتى ألصق خدّه بخدّه فقال له يعقوب : أيها الذئب ! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزنا طويلا ؟ ! ثم قال : اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذي آصطفاك نبيا ما أكلت لحمه ، ولا مزّقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالي بولدك عهد ، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقِد ، فلا أدري أحي هو أم ميت ، فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله ! لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمام أخيه ، وأنتم ضيّعتم أخاكم ، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به . ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت . ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي :

الثانيــة — قال الزجاج : أي فشأني والذي أعتقده صبر جميــل . وقال قُطْرُب : أي فصبري صبرٌ جميل . وقيــل : أي فصبر جميل أولى بي ؛ فهو مبتــدأ وخبره محذوف . و يروى أن النبي صلى الله عليــه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقــال : " هو الذي لا شكوى معه " . وسيأتي له مزيد بيــان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوســف « فصبرا جميــلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيلي ؛ قال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح . قال المبرّد « فصبر جميــل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندي صبر جميل ؛ قال : وإنمـا النصب على المصدر ، أي فلأصبرنّ صبرا جميلا ؛ قال :

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طولَ السُّرى * صَبْرًا[1] جميلًا فكِلانا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يايعقوب؟! قال : يارب! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبى؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى رفقة مارة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب ، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستقى للقوم؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر[2] ،

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، وتحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميل) على نداء الجمل .

(٢) دعر : هو بالدال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودلّاها أى أخرجها ؛ عن الأصمعى وغيره . ودَلَا ــ من ذوات الواو ــ يدلو دلوا ، أى جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ؛ اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْو فى أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْر الحسن " . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جَعْد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خَمِيص البطن ، صغير السُّرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت فى كلامه شُعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دُعْر قال : « يَا بُشْرَايَ هَـٰذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبى إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفى معناه قولان : أحدهما ــ اسم الغلام ، والثانى ــ يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة والسُّدّى : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السُّدّى : نادى رجلا اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عُقْبة ابن أبى مُعَيط ، وبعده « يَالَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السهيلى . وقيل هو كما تقول : وا سروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهذا أصح لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون «بشراى» فى موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ؛ وعلى قول السدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك يارجلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعة » نصب على الحال . قال مجاهد : أسره مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أبق ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تُقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقر لكم بالعبودية ، فأقر لهم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لأخوتك بالعبودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هو تربّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدب بآدابنا ؛ فقال : ما تقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بعتموه منى اشتريته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى اشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر[1] :

وشَرَيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * من بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أي بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً * وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّومِ حَامِزُ[2]

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي نقص؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أي باعوه بثمن مبخوس ، أي منقوص. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه. وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بخس » ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسُّدي وابن عطاء : « بخس » حرام . وقال ابن العربي : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يعطوا عنه ثمنا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله «وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ، فدل على صحة ما قاله السدي وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشعبي : قليل . وقال ابن حيان : زيف . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قتادة والسُّدي . وقال أبو العالية

(١) هو : يزيد بن مفرغ الحميري؛ و (برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ، قاله في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر، وقيل : أي ممض محرق . (اللسان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين ؛ وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخسٍ » من نعت « ثمنٍ » . « دراهِمَ » على البدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام ، وقد يكون اسمـا للجمع عند سيبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس هـذا مثل مدّ المقصور ؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين فى شعر ولا غيره . وأنشد النحويون :

تَنْفِى يداها الحَصَى فى كلِّ هاجِرةٍ * نَفْىَ الدَّراهيمِ تَنْقادُ الصَّيارِيفِ (١)

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدًا لا وزنا بوزن . وقيل : هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية، وهى أربعون درهما .

الثانيـــة — قال القاضى ابن العربى : وأصل النقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " لاتبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى " . والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيـه ، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدًا إذا لم يكن فيها نقصـان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد فى الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثـــة — وآختلف العلمـاء فى الدراهم والدنانير هل تتعـين أم لا ؟ وقـد آختلفت الرواية فى ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظـاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب آبن القاسم إلى أنها تتعـين ، وحكى عن الكَرْخىّ ؛ وبه قال الشـافعى . وفائدة الخـلاف أنا إذا قلنا لا تتعـين فإذا قال : بعتك هـذه الدنانير بهذه

---

(١) البيت للفرزدق ؛ وصف ناقة سريعة السير فى الهواجر ؛ فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم من الأصابع إذا نقدت .

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدراهم بذمة صاحبها ؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعــة ـ روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قضى فى اللقيط أنه حر ، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامســة ـ قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل : السيّارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لأنهم خافوا آشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

السادســة ـ فى هــذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع دُرّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبة(١) لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى فى حسنه ؛ لأن الله تعالى و إن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيبويه والكسائى زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل: « أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ». وقيل: إنهم ظنوه فى ظاهر الحال آشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك: هذا الذى آشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز . السُّهيلى : وآسمه قطفير . وقال آبن إسحق : إطفير بن رويحب آشتراه لآمرأته راعيل ؛ ذكره الماوردى . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرى . وقد ذكر القولين فى اسمها الثعلبى وغيره . وقال آبن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة . وقيل : هو فرعون موسى؛ لقول موسى: « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتى فى « غافر »(١) بيانه . وكان هذا العزيز الذى آشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكا وعَنْبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله؛ فأبتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولما آشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما آشترى مالك بن دُعْر من بنى يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتمونى، نصركم الله وإن خذلتمونى، رحمكم الله وإن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا(٢) لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيدا مكبلا مسلسلا، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه وجعل يتمرّغ

(١) راجع تفسير آية ٣٤ . (٢) الدم العبيط : الطرى .

ويعتنق القبر ويضطرب ويقول : يا أماه! آرفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا؛ فرقوا بيني وبين والدي، فأسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا؛ فقال له : لاتفعل! والله ماهربت ولا أبقت، وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف! غض صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لايعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وآرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ ـ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قط مثل هذا ـ فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له : ما أردت إلا هلاكنا! آيتنا به، فأتاه به، فقال له : يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فآقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظن بك؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، ورد عليه جماله، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قاله آبن عباس على ما تقدم. وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وآتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. « اكرمي مثواه » أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدّم فى «آل عمران[١]» وغيره. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس : كان حَصُورا لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف قال « أو نتخذه ولدا » وهو ملكه ، والوَلَدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبنّى ؛ وكان التبنّى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أوّل الإسلام ، على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب[٢] » إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال : « عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى « ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ » ، وأبو بكر حين استخلف عمر . قال ابن العربى : عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر[٣] » وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القصص[٤]» . وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكّنا له ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى مكّناه لنوحى إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شىء ، بل هو الغالب على أمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسير آية ٥ .
(٣) راجع تفسير آية ٧٥ . (٤) راجع تفسير آية ٢٦ .

نفسه فيما يريده أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكلُه إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلعون على غيبه . وقيل: المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء في هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمرالله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمرالله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أي تائبين فغلب أمرالله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم : « إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمرالله حتى قال العزيز : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين »، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أشدّه » عند سيبويه جمع، واحده شِدّة . وقال الكسائي : واحده شَدّ ؛ كما قال الشاعر[1] :

عَهْدِي به شَدَّ النَّهارِ كأنَّما * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) هو عنترة العبسي . وشد النهار : أي أشده ، يعني أعلاه . واللبان : الصدر، وقيل : وسطه ؛ وقيل : ما بين الثديين؛ ويروى : «البنان» . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به ، أو الوسمة ، وهي شجرة ورقها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه آستكمال القوّة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء»(١) و «الأنعام»(٢) مستوفى . ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا﴾ قيل : جعلناه المستولي على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أي وآتيناه علما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوّة . وقيل : الحُكْم النبوّة، والعلم علم الدين؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتي النبوّة صبيا قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك في الأرض .

قوله تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهي آمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها . وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ ؛ وقيل : هي من رُوَيد ؛ يقال : فلان يمشي رُوَيدا، أي برفق؛ والمراودة الرفق في الطلب ؛ يقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى الرجل : راودها عن نفسها ، وفى المرأة راودته عن نفسه . والرَّود التأنى ؛ يقال : أرودنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ ﴾ غلق للكثير ، ولا يقال : غَلَق البـابَ ؛ وأَغلق يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبوابًا وأفتحُهـا * حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمـارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتهـا ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَـلُمَّ وأقبل وتعالَ ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سـبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنمـا أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنمـا أقرأ كما علّمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة ؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا فى القرآن ؛ فإنمـا هو مثـل قول أحدكم : هَلُمّ وتعالَ . وقرأ ابن أبى إسحق النحوى « قالت هَيْتِ لَكَ » بفتح الهـاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ وابن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهـاء وضم التاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العَشـيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهـاء فيهن مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ » بكسر الهـاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَتْ هِيتُ لَكَ » بكسر الهـاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس ومجاهـد وعكرمة « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهـاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن عامر وأهل الشام « وَقَالَتْ هِئْتَ » بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هئتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقـاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مَهْ وصَـهْ يجب ألّا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء ؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك ، ويكون «لَكَ» من كلام آخر ، كما تقول : لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — مَعْمَر بن المُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف احدا يقول هذا ؟! وقال الكسائى أيضا : لم تُحكَ « هِئتُ » عن العرب . قال عِكرمة : «هِئتُ لك» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهِيء مثل جاء يجيء ، وهِئتُ مثل جئت . وكسر الهاء فى « هيت » لغة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهاء والتاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهاء والتاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبلغ أميرَ المؤمنيـ * ـنَ أخا العراقِ إذا أَتيتا
إنّ العراقَ وأهلَه * سِلْمٌ إليكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدىّ : معناها بالقبطية هلمّ لك . قال أبو عبيد كان الكسائىّ يقول : هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعالَ ؛ قال أبو عبيد : فسألت شيخا عالما من حَوْرَان فذكر أنها

لغتهم؛ وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حثّ وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهري : يقال هَوّتَ به وهَيّتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رابني أنّ الكَرِيّ أسكتا * لو كان مَعْنِيًّا بها لَهَيّتا

أي صاح ؛ وقال آخر :

* يَحْدُو بها كلُّ فتًى هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه؛ وهو مصدر، أي أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرور عمرو أي كمروري بعمرو. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها، أي هو سيّدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحق والسدّي . وقال الزّجاج : أي إن الله ربي تولاني بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه . ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : في الرّحم صوّرني ربّي ؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرك ! قال : هو أول شيء يَبْلى منّي في قبري ؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربّي . قالت : يا يوسف ! ارفع بصرك فانظر في وجهي ، قال : إني أخاف العمى في آخرتي . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد مني ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربي . قالت : يا يوسف ! القَيْطُون (١) فادخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربّي . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقض حاجتي ، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبي ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوّة ؛ فشغلت هيبته كلّ من رآه عن حسنه . واختلف العلماء في همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

---

(١) القيطون : المخدع ، أعجمي ؛ وقيل : بلغة أهل مصر وبربر

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهروي في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا * شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديا

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني * تَركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُه

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: همّ بها تمنى زوجيتها. وقيل: همّ بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن همّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القُشيري أبو نصر، وابن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم. قال ابن عباس: حلّ الهِمْيان(١) وجلس منها مجلس الخاتن؛ وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد ابن جُبير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي». قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

(١) الهميان شداد السراويل.

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»[1] إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به ؛ ومثله « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا وأخذ فى حل ثيابه وتكته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : وابن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه هم بها ، وهو أعلم بالله وبتأويل كتابه ، وأشد تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا ييئسوا من التوبة . الغزنوى : مع أن لزلة الأنبياء حِكَمًا ؛ زيادة الوجل ، وشدة الحياء بالخجل ، والتخلى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القشيرى أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهم الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حل تكته

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنما معناه العِدَة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» يدل على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ و إن كان نبيًّا فلم يبق إلا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر ؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه؛ ويكون قوله : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهمّ ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرئ ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا » على ما تقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي فى أهله ؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خُصّ بها ، وعملًا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها و إن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاى(١) " . وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : "إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإذا كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفى الصحيح : "إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلّم به" وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية ، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ؟ قال: نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله ،

(١) من جراى : أى من أجل ؛ وفى نسخة من صحيح مسلم " من جرائى " .

وجواب العالم فى آختصاره وآستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن النـاس وجها ، فاشتاقته آمرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممتُ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ ؟ ! فإن هـذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية، فيكون محفوظا كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع فى المقال والخطاب، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع؛ أى لكان ما كان . وهـذا البرهان غير مذكور فى القرآن ؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسـترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هـذا أن يرانى فى هـذه الصورة؛ فقـال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله؛ وهـذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيـل : رأى مكتوبا فى سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً » . وقال آبن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجـدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله ؛ قاله قَتادة ومجاهـد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسـعيد بن جُبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حلّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له : يا يوسـف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سـعيد بن جُبير قال : مثل له يعقوب فضرب

صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وامتنع عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر ابتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصا في طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هي لترده إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » . أي من خلفه ؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ، ومنه السّباق . والقدّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة[1] :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقطّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت في مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أي شُقّ . قال يعقوب : العطّ الشّق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «اَستبقا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدا الله في التثنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأوّل حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانيـــة ـــ في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب ، وعَنَى بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه والطه ولاطه كله بمعنى واحد[2] ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت فقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع «أن يسجن» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما ؛ قاله الكسائي .

---

(١) يصف السيوف ؛ وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ٣٠١ من هذا الجزء .

(٢) كذا العبارة في الأصـل وفي « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة (وارط و والط ولاط) بمعنى (ألفى) في معاجم اللغـة .

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها؛ ولم تكن صادقة فى حبه — لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب — قال « هى راودتنى عن نفسى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نوف الشامىّ وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية، فلما بغت به غضب فقال الحق .

الثانيــة — ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا فى القول آحتاج الملك إلى شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد آختلف فى هـذا الشاهد على أقوال أربعة : الأوّل — أنه طفل فى المهد تكلم؛ قال السهيلى : وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : " لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة " وذكر فيهم شاهد يوسف ، وقال القشيرىّ أبو نصر : قيل كان صبيا فى المهد فى الدار وهو آبن خالتها ؛ وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تكلم أربعة وهم صغار " فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول . الثانى — أن الشاهد قدّ القميص؛ رواه ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشُقُّني؟ قال له: سَلْ من يَدُقُّني. إلا أن قول الله تعالى بعد «من أهلها» يبطل أن يكون القميص. الثالث ـ أنه خَلْق من خَلْق الله تعالى ليس بإنسيّ ولا بجنيّ؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يرده قوله: «من أهلها». الرابع ـ أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدري أيكما كان قدام صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقَتَادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدّي. قال السدّي: كان ابن عمها؛ وروى عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم. وروى عن ابن عباس ـ رواه إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة ـ قال: كان رجلا ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيّ، ولكن كان رجلا حكيما. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث "تكلم أربعة وهم صغار" منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبيّ.

قلت: قد روى عن ابن عباس وأبي هُريرة وابن جُبير وهلال بن يِسَاف(١) والضّحاك أنه كان صبيا في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

(١) هو بالكسر وقد يفتح.

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة ؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثـــة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة فى اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بينة فإن السلطان يتلوّم (١) لهم فى ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل ؛ لأن حروف الشرط ترد الماضى إلى المستقبل ، وليس هذا فى كان ؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛ أى إن يُعلم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » فخبر عن « كان » بالفعل الماضى ؛ كما قال زهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هو أبداها ولم يتقدّمِ (٢)

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق « مِنْ قُبُلُ » بضم القاف والباء واللام ، وكذا « دُبُرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعدُ ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه ، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ » « ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخففان مجروران .

---

(١) التلوم : التنظر للأمر تريده . (٢) الكشح : الجنب ؛ ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال »[1] . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أي يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أي لا تذكره لأحد واكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنت ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما ــ أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكتا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني ــ أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ
فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن
لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ويقال : «نُسْوَةٌ» بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمي؛ والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة انتشرت في أهل مصر فتحدّث النساء . قيل : امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابّه، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب ؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ الفتى في كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه في شغافها؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شغافها . وقال الحسن : الشّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شغافها فغلب عليه؛ قال النابغة :

وقد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ[1]

وقد قيل : إن الشّغاف داء؛ وأنشد الأصمعي للراجز :

* يتبعها وهي له شَغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابي : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهري : وشعفه الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بَطَنَها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) يعني أصابع المطببين؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل في الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شعاف الجبال أعاليها ، وقد شُغِف بذلك شَغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلني وقد شَعَفْتُ فؤادَها * كما شعف المهنوءة[1] الرجلُ الطالي

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجواه بذلك . وروى عن الشّعبي أنه قال : الشّغف بالغين المعجمة حبّ ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين، ولا يعرف فى كلام العرب إلا « شَغَفها » بفتح الغين،وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن : الشّغاف حجاب القلب ، والشّعاف سويداء القلب ، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهى الجلدة البيضاء، فلصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قتادة : « فتاها » وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال مقاتل عن آبن عثمان النّهدىّ عن سلمان الفارسيّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا، قال : هو لك؛ فربّته حتى أيفع وفى نفسها منه ما فى نفسها، فكانت تنكشف له وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها ، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل . إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وليمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن آبن عباس إن آمرأة العزيز قالت لزوجها : إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لها : افعلى؛ فاتخذت طعاما، ثم نجّدت لهن البيوت؛ نجّدت أى زينت؛ والنّجد ما يُنَجَّد

(١) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

به البيت من المتاع أي يُزيَّن، والجمع نُجُود؛ عن أبي عُبيد؛ والتنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ امرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنبِّه : إنهنّ كنّ أربعين امرأة فجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُميّة بن أبي الصَّلْت :

حتى إذا جئنها قسرا ⁕ ومهدت لهن أنضادا وكبابا (١)

ويُروى أنماطا . قال وهب : فجئن وأخذن مجالسهنّ . ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها . قال ابن جُبير : في كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتّكأ مثقلا الطعام، والمُتْك مخففا الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر :

نَشْربُ الإثمَ بالصُّواعِ جِهارًا ⁕ وتَرى المُتْك بيننا مُستعارًا

وقد تقول أزْدُ شَنُوءة : الأُتْرُجّة المُتْكة؛ قال الجوهري : المُتْك ما تُبقيه الخاتنة . وأصل المُتْك الزُّمَاوَرْد (٢) . والمَتْكاء من النساء التي لم تُخفَض (٣) . قال الفرّاء : حدّثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتْك مخففا الزُّمَاوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأُتْرُجّ؛ حكاه الأخفش . ابن زيد : أُتْرُجًّا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر (٤) :

فظِلْنا بنعمة واتّكأنا ⁕ وشربنا الحلالَ من قُلَلِه

أي أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من العَتاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشيء . ﴿مُتَّكَأً﴾ أصح ما قيل فيه ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : مجلسا؛ وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير : طعام متكأ، مثل « وَاسْأَلِ القَرْيَةَ »؛ ويدل على

---

(١) كذا البيت في الأصل . (٢) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره، أو هو شيء يشبه الأترج .
(٣) خفض الجارية : ختنها، وكذا الصبي، والأعرف أن الخفض للجارية والختان للصبي . (٤) هو جميل ابن معمر، والقلال جمع قلة، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل غير ذلك .

هذا الحذف « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال في كتاب « إعراب القرآن » له . وقال في كتاب « معاني القرآن » : وروى مَعْمَر عن قتادة قال : « المتكأ » الطعام . وقيل : « المتكأ » كل ما اتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتَبي أنه يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا ، والأصل في «متكأ» موتكأ ، ومثله مُتَّزِن ومُتَّعِد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : اتكأ يتكئ اتكاء . (كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا) مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ فِي السَّنَامِ[1] غَدَاةَ قُرٍّ ٭ بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ

الجوهري : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرَى نَاصِحًا فِيمَا بَدَا فَإِذَا خَلَا ٭ فَذَلِكَ سِكِّينٌ عَلَى الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك ادع لي إيلا فادع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شد مئزره ، وحسر عن ذراعيه ؛ فقالت للخادم : ادع لي إيلا ، أي ادع لي الربّ ؛ وإيل بالعبرانية الربّ ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ؛ فلما انحدر قالت لهن : اقطعن ما معكن . (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن منبه . سعيد بن جبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن بغتة فدهشن فيه ، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأترج ؛ واختلف

(١) عيث في السنام بالسكين أثر .

فى معنى « أَكْبَرْنَهُ » فروى جُوَيبر عن الضحّاك عن آبن عباس: أعظمنه وهِبْنه، وعنه أيضا أَمْنين وأَمْذين من الدَّهش، وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارة[1] ◆ صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنيَّ المدفقا

وقال آبن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا، وهب بن مُنَبّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضْن من الدَّهش، قاله قَتادة ومقاتل والسّدى؛ قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا ◆ نأتى النّساءَ إذا أَكْبَرْنَ إكْبارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك فى كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حضن من شدّة إعظامهن له، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال أكبرنه، ولا يقال حضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أكبرت بمعنى حاضت،لأن المرأة إذا حاضت فى الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر؛ قال : والهاء فى « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيَّف، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل، وأمثل منه قول آبن الأنبارى: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل؛ أى أكبرن إكبارا، بمعنى حضْن حَيْضا . وعلى قول آبن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أى أعظمن يوسف وأجْلَلنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى آبن أبى نَجيح قال : حَزًّا بالسكّين، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعا تَبِين منه اليد، إنما هو خَدْش وحَزّ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عكرمة : « أيديهنّ » أكمامهنّ، وفيه بُعد . وقيل : أناملهنّ ؛ أى ما وجدن ألما فى القطع والجرح ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ .

(١) القارة : الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال؛ وقيل : الصخرة العظيمة؛ وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله. وروى الأصمعيّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في « لله » عوضا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لك. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا؛ قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

« وَلَا أُحاشِي من الأقوامِ من أَحَدِ »[1]

وقال بعضهم: حاشَ حرف، وأُحاشي فعل. ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابيّ[2]: اللهم اغفر لي ولمن يَسمع، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ؛ فنصب بها. وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ » بإسكان الشين، وعنه أيضا « حاش الإله ». ابن مسعود وأُبيّ: « حَاشَ اللهِ » بغير لام، ومنه قول الشاعر[3]:

حاشا أبي ثَوْبانَ إنّ به ● ضَنًّا عن المَلْحاةِ والشَّتْمِ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيد أي تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قُرِف به، أو من أن يكون بشرا؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه، وعلى ما قال المبرّد وأبو عليّ فعل.

قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ قال الخليل وسيبويه: « ما » بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائما، و « مَا هَذَا بَشَرًا » و « ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ». وقال الكوفيون: لما حذفت الباء

---

(١) صدر البيت: ● ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ●
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه. (٢) كلام منثور. (٣) هو سبرة بن عمرو الأسدي، وقيل: هو الجميح الأسدي، واسمه منقذ بن الطماح. والملحاة: اللوم.

نصبت ، وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض، فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفراء ، قال : ولم تعمل «ما» شيئا، فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيدٌ القمرَ، لأن المعنى كالقمر ! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل فى حروف الخفض من الكاف، لأن الكاف تكون آسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين، وهذا القول يتناقض ، لأن الفراء أجاز نصًّا ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا وَاللهِ أَنْ لو كُنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ

ومنع نصّا النصب ، ولا نعلم بين النحويين آختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا

أَتَيْمًا تجعلونَ إلىّ نِدًّا * وما تَيْمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّديدةُ المِثْل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفرّاء أن الرفع أقوى الوجهين ، قال أبو إسحق : وهذا غلط ، كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَا هَذَا بِشِرًى» ذكره القَزْنوى . قال القُشَيرىّ أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة مَلَك، وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهنّ : «حاش لله» تبرئة ليوسف عمّا رمته به آمرأة العزيز من المراودة، أى بعد يوسف عن هذا، وقولهنّ : «لله» أى لخوفه ، أى براءة لله من هذا، أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء، والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة، فعلى هذا لا تناقض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : «لله» تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن ، وما بلغهن قوله

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظنّ بعض الضعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه ملَك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم . ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملَك؛ وقال الشاعر(1) :

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ ... تنزّلَ من جوّ السماءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن «مَا هَذَا بِشِرًى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبدا مُشترَى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال : «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيده، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي مثله لا يثمن ولا يقوّم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف، فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه، ولأن مثل «بِشِرًى» يكتب في المصحف بالياء.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لمتنني فيه» أي بحبه، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطبري . وقيل : الهاء للحب، و «ذلك» على بابه، والمعنى: ذلكن الحب الذي لمتنني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع؛

---

(1) هو رجل من عبد القيس جاهلي، يمدح بعض الملوك، قيل : هو النعمان، وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مألك بتقديم الهمزة؛ من الألوك، وهي الرسالة؛ ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : « آستعصم » أي آستعصى؛ والمعنى واحد. ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لومًا ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه و بينها. ﴿ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي الأذلاء. وخط المصحف « وليكونًا » بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقّل وتخفّف والوقف على قوله : « ليسجنن » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة، وهي تشبه نون الإعراب في قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى :

وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدَا (١)

أراد فاعبدنْ، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف.

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أي دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس. « أحب إليّ » أي أسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق. وحُكي أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إليّ، ولو قلت العافية أحبّ إليّ لعوفيت ». وحكى أبو حاتم أن عثمان آبن عفان رضي الله عنه قرأ « السَّجْن » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبي إسحق

(١) صدر البيت : ‌ • وذا النصب المنصوب لا تنسكنه •

عجز من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب، وهو مصدر تجنه تجنا . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أى كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتى رأينه، فإنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز، والقصد بذلك أن تعذله فى حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! اقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده، فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة، وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الاحتيال والاجتهاد، ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها ، قال عمر بن لجأ :

تَرَاءَتْ كَيْ تَكِيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ ٭ وكَيْدٌ بالتَّبَرُّجِ مَا تَكِيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أى أمِل إليهن ، من صبا يصبو — إذا مال واشتاق — صُبُوًّا وصَبْوة، قال[1] :

إلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي ٭ وهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِي

أى إن لم تلطف بى فى اجتناب المعصية وقعت فيها . ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال، ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لما قال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ تعرض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم اصرف عنى كيدهن ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والعموم أولى .

---

(١) هو يزيد بن ضبة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٣٥)

فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ أى ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف — من قدّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحزّ الأيدى ، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف — أن يسجنوه كتمانا للقصة ألا تشيع فى العامة ، وللحيلولة بينه و بينها . وقيل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الايات ، وقطع الأيدى من الآيات ، و إعظام النساء إياه من الايات . وقيل : ألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب ، لتشتفى إذا منعت من نظره ؛ قال :

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أملٍ * من اللّقاء كمشتاقٍ بلا أمَل

أو كادت رجاء أن يَملّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ « يسجننه » فى موضع الفاعل ؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه ؛ هـذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ؛ ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهـو المصدر ؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوفّقه الذى نَصبَ الجبالا

أى وحق الحقّ ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأىٌ لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول ؛ أى قالوا : ليسجننه ، واللام جواب ليمين مضمر ؛ قاله الفرّاء ، وهو فعل مذكر لا فعل مؤنث ؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنَانّه ،

و يدل على هذا قوله «لهم» ولم يقل لهن ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهن بعلب المذكر ؛ قاله أبو على . وقال السدى : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا فى « لهم » للملك .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى إلى مدة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع فى المدينة . وقال سعيد بن جبير : ستة أشهر . وحكى الكيا أنه عنى ثلاثة عشر شهرا . عكرمة : تسع سنين . الكلبى : خمس سنين . مقاتل : [اثنتى عشرة سنة] (١) . وقد مضى فى « البقرة » (٢) القول فى الحين وما يرتبط به من الأحكام . وقال وهب : أقام فى السجن اثنتى عشرة سنة . و « حتى » بمعنى إلى ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة . وكأن العزيز ـ وإن عرف براءة يوسف ـ أطاع المرأة فى سجن يوسف . قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هم بها فسجن ، وحين قال للفتى : « اذكرنى عند ربك » فلبث فى السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة ـ أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضعيف ، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج فى الدين « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » . وسيأتى بيان هذا فى « النحل » إن شاء الله . وصبر يوسف ، واستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدم .

---

(١) الزيادة عن (روح المعانى) وتفسير (الفخر الرازى) . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ؛ وقولهم : الفُتُوّ شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطيف به « هـذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هـذا أيسر من مُقطَّعات النّيران [1] ، وسرابيل القَطِران ، وشرب الحميم ، وأكل الزّقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قـد انقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يافتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنـا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليـل الله إبراهيـم . وقال ابن عباس : لـما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه فى السجن ؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، و يعود فيه المريض ، و يداوى فيه الجريح ، و يصلى الليل كله ، و يبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهـل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن

(١) مقطعات النيران : هى على نحو قوله تعالى : « قطعت لهم ثياب من نار » أى خيطت وسو يت وجعلت لبوسا لهم .

مع يوسف، وأخبـه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف! لقد أحببتك حبا لم أحبّ شيئا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك؛ قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى؛ فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه؛ وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يَسُمّاه جميعا؛ فأجاب الخبـاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك؛ فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف؛ فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم فى الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقى: آشربْ! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجُرِّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سـنة، و بقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف. وآسم الساقى منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّـبرىّ: الذى رأى أنه يعصر خمرا هو بنوه، قال السّهيلىّ: وذكر آسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبدين، والعبـد يسمى فتى، صـغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره المـاوردىّ. وقال القُشَيرىّ: ولعل الفتى كان اسما للعبد فى عرفهم؛ ولهـذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْـرًا» أى عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إنى أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هـذا العبد العبرانى؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله آبن مسعود. وحكى الطّبرىّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال آبن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفى الصحيح عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

حلمنا" . وقيل : إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجربة ؛ وهذا قول ابن مسعود والسدي . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مجلز . وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من تحلّم كاذبا كُلّف يوم القيامة أن يَعقد بين شَعيرتين [ولن يَعقد بينهما](1)" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كذب في حُلُمه كُلّف يوم القيامة عَقد شَعيرة" . قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : ما لي أراكما مكروبين؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا علي ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام . ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزّي الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « من المحسنين » أي العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق : « من المحسنين » لنا إن فسّرته ، كما تقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأيتما ؟ قال الخباز : رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير ، وجعلته في ثلاث سلال ، فوضعته على رأسي ، فجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن في ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أي عنبا ، بلغة عمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ابن مسعود « إني أراني أعصِرُ عنبًا » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى « أعصر خمرا » أي عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . « قال » لهما يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

---

(1) الزيادة من صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما تتبعت نظري ظهر لي أن الخبر بما لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به أي لم يعلمه ، فقيل له اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شيء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعني لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف . وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ؛ ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليسعدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبّر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ فى غيره فقال : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ » فى النوم « إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا » بتفسيره فى اليقظة ؛ قاله السُّدّى ؛ فقالا له : هذا من فعل العرّافين والكهنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهّنا وتنجيما ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جُرَيج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ؛ فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ؛ فعلى هذا « ترزقانه » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « من » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وعلى الناس » إذ جعلنا الرسل إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمه بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى: يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أي ياساكني السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط، أو متفرقون في العدد. ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاما للحجة؛ أي آلهة شتى لا تضر ولا تنفع «خير أم الله الواحد القهار» الذي قهر كل شيء. نظيره «آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ». وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإله لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ بين عجز الأصنام وضعفها فقال: «ما تعبدون من دونه» أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لها. ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسميات؛ أي ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات. وقال: «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك. ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حذف المفعول الثاني للدلالة؛ والمعنى: سميتموها آلهة من عند أنفسكم. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جبير: ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الذي هو خالق الكل. ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾. ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾. أي القويم. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأما أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أو لم تَرَ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغة أن سَقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر (١) :

سَقَى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْقَى ❊ نُمَيْرًا والقبائلَ من هلال

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صَبَّ الماء فى حلقه ، ومعنى أسقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبيّ ، وتعبير النبيّ حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقد روى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى رأيتُ كأنى أعشبتُ ثم أجدبتُ ثم أعشبتُ ثم أجدبتُ ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قُضِيَ لك ما قُضِيَ لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان محدَّثا (٢) ، وإذا تكلم به وقع ،

---

(١) هو لبيد ؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ؛ وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلانى) .

على ما ورد فى أخباره ، وهى كثيرة ؛ منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن ؛ خرجه البخارى . ومنها — أنه سأل رجلا عن اسمه فقال له أسماء فيها النار كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، خرجه الموطأ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن ، فى قول أكثر المفسرين . وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنا وربك يخلق ما يشاء ، والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء ، وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنما يكون ظنا فى حكم الناس ، وأما فى حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أى سيدك ، وذلك معروف فى اللغة : أن يقال للسيد رب ، قال الأعشى :

رَبِّى كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ٭ وإذا تُنُوشِدَ فى المَهَارِقِ أَنْشَدَا(٢)

أى اذكر ما رأيته ، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك ، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب . وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم اسق ربك أطعم ربك وضئ ربك ولا يقل أحدكم ربى وليقل سيدى مولاى ولا يقل أحدكم عبدى أمتى وليقل فتاى فتاتى غلامى " . وفى القرآن : « ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ » « إلى

(١) فى تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » آية ٧٥ .

(٢) مريد مدحا (يناشد بالمهارق) بقوله : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب ؛ أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصحيفة .

«رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ» أى صاحبى ؛ يعنى العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شىء وإتمامه قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ ، فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : "لا يَقُلْ أحدُكُم" "وليقلْ" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى ؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا" أى مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألّا تتخذ هذه الأسماء عادة فتترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما ـ أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من الناس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثانى ـ أن المملوك يدخله من ذلك شىء فى استصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال ابن شعبان فى «الزاهى» "لا يقل السيّد عبدى وأمتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى" وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم "لا يقل العبد رَبِّى وليقل سيّدى" لأن الربّ من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق ؛ واختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ؛ وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ؛ فيحصل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى «فأنساه» فيه قولان : أحدهما ـ أنه عائد إلى يوسف عليه السلام ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ «اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللبث . قال عبد العزيز بن عُمير الكندى : دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف ، فقال : يا أخا المنذرين ! مالى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين ! يقرئك

السلام رب العالمين ويقول ، أما استحيت إذ آستغثت بالآدميين ؟ ! وعزتى ! لألبثنك في السجن بضع سنين ؛ فقال ، يا جبريل ! أهو عني راض ؟ قال ، نعم ! قال ، لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطوّل سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تعالى، قال : فمن أخرجك من الجُبّ ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن عَصَمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلّت منى ! أسألك بإله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمنى ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين . وروى أبو سَلَمة عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال «آذكرنى عند ربك» ما لبث في السجن بضع سنين". وقال آبن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذى نجا منهما « آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه . وروى إسمعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف — يعني قوله « اذكرنى عند ربك » — ما لبث في السجن ما لبث " قال : ثم يبكى الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقىَ أن يذكر يوسف لربه ، أى لسيّده ؛ وفيه حذف ، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى الساقى لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا فى وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: " نسى آدم فنسيت ذريته ". وقال: " إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ". وقد تقدم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم، ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهَرَوِى: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: " وكم البضع " فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: " اذهب فزائد فى الخَطَر "(1).
وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبى. قال الماوردى: وهو قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع؛ وقاله الأصمعى. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفى المدة التى لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها — سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب فى البلاء سبع سنين، وأقام يوسف فى السجن سبع سنين. الثانى — اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث — أربع عشرة

---

(1) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ. والحديث فى شأن مراهنة أبى بكر رضى الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: " اذهب فزائد فى الخطر ومادد فى الأجل " وكان ذلك قبل تحريم الرهان. راجع صحيح الترمذى فى تفسير قوله تعالى: « الۤمۤ غلبت الروم ... » الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن خمسا وبضعا . وآشتقاقه من بضعت الشيء أي قطعته، فهو قطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب آبن مُنَبِّه : حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعُذِّب بُختنصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصريّ عن سعيد بن أبي عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة .

الخامسة — في هذه الآية دليل على جواز التعلّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلا، فإن الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنه جعلها سلسلة، وركّب بعضها على بعض، فتحريكها سنّة، والتعويل على المنتهى يقين . والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكّن لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبعُ بقرات سمان، في أثرهن سبع عجاف — أي مهازيل — وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْر قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلتهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السّمان ، فهالته الرؤيا ، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنّجامة والعرافة والسّحر، وأشراف قومه ، فقال : « يأيّها الملأ أفتونى فى رؤياى » فقصّ عليهم، فقال القوم : « أضغاث أحلام » قال ابن جُرَيج قال لى عطاء : إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا . وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة . وقال الهَرَوى : قوله تعالى « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام . والضِّغث فى اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلا وما أشبههما، أى قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها . وقال أبو عبيدة : الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا .

قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث . « سمان » من نعت البقرات ، ويجوز فى غير القرآن سبعَ بقراتٍ سماناً، نعت للسبع، وكذا خضرا، قال الفرّاء : ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا»[1] . وقد مضى فى سورة « البقرة » اشتقاقها ومعناها . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهى سنىّ رخاء ، و إن كانت عجافا كانت شدادا ، و إن كانت المدينة مدينة بحر و إبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها ، و إلا كانت فتنا مترادفة ، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر "يشبه بعضها بعضا" . وفى خبر آخر فى الفتن "كأنها صياصِى[2] البقر" يريد لتشابهها، إلا أن تكون صفرا كلّها فإنها أمراض تدخل على الناس، و إن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات . ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يَعظُم، وروى عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) صياصى البقر : قرونها .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى ، أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، بمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بمـا يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتبيين ، أى إن كنتم تَعبُرون، ثم بيَّن فقال : للرؤيا، قاله الزجاج .

قوله تعـالى : قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ ﴾ قال الفراء: ويجوز « أضغاثَ أحلام » قال النحاس: النصب بعيد، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل ، إنمـا هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر :

كضِغث حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُه

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَـوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهـم نفوا عن أنفسهـم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم آدّعوا ألّا تأويل لهـا . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنمـا أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و « الأحلام » جمع حُلْم ، والحُلْم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه حَلَم بالفتح واحتلم ، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمتُه ، قال :

أحلمتُها وبنو رُفَيْدَةَ(١) دونها ⁕ لا يَبعَدَنَّ خيالُها المحلُومُ

وأصله الأناة ، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش ، فقيل لما يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعَة .

(١) رفيدة : أبو حى من العرب، يقال لهم الرفيدات ، كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان

[الثانيـة - فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تعبّر ، لأن القوم قالوا : « أضغاث أحلام » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِى الجدب والخصب، فكان كما عبر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، وإذا عبرت وقعت .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعنى ساقى الملك . « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين؛ عن ابن عباس وغيره؛ ومنه « إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن دُرُسْتويه(١) : والأمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، و إقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال — والله أعلم — : وادّكر بعد حين أمّة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد، وفى المعنى جمع؛ وكل جنس من الحيوان أمّة؛ وفى الحديث : " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها " .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكر حاجة يوسف، وهو قوله : «ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ» . وقرأ ابن عباس — فيما روى عفّان عن همّام عن قتادة عن عِكرمة عنه — «وادّكر بَعْدَ أَمَهٍ» . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك «وادّكر بعد أَمَهٍ» بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لا أنسى حديثاً ❊ كذاكَ الدهرُ يُودِى بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعى « بعد أَمْهٍ » بفتح الألف و إسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النِّسيان ، ويقال : أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهًا إذا نسِىَ ؛ فعلى هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

« وَادَّكَرَ بعد أَمه » ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمِه ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري "أمه" بمعنى أقر واعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأشهب العُقَيلي — « بعد إِمَّةٍ » أي بعد نعمة ؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والخباز ؛ فقوله : « وادّكر » أي ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ادّكر اذتكر ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ، ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار اذدكر ، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أنا آتيكم بتأويله » وقال : كيف ينبئهم العِلْج(١) ؟ ! قال النحاس : ومعنى « أنبئكم » صحيح حسن ؛ أي أنا أخبركم إذا سألت . ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿يُوسُفُ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿الصِّدِّيقُ﴾ أي الكثير الصدق . ﴿أَفْتِنَا﴾ أي فأرسلوه ؛ فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . « لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أي إلى الملك وأصحابه . ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التعبير ، أو « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له ، فقال : السبع من البقرات السمان والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات ؛ وأما البقرات العجاف

(١) العلج : الكافر من العجم .

والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبا» بتحريك الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، وهما لغتان[1]، وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب . والقول الآخر ــ إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال ، وكذلك كل حرف فُتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال[2] :

* كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران[3] » القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يسوس ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى ازرعوا .

الثانيــة ــ هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان « دأبا » بتحريك الهمزة و « دأبا » بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو امرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعني السنين المجدبات . ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهن . ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي ما ادخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ • وليلُك نومٌ والرّدى لكَ لازمُ

والنهار لا يسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنما يُسهى في النهار ، ويُنام في الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقرّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرّبه له فأكله كلّه ، فقال يوسف : هذا أول يوم من السبع الشّداد . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الاستثناء . ﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي مما تحبسون لتزرعوا ؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : « تحصنون » تدّخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانية — هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى ؛ لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ ، ومعجزة لرسول، وتصديقا لمصطفى التبليغ ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — وعباده .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام مما لم يكن في رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله . قال قتادة : زاده الله علم سَنة لم يسألوه

هنــا إظهارا لفضله ، و إعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والاسم الغَوْثُ والغُوَاث والغَوَاث ؛ واستغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغياث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر ؛ وقد غاث الغيثُ الأرضَ أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَغيثها غَيْثا ، وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثا ، فهى أرض مَغيوثة ؛ فمعنى «يغاث الناس» يُمْطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن ؛ ذكره البخارى . وروى حجاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسِّمسم دُهنا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدلّ ذلك على كثرة النبات . وقيل : «يعصرون» أى يَنْجُون ؛ وهو من العُصْرة ، وهى المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك المُعْصَرة ؛ قال أبو زُبَيد[1] :

صَادِيًا يَستغيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ * ولقــد كَانَ عُصْرَةَ المَنْجود

والمَنْجود الفزِع . واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث : «يَعْصِرُون» يَسْتغلّون ؛ وهــو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمْطَرون ، من قوله : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا » وكذلك معنى «تُعْصِرُونَ» بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

---

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال : ٱئتونى به . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة . ﴿ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته للملك مما قُذف به، وأنه حبس بلا جرم . روى الترمذىّ عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم](١) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم — قال — ولو لَبِثتُ فى السجن ما لَبِث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فٱسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » — قال — ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »](٢) فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذِرْوة من قومه" . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له «أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »" وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُذْر" . وروى نحو هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لابن القاسم فى الديوان غيره . وفى رواية الطبرىّ "يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلىّ لخرجت سريعا أنْ كان لحليما ذا أناة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب(٣)" . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا، وطلبا لبراءة الساحة، وذلك أنه — فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) الزيادة من صحيح الترمذى .

(٣) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود أمرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول : آرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبى، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن آمرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لزمام الملك العزيز له .

فإن قيل: كيف مدح النبى صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج؛ ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى، له جهة أيضا من الجودة؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل هى معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نتج له البقاء فى سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهنّ آمرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفى الكلام محذوف، أى فاسأله أن يتعرّف ما بال النسوة . قال آبن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى آمرأة العزيز ــ وكان قد مات العزيز ــ فدعاهنّ فـ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾أى ما شأنكنّ . ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلّمت يوسف فى حق نفسها ، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت آمرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زنى . ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

هى أيضا؛ وكان ذلك لطفا من الله بيوسف . و « حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل : حصحص؛ كما قال : كبكبوا فى كببوا ، وكفكف فى كفف؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحصّ استئصال الشيء؛ يقال : حَصّ شعره إذا استأصله جزًّا؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّت البيضةُ رأسى فما * أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاع (١)

وسَنَةٌ حصّاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جرير :

يأوِى إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ * من ساقه السَّنةُ الحصّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهى السنة المجدبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ فمعنى « حصحص الحق » أى ٱنقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عنّى خِدَاشًا فإنّهُ * كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمٌ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ؛ فالمعنى : بانت حِصّة الحق من حِصّة الباطل . وقال مجاهد وقتادة : وأصله مأخوذ من قولهم: حَصّ شَعْرَه إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحِصّة من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهرى . ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظن ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون فى « خَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدتُّنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

---

(١) البيضة : الخوذة ؛ والتهجاع : النومة الخفيفة .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أقررتُ بالصدق ليعلم أنى لم أخُنْه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ؛ قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أخُن سيّدى بالغيب ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حللت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » الآية . وقال السُّدى : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حللت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيدهم

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القشيرى : فالظاهر أن قوله « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حلّ الإزار والسراويل ؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار فى قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنبارى : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهم عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة ، ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » وتزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء »[1] . وقيل : هو من قول العزيز؛ أي وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) أي مشتهية له . (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) في موضع نصب بالاستثناء ؛ و « ما » بمعنى مَن ؛ أي إلا من رحم ربي فعصمه ؛ و « ما » بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال : " فو الذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم " .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) لما ثبت للملك براءته مما نسب إليه ؛ وتحقق في القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن جلاله قال : « ائتوني به أستخلصه لنفسي » فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه — « ائتوني به » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « ائتوني به أستخلصه لنفسي » روى عن وهب بن منبه قال : لما دعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلقه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عزّ جارُه، وجلّ ثناؤه ولا إله غيره؛ ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجدا، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال . ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . ﴿ قال ﴾ له يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ للخزائن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه تصرفاتها . وقيل : حافظ للحساب،عليم بالألسن . وفى الخبر: "يرحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك سنة " . وقيل : إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله . وقد قيل فى هذه القصة : إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان عمّى إسمعيل ، ثم دعا بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا ، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ، فأعجب الملك أمره ، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ؛ ثم أجلسه على سريره وقال : أحب أن أسمع منك رؤياى ، قال يوسف : نعم أيها الملك ! رأيتَ سبع بقرات سمانٍ شُهْبا غُرّا حسانا ، كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تَشْخَب(١) أخلافها لبنا ؛ فبينا أنت تنظر إليهن وتتعجب من حسنهن إذ نَضَب النيل فغار ماؤه ، وبدا أُسُّه ، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبع بقرات عجاف شُعْث غُبْر مقلّصات البطون ، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ، لهن أنياب وأضراس ، وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسّمان فافترسنهن افتراس السباع ، فأكلن لحومهن ، ومزّقن جلودهن ، وحطّمن عظامهن ، ومشمشن مخّهن ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ! ثم لم يظهر منهن سِمَن ولا زيادة بعد أكلهن ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات، ممتلئات حبّا وماء، وإلى جانبهن سبع يابسات ليس فيهن ماء ولا خضرة فى منبت واحد، عروقهن فى الثّرى والماء، فبينا أنت تقول فى نفسك : أى شىء هذا ؟ ! هؤلاء خضر مثمرات ، وهؤلاء سود يابسات ، والمنبت واحد ،

(١) تشخب : تسيل .

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهن ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهت مذعورا أيها الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعت منك ! فمـا ترى فى رؤياى أيها الصديق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة ؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النمـاء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام ؛ فيكون القصب والسنبل علفا للدواب، وحبّه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخُمْس ؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام : « ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على خزائن أرضك ؛ وهى جمع خِزانة ؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة ، كقول النابغـــة :

لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ ۞ مِنَ ٱلْجُودِ وَٱلْأَحْلَامُ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ جزم لأنه جواب الأمر ؛ وهذا يدل على أن قوله : ذَٰلِكَ لِيَعْـلَمَ » جرى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عنـد الملك ، ثم قال فى مجلس آخر : « ٱئْتُونِى بِهِ » تأكيدا . « أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى » أى أجعله خالصا لنفسى، أفوض إليـه أمر مملكتى ؛ فذهبـوا فجاءوا به ؛ ودلّ على هـذا ﴿ فَلَمَّـا كَلَّمَهُ ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف ؛ فـ ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَـا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى متمكن نافذ القول، « أمين » لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أي على حفظها ، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وليت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفي التفسير : إني حاسب كاتب ؛ وأنه أول من كتب في القراطيس . وقيل : « حفيظ » لتقدير الأقوات « عليم » بسني المجاعات . قال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه[1] بسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب ، مكللا بالدرّ والياقوت ، وضرب عليه حُلّة من إِسْتَبْرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقة[2] ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوّجا ، لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، فجلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوّض اليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلّم سلطانه كله إليه ، وهلك قطفير تلك الليالي ، فزوّج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ ! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمني ؛ فإني كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي ، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّه : إنما كان تزويجه زليخا ٱمرأة العزيز بين دخلتي الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف ، فصارت تتكفّف الناس ؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها ،

---

(١) رداه بسيفه : قلده به . (٢) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرضت له لعله يسعفك بشئ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ، فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمىّ ، وأرجّل جُمّتك بيدىّ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوى فذقت وبال أمرى، فذهب مالى، وتضعضع ركنى، وطال ذلّى، وعَمِى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمنى، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ، فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنت أيِّمًا تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك! لم يردنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزّى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرضت له ، فقال لها : ألم يبلغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها، فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلى ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراما ليوسف عليه السلام لمّا عفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ، فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنّينا لا يأتى النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا فى خفض عيش، كل يوم يجدد الله لهما خيرا ، وولدت له ولدين؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها : ما شأنك لاتحبينني كما كنت فى أول مرة ؟ فقالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء .

الثانيــة ــ قال بعض أهل العلم : فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردى : فإن كان المولى ظالما فقد اختلف الناس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما ــ جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّى من قبل فرعون، ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره . الثانى ــ أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم ، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم ؛ فأجاب من ذهب الى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما ــ أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون موسى. الثانى ــ أنه نظر فى أملاكه دون أعماله ، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردى: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها ــ ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليه من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثانى ــ ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد فى مصرفه كأموال الفيء ، فلا يجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق . والقسم الثالث ــ ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثــة ــ ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ، فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وُكِلْتَ إليهـا وإن أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها » . وعن أبى بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريّين ، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العمل ، والنبى صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال: "ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس — " قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى أنظر إلى سِوَاكه تحت شفته وقد قَلَصت[1] ، فقال : " لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث ؛ خرجه مسلم أيضا وغيره ؛ فالجواب : أوّلا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليـه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسـبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ؛ فأما لو كان هناك من يقوم بهـا ويصلح لهـا وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ؛ لقوله عليـه السلام لعبد الرحمن : "لا تسأل الإمارة" فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليـل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فَرّ منها ، ثم إن آبتلى بهـا فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : " أعِينَ عليها " . الثانى — أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال : « إنى حفيظ عليم » فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

---

(١) قلصت : آنقبضت وآنزوت .

تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ». الرابع ـ أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ، لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ؛ والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردى : وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السجن مكنا له فى الأرض ؛ أقدرناه على ما يريد . وقال الكِيَا الطَّبَرى قوله : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » دليل على إجازة الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » وحديث أبى سعيد الخُدْرى فى عامل خَيْبر ، والذى أدّاه من التمْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله (١) .

قلت : وهذا مردود على ما يأتى . يقال : مَكّنّاه ومَكّنّا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » . قال الطّبرى : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الرّيان يوسف على عمل قطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة

---

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل تمر خيبر هكذا " فقال : لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : " لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا " . (البخارى) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إنى حفيظ عليم إن شاء الله لملك فى وقته " . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا ، ابنى يوسف ، ومن زعم أنها زليخا قال : لم يتزوجها يوسف ، وأنها لما رأته فى موكبه بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله حتى ماتت عنده ، ولم يتزوجها ؛ ذكره الماوردى ؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره الثعلبى ؛ فالله أعلم . ولما فوض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبه الرجال والنساء ، قال وهب والسدى وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا فى الزراعة ، فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت ، ثم بنى لها الأهراء ، فجمعت فيها فى تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك ، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛ فإن الله سلط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان ؛ إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعز إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان العلامتان فى عهد يوسف ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون ، وانتبه الملك ينادى الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف فى أرض مصر كلها ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شىء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك فى جوف الليل أصابه الجوع فى نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أول سنة من سنى القحط هلك فيها كل شىء أعدوه فى السنين

القصبة ؛ فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أوّل سنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم في السنة الثانية بالحلِيّ والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضِّياع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقّهم جميعا ؛ وباعهم في السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حرولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صُنع ربي فيما خوّلني ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنّتي . ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أي بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي ثوابهم . وقال ابن عباس ووهب : يعني الصابرين ؛ لصبره في الجبّ ، وفي الرقّ ، وفي السجن ، وفي صبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة . وقال الماوردي : واختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه . الثاني — أنه أنعم عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باقٍ على حاله في الآخرة .

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ما نعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا ؛ لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متق ؛ وأنشدوا :

أمَا فى رسول الله يوسف أُسوةٌ * لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفكِ
أقام جميلَ الصبر فى الحبس بُرهةً * فآل به الصبرُ الجميلُ إلى المُلكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراءَ مضيق الخوف مُتَّسعُ الأمنِ * وأوّلُ مفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تيأسنْ فالله مَلَّكَ يوسفًا * خزائنَه بعد الخلاص من السِّجنِ

وأنشد بعضهم :

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهى * وكادتْ تذوبُ لهنّ المُهَجْ
وحلَّ البلاءُ وقلَّ العزاءُ * فعند التَّناهي يكونُ الفرجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى جاءوا إلى مصر لمّا أصابهم القحط ليمتاروا ؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز . قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدّة ، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للمِيرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم ، لكل رأس وَسْقا.[1] ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدّة ؛ وهى أربعون سنة . وقيل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر ؛ وقيل : رأوه لابس حرير ، وفى عنقه طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد تزيّا بزيّ فرعون مصر ، ويوسف

(١) الوسق ستون صاعا ؛ والأصل فى الوسق الحمل .

وأنهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل: أنكروه لأمر خارق امتحانا امتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جهّزتُ القوم تجهيزا أى تكلفت لهم بجهازهم للسفر ؛ وجَهاز العَروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج ؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم ؛ والجهاز فى هذه الآية الطعام الذى امتاروه من عنده . قال السُّدّى : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ؛ فقالوا ليوسف : إن لنا أخا تخلّف عنا ، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلّف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البرّية فهلَك ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إياه ، وأعلم صدقكم ؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة ، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيّكم مخالف لزيّنا ، فلعلكم جواسيس ؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس ، بل نحن بنو أب واحد ، فهو شيخ صدّيق ؛ قال : فكم عِدّتكم ؟ قالوا : كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرّية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرّفناك أنسابنا ، فبأى شئ تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ » أى أتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم . « فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما ـ أنه رخّص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى ـ أنه كال لهم بمكيال وافٍ . ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين ؛ لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد . الثاني — وهو محتمل ؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأوّل مأخوذ من النُّزُل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أي فلا أبيعكم شيئا فيما بعد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم في هذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حثّهم . قال السدّي : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكلبيّ : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا ، وأحسنهم رأيا . و« لا تقربون» في موضع جزم بالنهي ؛ فلذلك حذفت منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا . ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به ، ومحتالون في ذلك .

مسـألة — إن قيل كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه . الثاني — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم ؛ وهو اختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو اختيار أبي عبيد ؛ قال :

وهو فى مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبى : وهما لغتان جيدتان ، مثل الصبيان والصبية .
قال النحاس : « لفتيانه » مخالف للسواد الأعظم ؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون ،
ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان ؛ لأن فتية
عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه . وكان هؤلاء الفتية
يسوّون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم . ويجوز أن يكونوا أحرارا ،
وكانوا أعوانا له ، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير .
وقال ابن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر ويسمى رحلا ؛ قال ابن الأنبارى :
يقال للوعاء رَحْل ، وللبيت رَحْل . وقال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لجواز ألا تسلم فى الطريق .
وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه .
وقيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته
ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله ، ويرغبوا فى الرجوع إليه .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ لأنه قال لهم :
« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه ،
وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ أى قالوا عند ذلك :

« فأرسل معنا أخانا نكل » والأصل نكال ؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم «نكل» بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين « يكل » بالياء ؛ والأول اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان ؛ وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حافظا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : «فالله خير حافظا» قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لأردن عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلت علي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ « ما » استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أي شيء نطلب وراء هذا ؟ ! وفى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم . وقيل : هي نافية ؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردت إلينا . وروى عن علقمة « رِدَّت إلينا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رُدِدت ؛ فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الراء . وقوله ؛ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مائِرًا فَمَكَثْتَ حَوْلًا ✽ مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَنْ تُغِيثُ

وقرأ السلمي بضم النون ، أي نعينهم على الميرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي حمل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى . ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهداً يوثق به . قال السدى : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : إلا أن تهلكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تُغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانيــة ــ هذه الآية أصل فى جواز الحمالة (١) بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المتحمّل به مالا . وقد ضعّف الشافعى الحمالة بالوجه فى المال ؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان البَتّى : إذا تكفّل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يجئ به لزمه الدية وأرش الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حد أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(١) الحمالة : الكفالة .

فيه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة ؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

الثانية — وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر". وفي تعوذه عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة" ما يدل على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حنيف بالخرار[1] فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! ، فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت[2] إن العين حق توضأ له" فتوضأ له عامر، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية "اغتسل" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين ؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا قول علماء الأمة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ؛ فكم من رجل

(١) الخرار : ماء بالمدينة . (٢) برّك : قال بارك الله فيه ؛ وهذا القول يبطل تأثير العين ويمحو معناه .

ادخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير ادخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: « وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ». قال الأصمعي: رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال: أيتهن هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعا، المورّى بها والمورّى عنها. قال الأصمعي. وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عيني.

الثالثــة — واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: "أَلَّا بَرَّكْتَ" فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعــة — العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لاسيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المَعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الخامســة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به، ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادســة — روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال: دُخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: "مالي أراهما ضَارِعَين [1]" فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) الضارع: النحيف الضاوي الجسم.

أو سبق شيء القدر سبقته العين " . وهـذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرقى مما يُستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه؛ أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار؛ والله أعلم .

السابعة — أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي من أبواب شتى . ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبه، وهو وصيته أن يتفرقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لذو علم » أي عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمي ما هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قتادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل آثنين في منزل ، فبقي أخوه منفردا فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة ، وقال له سِرًّا من إخوته : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّني إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالي ! فدسّ الصاع في رحله ؛ إما بنفسه من حيث لم يطّلع عليه أحد ، أو أمر بعض خواصّه بذلك . والتجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جهّز على الجريح أي قتله ، ونجّز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

• نَشْرَبُ الخمرَ بالصّواعِ جِهَارَا[1] •

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المَكُّوك، من فضة مرصّع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

(١) البيت تقدم في ص ١٧٠٨ من هذا الجزء .

وكان للعباس واحد فى الجاهلية، وسأله نافع بن الأزرق ما الصواع؟ قال : الإناء؛ قال فيه الأعشى :

له دَرْمَكٌ فى رأسه ومَشارِبٌ * وقِدْرٌ وطَبّاخٌ وصاعٌ ودَيْسَقُ (١)

وقال عِكرمة: كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنّثه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع؛ مثل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطُّرْجِهالة بلغة حِمْير . وفيه قراءات : « صُوَاع » قراءة العامة ؛ و «صُوْغ» بالغين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال : وكان إناء أُصيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجاء . « وصُوْع » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أُبيّ . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هُريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . «وأَذَّن» للتكثير؛ فكأنه نادى مرارا « أيتها العير » . والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير، كقوله : « وآسأل القرية » ويا خيل الله اركبي : أى أصحاب خيل الله ؛ وسيأتى . وهنا اعتراضان: الأول — إن قيل: كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم براء وهو — الثانى — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثّر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أولا تراه لما فقده قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يعرّج على بنيامين؛ ولعلّ يوسف إنما وافقه على القعود بوحى؛ فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) الديسق : خوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها .

أرقت وما هذا السهاد المؤرق * وما بى من سقم وما بى معشق

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سرّقوه من أبيه فألقوه فى الجبّ ، ثم باعوه ؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر ــ وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر ــ وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ؛ وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع فى رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » أى أو تلك نعمة تمنها على ؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسّرين . وقيل : إنه الحمار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أيتها العير » . والزعيم والكفيل والحميل والضّمين والقبيل سواء . والزعيم الرئيس .

قال[1] :

وإنى زعيمٌ إن رجعتُ مملّكا • بسيرٍ ترى منه الفُرانِقَ أزورا

---

(1) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ... عرب . والأزور : المائل فى شقه ؛ أى إن ملكنى قيصر فإنى أسير سيرا شديدا ... الفرانق منه بجانب .

وقالت ليلى الأخيلية ترثى أخاها[1] :

ومُخَــرَّقٍ عنه القميصُ تخالُهُ ٭ يومَ اللقاءِ من الحياءِ سَقِيمَا
حتَّى إذا رُفِعَ اللواءُ رأيتَــهُ ٭ [تحتَ اللواءِ[2]] على الخميسِ زَعِيمَا

الثانيــة — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق؛ فصح ضمانه، غير أنه بذل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصحّ فى شرعهم، أو كان هذا جعالة، وبذل مالٍ لمن يفتّش ويطلب.

الثالثــة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيــه من الجهالة ما لا يجوز فى غيره؛ فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صحّ . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل . ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » وبهــذا كله قال الشافعى .

الرابعــة — متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من جاء بآبق فله أربعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد ولهــذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترثى توبة . وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأوّل — أن ذلك إشارة الى جذب العفاة له . الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها ويكتفى بما دونها . الثالث — أنه غليظ المناكب؛ وإذا كان كذلك أسرع الخرق الى قميصه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل الأسفار؛ فقميصه متخرق لذلك .

(٢) كذا فى « أمالى القالى » « والشعر والشعراء » و « الحماسة » وفى الأصول : يوم الصباح .

الخامسة ـ الدليل الشاني ـ جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام . قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبِيل ، أو هو لك عندى أو علىّ أو إلىّ أو قِبَلى فذلك كله حَمَالة لازمة . وقد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعىّ : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، و يرجع به على المطلوب؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شىء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدمٍ ، و إنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال . وآحتج الطحاوىّ للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال؛ فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة ـ وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثورىّ والكوفيون والأوزاعىّ والشافعىّ وأحمد و إسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذى عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل؛ لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أىّ الرجلين شاء . وقال آبن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالاً تحول على الكفيل و برئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبى قتادة[1]؛ وبنحوه قال أبو ثور .

---

(١) الحديث: روى سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم؛ قال : "هل ترك شيئا" قالوا : لا ، قال : "صلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صل عليه يارسول الله وعلىّ دينه ؛ فصلى عليه .

السابعة — الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتا مستقرا ؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ، لأن العبد إن عجز رَقّ وانفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحدّ ، حتى ينظر في أمره . وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ واحتج لهم الطحاوي بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمّة لئلا تعيث في زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التي كانت في رحالهم ؛ أي فمن ردّ ما وُجِد فكيف يكون سارقا ؟! .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي يُستعبَد ويُسترقّ . «فجزاؤه» مبتدأ ، و «مَن وُجِد في رحله» خبره ، والتقدير : جزاؤه استعباد من وُجِد في رحله ؛ فهو كناية عن الاستعباد ؛ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسترقّوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يسترب بنفسه ؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ؛ قاله الحسن والسدّي وغيرهما .

مسـألة ــ قد تقدم في سورة « المائدة »(١) أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق، والله أعلم .

قوله تعالى : فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي التهمة والرِّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعني بنيامين ؛ أي استخرج السِّقاية أو الصُّواع عند من يؤنث، وقال : « ولمن جاء به » فذكر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم، وظنّوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا : ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصّين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقتــه ، ولا علم لي بمن وضعه في متاعي . ويروى أنهم قالوا له : يابنيامين! أسرقت ؟ قال : لا والله؛ قالوا : فمن جعل الصُّواع في رحلك ؟ قال : الذي جعل البضاعة في رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجل استغفر الله عزّ وجلّ تائبا من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصُّواع حتى فرغ منهم، وانتهى إلى رَحْل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ولا أخذ شيئا، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهـذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذّن سرّقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّي ذلك قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القُتَبيّ : دبرنا . ابن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خيرُ إرادةٍ ٭ لو عاد من عهد الصِّبَا ما قد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل .

الثانيــة — أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة، وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق . وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقوله عليه السلام : " خَشْيَةَ الصَّدَقَة " . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : " خَشْيَةَ الصَّدَقَة " إلا حينئذ : قال ابن العربي : سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفِهْري وغيره يقول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدَّامَغَانِي صاحب عشرات آلاف من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كَبِرَت سِنّي ، وضعفت قوّتي ، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم ، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دور بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا ! إنما أملنا حياتك، وأما المال فأيّ رغبة لنا فيه ما دمتَ حيا ؛ أنت ومالك لنا، نفذه إليك، ويسيرُ الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرق؛ وهذا خطب عظيم؛ وقد صنف البخاري رضي الله عنه في جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيَل » .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة، وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس، الحديث ؛ وفي آخره : " أفلح إن صَدَق " أو " دخل الجنة إن صَدَق " . وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كَنز أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ويقول أنا كَنزك " الحديث . قال المهلّب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأي وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة ـ قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهْم عظيم؛ وقوله تعالى : « وكذلك مكّنا ليوسف في الارض » قيل فيه : كما مكّنا ليوسف ملك نفسه من امرأة العزيز مكّنا له ملك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوى : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ » وهذا ليس

حيلة ، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشفعوى : ومثله حديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر جنيب ، الحديث ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا ويبتاع جنيبا من الذي باع منه الجمع أو من غيره[1] . وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جنيبا بجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : جريرة بجريرة[2] والدراهم ربا .

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عادته ، أي بظلم بلا حجة . مجاهد : في حكمه ؛ وهو استرقاق السراق . ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تعلة وعذرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي بالعلم والإيمان . وقرئ « نرفع درجات من نشاء » بمعنى : نرفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى في « الأنعام »[3] . وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

---

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبا فيه . (٢) كذا في الأصل وفي « أحكام القرآن لابن العربي » .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى اقتدى بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها منطقة إسحق لسنها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسن ، وهذا مما نُسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق استعبد . وكانت عمة يوسف حضنته وأحبته حبًّا شديداً ، فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ منطقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلمك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيره إخوته فى قولهم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » . ومن ها هنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رحل أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرق صنما كان لجده أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيروه بها ؛ وقاله قتادة . وفى كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عَرْق[1] فخبأه فعيروه بذلك . وقيل : إنه كان يَسرق من طعام المائدة للمساكين ، حكاه ابن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسر فى نفسه قولهم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » قاله ابن شجرة وابن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

قوله : « أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : «والله أعلم بما تصفون» أى الله أعلم أن ما قلتم كذب، وإن، فكانت لله رضًا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأوّل[1] أو موته . وقولهم : « إن له أبا شيخا كبيرا » أى كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحدنا مكانه » أى عبدًا بَدَلَه؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدلًا من قد أحكمت السنة عندهم رقّه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : اقتلنى ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى استنزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « فخذ أحدنا مكانه » حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها ـــ بمعنى إحضار المضمون فقط ـــ جائزة مع التراضى، غير لازم إذا أبى الطالب؛ وإنما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، ولا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » أن الحمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . واختلف فيها عن الشافعىّ؛ فمرة ضعّفها، ومرة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل ابن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب ، أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ« ـنأخذ » . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُۥٓ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء ، بالمجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره

(١) هو قطفير .

قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ﴾ أي يئسوا ؛ مثل عَجِب واستعجب ، وسَخِر واستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أي انفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر في « خلصوا » وهو واحد يؤدى عن جمع ، كما في هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وقرّبناه نجيا » وجمعه أنجية ؛ قال الشاعر[1] :

إنى إذا ما القومُ كانوا أنجيَه • واضطرب القومُ اضطرابَ الأرشيَه

• هُناك أوصيني ولا توصي بِيَه •

وقرأ ابن كثير « استايسوا » « ولا تايسوا » « إنه لا يايس » « أفلم يايس » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة ؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء ـ يأسا ـ والإياس ليس بمصدر أيِس ، بل هو مصدر أسْتُه أوسا وإياسا أي أعطيته . وقال قوم : أيِس ويئس لغتان ؛ أي فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عرض لهم . والنجيّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قتادة : هو روبيل ، كان أكبرهم في السنّ . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم في الرأى . وقال الكلبي : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لاوى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعي يصف قوما أصابهم السهر والسفر ، فرقدوا على ركابهم ، واضطربوا عليها ، ويشد بعضهم على ناقته مخافة سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التي يستقى بها ، والمراد أنه ثبت للبقاء ، و(أوصيني ولا توصي) بالسلام لأنه يخاطب موتا .

﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ ابنه، ورده إليه. ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ « ما » فى محل نصب عطفا على « أنّ » والمعنى : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره النحاس وغيره . و « مِن » فى قوله : « ومن قبل» متعلقة بـ«تعلموا» . ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «من قبل» و « فى يوسف » بالفعل وهو «فرّطتم» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرا، و « من قبل » متعلقا بفعل مضمر؛ التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به « من قبل » . ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أى ألزمها، ولا أبرح مقيما فيها؛ يقال : بَرِح بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالممرّ مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى؛ أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لتأتننى به إلا أن يحاط بكم» ومن حارب وعجز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لأخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا : بل اكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصيحنّ صيحة لا تُبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا واشتدّ غضبه، وانتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب، اقشعرّ جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعراته ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان؛ وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

والطير إلا وضعت ما فى بطنها ، تماما أو غير تمام ؛ ولا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما ، أو تمسكه يد من نسل يعقوب ؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكل كلم ولدا له صغيرا بالقبطية ، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه ؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف ، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير ؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال : هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا : لا ! قال : فأين ذهب شمعون ؟ قالوا : ذهب إلى الجبل ؛ فخرج فلقيه ، وقد احتمل صخرة عظيمة ؛ قال : ما تصنع بهذه ؟ قال : أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه ؛ قال : فارجع فردها أو فألقها فى البحر ، ولا تحدثن حدثا ؛ فوالذى اتخذ إبراهيم خليلا ! لقد مسنى كف من نسل يعقوب ؛ ثم دخلوا على يوسف ، وكان يوسف أشدهم بطشا ، فقال : يامعشر العبرانيين ! أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة ، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركله برجله فدحا به من خلف الجدار ــ الركل الضرب بالرجل الواحدة ؛ وقد ركله يركله ؛ قاله الجوهرى ــ ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه ، وقال : هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم ، ثم صعد على سريره ، وجلس على فراشه ، وأمر بصواعه فوضع بين يديه ، ثم نقره نقرة لخرج طنينه ، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا ! قال : فإنه يقول : إنه ليس على قلب أبى هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم ، ثم نقر نقرة ثانية وقال : إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه ؛ فقالوا : أيها العزيز! استر علينا ستر الله عليك ، وامنن علينا من الله عليك ؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجب ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس ، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله ؛ ثم نقره رابعة وقال : إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ، ولم تتوبوا إليه ؛ ثم نقره خامسة وقال إنه يقول : إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا ، ثم نقره سادسة وقال إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم ، لأجعلنكم نكالا للعالمين . ايتونى بالحدادين أقطع

أيديهم وأرجلهم ، فتضرّعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حي لنكونن طوع يده ، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : آخرجوا عني ! قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعالى : ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)

قوله تعالى : ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ ﴾ قاله الذي قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » . ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ وقرأ آبن عباس والضحاك وأبو رزين « إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان (١) قال حدثنا أحمد بن أبي سريج البغدادي قال : سمعت الكسائي يقرأ « يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة ؛ على ما لم يسم فاعله ؛ أي نُسب إلى السرقة ورُمِيَ بها ؛ مثل خوّنته وفسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما ـ علم منه السَّرَق ، والآخر ـ آتهم بالسَّرَق . قال الجوهري : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو آسم الشيء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دسّ هذا في رحلي من دسّ بضاعتكم في رحالكم ؛ قال معناه آبن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسترق إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله آبن زيد . ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يسرق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

---

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما في « غاية النهاية » .

نعلم أن ابنك يسترق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال ابن عباس : يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حمير؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خلل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه: قد أخذت السرقة من رحله ، ونحن أخرجناها ونظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سرقوه ولم يسرق .

الثانيـــة ـــ تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن علم، ولا تقبل إلا منهم ، وهـذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهـذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخط ـــ إذا تيقن أنه خطه أو خط فلان ـــ صحيحة؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه؛ قال الله تعـالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بخير الشهداء خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبـل أن يسألها " وقد مضى في " البقرة "[1] .

الثالثـــة ـــ اختلف قول مالك في شهادة المرور، وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا؛ فإن استوعب القول شهد في أحد قوليه، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهداه. والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب، وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه حصل المطلوب وتعين عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهـداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها .

الرابعـــة ـــ إذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردت ، لأنه ادعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا .

قوله تعـالى : « وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) »

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حققوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقولهم . « واسأل القرية » أى أهلها ، فحذف ، ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . وقيل المعنى : «واسأل القرية» وإن كانت جمادا ، فأنت نبيّ الله ، وهو ينطق الجماد لك ؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار ؛ قال سيبويه : ولا يجوز كلّم هندا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يشكل . والقول فى العير كالقول فى القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا

الثانية — فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حقّ ، وعلم أنه قد يظنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه ، ويصرّح بالحق الذى هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد متكلّم ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها(١) من المسجد على رِسْلكما إنما هى صفية بنت حييّ فقالا : سبحان الله ! وكبُر عليهما ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ اى زيّنت . ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ إن ابنى سرق وما سرق ، وإنما ذلك لأمر يريده الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ اى فشأنى صبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بى ، على ما تقدم أول السورة .

---

(١) يقلبها : يردها

الثانيـــة — الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميـــل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى بيعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم. وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جُرَيج عن مجاهد فى قوله تعالى: «فصبر جميـــل» أى لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبى رَبَاح عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر"[1]. وقد تقدّم فى «البقرة» أن الصبر عند أول الصّدمة، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها. وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أُعطى على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من احتسب من هذه الأمة فى مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حُمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان فى داره لا يظهر للنـــاس، ثم حُبس، فلما تمكن احتال فى أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يَصلُ إليه. وقال: «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخيـــه، وهو القائل: «فلن أبرح الأرض». ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى. ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقضى.

قوله تعـالى: وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فيـــه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لمـا بلغه خبر بنيامين تَمَّمَ حزنه، وبلغ جهـــده، وجدّد الله مصيبتـــه له فى يوسف فقال: ﴿ يَا أَسَفَا

[1] راجع ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها طبعة ثانية.

على يُوسُفَ ﴾ ونسيَ ابنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ابن عباس. وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال : « يا أسفا على يوسف » . قال قتادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحاك : يا جزعاه !؛ قال كُثَيِّر :

فيا أسفا للقلب كيف انصرافُهُ • وللنفس لمّا سُلِّيت فتسلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك . وقال الزجاج : الأصل يا أسفي ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين ، وأنه عَمِيَ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ابيضّت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « من الحزن » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّي ، ويوسف نائما معترضا بين يديه ، فغطّ في نومه ، فالتفت يعقوب إليه، ثم غطّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غطّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته « انظروا إلى صَفِيّي وابن خليلي قائما في مناجاتي يلتفت إلى غيري ، وعزّتي وجلالي ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ؛ ليعلم العاملون أن من قام بين يديّ يجب عليه مراقبة نظري » .

الثانيـــة — هذا يدلّ على أن الالتفات في الصلاة — وإن لم يُبطل — يدلّ على العقوبة عليها، والنقص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " . وسيأتي ما للعلماء في هذا في أوّل سورة « المؤمنين » ، وعيا إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدّة حزن يعقوب — صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا — فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها — أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حيّ خاف على دينه ، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا ، فندم على ذلك . والجواب الثالث — وهو أبينها — هو أن

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْوَلة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ " . وقد بين الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه ؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه ؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ؛ قال الله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » أي مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصَاب شَاسٍ * فإنّي اليـومَ مَنطلِقٌ لساني

وقال ابن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فهو كظيم » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : « فهو كظيم » قال : فهو كَمِد ؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ، وأنه لا يدري أين هو ؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس : يقال فلان كَظِيم وكاظِم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فَحَضَضْتُ قَوْمِي واحتسبتُ قِتالَهُمْ * والقومُ من خوفِ المَنَايا كُظَّمُ

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال له ولده: «تالله تفتأ تذكر يوسف» قال الكسائي : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك، أي مازلتُ . وزعم الفراء أن «لا» مضمر؛ أي لا تفتأ، وأنشد[1] :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعدًا * ولو قطّعوا رأسي لَديكِ وأوصالي

(١) البيت لامرئ القيس و « يمين » بالرفع على الابتـداء وإضمار الخبر ؛ والتقدير: يمين الله لازمي ؛ وبالنصب على إضمار فعل ؛ وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته لخوفه الرقباء، وأمرته بالانصراف ، فقال لها هـذا، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهي المفاصل .

أى لا أبرح ؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر فى القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ، ولو كان واجبا لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما فتئ وفتأ فهما لغتان ، ولا يستعملان إلا مع الجحد ؛ قال الشاعر(١) :

فما فتئت حتى كأن غبارها(٢) * سرادق يوم ذى رياح ترفع

أى مابرحت فتفتأ تبرح . وقال ابن عباس : تزال . ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا . وقال ابن عباس ومجاهد : دنفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سرى همى فأمرضني * وقدما زادنى مرضا

كذاك الحب قبل اليو * م مما يورث الحرضا

وقال قتادة : هرما . الضحاك : باليا داثرا . محمد بن إسحق : فاسدا لا عقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحرض . ابن زيد : الحرض الذى قد رد إلى أرذل العمر . الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذائبا من الهم . وقال الأخفش : ذاهبا . ابن الأنبارى : هالكا ، وكلها متقاربة . وأصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ؛ عن أبى عبيدة وغيره ؛ وقال العرجى :

إنى امرؤ لج بى حب فأحرضنى * حتى بليت وحتى شفنى السقم

قال النحاس : يقال حرض حرضا وحرض حروضا وحروضة إذا بلى وسقم ؛ ورجل حارض وحرض ، إلا أن حرضا لا يثنى ولا يجمع ، ومثله قمن وحرى لا يثنيان ولا يجمعان . الثعلبى : ومن العرب من يقول حارض للذكر ، والمؤنثة حارضة ؛ فإذا وصف بهذا اللفظ ثنى وجمع وأنث . ويقال : حرض يحرض حراضة فهو حريض وحرض . ويقال : رجل محرض ، وينشد :

طلبته الخيل يوما كاملا * ولو الفته لأضحى محرضا

(١) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى . (٢) الضمير للبغل .

وقال امرؤ القيس :

أرى المرءَ ذا الأذْوَادِ يُصبِحُ مُحْرَضًا * كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ (١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه ، ورجل حارض أي أحمق . وقرأ أنس «حُرُضا» بضم الحاء وسكون الراء ، أي مثل عود الأشنان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحَرَض والحُرُض الأُشْنَان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي الميّتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البثّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها ؛ وهو من بثثته أي فرّقته ، فسميت المصيبة بثًّا مجازا ؛ قال ذو الرُّمّة :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي * فما زِلْتُ أَبْكِي عِندَهُ وأُخَاطِبُهْ

وأُسْقِيهِ (٢) حتى كاد ممّا أَبُثُّهُ * تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ ومَلاعِبُهْ

وقال ابن عباس : « بَثِّي » هَمِّي . الحسن : حاجتي . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سأسجد له . قاله ابن عباس . وقتادة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظني به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكّد هذا رجاءه . وقال السدّي : أعلم أن يوسف حيّ ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نفس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

---

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء بهذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفناء بعد ذلك فلا تغني كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ؛ وهو أظهر . والتحسس طلب الشيء بالحواس ؛ فهو تفعّل من الحس ، أي اذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم ، واحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه ، ويروى أن ملك الموت قال له : اطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة ، واحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط في الشدة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتي في « الزمر »(1) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أي الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفي الكلام حذف ، أي فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أي أصابنا « وأهلنا الضر » أي الجوع والحاجة ؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أي الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ، ولا يكون ذلك قدحا في التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط ؛ والصبر والتجلد في النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(1) في تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ... » آية ٥٣ من السورة المذكورة .

فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السفه ، إلا أن يكون على وجه البث والتسلى ؛ كما قال ابن دُرَيْد :

لا تَحْسَبَنَّ يا دهرُ أنى ضارِعٌ ❊ لِنَكْبَةٍ تَعْرِقُنِي عَرْقَ المُدَى
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ ❊ جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدُورٍ إذا ❊ جَاشَ لُغَامٌ[1] مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشىء واستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر[2] .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا » والمعنى أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . واختلف فى تعيينها ؛ فقيل : كانت قَدِيدَ وَحْشٍ ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغَرَائِرِ والحبال ؛ روى عن ابن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم ، حَبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنْفُق فى الطعام ، وتَنْفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : خذها منا بحساب جياد تَنْفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(1) اللغام : الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فمه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه ثم نفض رأسه وبشفره . (2) هجر : مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فأوف لنا الكيل » يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال آبن جُرَيج : « فأوف لنا الكيل » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم . « وتصدق علينا » أي تفضل علينا بما بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جُبَير والسدّي والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدّق علينا » بالزيادة على حقنا ؛ قاله سفيان بن عُيَينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُرَيج : المعنى « تصدّق علينا » بردّ أخينا إلينا . وقال آبن شجرة : « تصدّق علينا » تجوّز عنا ؛ وآستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا آبنَ عفّان وآحتَسِبْ ... وأَمِّرْ علينا الأشعريَّ لَيَالِيَا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعني في الآخرة ؛ يقال : هذا من معاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفي الحديث : " إن في المَعَاريض(1) لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيـة — آستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيّال على البائع ؛ قال آبن القاسم وآبن نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فأوف لنا الكيل » فكان يوسف هو الذي يكيل ، وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه معيَّنا — صُبْرة أو ما لا حقّ توفية فيه — خلّى بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

(1) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .

الثالثة ــ وأما أجرة النقد فعلى البائع؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طيّبة، فأنت الذى تدّعى الرداءة فانظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذى عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكّن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطّاع على المقتص. وقال الشافعى فى المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة ــ يكره للرجل أن يقول فى دعائه: اللهم تصدّق علىّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا رب غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول: اللهم تصدّق علىّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أما سمعت قول الله تعالى: «إن الله يجزى المتصدقين» قل: اللهم أعطنى وتفضّل علىّ.

قوله تعالى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذى قال الله: «لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِم»(١). ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دليل على أنهم

(١) أى تصديق قول الله، كما فى تفسير الفخر ٢١

كانوا صغارا فى وقت احدهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدل على أنه حسنت حالهم الآن ؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم : « وإن كنا لخاطئين » على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه . وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا : « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » خضعوا له وتواضعوا رَقّ لهم، وعرّفهم بنفسه، فقال : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» فتنبّهوا فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » قاله ابن إسحق . وقيل : إن يوسف تَبَسّم فشبهوه بيوسف واستفهموا . قال ابن عباس لما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: «أئنك لأنت يوسف» . وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف» رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » . وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه، وفى الكتاب : من يعقوب صفىّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ابتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله ، واقشعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره فباح بالسرّ . وقرأ ابن كثير « إنك » على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله ، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة . ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالنجاة والملك ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى الصابرين فى بلائه ، القائمين بطاعته . وقرأ ابن كثير « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِى » بإثبات الياء، والقراءة به جائزة على أن تجعل

صلته بمعنى الذى، ويكون «يتقى» فى الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». ويجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتق» فى موضع جزم «ومن» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال :

ثم نادى إذا دَخلتَ دِمشقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخــر :

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لاقَتْ لَبُونُ بنِى زيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى «إنه» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، واسم الفاعل مُؤْثِر، والمصــدر إيثار. ويقال أثَرْتُ التراب إثارة فأنا مُثــير، وهو أيضا على أفْعَل ثم أعِلّ، والأصل أثْيَر[1] نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأثرتُ الحــديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى : لقــد فضّلك الله علينا، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خَطِئ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئــة، وفى ضمن هــذا سؤال العفــو. وقيل لابن عبــاس : كيف قالوا «وإن كنا لخاطئين» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية.

قوله تعــالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف ــ وكان حليما موفقا ــ : «لا تثريب عليــكم اليوم» وتمّ الكلام. ومعنى «اليــوم» : الوقت. والتثريب التّعيــير والتوبيخ؛ أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورىّ وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يُعيِّرها؛ وقال بشر:

فعَفَوتُ عنهــم عفْوَ غيرِ مُثَرِّبِ * وتركتهم لعقاب يوم ســرمَدِ

(١) كذا فى الأصل و إعراب القرآن للنحاس. و يلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا، ثم حذفت ــ عند اتصال الفعل بضمير متحرك ــ لالتقاء الساكنين.

وقال الأصمعي : ثَرّبْتُ عليه وعَرّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني و بينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندي العفو والصفح، وأصل التثريب الإفساد ، وهي لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعُضَادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : "الحمد لله الذي صدق وَعْدَه ونصر عَبْدَه وهَزَم الأحزاب وحده" ثم قال : " ماذا تظنون يا معشر قريش" قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدَرت، قال : " وأنا أقول كما قال أخي يوسف «لا تثريبَ عليكم اليوم»" فقال عمر رضي الله عنه : ففضتُ عَرَقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك أني كنت قد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولي . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيه معنى الدعاء، سأل الله أن يستر عليهم و يرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على «عليكم » والأول هو المستعمل، فإن في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ«اليوم يغفر الله لكم» جَزْم بالمغفرة في اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحي ، وهذا بيّن . وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربي » .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا ﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر[1] :

تَدعو هَوزانُ والقميصُ مُفَاضَةٌ ... فوق النِّطاقِ تُشَدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص][2] دِرْع مُفاضةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدي عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيرا» قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبة من فضة وعلّقه في عُنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

العين، وأخبره جبريل أن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلى إلا عُوفى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدي . ﴿ وأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قُدّ من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عُصِم من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره القشيري والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام؛ يقال : فَصَل فُصُولا، وفَصَلْته فَصْلا، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : « إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال الحسن : مسيرة عشر ليال؛

وعنه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد: هبّت ريح فصَفَقَت القميص[1] فراحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فعند ذلك قال : «إنى لأجد» أى أشمّ؛ فهو وجود حاسة الشمّ . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لولا أن تُسفّهون؛ ومنه قول النابغة:

إلّا سليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ • قُمْ فى البرِيّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ[2]

أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَد إفنادا كَذَب؛ ومنه قول الشاعر :

هل فى ٱفتخار الكريم من أَوَدٍ[3] • أم هل لقول الصَّدُوق من فَنَدِ

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُقَبِّحون؛ قاله أبو عمرو؛ والتفنيد التقبيح؛ قال الشاعر:

ياصاحبيّ دعا لومِى وتَفْنِيدِى • فليس ما فاتَ من أمرِى بمردودِ

وقال ٱبن الأعرابى : « لولا أن تفنّدون » لولا أن تُضعِّفوا رأيى؛ وقاله ابن إسحق . والفَنَد ضعف الرأى من كِبَر . وقول رابع : تُضلِّلون، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضا : تُهرِّمون؛ وكله متقارب المعنى، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى؛ يقال فنّده تفنيدا إذا أعجزه؛ كما قال :

• أهلكَني باللوم والتفنيد •

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ؛ والفَنَد الخطأ فى الكلام والرأى؛ كما قال النابغة :

... فاحددها عن الفَنَد •

أى امنعها عن الفساد فى العقل؛ ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد؛ قال الشاعر :

يا عاذلىّ دَعَا المَلَامَ وأَقْصِرا • طالَ الهوَى وأطلتما التَّفْنِيدا

---

(١) صفقت الريح الشيء، وصفقته إذا قلبته يمينا وشمالا وردّدته . (٢) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه • ولا أحاشى من الأقوام من أحد

(٣) أود : عوج .

ويقال : أفند فلاناً الدهرُ إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناس أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفي خطئك الماضي من حبّ يوسف لاتنساه . وقال سعيد بن جُبير : لفي جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قتادة وسفيان : لفي محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي على عينيه . ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ «أن» زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخا بالدّم؛ قاله ابن عباس . وعن السدّي أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أيّ دِينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام؛ قال : الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت .

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر . ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفي الباب حديث كعب بن مالك ـ الطويل ـ وفيه : « فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته » وذكر الحديث، وقد تقدّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا[1]، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح . ومن هـذا الباب جواز حِذاقة(١) الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد سورة «البقرة» جَزُورا . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكّرهم قوله: «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون» .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فى الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدل على أن الذى قال له : «تالله إنك لفى ضلالك القديم» بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده؛ فإنهم كانوا غُيَّبا، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . وإنمـا سألوه المغفرة؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالمـا له؛ فإنه يجب عليه أن يتحلّل له ويخبره بالمَظْلِمة(٢) وقدرها؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف؛ والصحيح أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تطب نفس المظلوم فى التحلل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مَظْلَمة لأخيه من عِرضه أو شىءٌ فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مَظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" قال المهلّب فقوله صلى الله عليه وسلم : "أُخذ منه بقدر مَظلمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال ابن عباس : أخّر دعاءه إلى السَّحَر . وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال : سَحَرَ ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحفظ — من كتاب الترمذى — عن ابن عباس أنه قال : بينا نحن عند رسول الله

---

(١) حذاق القرآن : ختمه . (٢) مظلمة (بكسر اللام) مصدر ظلمه .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال: ـ بأبى أنت وأمى ـ تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدرى، فما أجدنى أقدر عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعْكَ الله بهن ويَنفع بهن من علّمته ويُثبِّت ما تعلمتَ فى صدرك" قال: أجَلْ يارسول الله! فعلِّمنى، قال: "إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخِرِ فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخى يعقوب لبنيه «سوف أستغفر لكم ربى» يقول حتى تأتى ليلة الجمعة" وذكر الحديث. وقال أيوب بن أبى تميمة السَّخْتِيَانى عن سعيد بن جُبير قال: «سوف أستغفر لكم ربى» فى الليالى البيض، فى الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب. وعن عامر الشّعبى قال: «سوف أستغفر لكم ربى» أى أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربى؛ وذكر سُنَيد بن داود قال: حدثنا هشام قال حدثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عمه قال: كنت آتى المسجد فى السَّحر فأمُرّ بدار ابن مسعود فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتنى فأطعت، ودعوتنى فأجبت، وهذا سَحَرٌ فاغفرلى؛ فلقيت ابن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهن فى السحر؟ فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله: «سوف أستغفر لكم ربى».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى قصرًا كان له هناك. ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إن يوسف بعث مع البشير مائتى راحلة وجهازا، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أى ضمّ؛ ويعنى بأبويه أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت فى ولادة أخيه بنيامين. وقيل: أحيا الله أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن؛ وقد تقدّم فى «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال ابن جُرَيج: أى سوف أستغفر لكم ربى إن شاء الله؛ قال: وهذا من تقديم القرآن وتأخيره؛ قال النحاس: يذهب ابن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول: «ادخلوا مصر إن شاء الله». وقيل: إنما قال «إن شاء الله» تبركا وجزما. «آمنين» من القحط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجواره.

قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال قَتَادة : يريد السّرير، وقد تقدمت محامله ؛ وقد يُعبَّر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيَانيّ :

• عُروشٌ تَفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنةٍ •

وقد تقدّم .(١)

قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» الهاء فى «خَرُّوا لَهُ» قيل : إنها تعود على الله تعالى ؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا ؛ و يوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه ، وروى عن الحسن ؛ قال النّقاش : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى فى أول السورة : «رأيتهم لى ساجدين» . وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف ، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام ، فاقشعرّ جلده وقال : «هذا تأويل رؤياى من قبل» وكان بين رؤيا يوسف و بين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شَدّاد : أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّى وسعيد بن جُبير وعكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجسر ابن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلقى يوسف فى الجُبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

سنة، ومات وهو ٱبن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من ٱمرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة ٱمرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفي صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثماني عشرة سنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب و يوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ٱبن إسحق : ثماني عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانيــة ــ قال سعيد بن جُبَير عن قتَادة عن الحسن ــ في قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّـدًا » ــ قال : لم يكن سجودا ، ولكنه سُنَّة كانت فيهم ، يُومِئون برءوسهم إيمـاء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان ٱنحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم بالتكفِّي والأنحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الأنحناء . وأجمع المفسّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هــذا الأنحناء والتكفِّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعنـد العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يُقَم له وجَد في نفسه كأنه لا يُؤْبَه به ، وأنه لا قَدْر له ؛ وكذلك إذا ٱلتقوا ٱنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة ، لا سيما عنـد التقاء الأمراء والرؤساء ؛ نكَبوا عن السُّنَن ، وأعرضوا عن السنن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحني بعضنا إلى بعض إذا ٱلتقينا ؟ قال : "لا" ؛ قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا ؟ قال "لا" . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟ قال "نعم" . خرجه أبو عمر في « التمهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم" ــ يعني سعد بن معاذ ــ قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيَّنة ؛ وقد قيل : إنمـا كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه ، فإن أثّر فيـه وأعجب به ورأى لنفسه حظّا لم يجز عَوْنه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يتمثّل له الناسُ قياما فليتبوأ مقعده من النار " وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك

الثالثة — فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعُد عنك ، لتعيّن له به وقت السّلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تَشبَّه بغيرنا فليس منا " . وقال : " لا تُسلِّموا تسليم اليهودَ والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة " . وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحنى ، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغى إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التى أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صافح النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب الغِلّ " وروى غالب التّمّار عن الشّعْبي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا تَصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ؛ وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذى يدل عليه معنى ما فى الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السَّلَف والخَلَف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما فى الدّين ، ولا منقولا نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يَدُلّ على الترغيب فيها ، والدّأب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول الله ! إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجب استعمالا للكرم؛ لئلا يُذكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله : « لا تثريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجفا فى وقت الصَّفا جفا؛ وهو قول صحيح دلّ عليه الكتاب . وقيل : لأن فى دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان فى الجب بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعُصاة ، وفى الجب مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المنّة فى النجاة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرٍ همَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكَرْب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضا : « اذكرنى عند ربك » فعوقب فيه .

﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشٍ وبرّية ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسكنها، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جميل بقوله :

وأنتِ التى حبّبتِ شَغْبًا[1] إلى بَدَا ＊ إلىّ وأوطانى بلادٌ سواهما

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أتوا بَدَا ، كما يقال : غَارُوا غَوْرًا أى أتوا الغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا ؛ ذكره القُشيرى ، وحكاه المَاوَرْدى عن الضحاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بينى وبين إخوتى؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرما منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى رفيق بعباده . وقال الخطّابى : اللطيف هو البَرّ بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ كقوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن، وجاءه بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون ــ واسمه الريان ــ أن يأذن له فى تلقّى أبيه يعقوب، وأخبره

(1) شغب : موضع بين المدينة والشام . و(بدا) يروى بهمزة وبغير همزة .

بقدومه فأذن له ، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ؛ فكان يعقوب يمشى متكئا على يد يهوذا ؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فَمُنع من ذلك (1) ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ؛ فابتدأ يعقوبُ بالسلام فقال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان ، وبكى وبكى معه يوسف ؛ فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن ؛ قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ؛ بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان ، ودخل مصر فى اثنين وثمانين من أهل بيته ؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ؛ رواه عِكْرِمة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خَيْثَم : دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والهَرْمَى والزَّمْنَى ؛ وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم انصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جُبَيْر : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عِيصُو ، فدفنا فى قبر واحد ؛ فمن ثَمّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، مَنْ فَعَل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب وعِيصُو فى بطن واحد ، ودفنا فى قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(1) أى منعه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسلم ؛ قاله العينى فى [illegible] . وقال الألوسى : [illegible] يعقوب أكرم على الله منه .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة : لم يتمنَّ الموت أحد ، نبيّ ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ، حين تكاملت عليه النِّعم وجُمع له الشمل آشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أجلي توفّني مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّستَرى : لا يتمنّى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ ؛ وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لابدّ متمنيا فليقل اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى" رواه مسلم . وفيه عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يدعُ[(١)] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم آنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرا"

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنّى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه ؛ أمَا أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيّناه فى كتاب «التذكرة» .

«ومن» من قوله : «مِنَ الْمُلْكِ» للتبعيض ؛ وكذلك قوله : «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك ، وعلم التعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : «من» للجنس ؛ كقوله : «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

---

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفى من حيث إنه بمعنى النهى . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأول نهى على بابه ، ويكون قد جمع بين لغتى حذف حرف العلة وإثباته .

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو «رب»؛ وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يارب! ويجوز أن يكون نداء ثانيا. والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى؛ عند قوله: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»(1) وزدناه بيانا في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أي ناصري ومتولّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، فتوفّاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر، ودفن في النيل في صندوق من رخام؛ وذلك أنه لما مات تَشاحّ الناس عليه، كلٌّ يحبّ أن يدفن في مَحَلّتهم، لما يَرجون من بركته، واجتمعوا على ذلك حتى همّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل من حيث مَفرِق الماء بمصر، فيمرّ عليه الماء، ثم يتفرّق في جميع مصر، فيكونوا فيه شَرَعا ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل، ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائه لدعوته: «وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام. وعن الحسن قال: أُلقي يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة؛ وكان له من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة، زوجة أيوب؛ في قول ابن لَهيعة. قال الزهريّ: وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نونُ بن إفرائيم، وولد لنون يوشع؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذي كان معه صاحب أمره، ونبّأه الله في زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبيا، وهو الذي افتتح أَريحاء، وقَتل من كان بها من الجبابرة، واستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم في «المائدة»(2). وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا، قبل موسى بن عمران؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذي طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه، والعالم هو الذي خرق

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبعة ثانية. (2) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذى قاله ابن عباس؛ وكذلك فى القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ نوحيه إليك ﴾ خبر ثان. قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى، و « نوحيه إليك » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نوحيه إليك » أى نعلمك بوحى هذا إليك. ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجب. ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجبّ. وقيل : « يمكرون » بيعقوب حين جاءوه بالقميص مُلطَّخا بالدم؛ أى ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل : ضَرَبَ يَضرِب. وفى لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِد يَحمَد. والحِرْص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «من» صلة؛ أى ما تسألهم جُعْلا. ﴿ إِنْ هُوَ﴾ أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى. ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾.

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هي « أيّ » دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار في الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى في «آل عمران»(١) القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية «السموات والأرض» في «البقرة»(٢) . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا آبتداء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدّي « وَالْأَرْضَ » نصبًا بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ آبن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبي وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شركٌ وإيمانٌ، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباريّ . وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

مُفَصَّلا. وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردىّ عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم فى الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وظَنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بِهِم » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ » الآية؛ وفى آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية فى قصة الدُّخان ، وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخان فى سِنِىّ القَحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُم غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلَة[1] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرّد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَعَ أمرُهم بَغْتَةً وفَجْأَةً؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقع . ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد . وقوله «بغتة» قال ابن عباس : تصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

(١) مجللة : عامة الغطية .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسُنّتي ومنهاجي؛ قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوتي . مقاتل : ديني ، والمعنى واحد؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدّي إلى الجنة . ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحق؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿أَنَا﴾ توكيد . ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر . ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد : «وسبحان الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا ردّ على القائلين : «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أي أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جِنّيّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن في النساء أربع نبيّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم" . وقد تقدم في «آل عمران»(١) شيء من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قطّ ، ولا من النساء ، ولا من الجنّ . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» أي من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا تحرّزا؛ من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ» والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا. ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره. وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، وبارحة الأولى؛ قال الشاعر:

ولو أقوت عليكَ ديارُ عَبْسٍ[1] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليقينِ

أي عِرْفَانًا يقينا؛ واحتجّ الكسائي بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فمعناه: عند صلاة الفريضة الأولى؛ وإنما سميت الأولى لأنها أول ما صُلّي حين فُرضت الصّلاة، وأول ما أُظهر؛ فلذلك قيل لها أيضا الظُّهر. والتقدير: ولدار حال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة؛ أي هي خير للمتقين. وقرئ «وللدَّارُ الآخِرَةُ». وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ تقدّم القراءة فيه ومعناه.[2] ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزلّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب «حتى إذا استيأس الرسل» أي يئسوا من إيمان قومهم «وظنّوا أنّهم قد كُذِّبوا» بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم كذّبوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم، لا أنّ القوم كذّبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يكذّبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ؛ فيكون «وظنّوا» على بابه في هذا التأويل. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمي وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العُطاردي وعاصم وحمزة والكسائي ويحيى بن وثّاب والأعمش وخلف «كُذِبُوا» بالتخفيف؛ أي ظنّ القوم أن الرسل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب،

(١) وفي رواية: «فإنك لو حللت ديار عبس». (٢) راجع ص ٣٤٤٢ من هذا الجزء.

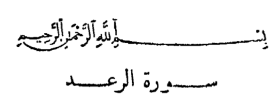
ولم يصدقوا . وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعَدُوا به من نصرهم . وفى رواية عن ابن عباس، ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيـل : لم تصح هذا الرواية؛ لأنه لا يَظن الرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحق النّصر؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَـيرى أبو نصر : ولا يبعـد إن صحّت الرواية أن المـراد خطر بقلوبهم البشر هـذا من غير أن يحققوه فى نفوسهم؛ وفى الخبر : " إن الله تعـالى تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " . ويجوز أن يقـال : قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبى والنحاس عن ابن عبـاس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البـلاء، ونَسُوا وظنّـوا أنّهُمْ أُخلِفوا؛ ثم تـلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معـه متى نصر الله» . وقال الترمذى الحكيم : وجهه عنـدنا أن الرسل كانت تخاف بعـد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعد الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثا يَنْقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوى عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهـم قد أُخلِفوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهـد وحميد — «قَدْ كَذَبُوا» بفتح الكاف والذال مُخَفَّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرسـل أن الرسل قد كَذَبوا، لمـا رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لمـا] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفى البخارى عن عُرْوة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حتى إذا آستيأس الرسـل » قال قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشـة : كُذِّبوا . قلت : فقد آستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد آستيقنوا بذلك؛ فقلت لها : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فـا هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وآستأخر عنهم النصر حتى إذا آستيأس الرسل][1] .

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك . وفى قوله تعالى : «جاءهم نصرنا» قولان : أحدهما ـ جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد . الثانى ـ جاء قومَهم عذابُ الله ؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل: الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء، و « مَنْ » فى موضع رفع، ٱسم ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ وٱختار أبو عُبيد هذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ٱبن محيصن « فَنَجَا » فعل ماض،و « مَنْ » فى موضع رفع لأنه الفاعل،وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا.﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه و إخوته ،أو فى قصص الأمم﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . وقال محمد بن إسحق عن الزهرىّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمىّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، وتُوفِّى أخوه عِيصُو معه فى يوم واحد ، وقُبرا فى قبر واحد؛ فذلك قوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى ما كان قبله من ٱلتوراة وٱلإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن.﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .



مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيـة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة، وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما](١)

قوله تعـالى : الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » فى موضـع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتـداء، و « الحق » خبره؛ ويجـوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أنزل إليك، وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره : ذلك الحق؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ » يعنى ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعتا للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هـذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق؛ ومنـه قول الشاعر :

إلى الملكِ القَـرْمِ وابنِ الهُمَامِ ۞ وليثِ الكَتِيبـةِ فى المُزْدَحَـمْ(٢)

يريد : إلى الملك القرم بن الهمام، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم (بفتح القاف) : السيد؛ والكتيبة : الجيش؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال، فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يُمسك بها السموات والأرض، وهى غير مرئية لنا؛ ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هى توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغزنوى . والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة :

وخَيِّس الجنَّ إنى قد أذِنتُ لهم * يبنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ (١)

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلَّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التى عندها تُكوَّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فلكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى يبينها؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل . وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصفاح حجارة عراض رقاق . والعمد : جمع عمود . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بيّن آيات السموات بيّن آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ أى جبالا ثوابت ؛ واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة :

فصَبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ (١)

وقال جميل :

أُحِبُّها والذى أَرْسَى قواعِدَهُ * حُبًّا إذا ظَهَرت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبَيس (٢) .

مسـألة — فى هـذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الراوندى أن تحت الأرض جسما صَعّادا كالرّيح الصعّادة ؛ وهى منحدرة فاعتـدل الهاوى والصعّادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهـذا خلاف

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النّص . وقيـل : معنى « زوجين » نوعان ، كالحُلْو والحامض ، والرطب واليـابس ، والأبيض والأسـود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤)

فيـه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعـالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ فى الكلام حذف، المعنى : وفى الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال : « سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانيـة ـ قوله تعـالى : « متجاورات » أى قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد ، وفيهـا زروع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار والتمر ؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصِّغر والكِبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفى هـذا أدلّ دليل على وحدانيته وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهـذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالمـاء والتراب والفاعل له الطبيعة لمـا وقع الاختلاف. وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع؛ فمن تربة عَذبة ، ومن تربة سَبِخة. مع تجاورهما؛ وهـذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عمـا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

الثالثة — نعت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وآدعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث في وقته كل ماهو من جنسه؛ وإذا بطل آختصاصه بوقته صح أن آختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به ، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ» . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون: «جَنَّاتٌ » بالرفع على تقدير : و بينهما جنات. ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع. آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنّات؛ أى على تقدير : وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقًا على الأعناب؛ فيكونُ الزرع والنخيل من الجنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ماتقدّم في «وجنات» . وقرأ مجاهد والسُّلَمي وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد ، الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ؛ وهما جمع صِنْوٍ، وهي النَّخَلات والنَّخلتان ، يجمعهنّ أصل واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا ؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنْو. وروى أبو إسحق عن البَرَاء قال : الصِّنْوان المجتمع ، وغير الصِّنْوان المتفرق ؛ النحاس : وكذلك هو في اللغة ؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان . والصِّنو المِثل ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه " . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية ؛ قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ خَلَّتا كَرَمٍ ۞ للمرء زَيْنٌ إذا هُما آجتمعا
صنْوان لا يُسْتَتَمّ حُسنهما ۞ إلّا بجمع ذا وذاكَ معا

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخارى. وقرأ عاصم وابن عامر « يُسْقَى » بالياء، أى يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقون بالتاء، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما « ويُفَضِّل » بالياء ردًّا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِى » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الأكل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسى والدَّقَل[(1)] . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » قال : " الفارسى والدَّقَل والحُلْو والحامض " ذكره الثعلبى . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبت والنَّبتُ ألوانٌ * منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان

* ومنها شجر يَنضحُ طولَ الدّهرِ قطران *

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

(1) الدقل : ردىء التمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجّب ، ولا يجوز عليه التعجّب ؛ لأنه تغيّر النفس بما تخفى أسبابه ؛ وإنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نبيّه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقوله : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ « إنّا » . و﴿ الأَغْلَالُ ﴾ جمع غُلّ ؛ وهو طَوْق تُشدّ به اليد إلى العُنق ؛ أى يُغلّون يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إذ الأغلال فى أعناقهم » إلى قوله : « ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنة » أى قبل الإيمان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ الْمَثُلَاتُ ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة . ورُوى عن الأعمش أنه قرأ « المُثْلَات » بضم الميم وإسكان الثاء ؛ وهذا جمع مُثْلَة ؛ ويجوز

« المَثُلات » تهرباً من الضمة فتحة لثقلها ، وقيل : يؤتى بالفتحة عوضاً من المد .
وروى عن الأعمش أنه قرأ « المَثْلات » بفتح الميم وإسكان الثاء، فهذا جمع مَثْلة ، ثم حذف
الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة ، نحو صَدُقه؛
وتميم تضم الثاء والميم جميعاً؛ واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل : غُرْفة
وغُرُفات ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلاً، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال
ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصروا على الكفر . وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد
عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك
لشديد العقاب » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه
لما هَنَأ أحداً عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد " .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أي هلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .
لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾
أي مُعلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي نبي يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله؛ أي عليك
الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح،
صالح وطالح؛ وقد تقدم في سورة « الأنعام »[1] أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيه " لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله " .
واختلف العلماء في تأويل قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فقال قتادة : المعنى ما تُسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصانا في ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيـــة — في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه . وقال عطاء والشعبي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوي عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه فعرضه على القافة، فألحقه القافة بهما، فعلاه عمر بالدِّرّة، وسأل نسوة من قريش فقال : انظرن ماشأن هذا الولد؟ فقلن : إن الأول خلا بها وخلاها، فحاضت على الحمل، فظنت أن عدتها انقضت، فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني ؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ؛ ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان للحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروي عن مالك في كتاب محمد مايقتضي أنه ليس بحيض .

الثالثـــة — في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعة ــ وهذه الستة الأشهر هى بالأهلة كسائر أشهر الشريعة ؛ ولذلك قد روى فى المذهب عن بعض أصحاب مالك وأظنه فى كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها ؛ حكاه ابن عطيه .

الخامسة ــ واختلف العلماء فى أكثر الحمل ؛ فروى ابن جُرَيج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدر ما يتحول ظِلّ المِغْزَل ؛ ذكره الدارَقُطْنِى . وقالت جميلة بنت سعد ــ أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد ــ : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعى أربع سنين ؛ وروى عن مالك فى إحدى روايتيه ، والمشهور عنه خمس سنين ؛ وروى عنه لاحدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهى الرواية الثالثة عنه . وعن الزهرى ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعى : مُدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لها إلا الاجتهاد ، والرّد إلى ما عُرِف من أمر النساء ، وبالله التوفيق . روى الدارَقُطْنِى عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إنى حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة فى حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل ، فقال : سبحان الله ! من يقول هذا ؟ ! هذه جارتنا امرأة محمد بن عَجْلان ، تحمل وتضع فى أربع سنين ، امرأة صدق ، وزوجها رجل صدق ؛ حملت ثلاثة أبطن فى اثنتى عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عَجْلان تحمل وتضع فى أربع سنين ، وكانت تسمى حاملة الفيل . وروى أيضا قال : بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت فى كرب شديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان فى بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة ، وإن كان فى بطنها جارية فأبدلها غلاما ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتُثبِت ، وعندك

أم الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم، وبعث الرسول إلى الرجل فقال : أدرك امرأتك ، فذهب الرجل، فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ(١)، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ماقُطعت سراره(٢)، وروى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى؛ فشاور عمر الناس فى رجمها، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أمى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أمه سنتان، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حماد ابن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حيان هَرِما لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنين . وذكر الغزنوى أن الضحّاك وُلد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال : كش .

السادسة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقدر ما أظهره لنا، ووُجد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لما لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهن .

السابعة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكىّ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبى : ما تقطعه القابلة .

فى الرحم الكواكب السبعة، تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس ؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحَل، فيُثْقِله بِبَرْده؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم لو مقاتلتهم ! ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحَل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثامنة ـ قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النقصان والزيادة . ويقال: « بمقدار » قدّر خروج الولد من بطن أمه، وقدّر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قتادة: فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر ؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق ، فلا يجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه؛ ولم يَقدح ذلك فى الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدله . و ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شيء دونه . ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حدّث به المرءُ نفسه، والجهر ما حدّث به غيره ؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ « سواء » التقدير : سِرٌّ من أَسَرَّ وجَهْرُ من جَهَر سواء منكم ؛ و يجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى : يستوِى منكم ، كقولك : مررت بزيد . و يجوز أن يكون على تقدير : سِرٌ من أَسَرَّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم . و يجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل . وقيل : « سواء » أى مستو ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف . ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ أى يستوى في علم الله السرّ والجهر ، والظاهر فى الطرقات ، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقُطْرُب المستخفى بالليل الظاهر ؛ ومنه خَفَيْتُ الشيء وأَخْفَيْته أى أظهرتُه ؛ وأخفيت الشيء أى آستخرجته ؛ ومنه قيل للنَّبَّاش المختفى . وقال آمرؤ القيس :

خَفَاهُنّ من أَنْفَاقِهِنّ[1] كأنّما * خَفَاهُنّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّب

والسّارب المتوارى ، أى الداخل سَرَبا ؛ ومنه قولهم : آنْسَرَب الوحشيُّ إذا دخل فى كِناسه . وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر ، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف » بالمعاصى ، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب ؛ الكسائى : سَرَبَ يَسْرُب سَرَبا وسُرُوبا إذا ذهب ؛ وقال الشاعر[2] :

وكُلُّ أُناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * ونحنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض ؛ قال الشاعر[3] :

* أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبىّ : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة ؛ من قولهم : آنْسَرَب الماء . وقال الأصمعىّ : خَلِّ سِرْبَه أى طريقه .

---

(١) أنفاق (جمع نفق) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفترة والودق : المطر . وغيث مجلب : مصوّت ، و يروى مخلب (بالخاء) .
(٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبى و يريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة ، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها ، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء .
(٣) هو قيس بن الخطيم ، وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعقِّب، وملائكة مُعقِّبة، ثم مُعقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم ـ « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعقِّب ؛ (١) وقيل للملائكة معقِّبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ، نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهري وغيره . والتعقيب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أي لم يرجع ؛ وفي الحديث : (٢) « مُعقِّبات لا يَخيب قائلهن ـ أو ـ فاعلهن » فذكر التسبيح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمِّين « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ؛ فعل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عقَّب . والمعقِّبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ اختلف في الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه و بينه ؛ قاله ابن عباس وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . قال أبو مجلز : جاء رجل من مُراد (٣) إلى عليّ فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

(١) قال الزمخشري : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير . وقال ابن جني : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسي : ولعله الأظهر . « روح المعاني » .

(٢) الحديث في الدعاء وهو بتمامه في « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة" . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدّر، فإذا جاء القَدَر خَلّيا بينه وبين قَدَر الله، و إن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هــذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ « من » بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوّل؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنــه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب حتى لا تحلّ به عقوبة ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر ؛ فإذا أصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحفظة المعقّبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكّل بكم ملائكة يَذُبّون عنكم فى مَطْعَمكم ومَشْرَبكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجنّ وملائكة العــذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « من أمر الله » لأنهم غير معاينين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس ممــا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقّبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفــه يحفظونه ؛ وهو مروىّ عن مجاهــد وٱبن جُرَيج والنَّخَعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير . وقال ٱبن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف . وقال قَتَادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عزّ وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للمستخفى، فهذا قول . وقيل : « له معقّبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبى صلى الله عليه وسلم ، بل له معقّبات يحفظونه عليه السلام ؛ ويجوز أن يرجع هذا الى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : « ولكل قوم هاد » أى يحفظون الهــادى من بين يديه ومن خلفه .

وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك ، هو السّلطان المتحرس من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا ، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدوي : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيري : وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب ، وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ، فكأنه الذي يحلّ العقوبة بنفسه ؛ فقوله : «يحفظونه من أمر الله» أي من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده ؛ قال الماوردي : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله «يحفظونه من أمر الله» وجهان : أحدهما ــ يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني ــ يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية ، ما لم يأت قَدَر ؛ ــ قاله أبو أُمامة وكعب الأحبار ــ فإذا جاء المقدور خلّوا عنه ؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقَتادة وابن جُرَيج ؛ وروي عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، واحتجّ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ ــ «معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله][1] يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَويّ : دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من ملَك ؟ قال : " ملَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كُتبت عشرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه

---

(١) الزيادة من تفسير الطبري .

فبئس القرين هو ما أقلّ مراقبته لله عزّ وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعك و إذا تجبّرتَ على الله قصمك][1] وملَكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملَك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملَكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى و إبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل " . ذكره الثعلبى . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر . واختار الطبرى أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء وخلفهم؛ والهاء فى « له » لمن؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال صلى الله عليه وسلم — وقد سُئل أنهلك وفينا الصّالحون ؟ قال — : " نعم إذا كثر الخبث[2] " . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكا وعذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

---

(١) الزيادة عن تفسير الثعلبى .   (٢) الخبث : الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . « وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدّى . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمن من والِ *

ووالٍ وولىّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالمطر . « والسّحاب » جمع ، والواحدة سَحابة ، وسُحُب وسَحائب فى الجمع أيضا . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ » قد مضى فى « البقرة »[1] القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصب ؛ قال معناه قَتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » قال مجاهد : أى بالماء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السّحاب فيجوز أن يُسبِّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد مَلَكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطّبرىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الرعد مَلَك يَسوق السَّحاب، و إن بخار الماء لفي نُقْرة إبهامه، وأنه مُوَكَّل بالسَّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبِّح الله؛ فإذا سبَّح الرعد لم يبق مَلَك في السَّماء إلا رفع صوته بالتَّسبيح، فعندها ينزل القَطْر؛ وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذي سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذي يُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه مَلَك جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبّح الجميع من خوف الله، و إذا أقبل على يساره وسبّح سبّح الجميع من خوف الله .

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماورديّ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهوديّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أخبرني ! من أيّ شيء ربّك ، أمِنْ لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت في بعض كفّار العرب؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه إلى الله و رسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن ربّ محمد ما هو، وممّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نُحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال : أُجيبُ محمدا إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينا النّفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : احترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم؟ قالوا : أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » ذكره الثعلبي عن الحسن، والقُشيريّ بمعناه عن أنس ، وسيأتي . وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبِيد بن ربيعة ، وفي عامر بن الطُّفَيل؛ قال ابن عباس : أقبل عامر بن الطُّفَيل وأربد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْه فإن يُرد الله به خيرا يَهْده" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد مالي إن أسلمت ؟ فقال : " لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين " . قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : " ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء " . قال : أفتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : " لا " . قال : فما تجعل لي ؟ قال : " أجعل لك أَعِنَّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله " . قال : أوليس لي أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معي أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلِّه ، ويبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وولّى عامر هاربا وقال : يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا ، وفتيانا مُرْدا ؛ فقال عليه السلام : " يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة " يعني الأَوْس والخَزْرَج ؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولية ، وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَرَ[1] لي محمدٌ وصاحبه ــ يريد مَلَك الموت ــ لأنفذتهما برمحي ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[2] في التراب ، وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدَّة كغدة البعير ، وموت في بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيتِ أَرْبَدَ إذْ قُمْـ ـنَا وقامَ الخُصُـومُ في كَبَـدِ[3]
أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولَا أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ والأَسَـدِ
فجَّعَني الرَّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالفا رِسِ يَـوْمَ الكَرِيهَـةِ النَّجِدِ[4]

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء . (٢) أذراه : قلبه ورمى به .
(٣) كبد : شدة وعناء . (٤) النجد : الشجاع الإجابة .

وفيه قال :

إنّ الرَّزِيّةَ لا رَزِيّةَ مثلُها * فقدانُ كلِّ أخٍ كضوءِ الكوكبِ

يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ * أفردتَني أمشي بقَرْنٍ أعضبِ (١)

أسلم لبيد بعد ذلك رضي الله عنه .

مسئلة — روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عز وجل" . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : "سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبَرَد، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بَرَدة (٢) قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بَرَدة أصابت أنفي فأثّرت، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى : من أيّ شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أربد فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون في الله» حالا، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل؛ فقال لرسول الله : أخبرني عن إلهك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

(٣) راجع ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فٱستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ٱرجع إليه فٱدعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون فى الله» . ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ قال ابن الأعرابيّ : «المحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدى عن أبى زيد «وهو شديد المحال» أى النقمة . وقال الأزهريّ : «المحال» أى القوّة والشدّة . والمَحْل : الشدّة ؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحَالًا أى قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ . وقال أبو عبيد : «المحال» العقوبة والمكروه . وقال ابن عَرَفة : «المحال» الجدال؛ يقال : ماحَلَ عن أمره أى جادل . وقال القُتَبِيّ : أى شديد الكيد، وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهرى : غلط ٱبن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هى أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهى أصلية؛ مثل: مِهاد وملاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل : مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال[1] : وقرأ الأعرج ـ «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهروىّ، إلا ما ذكرناه أوّلا عن ابن الأعرابيّ؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهى ثمانية : أولها ـ شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها ـ شديد الحَوْل؛ قاله ابن عباس أيضا . وثالثها ـ شديد الأخذ، قاله علىّ بن أبى طالب : ورابعها ـ شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها ـ شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها ـ شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبّه . وسابعها ـ شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط، قاله الحسن أيضا . وثامنها ـ شديد الحيلة، قاله قتادة. وقال أبو عبيدة معمر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى :

فرع نَبْعٍ يهتزّ فى غُصُن المج ـ ـدِ كثيرُ النّدى شديدُ المِحالِ

---

(١) أى الأزهرى كما فى اللسان هنا ونقله عنه

وقال آخر[١] :

وَلَبْسٍ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ * أعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالَا

وقال عبد المطلب :

لاهُمَّ إنَّ المرءَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلَالَكْ[٢]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهم ومِحَا * لُهُم عَدْوًا مِحَالَكْ

قوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »؛ قال الماوردى : وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بينى وبينها * من الودّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

---

(١) هو ذو الرمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع ، وهو أن يُدخل الرَّجل بين رجلى صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له جهة وكيدا . (٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ، لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شىء منه .

وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المــاءَ ماءُ أبى وجــدّى * وبئرى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفيه « إلى الماء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء ؛ واللام فى قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه » كناية عن الماء ؛ أى وما الماء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم ؛ أى ما الفم ببالغ الماء . ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كَرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها ماله من الخضوع وأثر الصنعة .

وقال ابن زيد : «طوعا» من دخل فى الإسلام رغبة، و«كرها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل : «طوعا» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كرها» من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض» وبعض من فى الأرض. قال القُشَيْرِىّ : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفراء. وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا وإيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ به. والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد : ظلّ المؤمن يسجد طوعا وهو طائع، وظلّ الكافر يسجد كرها وهو كاره. وقال ابن الأنبارىّ : يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيْرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت. و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ ... وأَقْعُدُ فى أَفْيائه بالأَصائلِ

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » ويجوز أن يكون ٱرتفع بالآبتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالهم سُجَّدٌ بالغدو والآصال . « والغدو » يجوز أن يكون مصدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعالى : قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قل من رب السموات والأرض » ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدل على ٱعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : « قل أفتخذتم من دونه أولياء » معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى فإذا ٱعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمان . وقرأ ٱبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى « يستوى » بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث « الظلمات » ليس بحقيق . الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور » مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أى خَلَق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي قل لهم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شيء . ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء ، الذي يغلب في مراده كل مريد . قال القُشيري أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أي سلهم عن خالق السموات والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تقرر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبيّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شتبه الخلق ، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! .

قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء ، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

فسالت أودية بقدرها » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جريج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأشهب العقيلى والحسن « بقدرها » بسكون الدال، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر لها . والأودية جمع الوادى ؛ وسمّى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هذا اسم للماء السائل . وقال أبو على : « أودية » توسع؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بقدرها » بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء، وتم الكلام؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مثله » أى يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبثّ فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِدْرُ إذا غلت حتى ينصبّ زَبَدها، وإذا جَمَد فى أسفلها . والجُفَاء ما أجفاه الوادى أى رمى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ « جُفَالًا » قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَتِ القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو الماء الخالص الصّافى . وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحقّ فى ثباته، والباطل فى اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزّبد والخبَث . وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً » قال قرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

« سوق العروس »[١] : إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء، ومثل القلوب بالأودية، ومثل المحكم بالصافى، ومثل المتشابه بالزّبد . وقيل : الزّبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع ما يجد فى الوادى باقيا؛ وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السّنية، والأخلاق الزكية، التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء . وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص « يوقدون » بالياء؛ واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا . الباقون بالتاء لقوله فى أوّل الكلام : « أفاتخذتم من دونه أولياء » الآية . وقوله : « فى النار » متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهاء التى فى « عليه » التقدير : ومما توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا . وفى قوله : « فى النار » ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى آسم ذى الحال . ولا يستقيم أن يتعلق « فى النار » بـ « يوقدون » من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النار، فيصير قوله « فى النار » غير مفيد . وقوله : « ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » مفعول له . « زَبَدٌ مِثْلُهُ » ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السّيل . وقيل : إن خبر « زبد » قوله : « فى النار » . الكسائى : « زبد » ابتداء، و « مثله » نعت له، والخبر فى الجملة التى قبله، وهو « مما يوقدون » . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أى كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات . تم الكلام، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أى أجابوا؛ استجاب بمعنى أجاب؛ قال :[٢]

فلم يَستجبهُ عند ذاكَ مُجيبُ

وقد تقدّم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات . ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا . ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ هـ وكتابه « سوق العروس » فى علم القراءات . (كشف الظنون) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار، وصدر البيت : وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملكا لهم ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » . « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدم بيانه هنالك (١) . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فَرْقَد السَّبَخِيّ (٢) قال إبراهيم النَّخَعِيّ : يا فَرْقَد ! أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسَب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للؤمن والكافر، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالعَمَى عَمَى القلب، والجاهل بالدين عَمِيُّ القلب . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب ؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد اسم للجنس؛ أى بجميع عهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبيده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصى. وقوله : ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قَتَادة : تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠ وما بعدها، ص ١٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) السبخى (بفتحتين) إلى السبخة موضع بالبصرة .

الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم . وقال القفال : هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانيـــة — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ؛ فقال قائل : يا رسول الله ! إنا قد بايعناك](1) فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا — وأسر كلمة خفيـة — قال لا تسألوا الناس شيئا" قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يسأل أحدا أن يناوله إياه . قال ابن العربي : من أعظم المواثيق في الذكر ألا يُسأل سواه ؛ فقـد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : ربِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حاجا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ في قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعني . ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعني ؛ والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ؛ ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سد هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ؛ ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدتَ من يراك ؟ فسكَت وتوكّل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فأقلني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

(1) الزيادة من كتب الحديث .

تَهابُنِي حيائِي منكَ أن أكشفَ الهوَى • فأغنيتَنِي بالعلمِ منكَ عن الكشفِ
تَلطَّفتَ في أمرِي فأبديتَ شاهدِي • إلى غائبِي واللُّطفُ يُدرَكُ باللُّطفِ
تَراءيتَ لِي بالعلمِ حتَّى كأنَّما • تُخبِّرُنِي بالغيبِ أنَّكَ في كفِّ
أرانِي وبِي من هيبتِي لكَ وَحشةٌ • فتؤنِسُنِي باللُّطفِ منكَ وبالعطفِ
وتُحيِي مُحبًّا أنتَ في الحبِّ حَتفُهُ • وذا عَجبٌ كيفَ الحياةُ مع الحَتفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه ، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافى استغاثته في تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستئجاره دليلا ، واستكتامه ذلك الأمر ، واستتاره في الغار ، وقوله لسُراقة : "أخفِ عنّا". فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه ؛ وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها مدعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وردًّا لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ؛ وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دُلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : «فجاء أسد فأخرجني» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل ؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه ، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: فى قطع الرحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ « سوء الحساب » الاستقصاء فيه والمناقشة، ومن نوقش الحساب عذّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: معنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، «ويخشون ربهم» فيما أمرهم بوصله ، «ويخافون سوء الحساب» فى تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماض فلا ينعطف على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدّم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضى، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرءون بالحسنة السيئة» . قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»[1] وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بالحسنة السيئة ﴾ أى يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال؛ قاله ابن عباس . ابن زيد : يدفعون الشر بالخير . سعيد بن جُبير : يدفعون المنكر بالمعروف . الضحاك : يدفعون الفحش بالسلام . جُوَيبر : يدفعون الظلم بالعفو . ابن شجرة : يدفعون الذنب بالتوبة . القُتَبي : يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة . وقيل : إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا . وقيل : يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ومنه قوله عليه السلام لمعاذ : "وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَن" .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران : الجنة للطيع، والنار للعاصى؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لامحالة . وقيل : عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ«جنات عدن» بدل من «عقبى» . ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عقبى الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقبى الدار» حَدَث، و«جنات عدن» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول . ويجوز أن يكون « جنات عدن » خبر ابتداء محذوف . و « جنات عدن » وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيرى أبو نصر عبد الرحيم . وفى صحيح البخارى : " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة " . فيحتمل أن يكون « جنات » كذلك، إن صح فكذلك خبر . وقال عبد الله بن عمرو : إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمُرُوج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[(1)] لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد . و « عدن » مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « الكهف »[(2)] إن شاء الله . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ يجوز أن

(1) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) : ضرب من البرود اليمنية منمّر . (2) آية ٣١ .

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع في « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ؛ أي من كان صالحا ؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية . قال القُشَيرِي : وفي هذا نظر ؛ لأنه لا بد من الإيمان ؛ فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان ؛ فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غدا تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أي بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يقولون : سلام عليكم ؛ فأضمر القول ؛ أي قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أي سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أي بصبركم ؛ فـ « ما » مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بمحذوف ؛ أي هذه الكرامة بصبركم ، أي على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عِمْران الجَوْني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان، وذكره البيهقى عن أبى هريرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى الشهداء ، فإذا أتى فرضة الشعب[1] يقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . ثم كان أبو بكر بعد النبى صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبى بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ، وقال الحسن البصرى رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ، قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعا ـ « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما قالا][2] : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا ، وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصى الله ، وصبرناها على البلاء والمحن فى الدنيا . قال على بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : «سلام عليكم بما صبرتم » . ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها ، عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه ، فالعقبى على هذا اسم ، و «الدار» هى الدنيا . وقال أبو عمران الجونى : «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار . وعنه : « فنعم عقبى الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

(١) فرضة الشعب : فوهته . والشعب : ما انفرج بين جبلين . والشهداء كانوا بجبل أحد .
(٢) فى الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أى من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بالكفر وارتكاب المعاصى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى سوء المنقلَب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحَرُورِيَّة .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذى يبسط الرزق ويقدر فى الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبَسْطُ الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « ويقدر » أى يضيق؛ ومنه « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيّق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر الكفاية . ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى مشركى مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند الله ؛ وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تقديم وتأخير؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى جنبها ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أى متاع من الأمتعة؛ كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة (1) . وقال مجاهد : شىء قليل ذاهب ؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال . ابن عباس : زادٌ كزاد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها . وقيل : ما يتزوّد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولهم سوء الدار » ثم ابتدأ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(1) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم، وهى فارسية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق ، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ عز وجل ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي من رجع . والهاء في « إليه » للحق، أو للإسلام، أو لله عز وجل ؛ على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هي للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ « الذين » في موضع نصب؛ لأنه مفعول؛ أي يهدي الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال : أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قتادة . وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان ابن عُيينة : بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أي قلوب المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أي بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبى؛ فـ « طُوبى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : بجعل

لهم طوبى » ويعطف عليه « وحسن مآب » على الوجهين المذكورين ، فترفع أو تنصب .

وذكر عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البِكَالِيّ عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلَمِيّ قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " . قال : يارسول الله! أيّ شجر أرضنا تشبه ؟ قال : " لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها " . قال : يارسول الله! فما عِظَم أصلها! قال : " لو ارتحلت جَذَعة من إبل أهلك ما أحطتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما " . وذكر الحديث، وقد كتبناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة» ، والحمد لله . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هُرَيرة قال : في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها : تفتّقي لعبدي عما شاء؛ فتفتّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتفتّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثِّياب .

وذكر ابن وهب من حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبي أُمامة الباهليّ قال : « طُوبَى » شجرة في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ابن عباس : « طوبى لهم » فرح لهم وقرة عين؛ وعنه أيضا أن « طوبى » اسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير . الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيْرِيّ : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين . وقال قتادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عِكْرِمة : نعمى لهم . إبراهيم النَّخَعِيّ : خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أي العيش الطَّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطَّيب . وقال الزّجاج : طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا : موسر وموقن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبي في تفسيره؛ وذكر أيضا المهدوي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة ". ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار علي، وفي دار كل مؤمن منها غصن . وقال أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : «طوبى لهم وحسن مآب» قال : " شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة " فقيل له : يارسول الله ! سئلت عنها فقلت : " أصلها في داري وفروعها في الجنة " ثم سئلت عنها فقلت : " أصلها في دار علي وفروعها في الجنة " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد" . وعنه صلى الله عليه وسلم : " هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مدلى فيها غصن منها ". ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وابن جريج : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : " ٱكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سُهَيل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ ٱكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : " ٱكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله " فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن ٱكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : " لا ولكن ٱكتب ما يريدون " فنزلت . وقال ٱبن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " ٱسجدوا للرحمن " قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ؛ الذي أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبودَ سواه ، هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وٱعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضًا بقضائه ، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجْر ويقول : " يا الله يا رحمن " فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه . وسخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأحْيِ لنا قُصَيًّا[1] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال » الآية ؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازا ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال امرؤ القيس

فلو أنّها نفسٌ تموتُ جميعةً * ولكنّها نفسٌ تساقطُ أنفُسا

يعني لهان عليّ ؛ هذا معنى قول قتادة ؛ قال : لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفراء قال الكلبي : « ييئس » بمعنى يعلم ، لغة النخع ؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس ؛ أي أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

(١) القصيب : كل نبات يقوم على ساق مجوف .

وقيل : هو لغة هوازن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة :
أفلم يعلموا و يتبينوا ؛ وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النصرى[1] :

أقولُ لهم بالشِّعب إذ ييسرونَنِى ... ألم تيأسوا أنى ابنُ فارس زَهدمِ

ييسروننى من الميسر، وقد تقدّم فى « البقرة »[2] ويروى ياسروننى من الأسر . وقال رياح
ابن عدى :

ألم ييأس الأقوامُ أنى [أنا][3] ابنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أرض العشيرة نائيا

فى كتاب الرد « أنى أنا ابنه » وكذا ذكره الغزنوى : ألم يعلم؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين
آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس
المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد
هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات طمعا فى إيمان الكفار . وقرأ علىّ
وابن عباس : « أفلم يتبيَّنِ الذينَ آمَنُوا » من البيان . قال القشيرى : وقيل لابن عباس
المكتوب « أفلم ييئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحروف
حتى صار « ييئس » . قال أبو بكر الأنبارى : روى عكرمة عن ابن أبى نجيح أنه قرأ « أفلم
يتبين الذين آمنوا » وبها احتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة؛ وهو باطل عن ابن عباس؛
لأن مجاهدا وسعيد ابن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس؛ على ما هو فى المصحف بقراءة
أبى عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛
فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ؛
وإن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا ؛

---

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ قال : وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من الإيسار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه .

(٢) راجع ج ٣ ص ٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) لم ترد فى الأصول لفظة « أنا » والواجب إثباتها كما فى كتاب « الرد » إذ أن البيت من الطويل ، وبدونها لا يستقيم .

وأمّا سقوطه فيبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، أى أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو ردّ على القدرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ؛ والأصل فى القرع الضرب ؛ قال (١) :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَــرْعُ القَوَاقِـيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُنفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أى القارعة ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ فى فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أى تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحلّ قريبا من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خيبر ، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأقيشر الأسدى ؛ واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) : وهى أوان يشرب بها الخمر .

مِنَ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في «البقرة»[1] ومعنى الإملاء في «آل عمران»[2] أي سخر بهم، وأزرى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : أفمن هو قائم أي عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رجالٌ من قريش أعزّةٌ ❊ سرقتم ثيابَ البيتِ والله قائمُ

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكّلون ببني آدم؛ عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال؛ أي قد جعلوا، أو عطف على «استهزئ» أي استهزءوا وجعلوا؛ أي سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعني أصناما جعلوها آلهة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد : «سمّوهم» أي بيّنوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يسمّون : اللّات والعزّى ومناة وهُبل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ «أم» استفهام توبيخ؛ أي أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدّم في المعنى؛ لأن قوله : «سمّوهم» معناه : ألهم أسماء الخالقين «أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا :

(١) راجع ج ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموهم اللات والعزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بما لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم ادعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه ، وقال قتادة : معناه بباطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أعيّرتنا ألبانها ولحومها ۝ وذلك عارٌ يا بن رَيْطة ظاهرُ

أى باطل . وقال الضحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا ـــ أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : استدراك على هذا الوجه ؛ أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ابن عباس ومجاهد ـــ « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ » مسمى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زين للكافرين مكرهم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرا ؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ؛ أى صدوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القدر ، وهو اختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة ـــ « وصِدُّوا » بكسر الصاد ، وكذلك « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صُدِدُوا ورُدِدَت ، فلما أدغمت الدال الأولى فى الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفق ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ؛ لقوله : « ومن يضلل الله » ، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء

يقفون على الدال من غير الياء ، وكذلك والٍ وواقٍ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فما له من هادي »،و « والي » و « واقي » بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقراءتنا هذا في الوقف؛ فردّت الياء فصار هادي ووالي وواقي . وقال الخليل في نداء قاضٍ : يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي للمشركين الصادّين بالقتل والسّبي والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أي أشدّ؛ من قولك : شقّ عليّ كذا يشقّ . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « من » زائدة .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ اختلف النحاة في رفع « مثل » فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة . وقال الخليل : ارتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار » أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ ، ويقوم زيد خبره؛ والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ». وقال: « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أي الصفة العليا ، وأنكره أبو عليّ وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرّفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال : ويفسده أيضا من جهة المعنى؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار ، وذلك غير مستقيم ؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مَثَّل الله عزّ وجلّ لنا ماغاب عنا بما نراه ؛ والمعنى : مَثَلُ الجنة جَنَّةٌ تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفى كلا الوجهين لايصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة ، بجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك ؛ لأن الجنّة لا تكون الصفة ، وكذلك أيضا شبه الجنّة جنّة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين ، وهو حَدَث ، والجنّة غير حَدَث ؛ فلا يكون الأوّل والثانى . وقال الفراء : المَثَل مقحم للتأكيد ؛ والمعنى : الجنّة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل ؛ كقوله : « ليس كَمِثْلِهِ شيء » ؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة الجنّة التي وعد المتقون صفة جنّة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنّة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدّة والخلود ؛ قاله مقاتل . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ؛ وفى الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه في « التذكرة » . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك ، فحذف ؛ أي ثمرها لا ينقطع ، وظلّها لا يزول ؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ وَّعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سَلَام وسلمان ، والذين جاءوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد الخصوص . وقال قَتَادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلّام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعني مشركي مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أي أفرده بالعبادة وحده لاشريك له ، وأتبرأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي أرجع في أموري كلها .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أي بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل : المراد بالحكم العربى القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .
﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ـ قيل إن اليهود عابوا على النبى صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما التخصيص فى الوحى .

الثانيــة ـ هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، وتنهى عن التبتل ، وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم" الحديث . وقد تقدم فى «آل عمران»[1] . وقال : "من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى" . ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى ، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : "من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة ما بين لحييه وما بين رجليه" خرجه الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم : أمّا أنا فإنى أصلّى الليل أبدا ، وقال الآخر : إنى أصوم الدهر فلا أُفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتى فليس منى" . خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا بيّن . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم؛ ولو أجاز له ذلك لَاخْتَصَيْنَا، وقد تقدّم فى « آل عمران » الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إنى لأتزوّج المرأة وما لى فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبّى أن يخرج الله منّى من يكاثر به النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيين يوم القيامة؛ وإنى سمعته يقول : " عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأَنْتَق أرحاما وإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة " يعنى بقوله : " أنتق أرحاما " أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال " لا " ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم " . صححه أبو محمد عبد الحق وحسّبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات — ما تقدّم ذكره فى هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْرٌ ومعناه النفى؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم؛ نظيره « لكل نبأ مستقر »؛

بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هُريرة قال : لما ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجبّارُ في إصبعه خاتما، فقال: ياموسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شيء من حُلي الرجال، قال : فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به « ويثبت » ما يشاء ؛ أي يؤخره إلى وقته ؛ يقال : محوت الكتاب محوا، أي أذهبت أثره . « ويثبت » أي ويثبته، كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أي والذاكرات الله .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشدّد الباقون؛ وهي قراءة ابن عباس، واختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : «يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» . وقال ابن عمر : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "يمحو الله مايشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلْق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الذي لايتغير منه شيء. قال القُشَيريّ: وقيل السعادة والشقاوة والخَلْق والخُلُق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكم .

قلت : مثل هذا لايدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم ، وهو قول الكلبي . وعن أبى عثمان النّهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، وإن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم ، وإن كنت كتبتنى فى الأشقياء فامحنى من الأشقياء واكتبنى فى السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ؛ وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك ابن دينار فى المرأة التى دعا لها : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدلها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ سَرّه أن يُبسط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أثَره[1] فليَصِلْ رَحِمَه" ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : "مَنْ أحبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ؛ والذى فى علم الله ثابت لا تبدّل له ، كما قال : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحبّ أن يمد الله فى عمره وأجله ويبسط له فى رزقه فليتق الله وليَصِلْ رَحِمَه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(١) الأثر : الأجل .

الثاني ـــ يعني المسمى عنده ـــ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أَجَل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق آمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى : «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» فتوافق الخبر والآية؛ وهـذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في آختيار حبر الأمة، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن آبن عباس. وقال الكَلْبِيّ : يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قَتَادة وآبن زيد وسعيد بن جُبَير : يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس : وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس «يمحو الله ما يشاء» يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، «ويثبت ما يشاء» فلا يبدله، «وعنده أم الكتاب» يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جُبَير أيضا : يغفر ما يشاء ـــ يعني ـــ من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال عِكْرِمة : يمحو ما يشاء ـــ يعني بالتوبة ـــ جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى][1] : «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا» الآية . وقال

---

(١) الزيادة من «البحر المحيط».

الحسن : « يمحو الله ما يشاء » من جاء أجله «ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن يمحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحَفَظة من الذنوب ولا يُنسى . وقال السدى : « يمحو الله ما يشاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علىّ بن أبى طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا . وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبىّ والماوردىّ عن ابن عباس . وقيل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درّة بيضاء ، لها دفّتان من ياقوتة حمراء ، لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحو ؛ والله أعلم . الغزنوىّ : وعندى أن ما فى اللوح خرج من الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل . « وعنده أمّ الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل « أم الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله، وعنه أنه الذكر؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهذا يرجع معناه الى الأول؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق .

قوله تعالى « وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أى التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهل مكة . ﴿ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ ﴾ أى نقصدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « ننقصها من أطرافها » موت علمائها وصلحائها . قال القشيرى : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابى : الطرف والطرف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ؛ لأن مقصود الآية ، أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقتادة والحسن : هو ما يغلب عليه المسلمون مما فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجَرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدا، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوى عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف فى اللغة أن الطَّرَف الكريم من كل شىء ؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس . وقال عِكرِمة والشَّعبى : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشّك (١) . وقال الآخر : لضاق عليك حُشّ تتبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج . وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : نقصها بجَوْر وُلاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بَنَان؛ حسب ما تقدم فى « البقرة » (٢) بيانه .

(١) الحش : المتوضأ . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٥ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضرّ إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر ، أى يجازيهم به . ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر ، فيجازى عليه . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عنى أبو جهل . ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بنبيّ ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك . ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ أى قل لهم يا محمد : « كفى بالله » أى كفى الله ﴿ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدقى وكذبكم . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلَام وسلمان الفارسيّ وتميم الدارىّ والنجاشىّ وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جُبَير . وروى الترمذىّ عن ابن أخى عبد الله بن سَلَام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سَلَام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نُصرتك ؛ قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عنى ، فإنك خارج خير لى من داخل ؛ فخرج عبد الله بن سَلَام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان اسمى فى الجاهلية فلان ، فسمانى

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ؛ فنزلت فيّ « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت فيّ « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير « ومن عِنده عِلم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبدالله بن سَلَام وهذه السورة مكية وٱبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القُشَيْرِيّ : وقال ٱبن جُبَير السورة مكية وٱبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ٱبن سَلَام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول ٱبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « ومِن عِندِه عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف ؛ وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة العلم وعلي بابها " وهو حديث باطل ؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها ؛ فمنهم الباب المنفسح ، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

اسم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلّام فعوّل على حديث الترمذيّ ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سَلّام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعني قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلّام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

